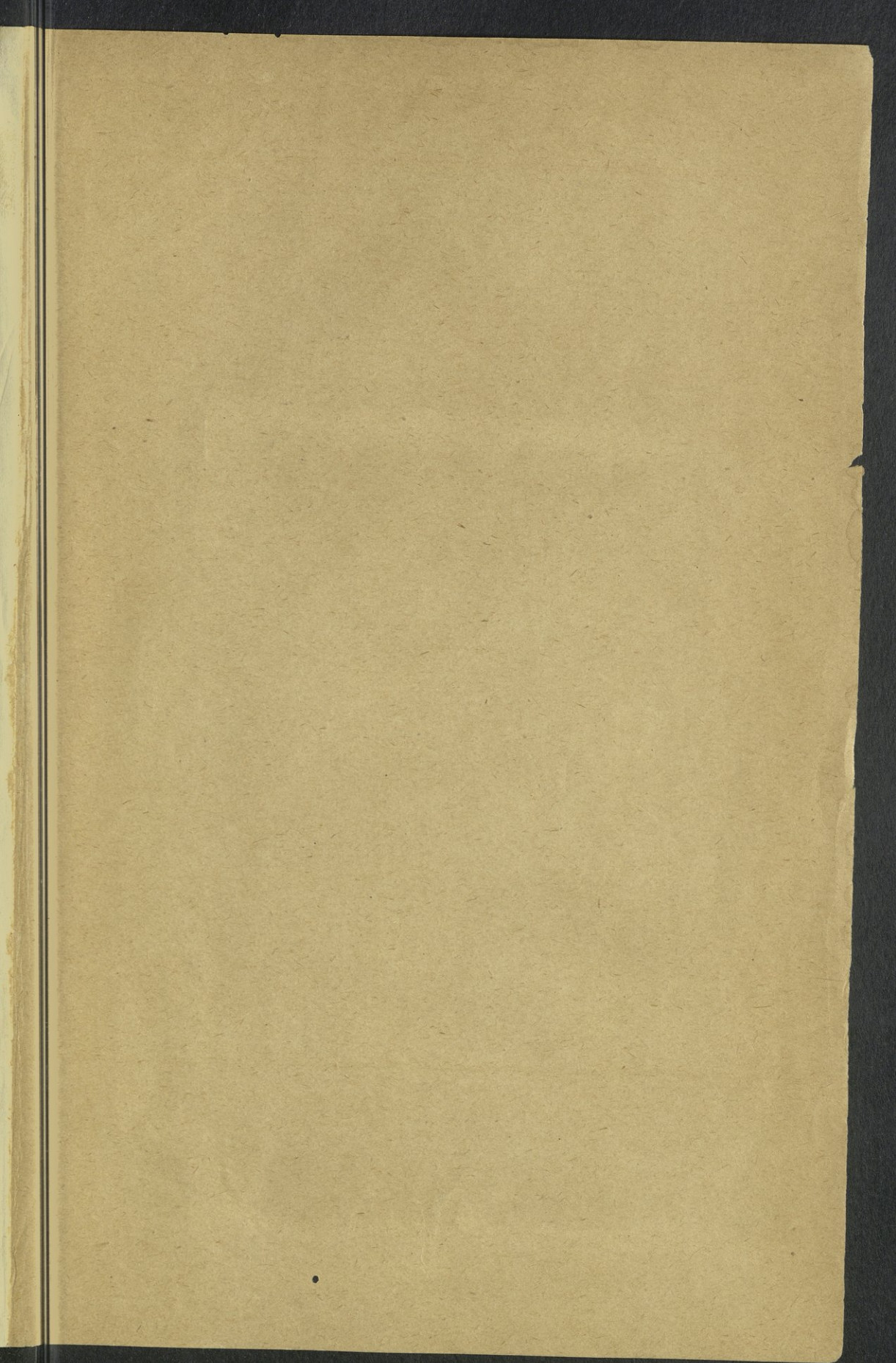


297.64

A299aA





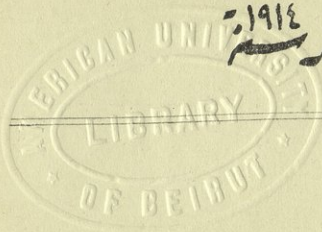
297.64

A299aA

C.1

As

لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧



عائشة والسيد

تأليف

تعيّد الأفغاني

Cat. Sept. 1951

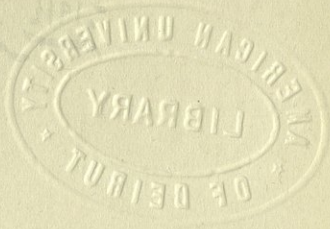
77557

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم



Handwritten text in Arabic script, mostly illegible due to fading and bleed-through from the reverse side of the page.

Handwritten text in Arabic script, likely a signature or a specific reference.

Handwritten text in Arabic script, possibly a date or a final note.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وإخوانه الأنبياء والمرسلين ،
والصحابة والتابعين ، وجميع الهداة إلى يوم الدين .

« رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ، وَأَنْ
أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » .

في القاموس المنان

كتاب

في القاموس المنان...
في القاموس المنان...
في القاموس المنان...
في القاموس المنان...

في طبعي هيام بالحرية والصراحة ، وكثيراً ما أتسكب الطريق الأسلم في سبيل الجهر بما أرى أنه الحق في العقائد والأشخاص ، متحملاً بصبر وطمأنينة ما أجر على نفسي من عناء ووعاء ، وهذا بلاء حتم لا مفر منه لمن خلق حراً صريحاً ، ولو حاول غير ذلك ما استطاع . لقد أقدمت على نشر هذا الكتاب وأنا أدري ما في موضوعه من حرج ؛ ومن راعي جانب الناس وحاذر أن يصدم ما نشؤوا عليه من أهواء ، قضى ولم يقل من الحق شيئاً . وبخشنا هذا شائك جد شائك ، ما في ذلك ريب ، وقد استعنت الله وسلوكته على حرجه ، بل لعلي لم أسلكه إلا لحرجه . وأحب أن يعلم القارئ أنني شرعت فيه قبل عشر سنين كوامل ، وأنا كعبري من المشتغلين بالتاريخ والأدب — أحمل آراء في بعض الحوادث ، وأحكاماً على بعض الأشخاص ؛ فما زلت أوغل في بحثي وأتجرى الصغيرة والكبيرة ، وأنظر في مبادئ الحوادث ثم في ذيلها البعيدة . . . حتى غيرت — على رغم هواي ومألفي — كثيراً من تلك الآراء وهذه الأحكام .

وأبعد من ذلك : فقد تحررت — بحمد الله — بعد التفكير الهادي من كثير من الآراء والمذاهب التاريخية التي يتعبد بها بعض الباحثين لعصرنا ، أو يزعمون بالنسب إليها وكثرة التردد لمصطلحاتها الحديثة ، يقهرون المنطق والواقع على الخضوع لها ؛ فإن لم يخضعا كان الخطأ في المنطق والواقع لافي المذهب .

وليس مذهب من هذه المذاهب بحق مطرد أبداً ، فقد يوافق بعضه الحق حيناً ثم يجانبه . ووجدت خير معين لفهم التاريخ فهماً صحيحاً هو البصر بالنفس الإنسانية فحسب ، فالإنسان ما زال كما كان ما تبدل جوهره في شيء ، سواء أعاش في (روما) القرن الأول أم في (لندن) القرن العشرين ، وما يؤثر في نفس الرجل البادي يؤثر في نفس الحضري الراقى . وعلى هذا فلست إذن متبعاً مذهباً ما ، ولن أخضع الحوادث لتفسير ما فأكلف الأشياء غير طبائعها : فلا أقول بالعلية التاريخية المطردة ، ولا أقر (الجبرية) في التاريخ ، وأجد أبعد المذاهب عن الواقع وأناها عن الحق والفطرة : مذهب التفسير المادي للتاريخ ،

وهو أحدث المذاهب حتى الآن ، ويكاد لا يكون مذهب سواه في روسيا وعند من انجر على أذيالها وأذيال دعايتها المبتوثين ؛ وإنما أعتقد أن هذا الكائن الاجتماعى الذى هو الإنسان لم يتغير من حيث غرائزه ودوافعه وكواجه وميوله وأهوائه ... والنفس الإنسانية خالدة الصفات والميزات ، فمن فهمها فقد فهم تاريخ كل الأمم فى كل العصور .

وأعتقد أيضاً أن هذا التاريخ (الذى موضوعه الإنسان من حيث هو كائن اجتماعى) لا قانون آلىّ ينتظمه ولا أحكام مطردة يخضع لها : فلكل حادث أسباب عدة قريبة وبعيدة ، فيها المادى والمعنوى ، والظاهر والخفى ، وقد يبرز من بينها جميعاً — فى بعض الأحيان — سبب يعلون به الحادث ويجعلونه (السبب المباشر) .

وعلى هذا فأبعد الناس عن فقه التاريخ وفهم النفس البشرية : أولئك الذين يقسرون الحوادث على التفسير المادى فقط ، كأن النفوس البشرية آلات صُم لا تعقيد فى تركيبها ولا التواء ، ولا تتحرك ولا تتنفس إلا بوحى الأسعار وقوائم التجار وأسهم الشركات وأطنان البترول ومناجم الحديد ... ، فلا روحية ولا عواطف ولا أى حساب لكرامة هذه النفس العجيبة ؛ فإن كان هذا تفكيراً فأنا أشهد أن الله لم يخلق فهماً أكثر (سطحية) وتعامياً منه .

هذا ما أحببت أن يعرفه عنى قارئ كتابى أول شىء ؛ رأيت حقاً على بيانه بوضوح لا خفاء به ولا لبس ، قياماً بالأمانة العلمية . وللقارئ أن يوافق أو يخالف ، وأنا — بعد — بشرٌ أخطئ وأصيب ، وما أنا بشىء أفرح منى بخطأ يئهنى إليه مخلص حصيف فأرجع عنه .

هذا الكتاب صور حية من صدر الإسلام ، فيه أعنف نشاط سياسى شهدته الجماعة الإسلامية ، أجلوه كما شاهدته من خلال الحوادث على طبيعته ، فى إخلاص وأمانة وإفراغ وسع ، ومن غير تزويق .

وسينم القارئ بلون آخر غير النشاط السياسى : هو هذا الأدب الغزير من نثر وشعر وأراجيز ، زخرت بها تلك الحوادث الجسام التى اكتوى بها العالم الإسلامى يومئذ ، فنفت المصدورون من أبطال القتال وفرسان البلاغة أدباً حياً خالداً ما خلدت النفس ، تقرأه فتشارك قائله شدائدهم وأهوالهم ، وتجد فى نفسك الحسرة التى وجدوها ، وتعانى الآلام

التي عانوا ، وتكاد كبكك تنفطر المألماً كابدوا . . . وإذا أنت أيضاً تنفس عن صدرك بدموع حِرار تسكبها غزاراً وأنت مغلوب على أمرك . ولا عجب في ذلك فليس في هذا الأدب الكثير الذي يطالعك في ثنايا الحوادث مغرز إبرة لتكلف أو تزويق ، إنه فيض الروح ووحى الحسرة وعصارة النفس .

وأحب أن أنبه هنا إلى خطأ يقع كثيراً من الباحثين في القصور ، ذلك أنهم يكتفون في بحوثهم في التاريخ العربي بالمصادر التاريخية فحسب ، فتجيء بحوثهم على ظلع ما تكاد تستقل واقفة . وكم من حقائق تاريخية خلت منها مصادر التاريخ وزخرت بها كتب الأدب ودواوين الشعر ، ولا غنى لأى باحث في تاريخ العرب عن اطلاع مستفيض على المكتبة العربية ، وإن ما استفدته أنا من كتب اللغة والفقه والحديث والتفسير والأدب والأخبار . . . لا يقل عما أصبته في مطولات التاريخ ، لا في هذا الكتاب وحده — بل في جميع كتبي السابقة . وأعجب من ذلك أن كتابي (الإسلام والمرأة) وهو المدخل التاريخي لهذا الكتاب ولكل دراسة قيمة عن المرأة العربية ، قد عُرف من مصدرين اثنين أساسيين هما القرآن والحديث ، أما المصادر التاريخية فقد كانت هناك مصادر ثانوية .

ولا بد من الإشارة إلى أنى جعلت أكثر اعتمادى — بعد البحث في المصادر التاريخية — على تاريخ الطبرى خاصة ، فهو أقرب المصادر من الواقع ، وصاحبه أكثر المؤرخين تحريماً وأمانة ، وعليه اعتمد كل من أتى بعده من الثقات ، وليس (الكامل) لابن الأثير إلا تاريخ الطبرى منسقاً مختصراً منه الأسانيد واختلاف الروايات ، وحسبك أن ابن خلدون فيلسوف المؤرخين نقل عنه حوادث الجمل ثم أدلى بهذه الشهادة القيمة :

« هذا أمر الجمل ملخصاً من كتاب أبي جعفر الطبرى ، اعتمدها للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين ^(١) » .

الحق أنى — منذ نعومة أظفارى — أولعت بهذا المؤرخ الجليل ، وحرصت هنا كل الحرص على عبارته ما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، لما تقدم ، ولشئ آخر هو أن نثر الطبرى

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/٤٢٥ (مطبعة النهضة سنة ١٣٥٥ هـ) .

من النثر الراقى البليغ الذى لا تطيب النفس بالتفريط فيه ، يقرؤه المتعلم مشروح الصدر ناعماً بما فيه من متعة لا توصف ، وهو إذ ينقل لك الرواية ينقلها بأمانة وتخرج ، مسندة إلى رواتها ، وبذلك يكون قد برىء من عهدتها وتركك إلى فهمك وحصافتك تأخذ ما تأخذ تدع ما تدع ، لا يضمن لك فى عمله إلا أمانة النقل والبرء من العهدة ، ثم أنت ومواهبك .

قد يقرأ هذا الكتاب قراء من طوائف شتى وميول مختلفة ، وكل الذى أرجو : أن يقرؤوه بنفوس طيبة سمحة زايلها التعصب . فالتعصب عدو العلم عدو الحق عدو الخير عدو الحرية . . عدو لكل الهبات العلوية التى أكرم الله بها الناس . وليعتقد المرء ما شاء فى هذه الحوادث وأبطالها فليس عليه فى عقيدته من بأس ، ولكن البأس كل البأس فى أن يوقن أن ما يعتقده هو الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن كان كذلك فقد جعل بينه وبين الحق والعلم حجاباً صفيقاً وأغلق دونهما الأبواب ثم رى عليها بالأقفال .

والخير أن يجعل المرء عقيدته فى هذه المسائل — بعد بذل الجهد بإخلاص — مذهباً شخصياً يحتمل الخطأ ، ثم لا يأخذ نفسه إلا بشيئين : الإخلاص فى البحث وما يقضى به العقل الحر من حكم بعد بذل الجهد والتجرد من كل عصبية .

هذا وقد يضيّق أقوام — كما ضاقوا من قبل — بتشددى فى رفض بعض روايات مشهورة استفاضت على ألسنة الناس وأقلام الكتاب والمؤرخين ، تزعم نسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه ، ذاهبين إلى أننا لا حق لنا فى امتحان المتن بعد صحة السند . وأرى أن التشدد فى هؤلاء الضائقين أنفسهم : إذ منذ الذى حظر ما حظروا ؟ وهل من الأمانة أن يغمض باحث عينيه عن وهن أظهره الله عليه فى خبر ؟ ونحن نعلم وهم يعلمون أن أهل الأهواء لم يتورعوا عن نصره أهوائهم بأحاديث ينسبوننها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو يتسامحون فى روايتها — من حيث يشعرون أو لا يشعرون — إرضاء لهوهم السياسى أو المذهبى أو العصبى . والمحدثون أنفسهم لم ينقلوا عن ذى هوى — مهما كان جليل القدر — حديثاً ينصر هواه ، وهم أنفسهم لم ينكروا نقد المتن ، بل هم الذين شرعوه وشرعوا له قواعد عامة ؟

إلا أن العناية انصرفت إلى نقد السند لأنه أقرب إلى (الآلية) حتى ضاع في عباب هذا النقد ما لهم من نقد للمتن ، وهم على كل حال — والشواهد حاضرة — لم يتنكروا للعقل إذا رفض رواية تضافت الشبه على توهينها . ومن أكثر النظر في توألفهم عرف ذلك من شأنهم ، غير أنهم لم يفتحوا الباب على مصراعيه حذراً من عبث أطفال العقول وأدعياء الفهم والعلم وذوى الأهواء ، وحسناً فعلوا ، ولقد كانوا في ذلك على حق مبين .

وبعد ، فسواجده القارىء من فوره صميم الموضوع ، ولن يجد أمامه من تمهيد غير سطور في (المرأة والسياسة) و(في منزلة السيدة عائشة) ، إذ التوطئة والمقدمة كلهما في كتابي (الإسلام والمرأة) الذي بادرت بطبعه قبل عام ، ولا غنى للقارىء عن استيعابه قبل قراءة بحثنا الآتي . وسيسائر القارىء الحوادث هنا مسaire زمنية ليرى مولد تلك المشاركة السياسية القوية العنيفة للسيدة عائشة : متى بذرت بذورها الأولى وكيف نمت وترعرعت ثم اشتدت وتفاقت حتى جرفت الهدوء والاطمئنان من حياة المسلمين السياسية ، وحتى ذهبت بحياة الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان وعصفت بخلافة الإمام على .

عرضت ذلك على نسق خاص فصلته على حاجة موضوعنا فنظرت إلى الحوادث من الجهة (العائشية) وعلى هذا سردتها ، وظاهر أن النظر إلى الحوادث من الناحية العامة يقتضى سرداً بنظام آخر يفصل ما أجمل هنا ويُجمل ما فصل ويثبت ما حذف ويحذف بعض ما أثبت ، مستفيداً في عرضي هذا من أحسن المزايا في مناهج القدماء والمحدثين .

ولم أشأ أن أختم الكتاب بوفاة السيدة ، لأنني وجدتها استأنفت — بعد وفاتها — عمراً جديداً في حياة المسلمين العامة ، فتتبع آثارها السياسية في المجتمع الإسلامي بعد ذلك وكيف (تبلّرت) في عقائد الفرق الإسلامية بعد أن أثارَت جدلاً وخلّفت معسكرات يحتد فيها الخلاف من حول عائشة ثم يهدأ ليحتد من جديد ، ولن تزال السيدة في هذه الحياة الثانية ما بقي المجتمع الإسلامي .

أخرجت في طول صحبتي للسيدة رضى الله عنها ، كتباً عدة^(١) على هامش دراستي لها ،

(١) سيأتي بيانها قبل الباب الأول .

وقد سر الله وأعان فاستأنفت تأليف هذا الكتاب الذى بين يديك بعد أن ضاع التأليف
الأول فى حادث فيضان سنة ١٩٤٣ ، وفى مأمولى أن أجد وقتاً أعيد فيه تأليفاً ضاع أيضاً
فى حياتها العلمية والأدبية وما إليها .

والله هو الموفق وله الشكر وبه المستعان .

سمير الأفعانى

دمشق { رمضان ١٣٦٥ هـ
 { آب ١٩٤٦ م

بعض ما كتبه من قبله من مؤلفات في تاريخ مصر و
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)

بعض ما كتبه من قبله من مؤلفات في تاريخ مصر و
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)

بعض ما كتبه من قبله من مؤلفات في تاريخ مصر و
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)

بعض ما كتبه من قبله من مؤلفات في تاريخ مصر و
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)
تاريخ مصر القديمة (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة) (مجلدات كثيرة)

المرأة والسياسة

الحكم في هذه القضية لسنة الله في المرأة ، وما فطرها عليه من خصائص غيرية (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية ؛ خصائص قاهرة لا يد للإنسان في تحويرها إلا حين يستطيع تحويرا في تركيب الدماغ وبنية خلاياه ، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء فيذوق بأذنه أو يسمع بقدمه .

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية ، اقتضتها الحكمة العميقة الكونية التي تعنى دائما بالتمييز الدقيق ، عناية تتطلبها عمارة هذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وما خلق له . وكل مجتمع يحاول بنائه إلغاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين فصييره إلى الاضطراب والفساد : لأن في ذلك ثورة على الطبيعة ، وما كان ثورة على الطبيعة فنه الضرر كل الضرر ؛ ولا يرجى له دوام ، وإن خيّل لبعض الأفراد والجماعات (سطحية في تفكيرهم أو تعصبا لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه .

والطبيعة في هذا حكمها واحد لا يختلف باختلاف الأمم ولا باختلاف الأعصار والأمصار ، ولا بتفاوت المجتمعات رقيًا وانحطاطًا ولا بتباين الأفراد تربية وثقافة .

المرأة نظام الأسرة وسيدة البيت ، فمهما احتلت لتخرجها عما خلقت له من رعاية أطفال وبرّ أزواج وتديير منزل . . . فإنها تحاول خرقاً لقانون طبيعي ، إن أنت وفقت إلى إطالة هذا الشذوذ أزماناً فلن يخرجها العهد الطويل ولا العرف المنحرف عن أن يكون شذوذاً يقذى العين ويصدم الفؤاد .

فن البلديهي إذاً أن تكون قيادة الجيوش وإدارة المصالح العامة وتديير الممالك وسياسة الناس . . . فن الرجال الخاص كما أن الأمومة وما إليها فن نسوي محض . ولئن حفظ التاريخ شواهد عديدة في قيام المرأة بشؤون السياسة والإدارة ، إنى لا أجد في هذه الشواهد كلها ما يمس هذه القاعدة ، بل أقرر أنها كلها تؤيدها ؛ ولأى مثقف كان أن يسرد ما في

حفظه من ملكات أو قائدات أو زعيمات أو مدبرات ملك أو نائبات في المجالس . . . الخ ثم يستقرى أحوالهن واحدة واحدة ، ويعمن فيما حف بهن ، فسيذكر أن أكثرهن كن مسيئات بتصرفهن ، عدن على بلادهن بأسوأ العواقب .

الحق أن الإدارة والسياسة تقتضيان بعداً في التفكير ، ومنطقاً سديداً ، وحساباً دقيقاً للعواقب ، وصبراً مضنياً ، وضبطاً للعواطف ، وكبحاً للأهواء والنزوات . . . إلى صفات كثيرة كلها يعوز المرأة ، بل يعوز أكثر الرجال . فلا عجب أن كان اضطراب الأمور وتدخل المرأة في السياسة قرينين في التاريخ لا يفترقان إلا حين يدبر الأمور للمرأة وزراء حصيفون من وراء ستار ؛ ومع هذا فقلما خلت امرأة — مهما حف بها من فحول محنكين — من طامع فيها مستغل لضعفها . وما أكثر ما حفظ التاريخ من سير عروش كان الغرام هو الحاكم في ممالكها .

وهناك كلمة متداولة منذ القديم ، لا أشك في أنها عصاراة التجارب على الزمن ، وهي قولهم : « المرأة ريحانة وليست بقهرمانة » .

ويعجبني في ذلك حكم ظريف أصدرته الكونتس أوف أ كسفورد ، قالت :
« هل تستطيع أن ترى امرأة صائرة إلى منصب رئيس وزارة ؟ إنى لن أستطيع أن أتصور نكبة أعظم من وضع هذه الجزر البريطانية تحت قيادة إحدى النساء في شارع داوننج رقم ١٠ » (١) .

ولنتصور نحن — على نسق هذه الكونتس — أحوال المشتغلين بالسياسة في الشرق صحيفيين وأحزاباً ووزراء ونواباً ومن يتبع هؤلاء من محترفين ومترتقة . . . ، وما ينشأ من تراحمهم وتكالبهم على المنافع من خصومات وعداء وجدال ومهاترات وتراشق بالتهم والسباب ثم

(١) من كتابها (في السجلات) انظر العدد ٥٦٥ من مجلة الرسالة ص ٣٦٩ . — هذا وأقرب عبرة منا ما وقع في فرنسا في هذه الحرب العالمية الثانية من دس المرأة أنفها في السياسة العليا وذهاب فرنسا ضحية هذا (التدخل) حتى قال أندره موروا الأديب الفرنسي الأشهر : « إن الكونتس (دى بورت) .. ستذهب في التاريخ (على أنها) المرأة التي خربت فرنسا . . . والنساء اللواتى على غرارها أدوات هدم لأن أدمغتهن التي تحوكم الدسائس وشخصياتهن التي توقع الرجال لا تعرف حداً للآثران » وهكذا أصبحت الكونتس (دى بورت) من قواد الطابور الخامس الفرنسي وأصبح صالونها مراكز القيادة . — ترجمة الصاوى لكتاب (مأساة فرنسا) لأندره موروا ص ١٠٣ ، ١٠٥ .

مظاهرات فيها اشتباك والتحام ، ثم ماينجم عن ذلك من قتلى وجرحى ومشوهين ومسجونين ...
لنتصور ذلك وما إليه ، ولنتصور معه أن النساء يشاركن فيه الرجال بين محترفات وتابعات وداخلات
في الأحزاب ومساهمات في المهارات الصحفية وما إليها ؛ وأن منهن أيضاً نائبات وموظفات ،
وأن كلا منهن تهاجم وتدافع ، وتتلقى التهم والشناعات وترى غيرها بأمثالها ... وقد خلت
منهن بيوتهن وأصبح الرجال والأطفال (رحلاً مشردين) في المطاعم والمقاهي ، إذ شغلت
السياسة والانتخابات من كل يقمن بإدارة بيوتهم ... ولنرجع بعد هذا التصور إلى نفوسنا :
أنجد فيها تعبيراً يفي بشناعة مجتمع كهذا ؟ حنانيك أيها القارئ أعف نفسك وأعفني من
فضاعة هذا التصور ، وإني لأستغفر الله لي ولك من خاطر يجعل مكان أولئك المحترفين
بناتنا وأخواتنا وأزواجنا وأمهاتنا : انصرفن عن رعاية أسرهن فأخذن مكان ذلك وهذا
ممن ترى من خواص المهارات والتكالب على فتات السياسات . إن مثل هذا المجتمع خال
من كل كرامة وحياء ، ولن يكون منه لحياة الدعة والحنان والنبيل والإنسانية أي أثر ، هذا
مجتمع خسر طعم السعادة منذ انهار فيه بناء الأسر ذى الجوارح العطر الجميل .

لقد سارت أم عربية راقية في أوروبا وأمريكا خطوات فسيحة في تحميل النساء أعباء
سياسية ، فما أظفرها ذلك بطائل ، بل كانت نتيجة التجربة أن ضج عقلاؤهم ومصالحوهم
من تلك الأوضاع الشاذة الخارجة على الفطر السليمة^(١) .

(١) أحدث ما قرأت في هذا الباب شكوى الدكتور (ألكسيس كاريل) حائز جائزة نوبل
الطبية . فقد نصرت له مجلة المختار من ريدرز دايجست في العدد ٣٦ من الطبعة العربية) بحثاً عنوانه (لبن
الأم حق طبيعي للطفل) هذه الأحكام التي وردت في كلامه عرضاً ، وهي مع ذلك — لقوتها في نفسه —
تصور خير تصور انحرف المجتمع الحديث عن الفطرة ، وتؤيد — من قرب — ما ذهبنا إليه ، قال :
« ... فالأم في هذا العصر ليس لها من تعليمها ولا عاداتها ما يهيئها للأُمومة ومقتضياتها ... ويرى
كثير من الأمهات أن عملهن ومستقبلهن وشهواتهن الاجتماعية أهم من رعاية أطفالهن ، ولا يدركن أن المرأة
إنما خلقت للأُمومة ...

والأم في العصر الحديث فريسة في محالب البيئة الاقتصادية والبيئة العقلية ، فقد ضرب المجتمع صفحاً
عن قوانين علم الحياة ، وبخاصة قانون النسل . فالبنات قد حرمن معرفة العمل الذى خلقن له وجهلن قدره
في حياة البشر ، بل صرن يتعلمن ما يتعلمه الصبيان ، وصرن بمنزلة الذكور : لهن ما لهم في الحياة ، وعليهن
ما عليهم ؛ فصار على المرأة أن تعول نفسها كما يفعل الرجل . فكيف يتأتى لعاملته في مصنع أو مكتب ،
أو لمدرسة أو محامية أو طبيبة أو تاجرة أو امرأة باحثة عن ملاذ الحياة أن ترضع طفلها ثلاثة أشهر أو أربعة
هى الحد الأدنى للرعاية ؟ » ص ٧٢ ، ٧٣ .

هذه حسرة الرجل على اشتغال النساء عاملات أو مدرسات أو محاميات أو طبيبات ... وبعض هذه =

وليس تاريخ العرب بيدع في تواريخ الأمم ، فالحكم واحد كما أسلفنا ؛ فحيث رأيت انحطاطاً في إدارتنا أو تقهقراً في سياستنا أو انحلالاً في مجتمعنا ، ففتش ثمة عن المرأة .
وكتابتنا هذا فيه أكبر عبرة انطوى عليها تاريخنا في هذا الموضوع ، ولم ينجنا من العاقبة الوخيمة : عاقبة دس النساء أنوفهن في السياسة ، أن كانت الزعيمة هنا متحلية بمزايا عبقرية قل أن يحوى مثلها رجال عديدون ، ولم ينجنا كذلك رغبتها القوية المخلصة في الإصلاح وابتغاء الخير للمسلمين .

والعرب يتداولون منذ فجر الإسلام حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام : « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة »^(١) ، وذلك جد معقول ، إذ أسندوا الأمور إلى ضعيف غير ذي اختصاص .

* * *

فإذا أنت جاوزت السياسة إلى الجهاد في الإسلام ، رأيت المسألة تختلف بين يديك ، إذ تجد أنه ليس لأحد أن يحرم المرأة شرف الجهاد ، وأنها هي والرجل سواء في المطالبة به : كل بحسب استعداده واختصاصه ، فالرجال للقتال ، والمرأة لتمرير الجرحى ، والعناية بشؤون الجيش من نحو : إسقاء وإطعام ، وغسل وخياطة — ثم هي مع ذلك كله تحمس المقاتلين وتبصرهم العواقب السيئة التي تنتظرهم وحرّمهم إذا هم تهاونوا في الدفاع .
وللمرأة العربية في هذا الميدان الموقف المحمود الذي لا يجارى ، كانت فيه مضرب الأمثال بشجاعتها وحسن بلائها وإخلاصها .

وعلى هذا دربت من قبل أيضاً في جاهليتها ، فكان إليها في الحروب التمريض والعناية بالجرحى وسقى الماء وتحميس المحاربين^(٢) .

ثم جاء الإسلام ففتحت عينها — لما أظلمت رايته — « على رجال غير الرجال ، وجمتمع غير المجتمع ، ودين غير الدين ، فكانها نشطت من عقال ، فشمرت عن ساعدها

= المشاغل كاطلب والتدريس ضرورة اجتماعية ظاهرة ، فإذا بقول وم تبلغ شكواه وحرارته إذا بالغ النساء في الابتعاد عن الفطرة فاشتغلن نائبات أو سياسيات ؟

(١) مسند أبي داود الطيالسي ص ١١٨ الحديث ٨٧٨ (الجزء الثالث) وانظر مسند أحمد

٤٣/٥ ، ٤٧ .

(٢) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٢٠ .

وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى ، وكان شكرها لله عليه شكراً عملياً :
قاست في أوله ما قاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد وأذى ، ثم انتظمت في
صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق ، وذوداً عن دين الله وعن رسوله ، فقاسمت الرجل
شرف الجهاد ، وآبت بثوابه وكرامته ، وليس بعد بذل الروح غاية في الشكران «^(١) .
صح رسول الله صل الله عليه وسلم النساء في مغازيه ، وأبلىن معه البلاء الحسن ،
فكن نعم المعينات للمحاربين : يداوين جرحاهم^(٢) ، ويحملن إليهم الماء في القرب يسقيهم ،
ويتعهدن أطعمتهم ، وملا بسهم وقربهم ، وكن أحياناً يمارسن القتال :
تتابعت المواقف الماثورة للمرأة من بعد الرسول ، وحفظ التاريخ لنا أسماء بطلات من
مجاهدات الصحابة : كنسبية وصفية . ولن ينسى أحد جهاد خولة بنت الأزور أخت
ضرار وحسن بلأها في الروم ، ولا موقف الخنساء في يوم القادسية ، وكانت واحدة
من كثيرات .

ذكر الطبرى عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعى قالت :

« شهدنا القادسية مع سعد (بن أبي وقاص) مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فرغ من
الناس شددنا علينا ثيابنا ، وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى : فما كان من المسلمين سقيناه
ورفعناه ، وما كان من المشركين أجهزنا عليه ، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم فيه^(٣) .
وإذ كانت هذه الواقعة من الخطر بحيث أنها هي الفاصلة بين العرب والفرس ، وأنها
لها ما بعدها ، استمدت لها القبائل بكل ما تطيق ، حتى أن التاريخ ليدكر لقبيلتين من
القبائل فخرأ خالداً إذ أخرجتا نساءهما معهما ، فسكان في قبيلة النخع — على ما يذكر
الطبرى — سبعائة امرأة لأزواجهن ، وفي قبيلة بجيلة ألف امرأة ، تزوجن جميعاً في هذه
الحرب . وكانت النخع تسمى : أصهار المهاجرين^(٣) .

لقد شرع الرسول الاستعانة بالنساء في الجهاد ، وأثابهن عليه من الغنائم ، ودرج

(١) عن كتابنا السابق ص ٣٧ .

(٢) أقام الرسول خيمة في مسجده لرفيدة إحدى مرضات الجيش وحمل إلى خيمتها سعد بن معاذ
وهو مرث (متخن بالجراحة) .

(٣) تاريخ الطبرى ٨٢/٣ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ هـ) وإلى هذه الطبعة نشر فيما يستقبلك

من نقول عن الطبرى .

خلفاؤه من بعده على سنته ؛ حتى إذا انقضى عهد الراشدين ، وخف علم الناشئين بالسنة ، شك بعضهم في هذه الاستعانة ، فكتب نجدة بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله : « هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء ، وهل كان يضرب لهن سهماً ؟ » . فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إلى تسألني : هل كان رسول الله يغزو بالنساء ؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويُحْدِثْنَ (يُعْطِينَ) من الغنيمة »^(١) .

كل ما تقدم من استحباب خروج النساء ليشاركن الرجال شرف الجهاد ، هو في حال الفتح والهجوم حين يكون الجهاد فرض كفاية على الرجال أنفسهم ، فأما إذا انعكس الأمر وهاجم العدو بلاد المسلمين أو احتلها ، فحينئذ يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ذكراً كان أم أنثى ، لا يستثنى من هذا الفرض صبي ولا امرأة ولا رجل ، نص الفقهاء في هذه الحال على أنه يجب على المرأة أن تخرج إلى القتال بلا إذن زوجها^(٢) . وبذلك يصبح التكليف والوجوب بدرجة واحدة على الرجال والنساء والصبيان والأحرار والعبيد ، لا يستأذن أحد أحداً في تأدية هذا الواجب^(٣) .

من شأن السياسة المزالق الخفية الخطرة ، فهي على المرأة حرامٌ صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب ، أما الجهاد فطريق لاجبة مضمونة الخير . فللمرأة أن تأخذ من هذا الشرف نصيبها الأوفى .

(١) تيسير الوصول ١/ ٢٣٥ .

(٢) انظر في ذلك : باب السير أو الجهاد في كتب الفقه مثلاً : شرح الزيلعي على متن الكنز ٣/ ٢٤١ والحكم مشهور لأن الإسلام لا يقر احتلالاً لأجنبي بحال من الأحوال ولا يرضى لأهله حياة ذليلة .

سطور في التعريف بعائشة

ولدت بعد المبعث ، ونشأت في بيت أبي بكر الصديق أعلم العرب بتاريخ قريش وأنسابها وأيامها ، ثم هاجرت إلى المدينة ، فبني بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي صغيرة ، فترعرعت في مهبط الوحي ، ومنبع العلم تعرف منه ما شاء لها ذكاؤها وعبقريتها ، وتأثرت بهدى الرسول فنشأت مجتهدة في دينها وعبادتها ، وكان الرسول حفيها يعلمها ، ويعنى بها ، ويخرج بها في مغازيه ، وكانت أخبر الناس بتاريخ الرسول والمسلمين ، كما كانت أعلم بجاهلية العرب . فلم ينتقل الرسول إلى جوار ربه حتى خلفها مرجعاً وحجة يلجأ إليها الكبار والصغار متعلمين مستفتين .

كان الناس يرون « علم عائشة قد بلغ ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وحديث وتفسير وفقه . . . ومع حمل الأصحاب إلى الأمصار طائفة صالحة من الأحاديث والأحكام حتى كانوا ثمة مرجع طلاب العلم ورواة الحديث ، بقيت المدينة — لأسباب أهمها وجود السيدة نفسها فيها — دار الحديث ومنبع العلم . فحين يشكل على أهل الأمصار أمر من الأمور ، يكتبون إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجاز يسألونهم عن حكم الله فيه ، فكان هؤلاء إذا فاتهم علم شيء رجعوا إلى علماء بينهم اشتهروا بحمل العلم وفقهه كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وابن عباس . . . ومقام السيدة بينهم مقام الأستاذ من تلاميذه ، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كل ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبي البيئية ، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد من النساء على الإطلاق .

ويصل إلى مسمع السيدة عن أولئك الصحابة العلماء روايات وأحكام على غير وجهها ، فتصحح لهم ما أخطؤوا فيه أو تبين ما خفي عليهم ، حتى اشتهر ذلك عنها ، فصار من شك في رواية أتت عائشة سائلاً ، وإن كان بعيداً كتب إليها يسألها^(١) . ومن هنا طار لها ذلك الصيت في التمكن من العلم ، ورجع إلى قولها كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وابنه وأبي هريرة

(١) انظر مثلاً من ذلك في : مسند أحمد ٩/٦ .

وابن عباس وابن الزبير . وقد نقل عنها وحدها ربع الشريعة على ما يقول الحاكم في مستدركه ^(١) .

هذه ثقافتها في بيت الرسول ، أما ما حملته من بيت أبيها الصديق فإحاطة واسعة بالأخبار والأشعار وأيام العرب وأنسائها ومفاخرها حتى كانت تروى القصيدة ستين بيتاً ^(٢) .

ورسخت لها هذه المنزلة في العالم الإسلامي حينئذ ، وانفردت بها دون غيرها من النساء والرجال ، حتى شاع فيه هذه الشهادات ننقل لك منها ما في مصدر واحد فقط وهو سير النبلاء للذهبي :

١ — عن أبي بردة عن أبيه قال :

« ما أشكل علينا أصحاب محمد حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً » ^(٣) .

٢ — قال الزهري : « لو جمع علم الناس كلهم وأمهات المؤمنين لكانت عائشة أوسعهم علماً » ^(٤) .

٣ — قال مسروق : « والله لقد رأيت أصحاب محمد الأكبر يسألونها عن الفرائض » ^(٥) .

٤ — قال عمرو بن الزبير لعائشة :

« يا أمتاه ، لا أعجب من فقهك أقول : زوجة نبي الله وابنة أبي بكر ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول : ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس ؛ ولكن أعجب من علمك بالطب : من أين هو ؟ وما هو ؟ » فضربت عائشة على منكبه وقالت :

« أي عُريّة ؛ إن رسول الله كان يسقم عند آخر عمره ، وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات ، وكنت أعالجها له ، فمن ثمَّ » ^(٦) ، و « كنت أمرض فينعت لي الشيء ، ويمرض المريض فينعت له ، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض ، فأحفظه » ^(٦) .

(١) من قولنا في مقدمة (الإجابة لإيراد ما استدركنه عائشة على الصحابة) للزركشي . وهو كتاب خاص في نقدها العالمي لكبار الصحابة .

(٢) انظر سير النبلاء ٧٣/٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٤) ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٥) ص ٦٥ .

(٦) ص ٨٥ .

× ٥ - وكان عمرو يقول :

« لقد صحبت عائشة فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت ، ولا بفريضة ، ولا بسنة ، ولا بشعر ولا أروى له ، ولا بيوم من أيام العرب ، ولا بنسب ، ولا بكذا ولا بكذا ... ولا بقضاء ، ولا طب منها »^(١) .

— ٦ - روى الشعبي أنها كانت تقول : « رويت للبيد نحواً من ألف بيت »^(٢) .

وكان الشعبي هذا يذكرها فيتعجب من فقهها وعلمها ثم يقول : « ما ظنكم بأدب النبوة !! »^(٣) .

هذا ، ومن تخرج بهذا الأدب الغزير الزاخر لم يستغرب أن يكون أبلغ أهل عصره . وسترى من بلاعتها في هذا الكتاب مالا تقضى منه عجباً ، ولست بحاجة إلى شهادة فيها بعد أن ترى أن هذه البلاغة وحدها (مع منزلة صاحبها) أثارت الجوع ، وجعلت الناس يتسابقون لإهدار دماهم فقضت على خلافة عثمان ، وزلزلت خلافة علي فلم يسترح بها قط . وحسبك شهادة اثنين : معاوية والأحنف بن قيس زعيم البصرة وسيد بلقاءها :

× ٧ - دخل معاوية عليها - وهو خليفة - في أواخر أيامه فكلمها ، فلما قام اتكأ على يد مولاها ذكوان فقال :

« والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٤) .

— ٨ - وقال الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد بلقاء العرب :

« سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم . . . فما سمعت الكلام من فم مخلوق أخم ولا أحسن منه من في عائشة »^(٥) .

× ٩ - ولقد جمع الله فيها من المزايا ما جعل الناس يقولون عنها بحق : « كانت رجلة العرب »^(٥) . وسترى أن هذه المزايا والمواهب النادرة خلقت منها (المرأة أمير المؤمنين) على

(١) ص ٦٦ ، ٦٧ . (٢) ص ٨٢ .

(٣) ص ٦٧ - هذا وذكر ابن عساكر في تاريخه الكبير : أن معاوية سأل زياداً يوماً : « أى الناس أبلغ ؟ » فقال له : « أنت يا أمير المؤمنين » . فقال له : « أعزم عليك » . فقال له : « حيث عزمتم علي فأبلغ الناس عائشة » . فقال معاوية : « ما فحجتُ باباً قط تريد أن تنقله إلا أغلقته ، ولا أغلقتُ باباً تريد أن تفتحه إلا فتحته » . تهذيب ابن عساكر ٤١٧/٥ .

(٤) سير النبلاء ٧٧/٢ . (٥) الإمتاع والمؤانسة ١٩٩/٣ .

تعبير أحد الظرفاء ، ومارست بالفعل هذه المهمة في الجماهير فاستجابت لها حتى لو كانت رجلاً لكانت خليفة ، وكان يقال :

« لو كان لأبيها (الصديق) ذكر مثلها لما خرج الأمر (يعني الخلافة) منه » (١).

« كانت السيدة إلى هذا زعيمة الآخذين بناصر المرأة والمناخين عنها بلا منازع ، وإليها كانت تتطلع أبصار المستضعفات لما تم لها من المكانة الكبيرة في العلم والأدب والدين ، حتى تقطعت دون مقامها الأعناق ، إذ أنها أستاذة لشيخة الصحابة الأجلاء في كثير من أمور العلم والدين . ولبث الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها ويشاورونها ويسألونها المسائل ويرجعون إلى رأيها ، وهي واقفة بالمرصاد للرعاة وكبار الرعية : تصحح لهم كلما رأيت خطأ في حديث يحدثون به أو حكم يصدرونه .

وإلى السيدة عائشة يرجع الفضل الأكبر — بعد رسول الله — في إعظام الناس المرأة الإعظام اللائق ، حتى ظهر كثير من اللأئي طمحن إلى اقتفاء أثرها في الشجاعة الأدبية والجرأة » (٢).

وهي — بحكم زوجيتها للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم — واحدة من أمهات المؤمنين اللأئي أنزل الله في إعظامهن قرآناً « يتلى في محارب المسلمين منذ أربعة عشر قرناً إلى قيام الساعة ، يسمعه المؤمن فيمتليء صدره إجلالاً لمن شارك الرسول في ضرائه وسرائه ، وصبرن معه على شظف العيش وكلب الزمان ، وتحملن معه صروف الأذى ، وخففن عنه ما يجد من آلام في سبيل الدعوة إلى الله .

ظلت بيوتهن مهابط الوحي والرحمة والهدى مدى حياته عليه الصلاة والسلام ، فلما انتقل إلى جوار ربه بقيت هذه البيوت مثابة للناس يقصدونها : متعلمين مستفتين أو ملتجئين مستغيثين ، فكانت تهدي الحائر ، وتعلم الجاهل ، وتحمي الملتجئ ، وتنجد المستغيث . ولبث الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم : الخلفاء فمن دونهم يخضعون لأزواج الرسول خضوع الأبرار لأمهاتهم .

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدى ١٩٩/٣ .

(٢) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٥١ ، ٥٢ .

لقد رفعهن الله إلى مقام تندق دونه الرقاب ، وأحاطهن برعاية وتقديس أذعن لهن من أجلهما كل مسلم ، فكنّ بذلك طبقة متميزة لا يفضلها إلا الأنبياء . وكان من رحمة الله بهذه الأمة أن طال عمرهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقلن لأمته كثيراً من سنته ، وخاصة فيما لا يطلع عليه إلا النساء ؛ فمن طريقهن عرف المسلمون أحوال النبي المنزلية ، وغنهن رووا كثيراً من السنة ولولاهن لضاع ، وبقيت بيوتهن بمنزلة مدارس مفتحة الأبواب للرجال والنساء على السواء» (١) .

ومن فضل الله وحكمته أنه جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة الهادية خمسين سنة تنشر تفاصيلها للناس : كأن الوحي لم ينقطع ، وكأنهم من أنواره في شمس لا يلم بها أفول ، ولا تحجبها ظلمة .

ومن رجع إلى أمات كتب الحديث ودواوين السنة وخاصة المساند منها ، فرأى ما روى عن أمهات المؤمنين ، هالته كثرتة . لقد كانت بيوتهن مدارس لنشر الفقه والحديث والتفسير والسيرة ، وتهافت الرواة عليهن من كل جانب ، وتنافسوا في الأخذ عنهن كل التنافس ، فإذا كان ما روى عن عائشة وحدها ربع الشريعة ، فما روى عن مجموعهن شيء عظيم جد غزير (٢) .

✕ فإذا أضفت إلى هذه المكانة علماً منقطع النظير ، وأدباً و بلاغة سحرت بهما كل من سمعها ، ثم اجتهاداً في العبادة : صياماً و صلاة و قراءة و صدقات . . حتى إنها لتسرد الصوم ، وتتصدق بسبعين ألف درهم وتنسى أن تحجز لنفسها من هذه الألوف السبعين درهماً واحداً تشتري به لحماً تفطر عليه (٣) .

وتصدقت مرة أخرى بسبعين ألفاً وإنها لترقع جانب درعها (٣) . . . ، إذا أضفت هذا إلى ذلك عرفت : لماذا ينظر التاريخ إلى السيدة عائشة في علمها ودينها على أنها أنضج ثمرة أخرجها الإسلام في عالم المرأة .

(١) المصدر السابق ص ٦١ ، ٦٢ .

(٢) انظر (الإسلام والمرأة) ص ١٠١ .

(٣) انظر في ذلك أخباراً عدة في سير النبلاء ٧١/٢ حتى حمل كثرة سخائها ابن الزبير على أن يحاول

الحجر عليها . انظر ص ٨٤ .

وبعد ، فلم أرد من هذه الكلمات استيفاء مزايا للسيدة^(١) ، فلذلك كتاب أرجو أن يوفق الله إلى عمله ، وإنما أردت بهذه السطور تمهيداً ضئيلاً يدخل منه القارىء إلى الموضوع من فوره ، إذ لا مندوحة له عن أن يلم بمنزلة هذه التي تتحدث عن ناحيتها السياسية ، فذلك أعون على فهم هذه الآثار البعيدة التي سيرها .

هذا وليس للسيدة أى أثر سياسى فى عهد الرسول وخلافة صاحبيه أبى بكر وعمر ، فكتابتنا — على هذا — سيبدأ فى عرض مآتى السيدة منذ عهد عثمان بن عفان ، فأليك إياها مرحلةً مرحلةً^(٢) .

-
- (١) نشرنا فى ذلك مخطوطين فريدين : (الإجابة) و (سير النبلاء ج ٢) ، فارجع إليهما لتفردهما بنوادير ليست فى المصادر الكبيرة من الأمانات .
- (٢) قضيت فى دراسة السيدة عائشة نحواً من عشر سنوات ، وقد وفقت خلالها إلى إصدار كتب أوصى القارىء بالرجوع إليها ، فإنها صدرت جميعاً فى سبيل أن تكون دراسة المرأة عامة فى صدر الإسلام ، وعائشة خاصة دراسة مستفيضة واضحة العالم ، شاملة عميقة .
- ١ — (الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة : للإمام الزركشى . صدر سنة ١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م) عن مخطوط فريد فى العالم هو مسودة المؤلف نفسها ، فى ٢٢٧ صفحة مع مقدمة واسعة وتعليق وفهارس وافية . وهذا الكتاب سجل خالد لمجد المرأة العلمى فى الإسلام .
- ٢ — (فى المفاضلة بين الصحابة : للإمام ابن حزم الظاهرى . صدر سنة ١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م) عن مخطوط فى دار الكتب الظاهرية ، وعن مطبوع ضمن كتاب الفصل . وهذه الرسالة تنتهى إلى تفضيل السيدتين عائشة وخديجة على جميع الصحابة بلا استثناء ، بعد مناقشة سديدة واحتجاج صائب استخدم فيهما ابن حزم قواعد مذهبه الظاهرى وما آتاه الله من حجة ومنطقها مضرب الأمثال فى الأحكام — أخرجت الرسالة مع دراسة وافية عن الإمام ابن حزم وتعليق وفهارس شاملة فى ٤١٩ صفحة .
- ٣ — (سير النبلاء (جزء ثان) : لمؤرخ الإسلام الإمام الذهبى — طبع سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م فى ٨٨ صفحة) . وهو جزء خاص بترجمة فريدة للسيدة عائشة (أما الجزء الأول يخص بترجمة ابن حزم نفسه ، صدر سنة ١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م فى أربعين صفحة مع دراسة عن الذهبى صاحب سير النبلاء) ، صدرا عن نسخة وحيدة فى العالم بخزانة صاحب الجلالة إمام اليمن يحيى حميد الدين .
- ٤ — (الإسلام والمرأة) يبحث بابه الأول فى المرأة العربية فى نشأة الإسلام ، ويدرس بابه الثانى الطبقة المختارة فى الإسلام ، وهى طبقة (أمهات المؤمنين) دراسة بكرة . وهذا الكتاب أريد به أن يكون أساساً ومدخلاً لكل دراسة نسوية فى الإسلام . فهو لكتابتنا هذا والذى سيليه إن شاء الله مقدمة ومفتاح لا بد منه . طبع سنة ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م فى ١١٢ صفحة — تميزتها جميعاً المكتبة الهاشمية بدمشق . وقد احتلت هذه الكتب الأربعة عن السيدة عائشة أمكنة ملحوظة فى المكتبة العربية الإسلامية .

الباب الاول

في عهد عثمان

مترجم :

✳ لم يتح للسيدة عائشة أن يكون لها أدنى أثر على عهد الخليفين العظيمين أبي بكر وعمر فإنهما كانا من الكفاية وحسن القوامة على أمور الرعية : بحيث ساقا الفحول المحنكين أولى الدهاء من الرجال ، فما بالك بالنساء . لقد كان شأنها — شأن أخواتها من أمهات المؤمنين — مقتصرأ على الرواية والتحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان أبو بكر وعمر وغيرهم من كبار الصحابة ، كثيراً ما يسألونهن في دقائق المسائل وجلالها ، وعلى هذا اقتصر عمل عائشة لهذا العهد . وكان في ذكاء السيدة رحمها الله وفي علمها ما جعلها مقدمة على أزواج النبي عامة : يعرفن ذلك من حقها ، ويرجعن أمورهن إليها وكان الناس حين يفرعون إلى أزواج النبي لا يبدوون إلا بها . . فكان لها فيهن مكان الزعيم .

فلما كان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، سارت السيدة في الشطر الأول من خلافته سيرتها على زمن صاحبيه ، تفتى وتحدث وتنشر العلم . لكنه لم يكد لين عثمان يجرىء الناس عليه ، ولم تكذ القالة تفشو ناقة عليه بعض تصرفاته وتنتشر الأمور عليه آخر خلافته . . . لم يكد يكون ذلك حتى انقلب الحال ، فرأينا السيدة عائشة تقود (حركة المعارضة العنيفة) ، ورأينا عثمان يتبرم بموقفها كل التبرم . . . ولم تزل السيدة توغل في (تدخلها) السياسي حتى أدى الأمر إلى أن يستغل موقفها أولو الكيد والفساد ، وآلت الأحداث إلى ما لم تكن تحب السيدة نفسها ، وحتى خرج الأمر من يدها في النهاية إلى أيدي الفوغاء وقادتهم الخطرين . . . فكانت — فيما بعد — أشد الناس ندماً وحسرة وألمأ على ما فعلت .

نجد إذن للسيدة في هذا العهد سيرة جديدة مرتجلة لم يكن لها ما يشبهها في عهد الخليفين أبي بكر وعمر ، إنها تبرز الآن بغتة في ميدان السياسة وتمارس شؤونها وتملي على الخليفة رأيها في عزل الولاة ونصبهم ، وتصب احتجاجاتها بعنف شديد على تصرفاته ، ثم يؤول بها الأمر إلى أن تتزعم معارضة شديدة خطيرة ، تتقاذفها الأغراض والدسائس — من حيث لا تشعر السيدة ولا تريد — حتى تنجلي عن أشأم يوم عرفه تاريخ المسلمين : ذلك يوم الدار ، يوم قتل الغواء الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رضی الله عنه .

✶ هي وعمامه

ولعل من الخير قبل أن نعرض للخلاف الذي نجم بين السيدة والخليفة ، أن نحاول معرفة البذور الأولى لهذا الخلاف :

لقد بحثت عن علائقهما قبل تولى عثمان الخلافة ، فلم أصل — مع كثرة التحرى — إلى سبب أستطيع أن أعزو إليه تغير قلب السيدة عليه ؛ بل كانت العلائق بينهما قبل هذا التاريخ تخضع لإجلال واحترام من السيدة لعثمان ، تقف بذلك أثر الرسول الكريم في حجة عثمان ورعايته والاعتراف بجميل إيثاره وبذله منذ عانى الإسلام شدته الأولى .

ومع هذا فأنا أسوق هنا ما يفصح لك عن هذا الشعور النبيل منها : روايات لو بذل أكبر محب لعثمان ما عنده من جهد وقوة في سبيل الدعاية له ما استطاع أن يبلغ من الناس ما تبلغه إشاعة هذه الروايات بينهم . إنها تجلو مقدار حب الرسول لعثمان وتعظيمه له واستحيائه منه . . . ترويهما أحب أمهات المؤمنين إلى الرسول وأقربهن من قلبه وأنفذهن كلمة في الجماهير :

١ — جاء رجل إلى عائشة فقال لها : « إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسأل عن

عثمان بن عفان فإن الناس قد شتموه .. » فقالت :

« لعن الله من لعنه ، فوالله لقد كنت قاعدة عند نبي الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله مسند ظهره إلى وإن جبريل ليوحى إليه القرآن وإنه ليقول له : « اكتب يا عثيم » ؛ فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريماً على الله ورسوله^(١) . »

(١) مسند أحمد ٦/٢٥٠ . وقد أعاد الإمام أحمد هذا الحديث بتفصيل أوفى في الجزء نفسه =

٢ - عن سعيد بن العاص : أن عائشة وعثمان حدثاه :

أن أبا بكر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على فراشه لا بس مرتط عائشة ، فأذن لأبي بكر وهو كذلك ، ففضى إليه حاجته ثم انصرف ، فاستأذن عمر فأذن له على تلك الحال ففضى إليه حاجته ثم انصرف ، ثم جاء عثمان فاستأذن عليه فجلس وقال لعائشة : « اجمعي عليك ثيابك » وقضى إلى حاجتي ثم انصرفت . فقالت عائشة : « يارسول الله ما لي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان ؟ » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن عثمان رجل حيي ، وإني أخشى إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته . »

وفي رواية أنه قال لعائشة : « ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة ؟ ! » (١)

٣ - روت عائشة :

استأذن عثمان على النبي فأذن له ، فدخل ، فواجه النبي طويلاً ثم قال : « ياعثمان إن الله عز وجل مُقَمِّصٌ قَيْصاً فإن أَرَادَكَ الْمُنَاقِمُونَ عَلَى أَنْ تَخْلَعَهُ فَلَا تَخْلَعْهُ لَهُمْ وَلَا كِرَامَةً » يقولها مرتين أو ثلاثاً (٢) .

روت السيدة أن الرسول دعا عثمان ، فلما جاء قال : « تَنَحَّيْ » وجعل يسارّه ولون

ص ٢٦١ ، وفيه يقول السيدة زيادة على ما تقدم : « ... ولقد زوجه ابنتيه إحداهما على إثر الأخرى ... » وانظر الورقة ٩٩ من مخطوطة دار الكتب الظاهرية لتاريخ ابن عساكر (رقم ٣٣٧٥ تاريخ ١٠ ج ١١) . (١) مسند أحمد (١٥٥/٦) وانظر مخطوطة الظاهرية السابقة لتاريخ ابن عساكر الورقة ٩٦ ، وأنساب الأشراف للبلاذري ١٠/٥ - المرط : كساء صوف أو خز .

(٢) لقد كانت في رواية السيدة لهذا الحديث - وهي أعنف خصوم عثمان - طرافة وحرص من سامعها ، حتى إن النعمان بن بشير راوى هذا الحديث عنها لم يملك أن يخفي استغرابه ، فسأل السيدة بعد أن حدثت هذا الحديث : « يا أم المؤمنين ! فأين كان هذا عنك ؟؟ ! » أى يوم خاصمت عثمان فقالت : « نسيت والله فاذكرته » ، فأخبرت بهذا الحديث معاوية بن أبي سفيان ، فلم يرض بالذى أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن « اكتبى لى به » فكتبت إليه به كتابا . مسند أحمد ٧٥/٦ وانظر ص ١٤٩ من الجزء نفسه ، وأنساب الأشراف ١١/٥ ، هذا وفي مسند أحمد ١١٤/٦ صيغة ثالثة حدثت بها السيدة مرة ولا تخلو من زيادة فائدة : قالت عائشة : « ما استمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة : فإن عثمان جاءه في نحر الظهيرة فظننت أنه جاءه في أمر النساء ، فحملتنى الغيرة على أن أصغيت إليه ، فسمعته يقول : « إن الله ملبسك قيصاً تربدك أمتى على خلعه فلا تخلعه » ... فلما رأيت عثمان يبذل لهم (للقواء وأهل الشغب) كل ما سألوه ... إلا خلعه ، علمت أنه من عهد رسول الله الذى عهد إليه » . وانظر الورقة ١٤٩ من مخطوطة ابن عساكر السابقة .

عثمان يتغير... فلما كان يوم الدار [يوم حصار عثمان في ذى الحجة سنة ٣٥] وحصر فيها قالوا:

« يا أمير المؤمنين ألا تقاتل؟ » قال: « لا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إليّ عهداً وإني صابر نفسي عليه »^(١).

٤ — أتى عثمان منزل عائشة فسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: « ذهب يبتغي لأهله قوتاً، فإنه ما أوقد في آياته نار منذ سبعة أيام ». فقال: « رحمك الله، أفلا تعلميني إذا كان مثل هذا! »، ورجع فبعث بطعام وشاة إلى كل بيت؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما هذا يا عائشة؟ » قالت: « بعث به عثمان » فقال: « ابغى منه إلى النسوة »؛ فقالت: « ما منهن امرأة إلا أتاها مثل هذا ». فرفع يديه وقال: « اللهم لا تنسها لعثمان »^(٢).

٦٥ — ولم أجد — فيما اطلعت عليه — لعثمان مما يخص السيدة عائشة من قريب أو بعيد شيئاً يخرج عن معنى ما تقدم، إلا أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفي « أردن أن يرسلن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت لهن عائشة: « أوليس قد قال رسول الله: « لا نورث، ما تركناه فهو صدقة »^(٣). وإلا أن عثمان كان يحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم على عهد عمر:

فقد رغبت أمهات المؤمنين في الحج، فاستأذن عمر فأبى أن يأذن لهن حتى أكثرن عليه فقال: « سأذن لكن بعد العام، وليس هذا من رأيي ». فلما أردن الحج جهزهن وأرسل معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وأمرها أن يسير أحدها بين أيديهن والآخر من خلفهن ولا يسيرهن أحد، وقال: « فإذا نزلن فأنزلوهن شعباً ثم كونا على باب الشعب لا يدخلن عليهن أحد ». ثم أمرها إذا طفن بالبيت: ألا يطوف معهن أحد

(١) مصادر الحاشية السابقة.

(٢) أنساب الأشراف ٨/٥.

(٣) مسند أحمد ٦/٢٦٦ والإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة ص ١٦٧ رواية عن

البخارى ومسلم.

إلا النساء» ؛ فلما هلك عمر عُثَيْن من بعده . ولو أن غيرهن طلب هذا الطلب ما لان عمر ،
ولكنه — رحمه الله — كان شديد التعظيم لقدرهن كبير الرعاية لحرمتهن .

وسار على سيرة عمر فيهن ، الخليفة بعده عثمان بن عفان ، فقد « حج بأزواج رسول
الله صلى الله عليه وسلم كما كان يصنع عمر ، فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه ، وجعل
في موضع نفسه سعيد بن زيد : هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمه . »^(١)

X

(١) عن كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٩٨ وانظر أيضاً الرياض النضرة ٢٣/٢ والطبرى ٤٢٧/٣ .

الفصل الأول

كيف ساءت العلاقات بينهما في خلافته

أنت ترى إذن أن السيدة تنطوي على إجلال واحترام عميقين لعثمان على عهد الرسول والخليفين من بعده ، فلما وسدت الخلافة إلى عثمان دب ديب الخلاف بينهما . وذلك أنه كان لتصرف عثمان مع بعض أجلاء الصحابة تصرفاً غير رقيق من جهة ، ولأخطاء عماله في شؤون إدارية من جهة أخرى ، كان لكل ذلك أثر في حمل السيدة على الإنكار العنيف . ولم يلف من هذا الإنكار ما كان يظهره عثمان في مناسبات شتى من إكرام لها وإجلال ، حتى لقد كان يغضى أحياناً عما يخل بالواجب نحو عمله وعمه يوهن سلطانه رعاية لها :

كان محمد بن أبي بكر (أخو عائشة) قد امتلأ قلبه غيظاً من عثمان ، فصار يشغب عليه وعلى عامله بمصر شعباً كثيراً ، ويقال إنه أتى ذنباً يوجب الحد فأقام عليه عثمان الحد ، فعظم الأمر عليه لما له من الشرف بأبيه أبي بكر^(١) وسولت له نفسه الواقعة في عثمان وسلطانه حتى ضاق به عامل مصر عبد الله بن أبي سرح فكتب إلى عثمان :

« إن محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة قد أنفلا على المغرب وأفسداه . »

فكتب إليه عثمان : « أما محمد بن أبي بكر فإني أدعه لأبي بكر الصديق وعائشة أم المؤمنين ، وأما محمد بن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وأنا ربيته وهو فرخ قریش^(٢) »

أقول : وعلى رغم ما يكنّ عثمان ويظهر من احترام السيدة ورعايتها سارت الأمور سيرها المكروه بينهما ، وكان كل أمر يسلم إلى أشد منه ... حتى أن كلاً منهما أرسل لسانه في الآخر على ملاء الناس . وأنا أسوق إليك مواقف عائشة في أمور بأعيانها أنكرتها على عثمان :

لعل أول ما غير قلب السيدة — من حيث لا تشعر — نقص عثمان من عطائها :

(١) انظر منهاج السنة لابن تيمية ٢/٢٠٠ .

(٢) أنساب الأشراف ٥/٥٠ — طلب محمد بن أبي حذيفة من عثمان عملاً يتولاه ، فلم يره عثمان أهلاً للعمل ، فاعتذر له ، فاستأذنه في الخروج يكسب لنفسه ، فأذن له ، فخرج مغاضباً لعثمان يؤلب عليه .

كان عمر بن الخطاب قد فضل عائشة على أخواتها أمهات المؤمنين في العطاء ، لمكانها من رسول الله ، ولما تؤدى من خير في نشر سنته أكثر منهن ، ففرض لأمهات المؤمنين ستة آلاف ستة آلاف ، وفرض لعائشة في اثني عشر ألفاً^(١) ، فلما ولي عثمان « نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب ، وصيرها أسوة غيرها من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فإن عثمان ليخطب إذ دلت عائشة قيص رسول الله ونادت : « يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يَبَلْ وقد أبلى عثمان سنته !! » فقال عثمان : « رب اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم^(٢) » وظاهر أن عثمان لم يفعل إلا ما رآه — في اجتهاده الخاص — واجباً فلا لوم عليه . ثم كانت السيدة تتأثر بعنف كلما بلغها عن عثمان خطأ يمس الصالح العام من قريب أو بعيد ، فنصبت نفسها المحامي العام (ضد) الخليفة ، والذائد عن كل من يناله من عثمان أقل أذى . وهي إذ تجادل عن أولئك المظلومين لا تجادل جدال المحامي اللبق الذي يعمل الناس بحكمته ورفقه على التسليم له ، بل جدال المتحدى (العصبى) الحنق الذى يهيجه مس النسيم فيثور صاحباً على رؤوس الأشهاد :

١ — يأتي وفد مصر يشكو عاملها عبد الله بن أبي سرح ، فيكتب له عثمان كتاباً يتهده وينهاه ، فيأبى ابن أبي سرح أن ينتهى ، ويضرب رجلاً من الوفد فيقتله ، فيخرج من مصر سبعائة رجل إلى المدينة فينزولون المسجد يشكون إلى أصحاب رسول الله في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح فيكلمون عثمان بشدة ، وترسل إليه السيدة عائشة قائلة :

« قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل ، فأبيت أن تعزله ، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك »^(٣)

٢ — كان مما أخذ الناس على عثمان عزله من ولاية الكوفة القائد المغوار صاحب رسول الله سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وتوليته مكانه الوليد بن عقبة (أخا عثمان من الرضاعة) رجلاً مستهتراً ، فكان من جراء تصرفات العامل الجديد : أن يأتي عثمان وفد من أهل الكوفة يطلبون عزل عاملهم ، ويشهدون عليه باتيان منكر يوجب

(١) تاريخ يعقوبى ١٧٥/٢ .

(٢) العقد الفريد ٨٠/٣ (المطبعة الأزهرية طبعة سنة ١٩٢٨) .

الحد ، فلا يقنع بشهادتهم ويظن بهم التزوير ويتوعددهم ، فيأتي الشهود عائشة ملتجئين مستجيرين ، فيخبرونها بما جرى بينهم وبين عثمان وأنه زجرهم وهددهم ، فتنادى عائشة : « إن عثمان عطلّ الحدود وتوعدّ الشهود . »^(١)

ويزيد البلاذري على ذلك رواية بعضهم : « أن عائشة أغاظت لعثمان وأغلظ لها وقال « وما أنت وهذا ؟ إنما أمرت أن تقرى في بيتك » فقال قوم مثل قوله ، وقال آخرون : « ومن أولى بذلك منها ؟ » فاضطربوا بالنعال وكان ذلك أول قتال بين المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم .

٣ — ويطيب لى أن أثبت هنا رواية صاحب الأغاني ففيها تفاصيل تفصح عن غضب عثمان وتهديده ، وأن السيدة — بعدما تقدم — أعادت القول في الموضوع نفسه واستطاعت إهاجة عثمان حتى أخرجته عن حمله . قال أبو الفرج الأصفهاني :

خرج رهط من أهل الكوفة في أمر الوليد (بن عقبة) فقال عثمان : « أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالبابل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . » ، فاستجاروا بعائشة وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال : « أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ !! » فسمعت ، فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : « تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل » فتسامع الناس فجاؤوا حتى ملؤوا المسجد ، فمن قائل : « أحسنت » ومن قائل : « مال للنساء ولهذا ؟ » حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال . ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان فقالوا له : « اتق الله ولا تعطل الحد واعزل أخاك عنهم » فعزله عنهم^(٢) .

وهكذا أجارت السيدة أخيراً الشهود من انتقام الخليفة وأثمر احتجاجها وإنكارها فعزل العامل المشتكى منه على كره من عثمان .

ومهما يكن فإن مما لا ينبغي أن ينسى أن كلمة عثمان « أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالبابل » تؤرخ روح الشعب التي سيطرت في الأمصار . ومن اطلع على حركة

(١) تاريخ يعقوبى ٢/٢٠٣ .

(٢) الأغاني ٤/١٧٨ (طبعة الساسى) .

الجماهير حينئذ وما يبثه أهل الدسائس من شر وفساد ، عرف أن تصوير عثمان هذا حق كل الحق .

٤ - وينهض عثمان في أمر جليل النفع والخير بعد مشاورة الصحابة الأجلاء في جمع القرآن ويتم الله على يديه ما يتم ، ويملى عليه الحزم والنظر البعيد أن يجمع المصاحف المختلفة في البلدان ، فيحرقها جميعاً بعد أن قابل بعضها ببعض على مجمع من القراء وفقهاء الصحابة ، ويأخذ الناس جميعاً بمصحف واحد ؛ وكل هذا مما يحمد عليه أ كبر الحمد فقد أحكم الأمر وسدد الخطة وكان الصواب حليفه في كل خطواته .

كان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود قد أبى أن يبعث بمصحفه إلى المدينة ، وأبى تسليمه عبد الله بن عامر حسب أمر الخليفة ، فغضب عثمان وأمر بإشخاص ابن مسعود إليه . وإلى هنا عثمان على حق في جميع ما تبثه ، فليس لأحد - مهما جل - أن يشذ عن أمر عام دخل فيه المسلمون وكان معقد الخير لهم عامة ؛ ولكن عثمان تعتربه حدة تخرج به عن طوره :

فقد وافى ابن مسعود المدينة ودخل مسجدها وعثمان يخطب ، فيزعم المؤرخون أنه حين أبصر ابن مسعود داخلًا قال : « ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة سوء »^(١)

ويزيد البلاذري في روايته هذه الكلمة : « من يمشى على طعامه يقيء ويسلح . »^(٢) فيرد ابن مسعود : « لست كذلك ، ولكني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم بيعة الرضوان » حينئذ لا تملك السيدة عائشة نفسها وهي غضبي لهذا الاستقبال السيء يستقبل به الخليفة عثمان على مسمع منها ومن الناس : الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ، فتنادى من حجرتها : « أي عثمان ، أتقول هذا لصاحب رسول الله ؟ ! » ويأمر عثمان بابن مسعود فيجر برجله حتى يكسر له ضلعان وتتكلم عائشة وتقول قولاً كثيراً^(٣) .

ولهل السيدة باستنكارها هذه المعاملة السيئة قد عبرت عن شعور كل المشاهدين في المسجد ، ولقد مال عثمان في مؤاخذه ابن مسعود إلى عنف واحتمار لا يستحقهما ، وعتب بلين فيه كل الغناء لمثل ابن مسعود .

(١) تاريخ يعقوبى ١٩٧/٢ .

(٢) أنساب الأشراف ٤٨/٥ والمصدر السابق .

٥ — ثم وقع شر من هذا في شأن صحابي جليل آخر هو عمار بن ياسر :

كان عمار قد أنكر على عثمان حين حلى نساءه من بعض ما في بيت المال (ولعل ذلك كان على سبيل العارية ولكن الناس ألفوا طراز عمر في الحكم) ، فدعا عماراً فشتمه وضربه حتى غشى عليه — على ما يقول البلاذري — ثم أمر به فأخرج « فأتى منزل أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصل الظهر والعصر والمغرب . . . فإذا أم سلمة قد غضبت لعمار ، وبلغ عائشة ما صنع بعمار فغضبت وأخرجت شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثوباً من ثيابه ، ونعلاً من نعاله ثم قالت : « ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم تبيل بعد ! » فغضب عثمان غضباً شديداً حتى ما درى ما يقول ، فالتج المسجد (اختلطت أصوات أهله) وقال الناس . « سبحان الله سبحان الله » وكان عمرو بن العاص بين الناس فجعل يكثر التعجب والتسبيح^(١) .

٦ — تكررت مواقف عائشة هذه من عثمان ، وأرغمته على تغيير عماله . . . حتى تأذى منها كثيراً ، وحتى كان يخرج في بعض الأحيان عما ينبغي له من وقار واعتدال وعما يليق به من حلم واحتمال ، قال صاحب البدء والتاريخ :

« كان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وعائشة . وخذله المهاجرون والأنصار ، وتكلمت عائشة في أمره ، وأطلعت شعرة من شعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعله ، وثيابه ، وقالت . « ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم . . . » فقال عثمان في آل أبي قحافة (أسرة عائشة) ما قال ، وغضب حتى ما كان يدري ما يقول^(٢) » اهـ .

هذا ما كان من آثارها ، ودع لنفسك أن تقدر ما يبلغ مثل ذلك من نفوس الناس وهم حينئذ أولو الحمية للإسلام وأقرب عهداً بالرسول وصاحبيه . . . كم يبلغ من نفوسهم الوجد على عثمان حين فرط حتى بلغ السيل الزبي . . . حتى تغير عليه امرأة ، ثم لا تكون تلك المرأة إلا أم المؤمنين عائشة أحب أزواج النبي إليه وأجلهن في أعين الناس . ترفع عليه في

(١) الصفحة نفسها من أنساب الأشراف . وكان عمرو بن العاص غاضباً على عثمان أنه عزله من ولاية مصر ، وكان يقول : « ألبت على عثمان حتى الراعي في غنمه » .

(٢) البدء والتاريخ ٢٠٥/٥ .

المسجد صوتها ، وتبرز للمسلمين نعل الرسول مرة ، وشعره مرة ، وثوبه مرة تنصبه — على إحدى الروايات — في حجرتها وتقول للداخلين عليها . « هذا ثوب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » .

إن الأثر الذي أترته السيدة في نفوس الناس لجد بليغ . ولست أغلو إذا قلت : إن هذا التغير في النفوس يكمن ، ثم هو لا يزداد على الأيام إلا شدة ثم لا يزال يتعاضم وهو في خفائه حتى ينفس عن نفسه والويل منه حينئذ . وهذا يفسر لنا بجلاء سبب تقاعس أهل المدينة — إلا نفرًا قليلاً — عن نصره عثمان حين حزه الأمر وتأزمت الأحوال ، واغتماله الشاغبون من أهل الأمصار .

الفصل الثاني

احتجاج عثمان وتتابع الحوادث

عرفت شيئاً مما نقم الناس على عثمان مما مرده إلى شكوى من عامل أو تأديب قاسٍ لصحابي جليل تأديباً رآه الناس في غير محله . وهناك أمور أهم من هذه مردها — كما اعتقدوا — إلى إنداث في الدين أو تهاون بمصالح المسلمين أو تبذير لأموالهم ، وقد بلغت عثمان ، ودافع عن نفسه فيها خير دفاع . وأرى واجباً على قبل أن أورد لك احتجاج عثمان أن أنبهك إلى أن الذين روجوا هذه المعاييب لم يكونوا يقصدون الإصلاح ، فلم تكن ثورتهم على هذه المعاييب ، وإنما كانت على خلافة عثمان ، ولولا أن تظن بي مبالغة أو غلوّاً لقلت إنها ثورة على الإسلام نفسه . فأدعك الآن ، فعن قريب تتبين لك الأمور .

لم تكن غايتهم الإصلاح وإنما الإفساد ، يظهر ذلك لسكل من أنعم النظر في مآتي هؤلاء الثأرين من الأمصار ، ولن يعدم المدقق أن يلمس خبث طواياهم من بين السطور ، أستغفر الله ، بل من السطور نفسها .

لما توافى أهل الشعب إلى المدينة (وعلى رأسهم السبثيون) مظهرين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أرسل عثمان إليهم رجلين من غير بني أمية : مخزومياً وزهرياً ، ليعلما علم القوم على جليته ، فلما اجتمعا بهم لم يشكوا في أنهما ناقان على عثمان لأنهما نالها منه تأديب وعقوبة . فاطمأنوا إليهما وكاشفوها جليسة الأمر كما دبروه وهم لا يشكون في أنهما داخلان في أمرهم . أما الرجلان فقد أخلصا النصيحة لإمامهما وصبرا على الحق ولم يضطفنا على عثمان عقوبته .

قال الرجلان : « من معكم على هذا الأمر (أى الثورة) من أهل المدينة ؟ »

قالوا : ثلاثة نفر

قالا : هل إلا ؟

قالوا : لا

قالا : « فكيف تريدون أن تصنعوا ؟ »

قالوا (تأمل) : نريد أن نذكر لعثمان أشياء قد زرعتها في قلوب الناس ، ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أننا قررنا به فلم يخرج منها ولم يتب ، ثم نخرج كأننا حجاج حتى نقدم ، فنحيط به فنخلعه ، فإن أبي قتلناه . »

والغريب أن الأمر تم بعد سنة على ما رسموا ، ولم ينفع عثمان عمله بالخطبة إذ لم يأبه لها فيأخذ لها عدتها ، فانظر إلى اللاعبين بالجماهير : إنهم يلعبون بأداة لا عقل لها ولا امتناع بها .

رجع الرجلان إلى عثمان بالخبر على حقيقته ، فضحك (!!) وقال : « اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا . »

وظن عثمان أن ما بالقوم خطأ من الخطأ ، يعالج ببيان الصواب والنصح ، فأرسل إلى جموع الكوفيين والبصريين من المعارضين ليوافوه بالمسجد ، وأرسل من ينادى في الناس « الصلاة جامعة » فأقبل الناس ، وتبادر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . جلس أهل الأمصار حول المنبر وحوهم الصحابة الكرام ، ثم صعد عثمان المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، وأخبرهم خبر القوم ، وقام الرجلان (فشهدا) ، فأشاروا على عثمان بقتلهم فإنهم دعاة فتنة وشقاق ، فرفض عثمان وقال : « بل نغفو ونقبل ، ونبصرهم بجهدنا ، ولا نحاذأ أحداً حتى يركب حداً أو يبدي كفراً » ثم طفق عثمان يذكر القضايا التي تقوموا عليه ويردها واحدة واحدة ، قال :

« إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم ، إلا أنهم زعموا أنهم يذاكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم :

١ — قالوا : (أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم)

ألا إني قدمت بلداً فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين ^(١) ، أو كذلك هو ؟

قال المستمعون : « اللهم نعم . »

(١) كذلك هي في تاريخ الطبري (طبعة ليدن سنة ١٨٧٩ م ، وطبع في مصر (طبعة الحسينية ، وطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨ هـ) . وليس لإشارة التثنية هنا مرجع إذ لم يذكر إلا أمراً واحداً . ولم نجد لهذه الخطبة نسخة ثانية في كل مصادر التاريخ المطبوعة ، لكننا بالرجوع إلى مخطوطة ابن عساكر في دارالكتب الظاهرية (رقم ٣٣٧٥ تاريخ ١٠ ج ١١ الورقة ١٥٧ / ١) ، وجدنا نص الخطبة في ترجمة =

٢ — وقالوا: (حميت حمى) وإني والله ما حميت [إلا ما] ^(١) حمى قبلى، والله ما حموا شيئاً لأحد، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه أحداً، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها ^(٢) لثلاثا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحووا ^(٣) منها أحداً إلا من ساق درهما ^(٤)، وما لى من بعير غير راحلتين، وما لى ثاغية ولا راغية ^(٥). وإني قد وليت وأنا أكثر العرب بعيراً وشاء، فما لى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى؛ أ كذلك هو؟

قالوا: «اللهم نعم»

— عثمان، كما هي في الطبرى، إلا أننا وجدنا في أخباره شرحاً لهذين الأمرين: أما الأمر الأول وهو الذى أشير إليه في هذه الخطبة فقد أوضحه عثمان نفسه حين أنكر عليه الناس فقال: «بأيها الناس إني تأملت بمكة منذ قدمت وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من تأهل في بلد فليصل صلاة المقيم) أى أربع ركعات، انظر الورقة ١/١٤١.

وأما الأمر الثانى فيوضحه خبر قبل هذا مؤداه أن قوماً من الأعراب كثروا بمنى وظنوا أن الصلاة للمقيم ركعتان، فغشى عثمان أن يرجعوا إلى مياهم وبواديههم وهم على هذا الفهم الخاطى: يصلون الرابعة ثنائية، فصلاها بهم أربعاً «ليعلمهم أن الصلاة أربع» — انظر الورقة نفسها ١/١٤١.

وفي كتاب (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان) وهو نسخة مصورة بملك السادة (عبيد إخوان) ما يفيد أنه أتم الصلاة من أجل حاج البن خشية أن يظنوا الصلاة ركعتين دائماً — انظر ص ٢٧ منه. وكانت هذه الخطبة — بطبيعة الأمر — بعد إنكار الناس عليه إتمامه الصلاة ورده هذا الإنكار ببيان السببين المذكورين، بزمن طويل، إذ أنه جمع في خطبته كل ما سبق أن أنكر عليه، فكان الأمران معهودين عند السامعين، وإن لم ترد إشارة إلى ثانيهما في خطبته.

على أن الجملة في مخطوطة ابن عساكر هذه خالية من (هذين الأمرين) ففيها: (فأتممت لهذا الأمر). وهو أوجه. وفي نسخة (التمهيد والبيان): (فأتممت لهذا من الأمر).

(١) زيادة عن مخطوطة ابن عساكر، وقد خلت من هذه الزيادة الضرورية جميع طبعات تاريخ الطبرى.

(٢) في كتاب (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان): «موبها» وهو أوضح. والمويه: تصغير ماء.

(٣) في مخطوطة ابن عساكر: «ولانحن» وكذا في كتاب التمهيد والبيان ص ٩٣، وهى أحسن.

(٤) كذا في طبقات تاريخ الطبرى جميعاً وليس لها معنى. وقد راجعت في سبيل الاهتداء إلى أصلها

كل ما لى من مصادر التاريخ والأخبار فلم أظفر بشيء. وفي دار الكتب الظاهرية مخطوطتان لتاريخ

ابن عساكر: أما النسخة الأصلية التى أشرنا إليها آنفاً ففيها: «إلا من ساودها»، وأما النسخة الثانية (رقم

١٠٥ تاريخ ج ٦) ففيها (ساودها)، فإذا افترضنا أن التحريف عن (ساورها) بمعنى واثبها أو (ساودها)

بمعنى كأيدها، لم يكن لضمير التثنية في الحالين مرجع. فإذا جعلنا التحريف عن (ساورها) أو (ساودها)

وصلنا إلى احتمال غير بعيد. أما أنا فلست بمطمئن ورحم الله من انكشفت له فدل عليها.

والذى في كتاب التمهيد والبيان ص ٩٣ (إلا من ساق درهما) فإن كان المعنى أنهم لا يردون عن الماء

صاحب الشاة والشاتين ولا البعير والبعيرين، وإنما يردون صاحب العدد الكثير لقلعة الماء، كان ما في (التمهيد

والبيان) أبعث على الاطمئنان. فالدهم صفة للسود من الشاء والإبل والحيل، والأمر يحتاج إلى تأييد نص آخر.

(٥) الثاغية: الشاة. والراغية: البعير.

٣ - وقالوا : (كان القرآن كتباً فتركها إلا واحداً^(١)) . ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد ، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء ؛ أ كذلك هو ؟
قالوا : « اللهم نعم »

٤ - وقالوا : (إني قد رددت الحكم^(٢)) وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكي سيره رسول الله من مكة إلى الطائف ، ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ورسول الله رده ؛ أ كذلك هو ؟
قالوا : « اللهم نعم » .

٥ - وقالوا : (استعملت الأحداث) : ولم أستعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً ؛ وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه^(٣) ، وهؤلاء أهل بلده^(٣) . ولقد ولي من قبلي أحدث منهم ، وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لي في استعماله أسامة ؛ أ كذلك هو ؟
قالوا : « اللهم نعم ، يعيبون للناس ما لا يفسرون »

٦ - وقالوا : (إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه) : وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس فكان مئة ألف ، وقد أنفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما

(١) إشارة إلى جمعة المصاحف لما بلغه اختلاف أهل الامصار في قراءة بعض الكلمات ، وأخذ الناس جميعاً بمصحف واحد هو ما أجمع على صحته قراءة الصحابة ومشيخة قريش . وكان هذا من أجل الأعمال النافعة لعثمان رضي الله عنه .

(٢) الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي ، والد مروان بن الحكم وعم عثمان بن عفان :

أسلم يوم القتيح وسكن المدينة ثم كانت منه إساءات وأذى للرسول صلى الله عليه وسلم فنفاه من المدينة ، ولما ولي أبو بكر كله جماعة في رده إلى المدينة فامتنع قائلاً : « ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولما أعاده عثمان إلى المدينة كثرت القالة عليه ، فاعتذر عثمان بقوله : « قد كنت شفعت فيه فوعدني النبي صلى الله عليه وسلم برده » .

فلعل هذا ما قصد إليه عثمان بقوله (فرسول الله سيره ورسول الله رده) ، وإلا فلم أجد في مصدر : أن رسول الله رده في حياته ولا الخليفان من بعده .

مات الحكم في خلافة عثمان سنة (٣٢ هـ) ، فضرب على قبره فسطاط في يوم صائف ، فتكلم الناس في ذلك منتقدين ، فاحتج عثمان بقوله : « قد ضرب في عهد عمر على زينب بنت جحش فسطاط ؛ فهل رأيتم عائباً عاب ذلك !؟ » . — انظر ترجمة الحكم في هذه المصادر : الإصابة ، أسد الغابة ، طبقات ابن سعد .

(٣) يريد بـ (فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده) : سلوا أهل البصرة عن عبد الله بن عامر . وليس في الكلام مرجع لهذين الضميرين ولكنهما معهودان عند الخطيب وسامعيه .

فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم؛ أ كذلك هو؟

قالوا: « اللهم نعم » .

٧ — وقالوا: (إني أحب أهل بيتي وأعطيتهم): فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم . وأما إعطاؤهم فإني إنما أعطيتهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ شحيح حريص ؛ أخين أتيت على أسنان أهل بيتي وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى : قال للمحدثون ما قالوا؟! وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد ردته عليهم وما قدم على إلا الأحماس . ولا يحل لى منها شىء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ، ولا تبلغت ^(١) من مال الله بفلس فما فوقه . وما أتبلغ منه ؛ ما آكل إلا من مالى .

٨ — وقالوا: (أعطيت الأرض رجلاً) : وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت ؛ فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ، ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ؛ فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب ، فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى ^(٢) .

لقد أثر هذا الخطاب المنفع أثره فى نفوس السامعين إلا أهل الشغب من الأمصار فإنهم لم تكن إنارتهم هذه الأمور لوجه الله والإصلاح ، إنهم أثاروها مكيدة وفتنة وتوصلاً إلى أمر أضمره ، فإن لم تشر ثمرها أثاروا غيرها ... فإن الفتنة هى هدفهم الأوحده .

أما غيرهم فقد اطمأنوا إلى حجج عثمان ، وهى جميعها سديدة صائبة ، وهو فيها جميعاً محق مصيب . وأراد الناس عثمان على قتل هؤلاء المفسدين حسماً للداء بعد أن تبين غشهم

(١) فى تاريخ الطبرى ٣/٣٨٥ (مطبعة الاستقامة) : (ولا يتفلى) ، ولا معنى لها ، والتصحيح عن مخطوطة ابن عساكر .

(٢) عقب الطبرى على هذه الخطبة بقوله : (وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية ، وجعل ولده كيعض من يعطى ؛ فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف ، وأعطى بنى عثمان مثل ذلك ، وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب) ٣/٣٨٥ — وانظر أخبار عثمان بن عفان فى مخطوطة ابن عساكر السابقة .

ودخلهم ، وأبى عثمان إلا أن يعاملهم بالحسنى ، فلان لهم وتركهم .
فانتمروا فيما بينهم أن يرجعوا هذا العام ليعودوا من قابل — على ما تقدم لك من
خطتهم — فيحكموا أمر خلعهم أو قتله .

وبعد ، فليس سرد الحوادث التي تتابعت منذ نقم الناس على عثمان ما نقموا إلى أن قتل ،
من منهج كتابنا . لقد اختططنا لأنفسنا أن نجعل الأحداث كما يراها الرأى من ناحية السيدة
عائشة وما حولها ، لا عامة مصغرة كما يراها الرأى من عل ، فذلك بكتاب تاريخ عام أشبه .
إلا أنه لا مندوحة لنا عن عرض سريع موجز للحوادث عامة ، ثم نأخذ بالتفاصيل
اللازمة من جهة السيدة عائشة . لقد قلبت مطولات التاريخ ثم اخترت عرضاً أعجبنى جداً
لإمام دين ثقة ، قريب العهد من الحوادث نفسها ، ناقد بصير بموارد الأمور ومصادرها ،
ذلك هو سعيد بن المسيب يعرضها على الصورة التي قنع بصحتها واطمأن إليها على أسلوبه
الذي ارتضاه ، لقد آثرت عرضه على كل ما لدى — وما أكثره — فلنستمع إليه ^(١) :

« قال ابن شهاب الزهري :

قلت لسعيد بن المسيب : « هل أنت مخبري : كيف قتل عثمان ؟ وما كان شأن الناس
وشأنه ؟ ولم خذله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ »
فقال : « قتل عثمان مظلوماً ، ومن قتله كان ظالماً ، ومن خذله كان معذوراً . »
قلت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « إن عثمان لما ولي كره ولايته أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن عثمان
كان يحب قومه ، فولى اثنتي عشرة سنة ، وكان كثيراً ما يولي بني أمية ممن لم يكن له من
رسول الله صلى الله عليه وسلم حبة ، وكان يجيء من أمرائه ما يكره أصحاب محمد ، فكان
يستعقب فيهم فلا يعزلهم .

فلما كان في الحجج الآخرة ، استأثر بنى عمه ، فخرجوا ، فولاهم وأمرهم بتقوى الله .

(١) عن العقد الفريد . وبعض الحوادث التي يشير إليها هنا سلسلة بإيجاز ، مر بكتفها آتفاً .

وولى عبد الله بن أبي سرح مصر، فكث عليها سنين، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه، ومن قبل ذلك كانت من عثمان هنات إلى عبد الله بن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر، فكانت هذيل وبنو زهرة في قلوبهم ما فيها لابن مسعود، وكانت بنو غفار وأحلافها ومن غضب لأبي ذر في قلوبها ما فيها، وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان بحال عمار ابن ياسر.

وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح، فكتب عثمان إليه كتاباً يتهدده، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عثمان عنه، وضرب رجلاً من أتى عثمان فقتله. فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل إلى المدينة فنزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح، فقام طلحة بن عبيد الله فكلّم عثمان بكلام شديد وأرسلت إليه عائشة:

« قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوك عنزل هذا الرجل فأبيت أن تعزله، فهذا قد قتل منهم رجلاً، فأنصفهم من عاملك ».

ودخل عليه عليّ وكان متكلم القوم فقال:

« إنما سألوكم رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا قبيله دماً، فأعزله عنهم واقض بينهم وبينه فإنه قد وجب عليه حق فأنصفهم منه ».

فقال عثمان لهم: « اختاروا رجلاً أولاً عليكم مكانه ». فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر فكتب عهده وولاه، وأخرج معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون بين أهل مصر وابن أبي سرح. فخرج محمد ومن معه...

فلما كانوا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا هم بسلام أسود على بعير يخطب الأرض خبطاً كأنه رجل يطلب أو يُطلب، فقال أصحاب محمد: « ما قصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب؟ » فقال: « أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر ». فقالوا: « هذا عامل مصر معنا ». قال: « ليس هذا أريد ».

وأخبر بأمره محمد بن أبي بكر فبعث في طلبه فأتى به، فقال له: « غلام من أنت؟ » فأقبل مرة يقول: « غلام أمير المؤمنين » ومرة: « غلام مروان » حتى عرفه رجل منهم

أنه لعثمان . فقال له محمد « إلى من أرسلت ؟ » قال : « إلى عامل مصر » . قال « بماذا ؟ » قال : « برسالة » قال : « معك كتاب ؟ » قال « لا » ففتشوه فلم يوجد معه شيء إلا إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل ، فخره ليخرج فلم يخرج ، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح ، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه :

« إذا جاء محمد وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وأبطل كتبهم وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي ، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله » .

فلما قرؤوا الكتاب فرعوا وعزموا على الرجوع إلى المدينة ، وختم محمد الكتاب بخواتم القوم الذين أرسلوا معه ودفنوا الكتاب إلى رجل منهم ، وقدموا المدينة فجمعوا عليها وطلحة والزبير وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام ، وأقرؤهم الكتاب ، فلم يبق أحد في المدينة إلا حنق على عثمان ، وازداد منهم من كان غاضباً لابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر غضباً وحنقاً ، وقام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلحقوا بمنزلهم : مامنهم أحد إلا وهو مقتم بما قرؤوا في الكتاب . وحاصر الناس عثمان ، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر بنى تيم وغيرهم ، وأعانه طلحة ابن عبيد الله على ذلك ، وكانت عائشة تقرضه (تذمه) كثيراً .

فلما رأى ذلك على بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم بدرى ، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير ، وقال له على : « هذا الغلام غلامك ؟ » قال : « نعم » قال : « والبعير ببعيرك ؟ » قال : « نعم » قال : « والخاتم خاتمك ؟ » قال : « نعم » قال : « فأنت كتبت الكتاب ؟ » قال « لا » وحلف بالله : « ما كتبت الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت الغلام إلى مصر قط » .

أما الخط فعرّفوا أنه خط مروان ، وشكوا في أمر عثمان ، وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى ، (و كان مروان عنده في الدار) فخرج أصحاب محمد غضاباً وشكوا في أمر عثمان وعلّموا أنه لا يحلف باطلا ؛ إلا أن قومًا قالوا :

« لا نبرى عثمان إلا أن يدفع إلينا مروان حتى نمتحنه ونعرف أمر هذا الكتاب ،

وكيف يأمر بقتل رجال من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق؟ فإن يك عثمان كتبه عزله، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا في أمره « ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشى عليه القتل .

وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء ، فأشرف عليهم فقال : « أفیکم علی ؟ » قالوا « لا » قال : « أفیکم سعد ؟ » قالوا : « لا » فسکت ... ثم قال : ألا أحد يبلغ علياً فيسقيناه ماء ؟ « فبلغ ذلك علياً فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه ، وجرح من سبها عدة من موالى بنى هاشم و بنى أمية حتى وصل إليه الماء .

فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله فقال : « إنما أردنا منه مروان ، فأما قتل عثمان فلا . » وقال للحسن والحسين : « اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكره . وبعث الزبير ولده ، وبعث طلحة ولده على كره منه ، وبعث عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان ، وسألوه إخراج مروان ...

ورمى الناس عثمان بالسهم حتى خضب الحسن بن علي بالدماء على بابه ، وأصاب مروان سهم في الدار ، وخضب محمد بن طلحة ، وشجق قنبر مولى علي ... وخشى محمد بن أبي بكر أن تغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيرونها ، فأخذ بيدي رجلين فقال لهما : « إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين ، كشف الناس عن عثمان وبطل ما يزيد ، ولكن مروا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد . »

فتسور محمد بن أبي بكر وصاحبه من دار رجل من الأنصار ويقال من دار محمد بن حزم الأنصاري ، فدخلوا عليه وليس معه إلا امرأته نائلة بنت الفرافصة والمصحف في حجره ، ولم يعلم بتسورهم أحد ممن كان معه لأنهم كانوا على البيوت ، فتقدم إليه محمد وأخذ بلحيته فقال له عثمان : « أرسل لحيتي يا بن أخي ، فلو رآك أبوك لساءه مكانك » فتراخت يده من لحيته وغمز الرجلين فوجاهه بمشاقص (نصال حادة أو سهام عليها نصال) معها حتى قتلاه ، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا ، وخرجت امرأته تقول : « إن أمير المؤمنين قد قتل ... »

فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبحاً ، فأكبوا عليه يبكون .
وبلغ علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا
على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا ، وقال علي لابنيه : « كيف قتل أمير المؤمنين وأتما على
الباب ؟ » ورفع يده فلطم الحسين وضرب صدر الحسن وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله
ابن الزبير . . . ثم خرج علي وهو غضبان يرى أن طلحة قد أعان عليه ؛ فلقبه طلحة فقال
« مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين . . . ؟ » فقال : « عليك وعليهما لعنة الله ،
يقتل أمير المؤمنين ورجل من أصحاب النبي صل الله عليه وسلم بدرى ولم تقم بينة ولا حجة ؟ ؟ »
فقال طلحة : « لودفع مروان لم يقتل . . . »

وخرج علي فأتى منزله وجاءه القوم يهرعون إليه : أصحاب محمد وغيرهم ، يقولون : « أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب » فقال علي : « ليس ذلك إلا لأهل بدر ؛ فمن رضى به أهل
بدر فهو خليفة . » فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى علياً . . . فقالوا . « ما نرى أحداً أولى
بها منك فمد يدك نبايعك . »^(١) . . . الخ .

(١) العقد الفريد ٣/٧٩-٨٢ (الطبعة الأزهرية - ١٩٢٨) وفيه : أن علياً لما دخل سأل امرأة
عثمان : « من قتل عثمان ؟ » قالت : « لا أدري ، دخل رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما وكان
معهما محمد بن أبي بكر » وأخبرته بما صنع محمد ، فدعا علي محمد بن أبي بكر فسأله عما ذكرت امرأة عثمان ،
فقال : « لم تكذب ، وقد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله فذكر لي أبي فقمتم وأنا نائب ، والله ما قتلته
ولا أمسكته » فقالت امرأة عثمان : « صدق ولكنه أدخلهما . »

ويذكر الطبري أن الذين أرادوا قتله كان يدخل عليه الواحد بعد الواحد فيهم يقتله فتدركه خشية
فيرجع « حتى ثار قتيرة رسودان بن حمران السكونيان والغافقي ، فضربه الغافقي بمحديدة معه وضرب المصحف
(وكان عثمان فرح إليه يقرأ فيه) برجله ، فاستدار المصحف فاستقر بين يديه ، وسالت عليه الدماء ، وجاء
سودان ليضربه فأكبت عليه (زوجته) نائلة بنت الفرافصة ، واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها ،
فأطن أصابع يدها وولت ، فغمز أوراكها وقال : « لئها لكبيرة العجيزة » وضرب عثمان فقتله . . .
وأرادوا حز رأسه فوقعت عليه نائلة ونساؤه وبناته فنعنهم وأقبل الأشقياء فاتهبوا ما في الدار وأخذوا
ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء ، وأخذ كلثوم بن تميم ملاءة نائلة . . . وهموا بجره من رجله لولا أن
صاحت نساؤه وبناته ، وكان ذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة . الطبري
٤٢٣ - ٤٢١/٣ .

ولذا عرفت - إلى ذلك - أن القوم ارتكبوا منه بعد قتله منكر أشع مما تقدم ، لم تستغرب
ما سيمر بك من إخلاص المهاجرين والأنصار في الاستماتة يوم الجمل ثاراً لعثمان ، فقد قتلوه قتلة تفتقر لها كل
قلب ، ثم لم يكتفوا حتى عدا أحدهم وهو عمير بن ضابي عليه ميتاً وهو موضوع على باب فكسر ضلعاً من
أضلاعه ، ثم منعوا دفنه في مقابر المسلمين ، وأمر بعضهم بدفنه في مقابر اليهود ، وكاد يتم ذلك لولا غضب

== قریش وخوف المعتدين ، ثم دفن ليلاً : خرج به أهله سراعاً ولم يغسل ولم يصل عليه إلا أفراد قلائل ، ومع هذا وقف له ناس منهم فرموا الجنازة بالحجارة .

لقد بقيت كل نفس — بعد هذه الوحشية — مفعوجة ملتاعة على عثمان ، فلم يكذب المنادى — فيما بعد — ينادى بالتأثر له حتى هبت الألوف تتقرب إلى الله ببذل دماؤها للاقتصاص من أولئك القساة الذين ملؤوا الأرض فتنه وبلاء ؛ أبق هذا في ذهنك فسترى فيه تفسيراً لكثير من وقائع الجمل فيما يأتي .
هذا وقد قتل غلمان عثمان ثلاثة من قاتليه الداخلين عليه : سودان بن حمران وقتيرة وكلثوم بن تميم ، ثم أصاب القتل كل من دخل على عثمان يوم الدار قتلوا في فتنه الجمل وما بعدها . وكان آخر من قتل منهم كميل بن زياد وعمير بن ضابئ قتلوا بعد سبع وثلاثين سنة :

ذكر ابن عساکر أن الحجاج بعد أن تغلب على ابن الزبير ولي الكوفة ، فدخلها وخطب أهلها ثم نزل يأخذ البيعة من القبائل قبيلة قبيلة . . . « حتى جاءت قبيلة النخع ، فقال لهم : « منكم كميل بن زياد ؟ » قالوا : « نعم » قال : « فما فعل ؟ » قالوا : « أيها الأمير ، شيخ كبير » . قال : « لا بيعة لكم عندي ولا تقربوني حتى تأتونني به » . فأتوا به منعوشاً في سرير حتى وضعوه إلى جانب المنبر فقال : « ألا إنه لم يبق ممن دخل على عثمان الدار غير هذا » ، فدعا بنطع فضرب عنقه .

وأما عمير بن ضابئ فقد أتى الحجاج بعد خطبته التي دعاهم فيها إلى الخروج إلى قتال العدو ، يستعفيه وهو يرتعش كبيراً فقال : « أيها الأمير إني من الضعف على ما ترى ، ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني ، أفتقبله مني بديلاً ؟ » فقال الحجاج : « نفعل أيها الشيخ » فذهب ، فأخبر الحجاج بحقيقته — ولم يكن يعرفه — فردده وقال له : « أيها الشيخ ، هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان بديلاً يوم الدار ؟ إن قتلك أيها الشيخ صلاح للمسلمين ، يا حرسى اضرب عنقه » . تهذيب تاريخ ابن عساکر ٥٣/٤ ، ٥٥ .

الفصل الثالث

في أبطال الفتنة الحقيقيين ونصيب عائشة منها

نعود بك هنا إلى بعض ما سبق بالتفصيل والشرح والجلاء، لعلاقته ببيان ما يخص عائشة على التحقيق، مبينين لك ما استطعنا كشفه من سر خفي، كما ظهر لنا وأدانا إليه اجتهادنا الخاص وقهنا للحوادث، بعد أن بذلنا جهدنا في الإمعان فيها ورد أعجازها على صدورنا: تنادى أهل الشعب والفساد من الأمصار الثلاثة الكوفة والبصرة ومصر إلى المدينة كأنهم حجاج، ودارت بينهم مكاتبات وأحكمت خطط لأمر فظيع قد بيته رؤسائهم من أهل الدس والكيد للإسلام، وانتشر الأمر على عثمان وبطانته، وخرج من أيدي العقلاء. ولقد ذكر المؤرخون قديماً ومحدثين أسباباً كثيرة أطمعت الناس في عثمان، مردّها أكثرها إلى لينه وحسن ظنه. وليس من خطة كتابنا هذا تفصيل الأمر لخروجه عن غرضه؛ وإنما الواجب بيان نصيب السيدة في توهين أمر عثمان. ولقد قدمنا بين يديك تفاصيل كافية في هذا الشأن، واهلك — مثلنا — ترجع أكثرها إلى إخلاص في السيدة عائشة للصالح العام؛ لكنه إخلاص شابه اندفاع لم يكبح بما تقتضيه الحكمة وبعد النظر، بل خضع كل الخضوع لمزاجها العصبى العنيف، ولحوازن نفسية من حيث لا تشعر السيدة إلا أنها مدفوعة بقوة لا تقاوم إلى الإنكار.

لكن هذا كله لا يصل بنا إلى درجة التصديق بكل ما تقدمه لنا المصادر من أخبار، بل يحفزنا إلى التنبيه على سوء الغرض والتشيع الحزبي في كثير من هذه الأخبار، فإن فن الموضوعين يدور على خلق حوادث تشبه أساساً مشهوراً بين الناس، فيبالغون ويزيدون وبيّنون من الحجة قباباً كثيرة.

أقول هذا بين يديّ شاهد أقدمه من هذه الشواهد الموضوعية التي تجد كثيراً منها في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:

مر بك آنفاً أن عائشة أخرجت ثوب رسول الله وقالت: « هذا ثوب رسول الله لم

يبيل وقد أبلى عثمان سنته « وقع هذا مرة أو مرتين ، إلا أن ابن أبي الحديد أو الذين روى عنهم يابون إلا أن يجعلوا هذا دأب عائشة وهجيرها تستقبل به كل داخل عليها ، قال :

« أخرجت ثوباً من ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين عليها : « هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبيل وقد أبلى عثمان سنته »^(١).

إن هذا التحوير ضئيل ، ولكن المعنى الذى صار يؤديه واسع فظيع ، وحسبك في دحضه أن هذا المصدر نفسه يروى عن علي بن أبي طالب خصم السيدة القوى القديم توزيع التبعة في أمر عثمان - وعلى صادق غير متهم على أحد - فلا يزيد على قوله : « ... وكان من عائشة فيه فلتة غضب ... »^(٢) وهذا هو الموافق منطق الحوادث . فأين منه الرواية السابقة التي تجعل الحفيظة مسيطرة على عائشة ما تنفك عنها لحظة . إن من أعجب العجب اعتماد مؤلف روايتين بينهما ما ترى من تفاوت .

وذكر هذا المصدر نفسه أنها أول من لقبت عثمان (نعثلاً) ، ونعثل رجل يهودى طويل اللحية شهبوا عثمان به لطول لحيته ، وأنها كانت تقول : « اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً »^(٣) ويزيد ابن أبي الحديد مسترسلاً : أنها لما بلغها قتله قالت : « بعداً لنعثل وسحقاً ، أبعده الله ، ذلك بما قدمت يداه »^(٤) .

وهذه كلها لأصل لها ، يقطع ببعدها كل من أعمل الرواية والدراية في نقد الأخبار ومقابلة بعضها ببعض ، استفاضت هي وأمثالها في المصادر الشيعية وتسرب بعضها بطريقة العدوى إلى غيرها من المصادر ، فالبلبل ذرى مثلاً يروى أن عبد الله بن عباس مر بعائشة وقد ولاه عثمان الموسم (موسم الحج بمكة) وهي بمنزل من منازل طريقها ، فقالت عائشة : « يا بن عباس إن الله قد آتاك عقلاً وفهماً وبياناً فأياك أن ترد الناس عن هذا الطاغية »^(٤) وهذا دليل على أن الرواة منذ القديم يروجون ما ينصر هواهم من أخبار .

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٧٦/٢ .

(٢) المصدر السابق ٢٩٠/٣ .

(٣) المصدر نفسه ٧٦/٢ .

(٤) أنساب الأشراف ٧٥/٥ .

الحق أن العدوان على عثمان لم يخطر قط بخلد أحد من أهل المدينة أو غيرها إلا الموتورين وإلا نفرأ من رؤوس المؤامرة من أهل الأمصار ممن دخلوا الإسلام دسيسة ولم يألوه كيداً وفساداً .

اشتد الأمر على عثمان وحوصر ومنع الماء ، فاستنجد بعلي وطلحة والزبير وعائشة ، وأمهات المؤمنين ، « فكان أولهم إنجاد له عليّ وأم حبيبة بنت أبي سفيان : جاءت على بغلة لها برحالة مشتملة على إداوة فقيل : « أم المؤمنين أم حبيبة » فضربوا وجه بغلتها فقالت : « إن وصايا بني أمية إلى هذا الرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل » . قالوا : « كاذبة » وأهواها لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها ، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها . وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة ، واستتبت أخاها محمد بن أبي بكر فأبى . . . وهي ممتلئة غيظاً على أهل مصر . وجاءها مروان بن الحكم فقال : « يا أم المؤمنين لو أقتت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل » فقالت : « أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من ينعني ؟ لا والله ، ولا أعير ، ولا أدري : إلا م يسلم أمر هؤلاء ؟ »^(١)

ويزيد البلاذري أن عثمان هو الذي أمر مروان وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فأتياها وهي تريد الحج فقالا لها : « لو أقتت فعل الله يدفع بك عن هذا الرجل » . وأنها أجابتهما « قد أوجبت الحج على نفسي ووالله لا أفعل » . ثم بدرت من مروان بادرة — على رواية البلاذري — إذ تمثل :

وحرقت قيس عليّ البلا د ، حتى إذا اضطرت أحججا

فسمعتة عائشة ففضبت ، فأخرجها الغضب إلى أن تقول مجيبة :

« يا مروان ، وددت والله أنه في غرارة من غرائري هذه وأنى طوقت حمله حتى ألقيه في

البحر^(٢) » .

(١) الطبري ٤١٧/٣ .

(٢) أنساب الأشراف ٧٥/٥ — الغرارة : السكيس (الجواق) .

ونحن مع اعتقادنا — إن صحت الرواية — أن عائشة لاتعبر هنا عما في نفسها نحو عثمان ،
لانمنع أن تقول هذا الكلام إغاظه لمروان وحرصاً على مسأته على سوء أدبه ، وقد يخرج الغيظ
والحنق من النفوس أشد من هذا .

الطاهر
الشمس

توجهت السيدة إلى الحج ، وكان ما قدمت آخر ما جرى منها في شأن عثمان الذي سقط
مضر جاً بدمائه بعد أيام ...

رأيت من الخير قبل أن أنتقل إلى ما أتى السيدة بعد عثمان أن ابنه إلى سبب هام أعزوا إليه
تبعه هذه المأساة مأساة عثمان التي ذهبت ضحيتها وحدة المسلمين فلم يجتمعوا بعدها قط . أودع
أيام عثمان مقررراً أن ما يدكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة ^(١) كعلي وطلحة
والزبير وعائشة هو تبعات ثانوية في رأيي . أما الأسباب التي أرثت الشر وهاجت

(١) أشد ما أثر في ذلك وأشهره كلمة سعد بن أبي وقاص في توزيع التبعة ، وقد سئل عن قتل
عثمان فقال :

« قتله سيف سلته عائشة وشجذه طلحة وسمه علي » ، أما الزبير فقد « أشار بيده وصمت لسانه » .
وهذا الأثر الذي يقرره سعد : أثر غير مباشر بلا ريب . إنه رأى أنهم قصروا في حق عثمان ، وأن
منهم من أعلن تقده للخليفة فكان ذلك التقصير وهذا الإعلان مما جرأ الناس ووجه الأمور — دون قصد —
وجهتها المعروفة ، ولو لم يكن ذلك منهم لنقص عامل خطير قوى نفوس الثأرين على الشر . وإلا فلم يكن أحد
من الصعابة ليرضى عن قتل عثمان . وعثمان نفسه قد كان منه ما يفسر كلمة سعد هذه :

ذكر ابن عبد ربه أن زيد بن ثابت رأى علياً مضطجعاً في المسجد فقال له : « يا أبا الحسن ، إن الناس
يروون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان » . جلس علي ثم قال : « والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت
في شيء من شأنهم » . فأتى زيد عثمان فأخبره بقول علي ، فتمثل عثمان :

وحرقت قيس على البلا د حتى إذا اضطرت أحجما — العقد الفريد ٣/٨٦ .
فهذا عثمان صرح أن علياً أحجم عنه لما اضطرت الأمور .

ثم كان علي يقسم على ذلك في أوقات مختلفة : قال علي المنبر يوماً : « والله لئن لم يدخل الجنة إلا من
قتل عثمان ما دخلتها أبداً ، ولئن لم يدخل النار إلا من قتل عثمان لا دخلتها أبداً » .
ويروون أنه أشرف يوماً من قصر له بالكوفة فنظر إلى سفينة في دجلة فقال : « والذي أرسلها في
بحره مسخرة بأمره : ما بدأت في حق عثمان بشيء » .

وصدق علي ، فقد كان لعثمان طول حياته من المحسنين المحافظين لحقه ، الصابرين على الأذى في سبيله .
وتعجبني في ذلك كلمة (عميقة بعيدة الغور) لمحمد بن سيرين تدل على بصر في الحوادث ووقه لها ، قال :
« ما علمت أن علياً اتهم في دم عثمان حتى بويع ، فلما بويع اتهمه الناس » . العقد الفريد ٣/٩٠ .
وكذلك بقية الاتهامات لطلحة والزبير وعائشة خالطتها المبالغات ودس الأمويون وذوو الأهواء من
بعدهم ما يرضى أهواءهم .

الاضطراب وأوقدت الفتنة وأججت النيران فهو مؤامرة واسعة منظمة محكمة ، سهر عليها
أبالسة خبيرون ، وسددوا خطاها وتمهدوها في جميع الأقطار حتى آتت ثمرها . ولم تلق هذه
المؤامرة من المؤرخين عامة ما تستحق من التحرى والاهتمام .

وأنا أجزم هنا أن الأسباب التي يذكرونها كلها والتبعات التي يوزعونها بين من
ذكرت ومن لم أذكر .. لن تقوى مجتمعة على أن تسمى هذا السبب الهام الذي أشرت
إليه ، بل أقطع أنها عناصر ثانوية لم تكن لتنتج شيئاً لولا هذا الجو الذي هياه عبد الله بن
سبأ . وأبعد من هذا ، إني أومن أشد الإيمان أنه لو لم يكن شيء قط من هذه المساعي
والأسباب التي يذكرونها ، لسكان عمل ابن السوداء وحده كافياً في بلوغ النتيجة
المشؤومة نفسها ، وإليك البيان :

ابن سبأ البطل الخفي المخيف

عبد الله بن سبأ يهودى من صنعاء أمه سوداء (ويلقبونه : ابن السوداء) تظاهر بالإسلام على عهد عثمان ، ثم اندفع متنقلاً في البلدان الإسلامية فبدأ بالحجاز فالبصرة فالكوفة ، فدمشق ، فمصر ، يطوفها « ليلفت الناس عن طاعة الأئمة ويلقى بينهم الشر »^(١) باذراً للضلالات والفساد في هذا المجتمع السليم ، وهو رجل على غاية من الذكاء وصدق الفراسة والنظر البعيد والحيلة الواسعة ، والنفاذ إلى نفسية الجماهير ، أقطع أنه أحد أبطال جمعية سرية غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام ، وأكاد أزعج أن هذه الجمعية تعمل لحساب دولة الروم التي انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين : مصر والشام ، عدا بلاد أخرى على البحر المتوسط .

والغريب الذي لم أقض منه مجباً أن نشاط هذا الرجل العجيب قد اتسع لتعهد ميادين مختلفة : الميدان الدينى والميدان السياسى والميدان الحربى ، فقد أراد نفس العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين زائفتين : الرجعة والوصاية . وقد حفظ لنا الطبرى بعض نصوص تعاليمه فيها : « لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع وقد قال الله : إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ . »^(٢) فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . »^(٣) فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت في المجتمع . ثم قال لهم بعد ذلك :

« إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان على وصي محمد .. ، محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء » .^(٣)

ثم انتقل خطوة بعد هذا التمهيد فجمع بين إفساد الميدان الدينى وإفساد الميدان السياسى في إذاعة قوله :

(١) ابن عساكر ٤٢٨/٧ .

(٢) سورة القصص ٢٨ الآية ٨٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣/٣٧٨ — هذا وأرى من الواجب التنبيه هنا إلى قول على نفسه لعبد الله بن سبأ في هذا الصدد : ويملك ، ما أفضى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمضى كتمه أحداً من الناس ، ولقد سمعته يقول : « إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً وإنك لأحدهم » — ابن عساكر ٤٣٠/٧ .

« فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة »^(١) ثم قال بعد ذلك لأتباعه :

« إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ، فانهبوا في هذا الأمر فخره وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعواهم إلى هذا الأمر »^(١).

وهكذا دخلت تعاليم هذا المفسد الذكي قلوب الناس إذ تلتطف لهم فجاء من الجهة التي تحن قلوبهم وتهواها نفوسهم .

لقد طاف أقطار المسلمين قطراً قطراً ، بدأ بالحجاز باثنا ضلالاته كما تقدم ، ثم انعطف إلى الشام ، والشام يومئذ بيد بصير بأمره : معاوية بن أبي سفيان الذي فطن إلى خطره فأبعده ؛ إلا أنه على حذره قد أصابه رشاش من إفساده . والطبري يزعم أن ابن السوداء « لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر »^(١) . لكن الصحيح أنه قدر ، وزرع ، وحرك على معاوية صحابياً جليلاً أذعن عامة الشاميين لأقواله ، وضاق به ذرعاً معاوية الداهية الحليم ، واضطر إلى أن يطلب من الخليفة عثمان إخراجه من الشام ، ذلك هو أبو ذر وحادثه مشهور ، وهذا الطبري نفسه يتولى قص الحادث :

« لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال : « يا أبا ذر ، ألا تعجب إلى معاوية يقول : (المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله !) كأنه يريد أن يحتجته دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين !! » فأتاه أبو ذر فقال : « ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله ؟ » قال معاوية : « يرحمك الله يا أبا ذر ، أسنا عباد الله والمال مال الله واخلق خلقه والأمر أمره ؟ » قال : « فلا تقله »^(٢) . ثم كان ما كان من تأليب أبي ذر الفقراء على الأغنياء وخوف معاوية على الشام منه ونفيه منها .

(١) الطبري ٣/٣٧٨ .

(٢) الطبري ٣/٣٣٥ — هذا ويندكر ابن عساكر في تاريخه الكبير عن الشعبي : أن « أول من كذب على الله وعلى رسوله : عبد الله بن سبأ » وكان يطعن على أبي بكر وعمر . وضاق به على أشد الضيق حتى قال : « مالي ولهذا الحميت الأسود » . ولما ذاع وقوعه في أبي بكر وعمر دعا به على ، ودعا بالسيف وهم بقتله ؛ فشفع فيه أناس فقال : « والله لا يساكنني ببلد أنا فيه » . فسيره إلى ساباط المدائن . فكان هناك من بعده الرافضة والقرامطة ، وكان ألقى إليهم بألوهية علي بن أبي طالب . تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤٣٠/٧ .

إني لشديد الإعجاب بذكاء ابن السوداء وصدق فراسته وعمق دراسته للناس ، لقد عرف من يختار من الشام ، ولقد وفق التوفيق كله بهذه المقالة التي فصلها على مزاج أبي ذر ، فلم يكذب يلقيها إليه حتى طار بها أبو ذر مندفعاً إلى معاوية ، وهذا هو فن ابن السوداء الذي أتجح مساعيه : فهم جيد للناس وأمزجتهم ونفوسهم ، و (استخبارات صادقة منظمة) انتفع بها أعظم الانتفاع في إحكام خطط الشر ، واستغلال حسن لفظة سواد المسلمين عن نواياه ، وخداع ما كرهم عن دينهم وسلامه دولتهم . لقد جنى الروم من دسائس ابن السوداء خيراً كثيراً : إذ شغل القوى الإسلامية بعضها ببعض فكسر شوكتها وصرفها عن الاندفاع في الفتوح ، وإن الذي استتبعته من شرور بعد ذلك آخذ بعضها برقاب بعض أضعف هولاً وأشنع . ولو وقع ابن السوداء هذا لأنكيترا اليوم لاستغنت به في إبادة عدوها عن جيوش وأساطيل ومنظمات تعج بالفنيين الخبراء .

والظاهر أن ابن السوداء سكر بهذا الظفر الذي لم يتوقعه في الشام ، فأتى أبا الدرداء ، ففطن هذا لمكره فقال : « من أنت ؟ أظنك والله يهودياً » فأتى عبادة بن الصامت ، فعلق به هذا وسلمه إلى معاوية قائلاً : « هذا الذي بعث عليك أبا ذر » (١) .

* * *

« كان حكيم بن جبلة رجلاً لصاً ، إذا قتل الجيوش خنس عنهم ، فسعى في أرض فارس ، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان ، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله : « أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرج من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً » فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها » (٢) .

على هذا الرجل المفسد الموتور الناقم على عثمان ، نزل عبد الله بن سبأ لما أتى البصرة . وصار يجتمع إليه الناس ويث إليهم تعاليمه ومقالاته بلباقة لا يصرح فيها بما ينم عن نواياه ، وفشا أمره وقيل الناس ما يقول وعظموه ، وبلغ خبره الوالي عبد الله بن عامر « فسأله » (٣) :

(١) الطبري ٣/٣٣٥ .

(٢) الجزء نفسه ص ٣٦٨ .

ما أنت ؟ فأخبره : (أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام ورغب في جوارك)
فقال : (ما يبلغني ذلك ، اخرج عني) فخرج حتى أتى الكوفة ، فأخرج منها ، فاستقر
بمصر وجعل يكتابهم ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم . »

هكذا صار ابن السوداء بماله من (استخبارات) يتسقط الناقلين واحداً واحداً من نالهم
عقوبة أو تأديب من عامل أو خليفة ، أو بمن له طموح إلى منفعة لم يصل إليها . . .
فجعلهم حزبه وبطائه وألف بينهم حتى صار له في كل بلد جماعة منظمة هي كاتقروع لحزب
خطر هدام .

ولما قدم ابن السوداء مصر اختبر نيات جماعاتها واستعداداتهم و « مجهم واستخلام
واستخلوه وعرض لهم بالكفر فأبعده » ^(١) فسرعان ما راغ عن الكفر الصريح المكشوف
لما رأى نفرة الجماعة منه ، فرسم لهم خططاً توسع الشقاق بين الأمة وتوقع بينهم العداوة
فلانت لها نفوسهم وطمع فيهم « فبدأ يطعن على أميرهم عمرو بن العاص (قبل عزله) وقال :
ما باله أكثركم عطاء ورزقا ؟ ألا سنصيب رجلاً من قريش يسوى بيننا » ^(١) فهشت لهذه
المقالة نفوسهم واستحلوها وبذلك أنجحت خطط هذا الخبيث ووجدت عقاربه مدباً تسمن
فيه . فاستقر بمصر بثورة الناقلين وألتي إلى جماعاته في الأقطار دستور العمل وخطة الدعاية
التي تسبق الثورة وقد مر بك أن الطبري وابن عساكر حفظاها لنا في هذه الكلمات :

« انهضوا في هذا الأمر فخر كوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعواهم إلى هذا الأمر » . فبت دعائه ، وكاتب من
استفسد في الأمصار وكاتبوه ، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ،
ويكتابهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ،
فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة (العاصمة) وأوسعوا
الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبديون ؛ فيقول أهل كل مصر :
« إنا لنرى عافية مما ابتلى به هؤلاء » . إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٧/٤٣٠ ، ونحن مدينون لهذا المصدر بمعلومات قيمة .

فقالوا : « إنا لفي عافية مما فيه الناس » (١).

وأحكمت هذه الجماعة مؤامرتها فأرسلت إلى الأمصار كتباً مزورة بما شاؤوا على لسان
على وطلحة والزبير وعائشة .

لقد ملأ ابن السوداء البلاد نقمة وثورة وفساداً وأصبحت الأفطار كلها هشيماً يابساً
ينتظر شرارة واحدة كان إرسالها أهون شيء على جمعياته وأتباعه . وهكذا قضى على حكم
(المدينة) وحكومة (الراشدين) إلى يوم الدين .

(١) الطبرى ٣/٣٧٩ — هذا ، ويعجبني من أحد رواة الطبرى فهم جيد لفلسفة الحوادث : إنه
يعزو كثرة النافقين من الصعاليك ، إلى عامل اقتصادى : هو ظفر أهل السابقة من المهاجرين والأنصار بالغنائم
الوافرة والضياع العامرة ، وحسد الصعاليك لهم حسداً خفياً لا يظهره لأنه « لا حجة لهم ، والناس عليهم ،
فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي أو محرر ، استحل كلامهم فسكانوا في زيادة والناس في نقصان
حتى غلب المر » . ٣٣٣/٣٥١ — ومن هذه السكثرة وجد ابن السوداء وأعوانه مادة وقودهم ، فهاهبت
الهيعة إلى الشر حتى كانوا جميعاً على استعداد للفتنة .

الفصل الرابع

في دفع اتهامات خاطئة للسيدة عائشة

رأيت من المفيد أن أعرض هنا لاتهامات انشرت على ألسن الناس تهم عائشة وتحملها إصر قتل عثمان : اتهموها أنها كانت تصرح بأمر الناس بقتل عثمان وتتهمه بالكفر ، وبأنها كانت تحرض على قتله بكتب كتبتها إلى الأمصار ، وبأنها تريد من وراء ذلك البيعة لابن عمها طلحة بن عبيد الله ، ... ونحن ذاكرون لك هذه الأمور واحداً واحداً :

١ - اتهموها بأنها كانت تقول : « اقتلوا نعتلاً فقد كفر^(١) » . ونعتل - كما مر بك - لقب نبزوا به عثمان . وإذا أردنا أن نعزو هذا القول - على فرض صحته وهو غير صحيح - إلى ساعة غضب واستشارة ، فإن ابن أبي الحديد يحتاط للأمر ويقدم لنا رواية يحتاج تصديقها إلى شيء غير قليل من البله فينا أو في السيدة عائشة نفسها ، إنه يعزو إليها أنها لما بلغها قتل عثمان قالت : « بعداً لنعتل وسحقاً ، أبعده الله ، ذلك بما قدمت يداه^(٢) ! »

وعلى فرض تجريدنا السيدة - جدلاً - من النبل والإنسانية حتى تنقف هذا الموقف الذي يفيض تشفيماً وشماتة وإغاظة ، لانستطيع إلا أن نقطع بوضع الخبر وكذبه لأنه لا يتألف وطبيعة الأشياء : إن أقل مقدار نفترضه من الذكاء في السيدة كاف للقطع بأنها لا يصدر عنها مثل هذا القول مهما كان معناه متمكناً في نفسها ، فكيف والسيدة على ما أجمعوا من الاتزان والعقل والذكاء . ✕

هذا وفي الطبري أيضاً أن عبد ابن أم كلاب وهو الذي روى الجملة الأولى : « اقتلوا مثلاً فقد كفر » لما أخبرها ببيعة علي ، حاور السيدة في طلبها بدم عثمان قائلاً : « ولم ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت » وأنشد :

(١) الطبري ٤٧٧/٣ - وانظر في تكذيب هذه الرواية احتجاجاً قيمياً سديداً للامام المحدث المجتهد الناقد ابن تيمية في منهاج السنة ١٨٨/٢ .
(٢) شرح نهج البلاغة ٧٦/٢ .

فمنك البداء ومنك الغيرُ ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا : إنه قد كفر
فهبنا (؟) أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم تنكسف شمسنا والقمر^(١)

٢ — واتهموها بأنها كانت تحرض على عثمان وتكتب بذلك الكتب للأمصار :
جاءها الأشتر أحد رؤوس الشغب — وعثمان محصور — فقال لها : « يا أم المؤمنين
ما تقولين في أمر هذا الرجل ؟ » وهذا سؤال أدركت السيدة ماذا يريد منه الأشتر وإن لم
يصرح به ، فأجملت من مراده وأرسلت جواباً صريحاً حاسماً : « معاذ الله أن أمر بسفك
دماء المسلمين وقتل إمامهم واستحلال حرمتهم » فقال الأشتر : « كتبتنّ إلينا ، حتى إذا
قامت الحرب على ساق أنشأتن تهنيننا ؟ !! »^(٢) .

هذا ولعلك لم تنس بعد أن من خطط ابن السوداء تزوير الكتب على السنة الناس
تتمياً لأمر أحكم الطريق إليه . وقد فطن بعض الناس إلى أمر ذلك التزوير ، لكن هذه
الفطنة جاءت متأخرة جداً .

ذكر البلاذري أن السيدة لما قالت حين قتل عثمان : « تركتموه كالثوب المنقى من
الدنس ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش .. » أجابها مسروق : « هذا عملك : كتبت إلى الناس
تأمر بينهم بالخروج إليه » ، حينئذ قالت السيدة وهي المصدقة فيما تقول :
« والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون : ما كتبت بسواد في بياض حتى
جلست مجلسي هذا » .

قال الأعمش : « فكانوا يرون أنه كتب على لسانها »^(٣) .

(١) الطبري ٤٧٧/٣ ، وسأعود إلى هذه الرواية بالنقد عند الكلام على موقف عائشة من بيعة على .
(٢) أنساب الأشراف ١٠١/٥ .
(٣) الجزء نفسه ص ١٠٣ ، وفي الأصل : « ما كتبت بسوداء في بياض .. » — ولم يقتصر التزوير
على السيدة عائشة ، بل تناول أجلاء الصحابة المجمع على نفوذ كلمتهم في الجماهير : ذكر ابن عبد ربه في العقد
الفريد ٨٣/٣ أنه « لما قدم القواد (الذين أجلبوا على عثمان) قالوا لعلي : « قم معنا إلى هذا الرجل » قال :
« والله لا أقوم معكم » . قالوا : « فلم كتبت إلينا ؟ » قال : « والله ما كتبت إليكم كتاباً قط » . فنظر
القوم بعضهم إلى بعض » اهـ .

٣ — وأطرف مما تقدم وأدخله في باب الاختلاق والوضع ، زعمهم أنها كانت تبغى من تحريضها على قتل عثمان أن يتم الأمر لابن عمها طلحة بن عبيد الله فيبايع خليفة . ولدينا في ذلك حادثان الأولى كانت قبل مقتل عثمان والثانية بعده .

تقدم لك (ص ٤٥) أن عائشة رفضت البقاء في المدينة — وعثمان محصور — وقصدت مكة للحج ، وأن عثمان ولّى موسم الحج عبد الله بن عباس ، فيذكر الطبري أن ابن عباس « خرج فمر بعائشة في الصلصل (موضع بقرب المدينة) فقالت : (يا بن عباس ، أنشدك الله فإنك قد أعطيت لساناً إزميلاً قاطعاً) أن تحذل عن هذا الرجل (تعني عثمان) وأن تشكك فيه الناس ؛ فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا (سالوا) من البلدان لأمر قدحتم ، وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر » .

قال ابن عباس : « يا أمه ، لو حدث بالرجل حدث ما فرغ الناس إلا إلى صاحبنا (يعني علياً) » . فقالت : « إيهأ عنك ، لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك » ^(١) .

إني مع عدم استبعادى أن يخطر على بال السيدة خاطر البيعة لابن عمها طلحة إن اعتزل عثمان أو قتل ، مع ذلك أرى دلالة الوضع ظاهرة على هذا الخبر : في مجادلتها ابن عباس داهية بنى هاشم وطمعها في أن يصرف الأمر عن ابن عمه على إلى طلحة ، وعائشة أبعد من ذلك فراسة وأقل خفة . ومهما يكن فليس في هذا الخبر أى دليل على أنها سعت في قتله حتى يصح لهم تعليل سعيها بإعداد الأمر لطلحة . إنها أرادت عثمان على تغيير عماله وإصلاح خطته ، فأذعن عثمان لإرادتها وإرادة أجلاء الصحابة وأعطى من نفسه آخر أيامه كل ما سئل من إصلاح . ولعل السيدة — مهما بالغنا في سوء الظن — لم يكن يخطر لها حتى في أشد حنقها على عثمان ، أكثر من رغبة في تغيير بطانته واتخاذ بطانة من أجلاء الصحابة كطلحة والزبير ، أو أكثر من اعتزاله على أبعد تقدير . وهذا الخبر الذى تسرب إلى رواية الطبري لأشك في أنه مصنوع ببعض إحكام ، فمن أمعن في الحوادث التى حفت بهذا العهد وجالت في نفسه الخواطر ، وجد في هذه الرواية حل المسألة فاستراح إليه .

ومن شاء التفككة فليقرأ أقصوصة ابن أبي الحديد ، إنها أطرف وأكثر هلهلة ، وإن فاتتك التسلية عند الطبرى فانشدها أبداً عند ابن أبي الحديد . إنه يصور السيدة — عندما بلغها قتل عثمان — مخلوقاً استخفته الشماتة والطرب ، يخف ثم يخف ، حتى يكاد يرقص في هذا المآتم فرحاً بما خيل إليه من أيلولة الأمر إلى طلحة ، وإليك المشهد :

« .. بلغها قتله فقالت : « بعداً لنعل وسحقاً ، أبعده الله ، ذلك بما قدمت يداه » وكانت تطمع أن يكون الأمر إلى طلحة وتقول : « إيه ذا الإصبع ! إيه أبا شبل ، إيه يابن عم ! .. لكا تني أنظر إلى إصبعة وهو يبائع .. حشوا الإبل ودعدعوها ، إيه ذا الأصبع ، لله أبوك ... أما إنهم وجدوا طلحة كفواً ... »^(١)

وبعد هذا المشهد ، يبلغها خبر البيعة لعل ، فينهار أملها وتياس وتقول : « تعسوا تعسوا لا يردون الأمر في تيم أبداً . »^(١) اه

وهذا موضوع لفق له بعض الناس من الأخبار ما يرضى أهواءهم الحزبية أو المذهبية ، على نحو ما نرى اليوم من عمل الأحزاب السياسية ودعايات الحكومات . بل إن بعضهم كان يتعبد بوضع الروايات التي تنصر صاحبه وتدين خصمه . وما نسب إلى السيدة — في رواية ابن أبي الحديد — لا يصدر عن الأطفال ، بله من كان في عقل عائشة ودينها وحصافتها . ولعل واضح الخبر فانه أن يفصله على السيدة عائشة الذكية البليغة العالمة العاقلة ، فتصور أمامه امرأة في مستشفى المجازيب فقدت اتزانها جملة واحدة .

وبعد ، فإذا أردت التأثير غير المباشر في فتنة عثمان فلعل أصح حكم وأصدق في توزيع هذا التأثير مامر بك من كلمة سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل :

« قتل عثمان سيف سلته عائشه ، وشحذه طلحة ، وسمه على ، وأشار الزبير بيده وصمت لسانه »^(٢)

(١) شرح نهج البلاغة ٧٦/٢ — كانت لإصبع طلحة شلاء ، فذلك ما عنته بقولها ذا الإصبع . وتيم قوم عائشة وطلحة .

(٢) العقد الفريد ٨٤/٣ .

فإن أنت أغفلت الأسباب الحقيقية في إيقاد الفتنة وأغفلت الدسائس الخفية التي اضطرت في الجماهير ، ونسيت أفاعيل ابن السوداء وخططه ومؤامراته وتنظيم جماعته ، ولم تر عينك إلا هؤلاء الأربعة في المدينة فإن الأمر حينئذ في توزيع التبعة لا يعدو ما قال سعد .
ولعل سعداً يعبر عن رأى كثير ممن يعطفون على عثمان وهم معذورون ؛ فإن حقيقة المؤامرة لم تنكشف بعض الانكشاف إلا بعد عشرات السنين إن لم أقل بعد مئات السنين .
ومن هؤلاء : الأمويون حزب عثمان ومعاوية من بعده ، إنهم يرتاحون كل الارتياح إلى هذا الحكم الذى نطق به سعد ، بل ليس لهم رأى — فيما أظن — غيره ، ولقد أفصح عن رأيهم خير إفصاح سعيد بن العاص أحد أقطابهم المخنكين : فقد لقي مروان وأصحابه ممن اعترزوا النهوض مع عائشة إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان ، لقيهم بذات عرق فقال لهم : « أين تذهبون وتأركم على أعجاز الإبل ؟ اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم ، لا تقتلوا أنفسكم .. » فقالوا : « بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً »^(١) وسترى — فيما بعد — أنهم كذلك فعلوا : قتلوا طلحة والزبير وودوا لو قتل عائشة^(٢) .

أما إذا لم تستطع إغفال (المؤثرات المباشرة) و(الأسباب الحقيقية) و(العوامل الخفية) . . . رأيت كل ما يعزى إلى هؤلاء الأربعة آثاراً ثانوية غير مباشرة لاتعدو غضب النصيح من محبوب يعصيه .

ولقد تقدم لك نفي السيدة إرسال الكتب إلى الأمصار ، وعرفت أن هناك مزورين مختصين اضطلعوا بهذا الأمر ونجحوا في إحكام مؤامراتهم وإخفائها ، وعرفت أنها لم تأمر قط بقتل عثمان ولم تشترك في ذلك أى اشتراك قط . . . ، فزد على ذلك أنها لم يخطر لها خاطر قتله على بال البتة ؛ حتى هذه الكلمات وذلك الغضب الذى بدر منها نحو عثمان ، اعتقدت أنها عوقبت عليها ؛ قالت :

(١) الطبرى ٤٧٢/٣ وابن خلدون ١٥٥/٢ .

(٢) أفصح عن هذه الرغبة عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة للسيدة نفسها ، وستقرأ كلمة المغيرة بعد أسطر ، أما عمرو فقد جاء في الكامل للمبرد (ص ١٥١) طبعة ليدن) أن عمراً قال لعائشة رحمة الله « لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل » . فقالت : « ولم ، لا أبالك ؟ » فقال : « تموتين بأجلك وتدخلين الجنة ، ونجملك أكبر التشنيع على على . . . » — وعمرو أكيس من أن يقول لها : « ونصيب بذلك تأر عثمان منك . »

« لئن كنت نسياً منسياً قبل أمر عثمان : فوالله ما أحببت شيئاً إلا ومنيت بمثله ، حتى لو أحببت أن يقتل لقتلت » (١) .

وأوضح من هذه الرواية ، رواية ابن عبد ربه ، فقد ذكر أن المغيرة بن شعبه دخل عليها فقالت له : « يا أبا عبد الله ، لو رأيتني يوم الجمل قد أنفذت النصل هودجي حتى وصل بعضها إلى جلدي . » قال لها المغيرة : « وددت والله أن بعضها كان قتلك . » قالت : « يرحمك الله لم تقول هذا ؟ » قال : « لعلها تكون كفارة في سعيك على عثمان . » قالت : « أما والله لئن قلت ذلك : لما علم الله أني أردت قتله ، ولكن علم الله أني أردت أن يُقاتل فقوتلت ، وأردت أن يُرمى فرُميت ، وأردت أن يُعصى فعُصيت ؛ ولو علم مني أني أردت قتله لقتلت » (٢)

ثم كانت شديدة الحزن والغضب لقتله ، صادقة في ذلك كل الصدق . ولقد غضبت على أخيها محمد بن أبي بكر لسعيه على عثمان ، وسمته (مذمماً) ، وظلت تدعو من كبد حرى على أخيها وبقية الساعين في قتله دعاءً حاراً لانشك في صدره عن عاطفة صادقة في التباها . كانت تقول :

« قتل الله مذمماً (أخاها) بسعيه على عثمان ، وأهرق دم ابن بديل على ضلالتة ، وساق إلى أعين بن تميم هواناً في بيته ، ورمى الأشر بسهم من سهامه لايشوى » .. قالوا : « فوالله ما منهم إلا أدركته دعوة عائشة » (٣)

وليس أدل على ترفع السيدة عن خاطر القتل من هذه الدعوات الحارة البليغة على أخيها . فلا يقعن في وهم أحد إذن ، أن السيدة وددت قتل عثمان أو توقعته ، وهذه الأقوال

(١) أنساب الأشراف ١٠١/٥

(٢) العقد الفريد ٨٤/٣ .

(٣) أنساب الأشراف ١٠٢/٥ والعقد الفريد ٨٤/٣ — أشوى السهم : أخطأ المقتل وأصاب

الأطراف .

وفي كتاب (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان) (مخطوط) : « كان محمد بن أبي بكر يدعى (مذمماً) لقبته بذلك عائشة لسوء صنيعه ، فلقى عقوبة ذلك في الدنيا من القتل والحرق وعند الله تجميع الخصوم » ص ٢٠٧ — يشير إلى قتله وإحراقه في جيفة حمار من قبل معاوية بن خديج في مصر لما أوقع عمرو بن العاص والى مصر لمعاوية بجيش على وأنصاره .

الصادرة عنها — وهي الصادقة عندنا — في الألم على عثمان كاف بعضها في إبعاد الشبهة عنها . وغاية ما يؤخذ عليها عدا مواقفها العنيفة التي مرت بك ، أنها تركت عثمان محصوراً (حين بلغ الحزام الطَّبِيبِينَ ، وحين طمع فيه من لا يدفع عن نفسه)^(١) — كما وصف هو نفسه — في أشد الحصار وأحر الظماً وخلصت إلى مكة .

وقد كان راسلها عثمان في أمر الماء وطلب نجاتها ونجدة أمهات المؤمنين فأرسلن إحداهن أم حبيبة — على ما علمت — فكادت تقتل ، وجاءها مروان حنقاً يقول : « يا أم المؤمنين لو أقت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل » .

كان طلب مروان — على وجاهة اعتذار السيدة أيضاً — في محله ، وكان مقامها — لو هي أقامت — ربما نفع عثمان وردَّ عنه ، لكنها رحمها الله استسلمت لموجدتها ، واكتفت أن استتبعت أخاها محمداً أكبر المحرضين على عثمان ، معها إلى مكة فأبى .

الحق أن أثرها في هذه الفاجعة المشؤمة كان — من حيث لا تريد — بليغاً غير ضئيل . لقد عارضت عائشة عثمان كما عارضه غيرها ؛ أما دمه فهي أبعد الناس عن أن تكون شركت فيه بقول أو فعل ، بل إن مجرد فكرة القتل لم تكن تخطر لها على بال قط . وللخصومات السياسية والمذهبية أيداً طويلة في اختلاق الأخبار . ومن هذه الأخبار ما لا يماسك لأول نظرة ، ومنها ما يتهاقت بعد إعمال العقل وفقه الحوادث ، ومنها ما يخفى أمر وضعه حتى على الخبير .

المشكلة
التبريري

(١) من الكتاب البليغ الذي أرسل به عثمان وهو محصور إلى عليّ على ما زعموا ، وهذا نصه على رواية الحصري :

« أما بعد ، فقد بلغ السيل الزبي ، وجاوز الحزام الطيبين ، وطمع في من لا يدفع عن نفسه ، ولم يعجزك كلثيم ، ولم يغلبك كغلب ؛ فأقبل إليّ ، معي كنت أم علي ، على أي أمر بك أحببت :

فإن كنت ما كولا فكأن أنت آكلتي وإلا فأدركني ولما أحزقت

زهر الآداب ٧٥/١ الطبعة الرحمانية — الطبعة الثانية والكامل للبريد (ص ١١ طبعة ليدن)
الزبي : الروابي — الطيبي : حلة الضرع (رأس السدى) . وباروخ السيل الزبي وتجاوز الحزام
أنداء الدابة المذكوبة : كناية عن اشتداد الأمر . الغلب : الذي يغلبه الناس كثيراً — والبيت لأمس
العبدى ، ومن أجله لقب بـ (الممزق) .

الباب الثاني

مواقفها في عهد علي حتى يوم الجمل

ببيع علي بالخلافة وإن الأمور للمتوية معتاصة ، وإن كلمة الناس لمنتشرة ، وإن أهواءهم لشتى . ولقد استقبل رضى الله عنه عهد خلافته بأيام سود ، وفتن كقطع الليل المظلم ؛ فافتحم الغمرات وعقد العزم على أن يجلوها غمرة غمرة ، وكان لله في ذلك قضاء سبق ، فلم يجد علي بين يوم مبايعته ويوم مقتله ساعة خلا فيها من فتنة تثار ، وخوارج تنتقض ، ومشكلات تتوالد وخصوم يتكاثرون ؛ إن متاعبه وهومومه وما حمل نفسه من أعباء ... أخذته حتى عن نفسه التي بين جنبيه . وكان أمر عائشة رضى الله عنها أهم ما لقي من فتوق ، ولولاه لكان أمر علي أوثق ، والكلمة عليه أجمع ، ولآلت الأمور إلى غير ما لها المعروف .

الفصل الأول

في طبيعة علائقهما الماضية

قبل الخوض فيما وقع بين عائشة وعلى في خلافته يحسن بنا الإشارة إلى طبيعة العلائق الماضية بينهما قبل الخلافة ، فنحن خاضعون في تصرفاتنا لهذا الحاكم القاهر المسمى بـ (الماضي) نحتزن منه ذكرياتنا ومفارحننا وآلامنا وتسيرنا هذه المفارح والآلام والذكريات فيما نستقبل من أعمال : رضينا أم أبينا ، من حيث نشعر ولا نشعر .

وهنا نجد الأمر مختلفاً كل الاختلاف عما كان بين عائشة وعثمان قبل خلافته : فلئن كانت عائشة منطوية لعثمان على خير ومحبة وتوقير . . وبالجملة على الرضى ، إنها لعلى خلاف ذلك مع على ؛ إنها لم تكن تطيب نفسها له بخير ، وفي الوسع أن نقول إن الجفاء هو الذى ساد علائقهما قبل الخلافة في الأعم الأغلب .

لنرجع ثلاثين سنة قبل أن بويع لعلى بالخلافة ، فسنجد ثمة نقطة التحول التى فرضت على عائشة اتجاهها الذى اتجهته مع على ولم تستطع الإفلات منه ، ولا من عاطفتها العنيفة التى لم يخفف تتابع الأيام والسنين من حدتها . فلنمعن فى هذه الأمور التاليات :

١ - لم يجتمع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على شىء اجتمعن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة ، لما خصها به النبي من محبة ، إذ حلت من قلبه فى المنزلة التى لا تسامى ، والغيرة بين الضرائر أمر فطرى مألوف قل أن تتنزه عنه امرأة . وكان على وزوجه السيدة فاطمة بنت الرسول يحاولان حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على التخفيف من حبه لعائشة ، ويسفران لبقية أزواجه بما يرضيهن ويفضبن عائشة ، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفروه أتى البتة .

ذكر الرواة أن الغيرة اشتعلت يوماً فى صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة ، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينهاها فتأبى ، وعابن النبي غليظاً فى صدر عائشة على هذا العدوان ، فرأى من الحكمة

أن ينفس عنه بالقصاص العادل ، فأمر عائشة بسبها كما سبها . فانطلقت أم سلمة إلى علي وفاطمة — وكانا يخاصنها بعطف ورعاية وبقيت أم سلمة في حزب علي حتى ماتت — فقالت : إن عائشة سبها ، « وقالت لكم وقالت لكم » فكره ذلك علي وقال لفاطمة : « اذهبي إلى النبي فقولى : « إن عائشة قالت لنا وقالت لنا . . » فأتته فذكرت ذلك له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنها حبة أبيك ورب الكعبة » .

وكان هذا الدرس لم يرق لعلي ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : « أما كفك الآن : قالت لنا عائشة وقالت لنا ، حتى أتتك فاطمة فقلت لها : إنها حبة أبيك ورب الكعبة؟ »^(١) ولعل مثل هذه السفارة قد تكرر^(٢) ، فحفظت عائشة ذلك كله لعلي وفاطمة .

وينبغي ألا ننسى ونحن نذكر ما يقع مثله عادة بين الأحماء ، أن نشير إلى أمر آخر مهم كانت السيدة نفسها هي التي تغار . ذلك أنها على شدة حظوتها عند الرسول وكثير محبته لها ، لم ترزق منه الولد ؛ وكان عليه الصلاة والسلام كبير الشغف والفرح بأولاد بنته فاطمة ، كثير الرعاية لهم والحدب عليهم ، وكانت تشهد عائشة من مباسطته لهم العجب العجيب ، فتشتمل الغيرة في صدرها من الحسن والحسين وتمتد حتى تغار من أبيهما علي وفاطمة . وهذا — وإن كان مبعثه الفطرة ، ومستفيضاً في كل الأسر — مما لا يجوز إهماله عند محاولتنا الرجوع في الخصومة بينهما إلى آثارها البعيدة الأولى .

٢ — لئن كان من القريب الممكن أن نعتذر لعلي في هذه البوادر التي يكون مثلها في كل أسرة والتي رددنا أمرها إلى ما يكون عادة بين الأحماء ، إن الذي لا نستطيع الاعتذار له : هو موقف علي من عائشة في حادث الإفك : لقد وقف منها علي — مع علمه ببراءتها — موقفاً غايةً في القسوة ، أفصح أبلغ إفصاح عما في نفسه نحوها من تأثر . وإن مع عائشة الحق كل الحق في ألا تنسى له تلك البادرة التي كادت تعصف بروحها عصفاً لولا أن لطف الله بنبيه وبها فأنزل عليه براءتها تتلى في القرآن حتى يوم الناس هذا .

رَوَّج المنافقون والموتورون من اليهود من أهل المدينة أمر الإفك ، شفاء لما يميزق قلوبهم

(١) انظر السمط الثمين ص ٣٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ وسير النبلاء ٢/٢٣ .

من غيظ على نصرته الإسلام ودخول المدينة في حكمه . وتحمل الرسول أذيتهم بصبر بالغ وحكمة واسعة ، ولم يكن يخفى عليه طهر عائشة وبراءتها ونوايا المرجفين ، ولكنه أمّل أن ينزل الله عليه في أمرهم وحياً ، فلما استبطن الوحي دعا على بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما في فراق أهله ، فأتيا ، فأما أسامة فأثنى خيراً وأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله فقال : « يارسول الله ، أهلك ولا نعلم إلا خيراً » وهذا الجواب هو الجواب الوحيد الذي توحى به البديهة والروية معاً . لكن علياً ذهب مذهباً غريباً إذ أشار على النبي أن يطلق عائشة فقال له : « لم يضيّق الله عليك ، والنساء غيرها كثير ، وأسأل الجارية تصدقك » ولم يكتف بذلك ، بل قام إلى الجارية فضربها — على ما يقول الطبري^(١) — ضرباً شديداً وهو يقول : « اصدقني رسول الله » . فتقول الجارية : « والله ما أعلم إلا خيراً ... الخ »^(٢)

ولهذا علياً ظن هذا الرأي خيراً للرسول مهما جرّ على عائشة من سوء وظلم ، ولكن إنعام النظر يوحى بأن رأى علي لوعمل به لأعقب عواقب جد وخيمة : تحطيم حياة عائشة البريئة ، وفجيرة قلب النبي بأحب الناس إليه ، وحزنه طول حياته كلما ذكر هذا الحادث وأين لأحد أن ينسأه إذن . الحق أن من لطف الله بالنبي وآله — كما قلنا في الجزء المخصوص بعائشة من سير النبلاء^(٣) — أن صرف رسوله عن رأى علي .

ومع أنى لست أشك في أن علياً صدر في هذا الرأي عن غيرة بالغة على النبي وبيته ، مع ذلك أقرر أن المأمول من علي غير هذا ، وهو المعروف بسموه عن كل هوى وهو القاهر لنفسه الضابط لنزواتها وتوحيها ، ولكن الله الذي استأثر بالكمال سلط الضعف على خلقه من حيث لا يشعرون .

وأظنك تذهب معي إلى أن النتيجة المحتممة لموقف علي هذا من عائشة ، أن يسود الجفاء علاقتها مدى الحياة ، وأن موقفاً مثله لا ينسى ولا ينتزع أثره من القلب مهما جاهد

(١) ٢٦٧/٢ .

(٢) وتزيد بعض الروايات — ولا آخذ بها — أنه قال : « إن هي إلا شمس نعلك . » — شرح نهج البلاغة ٤٥٨/٢ . وهذا التعبير عن المرأة بشمس النعل تعبير جاهلي أئزه علياً عنه .

(٣) ص ٣٧ ، ٤٢ .

لمرء نفسه . ولم تنس عائشة — مع كل جهودها المبذولة في كبح عاطفتها — بادرة على هذه حتى واراها التراب .

ولقد تقافم في نفسها أثره مع السنين ، ووجهها — من حيث لا تشعر — وجهة كان فيها للمسلمين أذى بالغ ، وهي ترى أن فيها الخير لهم كل الخير . نعم ، لقد كانت الأيام لا تزيد إلا نمواً في نفسها حتى رأيناها مندفعة بقوة لا تقالب نحو حرب الجمل بعد ثلاثين سنة من هذا الحادث :

إن الأمور صغيرها مما يهيج له الكبير

٣ — ذكر ابن أبي الحديد حادثاً بينهما لم أره في مصدر آخر ، وأنا أشك فيه كل الشك لبعده عن تربيتها ولأنه في نفسه غير طبعي :

لما خرجت على علي في خلافته ، جعلت أم سلمة تذكرها بهذا الحادث وإليك نصه على ما في شرح نهج البلاغة :

قالت لها أم سلمة : « أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه ، حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال ، خلا بعلي يناجيه فأطال ، فأردت أن تهجمي عليهما فهيتك ، فعصيتي فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية فقلت : « ماشأنك ؟ » فقلت : « إني هجمت عليهما وهما يتناجيان فقلت لعلي : ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام ، أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومى ؟) فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي وهو غضبان محمر الوجه فقال : ارجعي ورائك ، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان » . فرجعت نادمة ساخطة ؟ »

قالت : « نعم ، أذكر ذلك .. » (١) اه

وظاهر أن بيت التصيد من وضع هذا الحديث هو تقرير الكفر على مبغض على .

٤ — لما بويع أبو بكر الصديق تلكاً على في داره وامتنع هو وبنو هاشم ، إذا انقضت على البيعة ستة أشهر وماتت السيدة فاطمة زوجه أقبل يبائع (٢) .

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٧٨ ؟ هذا وقوله (من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس) لا يشبه البلاغة

النبوية وحذفها أقوى وأوقع .

(٢) ذكر الطبري (٢/٤٤٨) : أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله =

ومن طبيعة الأشياء أن تضطفن عائشة على من تخلف عن بيعة أبيها ورأى أنه أحق
بإخلافه منه وألا تطيب له نفسها بخير .

ولا بأس أن تضيف إلى ذلك قضية (فذك) الأرض التي كانت خالصة للنبي صلى الله
عليه وسلم حياته : يأكل منها وينفق على آله وأضيافه مدة عمره ، فما فضل فعلى فقراء
المسلمين ، فلما قبض الرسول وآل الأمر إلى أبي بكر الصديق جاءت فاطمة تطلب من
أبي بكر ميراثها ، فاعتذر أبو بكر بحكم النبي المشهور : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ،
ما تركنا صدقة » . وأبى أن يحكم في هذه القضية بغير حكم رسول الله . فلم يقنع ذلك السيدة
فاطمة وغاضبتة ، وكذلك لم يقتنع على ولا العباس . على حين أنك تذكر أن أزواج النبي
صلى الله عليه وسلم كن تطلبن ميراثهن من رسول الله ، فلما احتجت عائشة بالحديث الذي
احتج به أبو بكر كففت وأذعن . فكان خلاف على وفاطمة في أمر فذك موضع استياء من
السيدة عائشة . وقد عاد على إلى النعمة نفسها في خلافة عمر فلم يستفد^(١) .

٥ - إشارات عارضة استخرجتها من مواطنها لأنه عظيمة الدلالة على رأيها في على
وعاطفتها نحوه ، وأوردها تباعاً قبل الشروع في الكلام على مقدمات حرب الجمل ، إذ أنها
ستكون المفتاح لما بعدها ، والمصباح ينير طريق الباحث فيما يستقبل من أحداث :
أما الأولى فقد رواها عطاء بن يسار قال :

جاء رجل فوقع في على وفي عمار رضى الله عنهما عند عائشة ، فقالت : « أما على فلست
قائلة لك فيه شيئاً ، وأما عمار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يخير بين
أمرين إلا اختار أرشدهما^(٢) » .

== صلى الله عليه وسلم وما حيثئذ يطلبان أرضه من فذك وسهمه من خير فقال لها أبو بكر : « أما إنني
سمعت رسول الله يقول : « لا نورث ، ما تركنا صدقة ، إنما يأكل آل محمد في هذا المال » ، وإنى والله
لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . فهجرت فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت ، فدفعها
على ليلا ، ولم يؤذن بها أباً بكر . وكان لعل وجه من الناس حياة فاطمة ، فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه
الناس عن على ، فلما رأى على انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبي بكر . ١٠ . واضطر أيضاً
غزوة خيبر في صحيح البخاري ١٣٩/٥ (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ) .

(١) انظر المصدرين السابقين وكتاب الأموال لابن سلام ص ١١ .

(٢) مسند أحمد ١١٣/٦ .

وأما الثانية فلهجتها في نفي الوصاية :

سئلت : « أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي ؟ » فقالت : « لقد كان رأسه في حجرى فدعا بالطست فبال فيها ، فلقد انخث (انعطف) في حجرى وما شعرت به ، فمتى أوصى إلى علي ؟ ^(١) » .

وأما الثالثة وفيها البلاغ ولقد نبه إليها داهية بنى هاشم عبد الله بن عباس فإليك حديثها عن الطبرى :

روى عن عائشة أنها قالت : « لما اشتد بالرسول وجعه » دعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي ، فأذن له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر ، تخط قدماه الأرض عاصباً رأسه حتى دخل بيتي . قال راوى الحديث : فحدثت بهذا الحديث عنها عبد الله بن عباس فقال : « هل تدري من الرجل الآخر ؟ » قلت : « لا » قال : « علي بن أبي طالب ، ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير وهي تستطيع ^(٢) » .

وحتى بعد انقضاء حرب الجمل وانتهاء الأمر بينهما على خير وتبادل ثناء ، لم يزل ما بنفسها نحوه ، فقد ذكرت أنها لما انتهى إلى عائشة قتل على قالت متمثلة :

« فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فمن قتله ؟ » فقيل « رجل من مراد » فقالت :

« فإن يك نائياً فلقد نعاها غلام ليس في فيه التراب »

فذكرت أن زينب بنت أبي سلمة كانت حاضرة فقالت : « ألعلى تقولين هذا ؟ »

فقالت : « إني أنسى ، فإذا نسيت فذكروني ^(٣) » .

وأنا أجد هذا الخبر مفصلاً عن طويتها نحو علي خير إفصاح ، وشارحاً ما قدمت

(١) طبقات ابن سعد ٤٩/٨ والإجابة ص ٩٤ .

(٢) تاريخ الطبرى ٤٣٣/٢ - لكن ابن عبد ربه روى عن السيدة تفریطاً لعل موفياً على الغاية في الثناء قالت وقد ذكرت يوماً عندها : « ما رأيت رجلاً أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، ولا امرأة كانت أحب إليه من امرأته » . (تريد السيدة فاطمة) - العقد الفريد ٩٤/٣ .

(٣) الطبرى ١١٥/٤ .

لك من أنها تخضع من حيث لا تريد لتوجيه عاطقتها (اللاشعورية) ، ولست أشك أنها كانت حينئذ شاردة وأن عقلها الباطن هو الذى تمثل بهذين البيتين قبل أن تنبه إلى ما فيها من بعد عن الجميل .

وحسبك هذا فى بيان طبيعة ما يكنه كل منهما نحو الآخر ، فلنشرع فيما نحن بسبيله من مآتيها فى خلافة على X

الفصل الثانى

موقفها من بيعة على والحالة العامة

نعود بك الآن — بعد هذه المقدمة التى لا بد منها — إلى سوق الحوادث متسلسلة على نسقها الذى جاءت عليه ^(١) : عرفت أن السيدة تركت المدينة وعثمان محصور والأزمة أشد ما تكون تازماً وأقرب إشراقاً على النتيجة المحتمومة الفاجعة ، وعرفت أيضاً أن مروان ضرع إلى السيدة أن تظل بالمدينة لعل بقاءها يمنع عن عثمان شره الغوغاء ، ولعلها إن نصحتهم أن يستجيبوا لها فيراقبوا الله فى الخليفة الشيخ ، وأنها أبت وخرجت حاجة ؛ فلما قضت حجبها لبثت بمكة تنتظر عمرة الحرم .

وكان عثمان قد قتل ، وبويع على ^(٢) لخمس بقين من ذى الحجة ، وتوارد بين القتل والبيعة أناس هاربين من الغوغاء إلى مكة ، وأكثرهم من بنى أمية رهط عثمان ، فاستخبرتهم عائشة عما وقع ، فأخبروها أن الأمر أمر الغوغاء ، وأنهم عرضوا للخلافة فلم يجبههم إليها أحد ^(٣) . وأدرك السيدة هنا حزن صادق على عثمان ، ولعلها أيقنت فى نفسها أن نصيح الأمراء لا يكون على رؤوس الأشهاد ، وأن ذلك مفسدة للعامة لا يخلو من المصرة مهما كانت نية الناصح خالصة ، فقالت وفى قولها إشارة لما جال فى خاطرها :

« ولكن أكياس ، هذا غب ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح » .

(١) معظم اعتمادنا فيما نسوق على الطبرى .

(٢) تفصيل ذلك فى الطبرى ٤٥٤/٣ .

فلما قضت عمرتها خرجت متوجهة نحو المدينة ، فلما انتهت إلى (سرف) لقيها رجل من أخوالها من بني ليث وكانت السيدة واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبيد بن أبي سلمة ويعرف بأمه أم كلاب ، قادماً من المدينة ، فقالت : « مَهِّيمٌ » فأصم ودمدم^(١) ، فقالت : « ويحك علينا أم لنا ؟ » فقال : « لا ندري ، قتل عثمان وبقوا ثمانيا » فاستعجبت قائلة : « ثم صنعوا ماذا ؟ » قال : « أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على عليّ ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز » . فقالت : « ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك ! » ثم قالت : « ردوني ردوني » ، « قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأظلمن بدمه » . فقال لها ابن أم كلاب : « ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعتلاً فقد كفر^(٢) » قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول » فقال لها ابن أم كلاب :

فمنكِ البداء ومنكِ الغيرُ ومنكِ الرياح ومنكِ المطرُ
وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام وقلت لنا : إنه قد كفر
فهينا^(٣) أظعنك في قتله وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا ولم ينكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تُدرٍ يزيل الشبا ويقسيم الصعر^(٤)
ويلبس للحرب أثوابها وما من وفي مثل من قد غدر^(٥)

وانصرفت السيدة راجعة إلى مكة وهي لاتقول شيئاً ولا يخرج منها شيء^(٦) حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فسترت فيه واجتمع الناس إليها فخطبهم بهذه الخطبة :

(١) المصدر السابق ٤٦٨/٣ ميم كلمة استفهام من معانيها : ما وراءك ؟ الدممة : الغضب .
(٢) مهربك دحض هذه القرية عن السيدة ص ٤٤ .
(٣) هناك رواية ثانية فيها : (ونحن) مكان (فهينا) .
(٤) رجل ذوتدرٍ : مدافع ذوعز ومنعة — الشبا : العاو ، الحد — الصعر : إمالة الحد عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبراً .
(٥) يقع في خلدى أن هذه الأبيات مصنوعة لنصرة هوى سياسي فزيدت في هذا الخبر أيضاً .
(٦) جمعنا روايتين للطبري ٤٦٨/٣ ، ٤٧٧ ، ويزيد صاحب (الإمامة والسياسة ص ٤٢) أن طلحة لما لقيها بمكة وأخبرها بما جرى قائلاً : « بايعوا علياً ثم آتوني فأكرهوني ولببوني حتى بايعت » . قالت : « وما لعلني يستولى على رقابتنا ؟ لا أدخل المدينة ولعلني فيها سلطان » .

« أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن غاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس : الإرب واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل أسنانهم قبله ، ومواقع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم ؛ فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً خلعوا وبادوا بالعدوان ونبأ فعلهم عن قولهم : فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا انبلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ؛ فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، ويُشردَ من بعدهم . والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً نخلص منه كما يخلص الذهب من حُثْبِهِ أو الثوب من دَرَنِهِ ؛ إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء ^(١) .. »

(١) الطبري ٤٦٨/٣ — الإرب : الفائلة والنكر واستعمال الدهاء — خلعوا : تحركوا وطعنوا — التنكيل به : عقوبته عقوبة تحذر غيره عن مثل فعله — الموص : الغسل اللين والدلك باليد .
هذا ويروي أبو حيان التوحيدى هذه الرواية الغريبة حقاً :
لما قتل عثمان خرجت عائشة والناس مجتمعون ، وعلى فيهم [!؟] ، فقالت : « أقتل أمير المؤمنين عثمان ؟ » قالوا : « نعم » ، قالت :

« أما والله لقد كنتم إلى تسديد الحق وتأكيده أحوج منكم إلى ما نهضتم إليه من طاعة من خالف عليه ؛ ولكن كلما زادكم الله صحة في دينه ازدتم ثقلاً عن نصرته طمعاً في دنياكم . أما والله لهدم النعمة أيسر من بنائها ، وما الزيادة إليكم بالشكر بأسرع من زوال النعمة عنكم بالكفر . أما لئن كان في أكله ، واخترم أجله ، إنه لصهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرتين ، وما علمنا [خلقاً] تزوج ابنتي نبي غيره ؛ ولو غير أيديكم قرعت صفاته لوجد عند تلفي الحرب متجرداً ، ولسيوف النصر متقلداً ، ولكنها فتنة قدحت بأيدي الظلمة .

أما والله لقد حاط الإسلام وأكده ، وعضد الدين وأيده ، ولقد هدم الله به صياصي أهل الشرك ، ووقم (أذل) أركان الكفر . لله المصيبة به ما أجمعها ، والفجيعة به ما أوجعها ، صدق والله مقتله صفة الدين ، وثلمت مصيبته ذروة الإسلام ؛ تباً لقائله ، أعاذنا الله وإياكم من التلبس بدمه والرضا بقتله » . ١٥٠
الإمتاع والمؤانسة ١٩٩/٣ .

وهذا الكلام كله مصنوع ، أريد به محاكاة أسلوب عائشة في خطبها المحفوظة في أيها ، ولا أطيل عليك بتفنيده ، فحسبك أن عائشة خرجت من المدينة قبل قتل عثمان ثم لم ترجع إليها إلا بعد وقعة الجمل ، ولم تخطب قط يجمع فيهم على بن أبي طالب ، وإذن لم تجتمع المدينة بينها وبين علي بعد خروجها أيام عثمان قط ... وكل هذا مرربك . وقد أورد هذه الخطبة مع بعض الزيادة أحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور المتوفى سنة (٢٨٠ هـ) في كتابه بلاغات النساء ص ١٤ — ١٥ ، وقال في آخرها : « وعلى عليه السلام جالس في القوم ، فلما قضت كلامها قام وهو يقول : « أرسل الله على قتلته شهاباً ثاقباً وعذاباً واصباً » .
وقد كنت على ظن أن الخطبة من صنع أبي حيان التوحيدى وهو رجل بليغ يولع بمحاكاة الأساليب والوضع على أصحابها استعطالة ببلاغته ، يعرف ذلك عنه ذوو البصر بالكلام وبنقه التاريخ ، ولكني لما رأيت ابن أبي طاهر يوردها مع الزيادة وقد توفي قبل أبي حيان بنحو (١٢٠ سنة أيقنت أنها أقدم صنعاً .

كانت هذه الخطبة إعلاناً واضحاً للثورة على خلافة علي ، وعدم الاعتراد ببيعته ، فلننظر أمر الذين استجابوا لها وموقفهم من علي ، ولنختار من رؤوس الناس : طلحة والزبير وبعض رؤوس بني أمية أولياء الخليفة الشهيد عثمان بن عفان : X

وأما طلحة : فقد طمحت نفسه للخلافة مذ كان أحد الستة أهل الشورى الذين أوصى عمر أن يكون الخليفة بعده أحدهم ، فلما صار الأمر لعثمان وكثر الناقدون عليه كان طلحة في طليعتهم ، فلما حصل الشوار في المدينة تهباً ليكون الخليفة بعد اعتزال عثمان أو قتله ، فبادر وعثمان محصور وقد قارب أمره التمام ، فاتخذ على بيوت الأموال والخزائن — على ما يروى الطبري^(١) — مفاتيح وحراساً ، وكثر لذلك إقبال الناس عليه وازدحامهم على بابه كأنه خليفة . وكان هذا التصرف من طلحة أشد إبلاماً لقلب عثمان ، فأرسل إلى علي بن أبي طالب فاتاه فاستغاث به وذكره حق الإخاء والقرباة والصهر والعهد والميثاق ، وأيسر من هذا كاف في استجابة مروءة علي ، فنهض لإغاثة عثمان ووعدته خيراً وقال : « سيأتيك الخبر » . ثم خرج فدخل المسجد فرأى أسامة بن زيد جالساً فدعاه فاعتمد على يده فخرج يمشي إلى طلحة ، فلما دخلوا الدار وجدوها غاصّة بالناس يمججون فيها فقال علي :

« يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه ؟ » فقال : « يا أبا حسن ، أبعث مامس الخزام الطيبين ؟ »^(٢) فانصرف علي ولم يجب بشيء .

وقصد إلى بيت المال فقال : « افتحوا هذا الباب » فلم يقدر على المفاتيح ، فقال : « اكسروه » فكسر باب بيت المال فقال : « أخرجوا المال » فجعل يعطى الناس^(٣) .

وطار الخبر في أسواق المدينة حتى بلغ الذين في دار طلحة ، فجعلوا يتسللون إليه حتى تركوا طلحة في داره وحيداً ينظر والحسرة تأكله .

وبلغ الخبر عثمان فشفى مافي نفسه على طلحة وسر سروراً كبيراً . وأراد طلحة بعد ما سقط في يده أن يعتذر ، فاستأذن على عثمان . فلما دخل عليه قال : « يا أمير المؤمنين

(١) ٤٥٣/٣ .

(٢) الصفحة نفسها — ومس الخزام الطيبين : كناية عن اشتداد الأمر وخروجه من يده — انظر

شرحها في الحاشية ص ٥٩ .

أستغفر الله وأتوب إليه ، أردت أمراً فخال الله بيني وبينه . فقال عثمان :

« إنك والله ماجئت تائباً ، ولكنك جئت مغلوباً ؛ الله حسينك يا طلحة » .^(١)

ولما بويع لعليّ تلکاً طلحة عن البيعة ، فأرسل حزبه أهل البصرة الأشر النخعي إليه في نفر منهم ليباع علياً ، غيظاً منهم وحنقاً إذ لم ينهض بأمر نفسه كما ينبغي حتى غلبهم أهل مصر ونصبوا (مرشحهم) علياً ، فجاءوا يقودونه بالسيف وقال : « إنما أبيع كرهاً » وجعل الأشر يتلّه تلاً عنيفاً وسل سيفه وهو يقول : « والله لتبايعن أو لأضربن بين عينيك » فصعد المنبر فباع . وبعد أيام طلب من علي أن يوليه البصرة^(٢) وأشار إلى أنه والزبير بايعاه على أنهما شريكاه في الأمر ، فاعتذر علي عن توليته بأنه يريد أن يستعين برأيه فيما يعرض له من مشكل .

وأما الزبير : فكان أمره في كل ذلك قريباً من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه : انتقد عثمان ماشاء له النقد ، ونقم عليه ، ورضى أن يثور الناس به ثم كان الثائرون من أهل الكوفة يصدرون عن رأيه ، وأهواؤهم معه ، وهم يريدون إن وقع بعثمان حادث أن تؤول إليه الخلافة ، فلما لم ينهض للأمر النهوض المطلوب نقم عليه حزبه أيضاً ، وجاءوا به ليباع كرهاً فباع ، ثم عرض لعلي أن يوليه الكوفة^(٣) فاعتذر بحاجته إليه وإلى طلحة أن يتحمل بهما على أمره وأما بنو أمية : فقد أصبحوا مغلوبين من حين قوى أمر الثائرين ، فلما وقعت الواقعة بعثمان ثم بويع عليّ وهم أشد ما يكونون كراهة لولايته ، اخفقوا ، وجعلوا يتسللون هرباً إلى مكة : استعداداً لإحباط أمر علي أو للحاق بمعاوية في الشام ، ومعهم الرجال والأموال إذ كان أغلبهم ولاة لعثمان ، فلما تركوا ولاياتهم تحملوا بما استطاعوا أخذه من الأموال والظهر والسلاح .

فأنت ترى أن عائشة طالبت بدم عثمان ، وسترى أنها اندفعت في هذه السبيل على رغم تحذير المحذرين ونصح أمهات المؤمنين اندفاع الأتقي الجارف ... حتى جمعت الجموع وأحاط بها كل طامع وكل ذي ثأر عند أصحاب علي وكل كاره لخلافته ؛ مع آخرين خرجوا معها

(١) المصدر السابق . (٢) الطبري ٤٥١/٣ . (٣) المصدر السابق .

بعقيدة مخلصه بريئة : مغيرين منكرين مطالبين بإقامة الحدود . وخرجت بهذه الجماهير من الحجاز حتى وافت العراق ، فلم يكن من محيص دون القتال ومؤثر الشر منتشرون متسكثرون في جماعتها وجماعة علي .

تفرق الناس في أمر عليّ فرقاً ، أبعدها أثراً تلك التي كرهت ولايته سراً وأعلنت وجوب الثأر لعثمان من العوغاء . وهذا إعلان فيه من التعجيز أكثر مما فيه من القصد الصحيح ، وكان رأي علي في هذه القضية رأياً سيديداً ملموساً صوابه ، وقد ألمّ المؤرخ الطبري بالوجوه المختلفة فيها وموقف الأعلام منها فقال :

« اجتمع إلى عليّ بعد ما دخل طلحة والزبير عدة من الصحابة فقالوا : « يا عليّ إنا قد اشتربنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتروا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم » فقال لهم : « يا إخوانه ، إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ... فهل ترون موضعاً لقدرة علي شيء مما تريدون ؟ » قالوا : « لا » قال : « فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله ... إن الناس من هذا الأمر إن حرك علي أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها وتتخذ الحقوق ... فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا » .

واشدد علي قريش وحال بينهم وبين الخروج ... وإنما هيجه على ذلك هرب بني أمية . وتفرق القوم : بعضهم يقول : « والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار ، لترك هذا إلى ما قال عليّ أمثل » . وبعضهم يقول : « نقضى الذي علينا ولا تؤخره ، والله إن علينا لمستغن برأيه وأمره عنا ، ولا نراه إلا سيكون علي قريش أشد من غيره » . فذكر ذلك لعلي فقام فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم ، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل عليه ^(١) .

(١) الطبري ٣/٤٥٨ ، ٤٥٩ .

ثم أمر على أن يرجع كل عبد إلى مواليه ونادى في الناس : « أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب » ، ونادى في الأعراب : « يا معشر الأعراب الحقوا بميأهكم » . وهو يريد بذلك أن ينفرد الوالغون في دم عثمان من السبئية ، فلا يجدون مدداً لهم من الغوغاء ، فيستطيع حينئذ أن يثأر منهم . ولكنهم كانوا أظن لمراده ، فرفضوا الخروج وتبعتهم الأعراب .

ولما دخل عليه بعد ذلك طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبي فيهم الذين يُخرجونه بطلب الثأر من القتلة ، قال لهم على : « دونكم ثأركم فاقتلوه » . فأظهروا عجزهم عن ذلك فأعلمهم أنهم بعد اليوم أعجز وتمثل :

ولو أن قوى طاوعتني سراتهم أمرتهم أمراً يدينح الأعدايا
فانبرى طلحة يقول : « دعني فلأت البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل » .

وانبرى الزبير يقول : « دعني آت الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل »^(١) . فلم على ما يحول في نفوسهما فأجابهما : « حتى أنظر في ذلك » .

فما تقدم عرفت أن علياً محيط بهذه القضية من جميع وجوها ، وأنه مطلع على تفرق الناس فيها ووجهة نظر كل فرقة ، وأن حكمه فيها على غاية من الحصافة والساد ، كما لم يخف عليه شيء من النوازع المكتومة في نفوس طلحة والزبير وغيرها .

وليكون تصويرنا الحالة السياسية كاملاً نرى من اللازم الإشارة إلى مجمل ما كان من موقف الأمصار من بيعة عليّ وطاعته ، ثم نعود إلى حديث طلحة والزبير وعائشة وأشياهم :
بادر على إلى عزل عمال عثمان والاستبدال بهم ، وكان رأى ابن عمه عبد الله بن عباس إقرارهم إلى أن تستقر الحال وتأتى علياً بيعة الأمصار كافة ، ثم يكون أهون الأمور تغيير العمال . أما اجتهاد على فقد كان اجتهاداً (قضائياً) لإدارياً سياسياً ، ومن هنا تزعر أمره ، إنه يرى أن هؤلاء العمال غير صالحين ؛ ومن فسادهم وجورهم كانت هذه الشكاوى والثورات التي انتهت بأكثر فاجعة في التاريخ العربي ، وإن إبقاءهم ولو لحظة إقرار للظلم والفساد يحاسب الله عليه ، وإلا فقيم نعموا على عثمان ؟

(١) الطبري ٤٥٨/٣ ، ٤٥٩ .

لم تعد إشارة النصحاء : ابن عباس والمغيرة وغيرهما شيئاً ، ولم تصرف علياً عن رأى اعترمه على رغم التحذير الذى حُدِّره . ففرق عماله على الأمصار : أرسل سهل بن حنيف إلى الشام بدلاً من معاوية وكان عرض ولاية الشام على ابن عباس فأبى ، وأرسل عبيد الله ابن عباس إلى اليمن ، وعثمان بن حنيف إلى البصرة ، وعمارة بن شهاب إلى الكوفة . وكان أشار عليه عبد الله بن عباس أن يوتى البصرة والكوفة طلحة والزبير ، وبذلك يكفى أمرها وأمر هذه الشكايات التى يبثونها فى مجالس قريش بعد أن أظهر على أنه غير مواليهما شيئاً ، وكان الزبير لا يشك أنه مولى العراق وطلحة موقن بولاية اليمن ، فلم يجب على ابن عباس توجساً منهما ، وكان من احتجاج على ابن عباس قوله :

« ويحك ، إن العراقيين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان على القوى بالسلطان ؛ ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام . ولولا ما ظهر لى من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى^(١) » .

سار عمال على إلى أمصارهم ، فأما والى الشام سهل بن حنيف فما كاد يبلغ تبوك حتى رده خيل الشام قائلة : « إن كان عثمان بعثك فحيهاً بك ، وإن كان غيره بعثك فارجم » فرجع إلى على . وأما والى اليمن عبيد الله بن عباس فسار إلى اليمن فوجد واليها السابق يعلى ابن أمية^(٢) قد خرج منها بالحامية والأموال إلى مكة . وأما والى البصرة عثمان بن حنيف فدخل البصرة دون شعب . وأما والى مصر فقد دخل مصر بالحيلة وبقي أهلها شيعياً بعضهم معه وبعضهم اعتزل .

وأهم علياً أمر الشام قبل غيره ، فأرسل عقب رجوع عامله عنها رسولاً إلى معاوية ليبايع ، فلم يرد معاوية جواباً وماطل الرسول حتى شهر صفر ، ثم دعا برجل من عبس فدفع

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين لعبد الوهاب النجار ص ٣٨٥ .
(٢) ويقال له أيضاً : (يعلى بن منية) ومنية اسم أمه ، صحابى أسلم وشهد مع رسول الله تبوك ، وكان يقول : « غزوت مع رسول الله جيش العسرة ، وهو من أوثق أعمالى فى نفسى) — طبقات ابن سعد ٣٣٧/٥ ، والذى يعنيننا من أمره هنا أن أبى بكر استعمله على حلوان فى الردة ، ثم عمل لعمر على بعض اليمن فمضى لنفسه حتى فعزله عمر ، ثم عمل لعثمان على صنعاء اليمن وحج سنة قتل عثمان ... الإصابة الترجمة (٩٣٦٠) .

إليه طوماراً مختوماً عنوانه (من معاوية إلى عليّ) وأوصاه أن يدخل المدينة قابضاً على الطومار من أسفله ، وأوصاه بقول يقوله ، ثم سرح معه رسول عليّ ...

فقدما المدينة في أول شهر ربيع الأول ، فلما دخلها رفع العبسي الطومار كما أمره معاوية ، وقرأه الناس فعلموا منه أن معاوية غير مبائع . ودخل العبسي على عليّ فسلمه الطومار ، ففض خاتمه عليّ فراه فارغاً لا كتاب فيه ، فسأل الرسول : « ما وراءك ؟ » قال : « أأمن أنا ؟ » قال : « نعم فإن الرسل آمنة لا تقتل » قال : « ورأى أنى تركت قوماً لا يرضون إلا بالقود (القصاص) » قال : « ممن ؟ » قال : « من خيظ نفسك ، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق ^(١) » . فقال عليّ : « أمني يطلبون دم عثمان ؟ أأست موتوراً كثره عثمان ؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان . نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله » . وصرف العبسي ، فعاد يسأله : « وأنا آمن ؟ » قال : « وأنت آمن » فلما خرج العبسي صاحت به السبئية : « هذا الكلب وافد الكلاب ، اقتلوه » فنادى « يال مضر ، يال قيس ، الخليل والنبل ، أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا : كم الفحولة والركاب ... » ، وتهافتوا يريدون أذاه فمنعته مضر وهم يقولون له : « اسكت » فيقول : « لا والله ، لا يفلح هؤلاء أبداً فلقد أتاهم ما يوعدون » فيقولون : « اسكت » فيقول : « لقد حل بهم ما يحذرون ، انتهت أعمالهم وذهبت ريحهم ^(٢) » . فما أمسى السبئية حتى عرف النذل فيهم . ولا ريب أن هذه الأقوال هي التي أوصاه معاوية بإعلانها وكأنه تنبأ بما سيقع له . وكان هذا أول النذل وقع على قتلة عثمان .

لما أعلن معاوية خلافه على عليّ ، أشار نصحاء عليّ بالأناة والكف ، وكان ابنه الحسن قد نصحه بالعود وترك الناس وشأنهم ، فلم يصغ إليه . وكانت الجماهير في قلق من أمر معاوية لا يعلمون ماذا سيقضى فيه عليّ ؟ أيلجأ إلى الرفق أم إلى السيف ، فدسّوا إليه أحد ثقاته المنقطعين إليه : زياد بن حنظلة « فدخل ^(٣) عليه فجلس إليه ساعة ثم قال له عليّ :

(١) وفي العقد الفريد (٣/٨٨) أنه لما قرئ كتاب نائلة زوج عثمان تصف كيف قتل ، حلف رجال من أهل الشام : ألا يمسوا غسلا حتى يقتلوا علياً أو تفتى أرواحهم .

(٢) الطبرى ٤٦٤/٣ .

(٣) الجزء نفسه ص ٤٦٥ .

« تيسر يا زياد »

فقال : لأى شيء يا أمير المؤمنين ؟ .

قال : نغزو الشام .

قال زياد : الرفق والأناة أمثل :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم
فتمثل علىّ وكأنه لا يريدّه :

متى تجمع القلب الذكىّ وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه فقالوا : « ما وراءك ؟ » فقال : « السيف يا قوم » ،
فعرف الناس عزيمته ، ولم يكن ينتظر من على غير هذا .

استعد على القتال وعبأ جيشه فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية وولى عبد الله بن عباس
على ميمنته ، وجعل على اليسرة قائداً واستدعى أبا ليلي بن عمر بن الجراح ابن أخى (أبى عبيدة
ابن الجراح أحد العشرة المبشرين بالجنة وقائد فتح الشام ، ووالها ، وأمين هذه الأمة ...) ،
فجعله على المقدمة واستخلف على المدينة قثم بن العباس وأخذ فى التهيؤ .

وفى هذه الحال أتاه طلحة والزبير يريدان للحاق بمكة فقالا : « يا أمير المؤمنين ائذن
لنا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك وإن تسر نتبعك » . فنظر إليهما وقال :
« نعم ، والله ما العمرة تريدان ، امضيا إلى شأنكما » فمضيا .

الفصل الثالث

عائشة في طريقها إلى البصرة

الاختار على الخروج إلى البصرة :

ذلك إجمال يصور لك الحالة تصويراً شاملاً ، والآن نعود بك إلى أمر عائشة فقد تركناها (ص ٦٨) تخطب الجماهير في مكة أول خطبها الثيرة تحضهم على الأخذ بئثار عثمان قبل كل شيء .

كان وقع الخطبة على أسماع بنى أمية وسائر الساخطين إمارة على برداً وسلاماً ، أو كوقع المطر في الأرض الجدية ؛ فلما فرغت من خطبتها كان أول من استجاب لها عبد الله ابن عامر الحضرمي والى عثمان على مكة فقام وقال : « هأنذا لها أول طالب » . وكان هذا سألها لما رجعت من طريق المدينة : « ما ردك يا أم المؤمنين ؟ » قالت : « ردني أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن الأمر لا يستقيم وهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام » . وأجابه بنو أمية بالحجاز وكانوا قد استتروا فرفعوا رؤوسهم ، ثم لما قدم طلحة والزبير مكة — على ما سبق آنفاً — سألت عائشة : « ما وراءك ؟ » فقالا : « وراءنا أنا تحمّلنا هراًباً من المدينة من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم » . فقالت : « فائتمروا أمر الله نهضوا إلى هذه الغوغاء » وتمثلت :

ولو أن قومي طاوعتني سراتهم لأنقذتهم من الخيل أو الخيل^(١)

وجلس القوم يأترون : أين يقصدون بجمعهم ؟

أما عائشة فكانت تريد أن يذهبوا إلى المدينة فيقضوا على أمر الغوغاء والأعراب ويثأروا هناك من قتلة عثمان الذين عجلوا الأمر لعلي بن أبي طالب . وبذلك تقوض خلافته قبل أن يثبت لها ركن .

(١) الجزء السابق ص ٤٦٩ .

وقال قائل : « نقصد الشام » فلم يرض بنو أمية ذلك لأنهم يعدون الشام في حوزتهم وإليها ملجؤهم أخيراً إن نزلت بهم نازلة . ثم الأمر مستتب لهم فيها بمعاوية فلا يريدون له إفساداً ، وهم من هذه اللحظة يضعون حجر الأساس للخلافة الأموية أو للملك الأموي على الأصح ، بسعيهم في ضرب على وطلحة والزبير والمدنيين والعراقيين : بعضهم ببعض . لذلك ، نهض متكلمهم عبد الله بن عامر فقال : « قد كفاكم الشام من يستمر في حوزته » . وبهذا أبعدوا عن الشام ومعاوية كل شغب . فسألوا عبد الله هذا وكان — على ما علمت — والى البصرة لعثمان : « فأين نقصد ؟ » قال : « البصرة فإن لمي بها صنائع ولهم في طلحة هوى » . فقالوا : « قبحك الله ، فوالله ما كنت بالمسلم ولا بالحارب ، فهلا أقت كما أقام معاوية فنكتفي بك فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟ » .

وهذا دليل آخر على أن الأمويين يصرون عن رأى واحد إلى هدف واحد منذ الساعة ، فقد نعموا على ابن عامر إخلاء البصرة لما عزله على ، وكان عليه أن يبقى فيها ولا يبيع لعلى ويتربص كما فعل معاوية ، وهذا مفهوم بصراحة في جوابهم له .

ثم أجمع رأيهم على ترك المدينة إذ لا طاقة لهم بمن فيها ، وقصد البصرة لأن أهل هذين المصرين البصرة والكوفة هوام في طلحة والزبير . فلما انفقوا على البصرة اعتذروا لعائشة عن قصد المدينة وقالوا : « يا أم المؤمنين دعى المدينة فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها ، واشخصى معنا إلى البصرة فإننا نأتى بلداً مضيقاً ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على ابن أبي طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين ؛ فإن أصلح الله الأمر كان الذى تريدين ، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد^(١) » .

وجاد بنو أمية لهذا الخروج بالأموال دون حساب ، فإن والى اليمن يعلى بن أمية لما عزله على عنها قدم بالأموال فكان معه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم ، فعسكر بالأبطح وجعل هذه الأموال وقفاً على فساد أمر على . وكذلك ابن عامر فقد كان يجر الدنيا بمكة جراً ، ونادى المنادى :

« إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد إعزاز

(١) الطبرى ٤٧٠/٣ .

الإسلام وقتال المُحلّين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز . فهذا جهاز وهذه نفقة » .

فحملوا ستمائة رجل على ستمائة ناقه سوى من كان له مركب وكانوا جميعاً ألفاً . وأعان يعلى بن أمية وحده بأربعمائة ألف وحمل سبعين رجلاً من قریش ، وقدم عبد الله بن عامر مالاً كثيراً ، فلما فصلوا من مكة بلغ عددهم — على ما يقول الطبري — ثلاثة آلاف (١) .

نصح أم سلمة لعائشة :

لعلك ما زلت تذكر أن أم المؤمنين أم سلمة كان ميلها إلى علي بن أبي طالب ، وبه كانت تتقوى منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن علياً كان يشد أزرها فيما كان ينجم بينها وبين عائشة مما يكون عادة من المناقصة بين الضرائر (ص ٦٢) ، وبقيت أم سلمة حافظة لود عليّ مدى حياتها رضى الله عنها تتعصب له وتحطّب في حبله .

فلما اعتزمت عائشة الخروج على عليّ ، لم تألها أم سلمة نصحاً ولم تقصر في الخير لعلی ، حتى إذا لم يُجدّ النصح ، وحبط مسعاها (السياسي) أرسلت ابنها يحارب مع عليّ فكان ذلك غاية ما تملك من نصره دعوته ، وقدمته لعلی بهذه الكلمات :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل وأنت لا تقبله مني لخرجت معك ؛ وهذا ابني عمر ، والله هو أعز عليّ من نفسي : يخرج معك فيشهد مشاهدك » . فخرج فلم يزل معه (٢) .

كل هذا واقع لا شك فيه ، فلقد بذلت جهدها وما تملك من نصر لعلی . لكن الشك يعرفني فيما ينقل ابن أبي الحديد من أقوال يعزوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تذكر بها أم سلمة عائشة فتذكرها هذه ، ومع تذكرها تمضي في خروجها ! ! والمعروف عن عائشة وتدينها أن أقل من هذه الروايات — لو صحت — كافٍ في ردعها . مع هذا فمن الواجب أن نقل لك ما روى ابن أبي الحديد :

قالت أم سلمة لعائشة :

(١) ص ٤٧١ .

(٢) الصفحة السابقة — واستعمل عليّ ابنها عمر هذا على البحرين ثم عزله » .

«إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه أخبث القول، وما كان اسمه عندك إلا نعتلاً، وإنك لتعرفين منزلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفأذكرك؟» قالت: «نعم». قالت أم سلمة! «أتذكرين يوم أقبل^(١).. الخ». قالت: «نم أذكر ذلك». قالت: «وأذكرك أيضاً: كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت تغسلين رأسه وأنا أحيس له حَيْساً^(٢) وكان الحَيْس يعجبه، فرفع رأسه وقال: «يا ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأذْبَب، تنبجها كلاب الحوَّءب، فتكون ناكبة عن الصراط؟» فرفعت يدي من الحيس فقلت «أعوذ بالله وبرسوله من ذلك» ثم ضرب على ظهري وقال: «إياك أن تكونيها يا بنت أبي أمية^(٣) إياك أن تكونيها يا حميراء، أما أنا فقد أندرتهك». قالت: «نم أذكر هذا». فقالت: «وأذكرك... (وذكرت مسألة استخلافه لعلي وهي ما أجمع الثقات على رده)». قالت عائشة: «أذكر ذلك». فقالت حينئذ أم سلمة: «فأى خروج تحرجين بعد هذا؟». فقالت: «إنما أخرج للإصلاح بين الناس، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله». فقالت أم سلمة: «أنت ورأيك^(٤)».

وأكرر هنا أن بعض هذا — لوصح وقوعه — كاف في إقلاع السيدة عن خروجها، وفي حملها على الرجوع إلى بيتها وسنتكلم على حديث الحوَّءب هذا.

أما الرواية التي لا تحمل من الشك مثل ما تحمل الرواية المتقدمة فهي النصيحة المشهورة التي تذكرها كتب الأخبار وكتب الأدب وكتب اللغة معاً، وإليك إياها:

أت أم سلمة عائشة لما أرادت الخروج إلى البصرة فقالت لها:

«إنك سُدَّة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، وحجابك مضروب على حرمة، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عُقَيْرَكَ فلا تُصْحِرِهَا. الله من وراء هذه الأمة: لو أراد رسول الله أن يعهد إليك عهداً عُلَّتْ عُلَّتْ، بل نهاك رسول الله عن القُرْطَة في البلاد. إن عمود الإسلام لا يُثَاب بالنساء إن مال، ولا يُرَأَب بهن إن صدع. حُمَادِيَاتُ

(١) مرث هذه الفقرة وتعليقنا عليها ص ٦٤ .

(٢) الحيس: الخلط، وهو طعام يتخذ من تمر يخلط بسمن وأقط.

(٣) أم سلمة.

(٤) شرح نهج البلاغة ٢/٧٨.

النساء غض الأطراف وخفر الأعراض وقصر الوهارة . ما كنت قائلة لو أن رسول الله عارضك ببعض الفلوات : ناصّة قلوّصاً من منهل إلى آخر ؟ إن بعين الله مهواك ، وعلى رسوله تردين وقد وجهت سِدافته وتركت عُهيّدها .

لو سرتُ مسيرك هذا ثم قيل لي « ادخلى الفردوس » لاستحييت أن ألقى محمداً هاتكة حجاباً قد ضربه على . اجعلي حصنك بيتك ، ووقاعة الستر قبرك حتى تلقينه وأنت على تلك : أطوع ما تكونين لله ما لزمته ، وأنصرُ ما تكونين للدين ما جلست .
لو ذكرك قولاً تعريفينه لنهشت نهش الرقشاء المطرق^(١) .

فقلت عائشة :

« ما أقبلتني لوعظك ، وليس الأمر كما تظنين ، ولنم المسير مسير فزعتُ إلى فُتتان متناجرتان . إن أقعد في غير حرج ، وإن أخرج فإلى ما لا بد لي من الازدياد منه^(١) » .

(١) الفائق للزخمرى ٢٩٠/١ ، والعقد الفريد ٩٦/٣ ، وشرح نهج البلاغة ٧٩/٢ وقد عزاها هذا إلى ابن قتيبة في كتابه المصنف في غريب الحديث في باب أم سلمة . وابن قتيبة على ما مر بك حشا كتبه بالأهواء التي تحامها ثقاة المؤرخين كابن خلدون (انظر ص ٥ من هذا الكتاب) .
الشرح : السدة الباب (فإذا نابه أدى فقد ناب رسول الله) . ندح : فتح ووسع . العقيرى : مصغر عقر الدار (قال ابن قتيبة : لم أسمع بعقيرى إلا في هذا الحديث) والمعنى : لا تبارحى بيتك الذى أمرت بلزومه . أسحر : خرج إلى الصحراء . علت : من العول وهو الميل عن الحق . القرطة : التقدّم والسبق . يثأب : يقوم إذا مال . يرأب : يلائم . صدع : شق . حمادك : قصارك وغاية أمرك . غض الأطراف (هكذا في رواية ابن قتيبة ، وقد رواها كذلك الزخمرى ثم ردّها إلى ما صحفت عنه وهو : غض الإطراق أى يفضض أبصارهن مطرقات) . الحقر : الستر والحفظ . الوهارة : الخطوة ومشية المستحيات . النص : الدفع فى السير . الفلوس : الفتية من الإبل . السدافة (وفي رواية السجافة) : الستر ، وتوجيهها : هتكها . العهيدى : العهد . الوقاعة : الموقع على الأرض . النهش : العض . الرقشاء : الأفعى المنقطة . المطرقة : من صفات الأفعى والسبع .

هذا وينفرد يعقوبى في تاريخه (٢٠٩/٢) برواية تذهب إلى أن عائشة لما حرضها طلحة والزبير أتت أم سلمة تستشيرها قائلة : « أن ابن عمى وزوج أختى (طلحة والزبير) أعلمانى أن عثمان قتل مظلوماً وأن أكثر الناس لم يرض ببعية على ، وأن جماعة من بالبصرة قد خالفوا ، فلو خرجت بنا لعل الله أن يصلح أمر أمة محمد على أيدينا » .

فقلت لها أم سلمة : « إن عماد الدين لا يقام بالنساء ، حماديات النساء غض الأبصار وخفض الأطراف وجر الذبول ، إن الله وضع عنى وعنك هذا . ما أنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك بأطراف الفلوات : هاتكة حجاباً قد ضربه عليك ! » فيروى يعقوبى أن عائشة رجعت عن قصدتها وأن مناديتها نادى : « إلا إن أم المؤمنين مقيبة فأقيموا » . ثم أتاها طلحة والزبير وأزالاها عن رأيها وحلاها على الخروج .

وهذا كلام — على تكلفه وتصنعه — يجوز أن يدور بين أم سلمة وعائشة ، وهو أشبه بالواقع وأقل حظاً من الشك ، ووجود كثير من مفرداته في معاجم اللغة : تشرح ويشار إلى أنها في كلام أم سلمة لعائشة . . . باعث على بعض الاطمئنان ، وإن كنت لا أمتنع جواز الزيادة في الرواية ، وإني من الجملة الأخيرة في قول أم سلمة — خاصة — لفي بعض الشك^(١) .

يوم النجيب :

وهكذا أزمع القوم الرحيل وانشقت — لأمر يريد الله تمامه — عصا المسلمين ، وخرجوا يبعي بعضهم لبعض الأذية والنكال ، منهم من خرج حمية ونصرة لما يزعم أنه مصلحة المسلمين ، ومنهم من خرج دسيسة وغشاً ، لأمر يخفيه ويظهر غيره .

كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قد تأخرن يردن الرجوع مع السيدة عائشة إلى المدينة ، فلما صرفها طلحة والزبير وبنو أمية عنها إلى البصرة عزمن على الرجوع إلى المدينة ؛ لإحفصة فإنها قالت : « رأيت لأبي عائشة تبع » وأرادت أن تخرج مع عائشة إلى البصرة ، فإنهما كانتا حزباً واحداً منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أن أخاها عبد الله بن عمر منعها وطلب إليها أن تقعد كما قعد أخواتها أمهات المؤمنين ، فقعدت وأرسلت إلى عائشة تعتذر قائلة : « إن عبد الله حال بيني وبين الخروج » . فقالت عائشة : « يغفر الله لعبد الله^(٢) » .

(١) أورد كلام أم سلمة هذا ابن أبي طاهر في كتابه (بلاغات النساء) عقب كلامها أيضاً في نصيحتها لعثمان وجوابه لها ثم قال : « زعم لي ابن أبي سعد : (أنه صح عنده أن العتابي كلثوم بن عمرو صنع هذين الحديثين) وقد كتبتهما على ما فيهما » . انظر ص ١١ وما قبلها في (بلاغات النساء) — فأمل .
(٢) الطبري ٤٧٠/٣ .

وزعم صاحب الإمامة والسياسة (١/٩٩ مطبعة النيل سنة ١٩٠٤) أنه لما استقام أمر أصحاب الجمل واجتمعت كلمتهم على المسير قال طلحة للزبير : « إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن ن شخص عبد الله بن عمر » . فأتيه فقالا : « يا أبا عبد الرحمن ، إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس ، فاشخص معنا فإن لك بها أسوة ، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها » فقال ابن عمر : « أيها الشيخان أتريدان أن تخرجان من بيتي ثم تلقيان بيني وبين مخال ابن أبي طالب ؟ ! .. إن الناس إنما يتخذون بالدينار والدرهم ، وإني قد تركت هذا الأمر عياناً في عافية أناها » . فانصرفا عنه هـ .
والظاهر أن وجود ابن عمر في هذه الفتنة من أكبر ما اشتغل أربابها والناخون فيها ، فقد كان بعد هذا الرفض من ابن عمر أن « غدا مروان على طلحة والزبير فقال لهما : « عاودا ابن عمر ففعله ينيب » =

ثم خرجت الجماهير من مكة يملأ قلوب كثير منهم الأسف على مفادرتها ، والحزن قد شملهم وشمل المودعين ، ونظر عبد الله بن الزبير إلى البيت مودعاً متحسراً فقال : « ما رأيت مثلك بركة طالب خير ولا هارب من شر ^(١) » .

ثم خرجت عائشة بعد خروج طلحة والزبير ، فتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ^(٢) « فلم يُرَ يوم أكثر با كياً على الإسلام أوبا كياً له من ذلك اليوم . وكان يسمى : يوم النحيب . » ^(٣)

لما تنامت الجموع المستجيبة لأمر عائشة وطلحة والزبير ، خرجوا في نحو ثلاثة آلاف ، ولم يدخر هؤلاء الزعماء طاقة في استفزاز أكبر عدد ممكن ، وكان معهم أكثر الأمويين إلا من كسره الخوف منهم ؛ وأرجو منذ الآن أن تنتبه إلى (الدور المحكم) الذي يقوم به هؤلاء ، فإن يكن بعض الناس أظهر الثأر لعثمان وأبطن شيئاً آخر فإن الأمويين هم المنفردون فقط بالصدور عن خطة مرسومة لبلوغ هدف محدد كتموه وأظهروا الغضب لعثمان . ولما ودع الناس بعضهم بعضاً على ما مر بك ورجع أمهات المؤمنين من ذات عرق ، لقي سعيد بن العاص (أحد سروات الأمويين) مروان بن الحكم وأصحابه فقال لهم : « أين

فعاوداه فتكلم طلحة فقال : « يا أبا عبد الرحمن ، إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه ، فلما حضر العذر قضينا بالحق وأخذنا بالخط ! إن علماً يرى إنفاذ بيعته ، وإن معاوية لا يرى أن يبايع ، وإنما نرى أن نردها شورى ، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة » ، الإمامة والسياسة ١٠٣/١ . فكان من احتجاج عبد الله بن عمر على طلحة والزبير قوله لهما : « واعلمنا أن بيت عائشة خير لهما من هودجها ، وأنتما : المدينة خير لكما من البصرة ، والنال خير لكما من السيف ، ولن يقاتل علماً إلا من هو خير منه . وأما الشورى فقد والله كانت فقدم وأخرتما ، ولن يردّها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفياي أنفسكما » فانصرفا . لكن مروان يلح ويشير على طلحة والزبير أن يستعينا عليه بأخته حفصة ، فأتيا حفصة فقالت : « لو أطاعني أطاع عائشة ، دعاه .. » فتركاه وتوجها إلى البصرة .

لقد كان ابن عمر — سواء أصححت هذه الروايات أم لم تصح — من الراحة وبعد الغور و نفاذ البصيرة أكثر مما قدر طلحة والزبير ، ولم يكن يعرف ميزته هذه أحد مثل أبيه عمر . فقد كان يقدر ولده حق قدره ، ولأمر ما جعله أحد الستة أصحاب الشورى على حدائنه وجلالتهم .

(١) هكذا في الطبري ٤٧١/٣ والذي في تهذيب تاريخ ابن عساكر (٤٠٩/٧) : أن الزبير نفسه لما سار من مكة إلى البصرة ، التفت إلى البيت بعد ما ودع وتوجه يريد الركوب ، فأقبل على ابنه عبد الله هذا وقال : « أما والله ما رأيت مثله لطالب رغبة أو خائف رهبة » .

(٢) ذات عرق : موضع يهل منه أهل العراق بالحج وهو الحد بين نجد وتهامة — معجم البلدان .

(٣) الطبري ٤٧٨/٣ .

تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل؟ (يريد طلحة والزبير وعائشة) ، اقتلوهم ثم ارجعوا إلى بيوتكم لا تقتلوا أنفسكم . » قالوا : « بل نسير فاعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً . »

ويجعل صاحب (الإمامة والسياسة) هذا اللقاء في أوطاس من خير حيث كان سعيد ابن العاص والمغيرة بن شعبة . ويروي أن سعيداً أشرف على الناس وقال لعائشة : « أين تريدن يأأم المؤمنين ؟ » فقالت « أريد البصرة » قال : « وما تصنعين بالبصرة ؟ » قالت : « أطلب بدم عثمان . » قال : « فهؤلاء قتلة عثمان معك . » ثم أقبل على مروان فقال له : « وأنت أين تريد أيضاً ؟ » قال : « البصرة . » قال : « وما تصنع بها ؟ » قال : « أطلب قتلة عثمان . » قال : « فهؤلاء قتلة عثمان معك ، إن هذين الرجلين (يريد طلحة والزبير) قتلا عثمان ، وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه قالوا : نغسل الدم بالدم ، والحبوبة بالتوبة . »

ثم قال المغيرة بن شعبة : « أيها الناس ، إن كنتم خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيراً لكم ، وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وإن كنتم نعمتم على علي شيئاً فبينوا ما نعمتم عليه ؛ أنشدكم الله : فتنتين في عام واحد؟! » فأبوا إلا أن يمضوا بالناس . ثم لحق سعيد بن العاص باليمن ، ولحق المغيرة بالطائف فلم يشهدا شيئاً من حرب الجمل وصفين (١) .

لكن سعيداً أراد أن يسهم في عمل الأمويين المزدوج وهو إلقاء الشر وإضعاف كل جماعة غير جماعتهم ، وقد عنزم على ألا يخرج فلا أقل من مسعى في الدعاية ، فحلاً بطلحة والزبير فقال : « إن ظفرتما فلن تجعلان الأمر ؟ اصدقاني » قالوا : « لأحدنا ، أينما اختاره الناس . » قال : « بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه . » قالوا : « ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم؟! » قال سعيد : « لا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف » فرجع ورجع معه غيره . وكان المغيرة بن شعبة وهو أحد دهاة العرب حاضراً فقال : « الرأي ما رأي سعيد . » ثم نادى : « من كان هاهنا من تقيف فليرجع » وكذلك كان . وهذا أول وهن وقع في هذا المسكر ، وتكفل مروان بالباقي على ما سيأتي .

(١) الإمامة والسياسة .

فصل القوم من مكة ، فلما بعدوا حان وقت صلاة ، فأذن مروان ثم وقف على طلحة والزبير فقال : « على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة ؟ » فقال عبد الله بن الزبير : « على أبي عبد الله الزبير » وقال محمد بن طلحة : « على أبي محمد طلحة » وكاد يظفر كيده في الإفساد لولا أن أرسلت عائشة إلى مروان تقول له : « مالك ؟ أتريد أن تفرق أمرنا ؟ ليصل ابن أختي » فكان يصلى بهم عبد الله بن الزبير^(١) . وكان التعقيب المنتظر على هذا الحادث لمعاذ بن عبيد الله الذي قال : « والله لو ظفرنا لافتننا : ما خلى الزبير بين طلحة والأمر (يعنى الخلافة) ، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر » .

(٢) الجمل والحوءب

حملت عائشة على جمل شديد قوى اسمه (عسكر) ، اشتراه لها يعلى بن أمية بثمانين ديناراً وبه سميت هذه الفتنة كلها بيوم (الجمل) ، نسبة إلى هذا الجمل الذى حملوا عليه هودج عائشة . ولرواة الأخبار فى هذا الجمل وفى ماء مروا به فى الطريق اسمه (الحوءب) قصة محفوظة طريفة نحن ذا كروها لك على لسان صاحب الجمل نفسه وكان دليل القوم فى أول الطريق :

حدث العرفى صاحب الجمل قال :

« بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لى راكب فقال :

ياصاحب الجمل ، تبيع جملك ؟

قلت : نعم

قال : بكم ؟

قلت : بألف درهم .

قال : أجنون أنت ؟ جمل يباع بألف درهم ؟

(١) رشحت عائشة بعد ذلك للصلاة عبد الرحمن بن عتاب فكان يصلى بالناس ، وكان — على رواية الطبرى — عدلاً بينهم .

(٢) الحوءب : ماء فى طريق الناهب من المدينة إلى البصرة .

قلت : نعم ، جملي هذا .

قال : وم ذلك ؟

قلت : ما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبني وأنا عليه أحد إلا فُتته .

قال : لو تعلم لمن نريده لأحسنت بي معنا .

قلت : لمن تريده ؟

قال : لأمك .

قلت : لقد تركت أمي في بيتها قاعدة لا تريد براحاً .

قال : إنما أريده لأم المؤمنين عائشة .

قلت : فهو لك ، فخذ به بغير ثمن .

قال : لا واكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهربة ونزيدك دراهم .

قال العرني : فرجعت فأعطوني ناقة مهربة وزادوني أربعمائة درهم أوستائة^(١) . فقال لي :

« يا أخا عرينة ، هل لك دلالة بالطريق ؟ » قلت : « نعم ، أنا من أدل الناس » قال :

« فسر معنا » فسرت معهم فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألوني عنه حتى طرقتنا ماء الحووب

فنبحتنا كلابها ، قالوا : « أي ماء هذا ؟ » قلت : « ماء الحووب » فصرخت عائشة بأعلى

صوتها ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم قالت : « أنا والله صاحبة كلاب الحووب طروقاً ،

ردوني ردوني ردوني » . فأناخت وأناخوا حولها ، وهم على ذلك وهي تأتي . . حتى كانت

الساعة التي أناخوا فيها من الغد ، فجاءها ابن الزبير فقال : « النجاء النجاء .. فقد أدرككم

(١) أما ابن أبي الحديد فإنه لم يعدم في ذلك حديثاً ينسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قصة غربية يصعب تصديقها لأنها تظهر السيدة عائشة هذه المخلوقة الذكية بمظهر المغفلة ، لكن ذلك لا يمنع ابن أبي الحديد من إثباتها مهما يكن فيها من تهافت ، أليس فيها حديث تزعم نسبه إلى الرسول يشير إلى هذا الجمل « عسكر » ؟ قال :

لما عازمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً أيدأ يحمل هودجها ، فجاءهم يعلى بن أمية بعيره

المسمى عسكر ، وكان عظيم الخلق شديداً ، فلما رآته أعجبها وأنشأ الجمال يمدحها بقوته وشدهته ويقول في أثناء

كلامه : « عسكر » ؛ فلما سمعت هذه اللفظة استرجعت وقالت : « ردوه ، لا حاجة لي به » ، وذكرت

حيث سئلت : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لها هذا الاسم (!!) ونهاها عن ركوبه !! » ،

وأمرت أن يطلب لها بعير غيره ، فلم يوجد ما يشبهه ، فغيرها بجلال غير جلاله ، وقيل لها : « قد أصبنا لك أعظم منه خلقاً وأشد قوة » وأثبت به فرضيت !! « ١ هـ . شرح نهج البلاغة ٢ / ٨٠ .

والله على بن أبي طالب » . فارتحلوا وشموني فانصرفت ^(١) .

لكن المؤرخ السعودي وابن أبي الحديد يجعلان لخبر الحووب خاتمة روائية طريفة
ويصلان الحديث على الصورة الآتية :

« ... فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك فقالت : « ردوني إلى حرم رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، لاحاجة لي في السير » فقال ابن الزبير : « بالله ما هذا الحووب ، ولقد
غلط فيما أخبرك به » . وكان طلحة في ساقه الناس ، فلحقها فأقسم أن ذلك ليس بالحووب ،
وشهد معه خمسون رجلاً (!!) ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في
الإسلام !! » ^(٢) اه وما شاء الله كان .

وبعد فما هذا الحديث الذي زعمت الروايات أن عائشة تذكرته عند ماء (الحووب) ؟
لقد مر بك ص ٨٠ رواية ابن أبي الحديد وشكنا فيها ، وأكثر روايات ابن أبي الحديد
والسعودي في هذا الموضوع يصعب قبولها على الناقد لأمرين اثنين : الأول عصبية الرجلين
لعلى وتشيعهما له تشيعاً ظاهراً لا خفياً به ، ولو اطلع عليه على نفسه لكان أشد الناس له إنكاراً ؛
والعصبية حجاب ثقيل ، كثيراً ما صرف صاحبه عن الرؤية الصحيحة ، وكثيراً ما حمله —
من حيث يشعر ولا يشعر — على الإغضاء عن عيوب الروايات إذا كان فيها ما ينصر إمامه
أو أحد أتباعه ، أو يناهض خصومه من قريب أو بعيد ، ولعله يجد ذلك من أعظم القرب
إلى الله ، والغاية دائماً — عندهم — تبرر الوسيلة .

وأما الأمر الثاني فهو تهافت ظاهر في الخبر نفسه يستبعد معه التصديق . والأمران
مجتمعان هنا : فتغيير جلال الجمل (عسكر) غير كاف في الضحك على السيدة عائشة ، ولا
أثره البتة في تغيير (السمات الفارقة) في نظر أغفل الناس فكيف بأذكاهم . وكذلك
حشد الشهود يشهدون حافين بالله : أن هذا الماء ليس بالحووب بعد أن أيقنت السيدة أنه
الحووب وهمت بالرجوع ، غير معفّ على هذا اليقين ، وأقوى من ذلك كله أن طلحة الصحابي

(١) الطبري ٤٧٥/٣ — ولحديث العرنى هذا بقية تعود إليها حين نتحدث عن خروج علي .
(٢) مروج الذهب ٥/٢ والإمامة والسياسة ٥٦/١ وشرح نهج البلاغة ٤٩٧/٢ — وأحب للقارىء
أن يقرأ في مروج الذهب (٦/٢) وصفاً (عنتريا معراجياً) لموكب علي بن أبي طالب ليرى كيف يكتب
التاريخ هذا المؤرخ الحزبي بأسلوب هو بالدعايات ألصق منه بالتاريخ .

الجليل أحد العشرة المبشرين لن يرتكب هذا التزوير الذي زعمه - كذباً - رواة
المسعودى أو المسعودى نفسه .

هذا من حيث النقد الداخلى للخبر (نقد المتن) ، أما النقد الخارجى (نقد السند) فإن
علينا أن نستفيد من قواعد المحدثين القويمة فى هذا الشأن ، وأنا أستغرب الاستغراب كله
من يدرسون (قواعد التحديث) المسماة [مصطلح الحديث] ويحفظونها للبركة ولا يمارسونها
البتة . ولست أدرى أى فائدة لهم إذن من دراسة هذا المصطلح إذا كانوا لا ينتوون العمل به
لقد قرر بعض علماء الحديث - والمحدثون فى الحضارة العربية هم أئمة المؤرخين وبنات
التاريخ على القواعد الصحيحة - أنه لا تقبل رواية صاحب نحلة فيما ينصر نحلته ولاذى
هوى - مهما كان ثقة - فيما يوافق هواه ولا فيما يناهض خصومه . وعلى ذلك فابن أبى
الحديد والمسعودى ليسا بثقتين فى هذا الموضوع : موضوع على وعائشة .

لكن الأمر ليس أمرها فقط . ومن الحق علينا أن نقرر هنا أن حديث الحوَّاب مشهور
تعددت مصادره ؛ يشار إليه فى كتب اللغة وفى كتب التاريخ وفى بعض كتب الحديث ؛
تجده مثلاً فى كتب اللغة : فى الفائق للزمخشري (١ / ١٩٠) وفى القاموس مادة (الأدب)
وفى كتب التاريخ : فى الطبرى ومن أخذ عنه وفى المسعودى وصاحبه وقد مرت رواياتهما ،
وتجدها فى بعض كتب الحديث والرجال : كالاستيعاب لابن عبد البر وسير النبلاء للذهبي
(٢ / ٦٠ ، ٨٣) ومسند الإمام أحمد وهذا لفظ الحديث فيه : « كيف بإحدا كن تنبج
عليها كلاب الحوَّاب » .

ولفظه فى سير النبلاء للذهبي بسنده الخاص : « أيتكن صاحبة المجل الأدب يقتل
حوها قتلى كثيرين وتنجو بعد ما كادت » .

والذى عند الزمخشري : « أيتكن صاحبة المجل الأدب ، تسير (أو تخرج) حتى
تنبجها كلاب الحوَّاب^(١) » . وهذا الحديث فى مصادر عدة .

لقد قرر الذهبي فى هذا الحديث حكماً وهو : « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه »
وكنت علقت على قوله هذا لما نشرت سير النبلاء قائلاً :

(١) قال الزمخشري هنا : الأدب كالأرب وهو الكثير وبر الوجه ، فأظهر التضعيف ليراجع الحوَّاب .

« في النفس من صحة هذا الحديث شيء ، ولأمر ما أهمله أصحاب الصحاح . وقد جاء في معجم البلدان (مادة حووب) ما يفيد أن صاحبة هذا الخطاب سلمى بنت مالك الفزارية وكانت سبية وهبت لعائشة ، وهي المقصودة بخطاب الرسول الذي زعموه ، وقد ارتدت مع طليحة الأسدي وقتلت في حروب الردة . ومن العجيب أن تصرف بعض الروايات هذه القصة — إن صحت — إلى السيدة عائشة إرضاء لبعض الأهواء العصبية »^(١) وما قرره ياقوت هنا مهم فلا تنسه .

وأضفت في موضع آخر ، لما رواه الذهبي بسنده العالي قولي : « إن لم يصح هذا الحديث فهو ممدسه الوضعون من بعض الفرق على صالحى المحدثين انتصاراً لأهوائهم المذهبية »^(١)

عز هذا التعليق الذي قلته في (سير النبلاء) على بعض الأفاضل من أهل الحديث وأكدوا لي أن الحديث صحيح ، وهم ليسوا بحاجة إلى هذا التأكيد فإن الذهبي نفسه إمام الحفاظ والمحدثين في زمنه صحح إسناده (إسناده فقط) وأردف ذلك بقوله : « ولم يخرجوه . » وأزيد هنا أمرين :

الأول : لو كان هذا الخبر صحيحاً لرجعت عائشة من فورها فليست بالتى تلتق بنفسها في التهلكة على بصيرة .

والثاني : أن سند الذهبي في هذا الحديث ينتهى — فى إحدى روايته — إلى ابن عباس ، وابن عباس — على عدالته — ممن خب وأوضع فى الحزبية السياسية ، فهو أكبر أنصار على وألد خصوم عائشة فى خلافها عليه . فلعل هذا جعله — إن صحت نسبة الحديث إليه — يتسامح ويفض عما فيه لتأييد مذهبه السياسى ؛ وإلا فإنى أسأل : هل كان ابن عباس حاضراً قول النبي هذا وهو بين نسائه ؟؟ إنى — استناداً إلى سكوت الرواية عن ذلك من جهة ، وإلى ضرورة التصريح بذلك هنا من جهة ثانية — أقطع بالنفى ، وإن على المثبت أن يأتى بدليل ينص على أن ابن عباس كان حاضراً مجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع نسائه !! ولا يغنى — هنا خاصة — قولهم (إن مراسيل الصحابة يحتج بها) لأن

وجود ابن عباس هنا مع النساء في حديث خاص بهن ، غير مألوف فيحتاج إثباته إلى النص الصريح . هذا ولم أذكر ما في ذوق الخاص لقاء هاتين السجعتين في رواية الزمخشري (ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدب ، تسير حتى تنبجها كلاب الحووب) من بعد عن البلاغة النبوية عند من كثر إلفه لها .

ولست أدري لم لا يطبق أولئك الأفاضل قواعد المحدثين على المتن والسند معاً ؟ ومهما يكن فقد بينت للقارىء — فيما تقدم — ما حداني على الشك ، وفيه بلاغ .
وآخر ما رأيت من الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله في موضوع يوم الجمل حديث عن أبي بكر :

قيل له : « مامنك ألا تكون قاتلت على بصيرتك يوم الجمل ؟ »

قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج قوم هلكي قاتلهم امرأة ، قاتلهم في الجنة » (١) .

ويرى المدقق شيئاً من البعد بين الجواب والسؤال : فإذا كان القوم هلكي فلم لم يقاتل على بصيرته مع الصف الآخر : صف غير الهلكي ؟ لقد كان الجواب المعقول للذين لم يقاتلوا مع إحدى الفئتين إذا سئلوا مثل هذا السؤال أن يحتجوا باعتزالهم الفتنة وما اشتبه من الأمور ، كذلك فعل كثير من الصحابة الأجلاء . ثم في متن هذا الحديث بعد ظاهره عن المعقول : أصحيح أن أصحاب الجمل هلكي كلهم إلا عائشة ؟ الجواب : لا ، ففيهم طلحة والزبير وهما من المبشرين بالجنة ، وفيهم بدريون وفيهم مهاجرون وأنصار أخرجهم من بلدهم الحمية لله أن تعطل حدوده ، وذوو المآرب في جيش عائشة قلة قليلة ، وهذا كاف في القطع بعدم صحة نسبة كلام في يوم الجمل مما تقدم ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعد ، فلقد تركت عائشة وجموعها ذات عرق وانتهت إلى جبال أوطاس ، هاجرة طريق البصرة حذراً من أن تلحقها جموع علي ، وهي تريد دخول البصرة قبل أن تصطدم

(١) كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين لأبي منصور عبد الرحمن بن عساكر . مخطوط في دار الكتب الظاهرية رقمه (حديث ٥٣٥) — الحديث الثاني عشر .

بأحد ، فتركت الطريق ليلة وجعلتها يساراً « وتيامنت عنها كأنهم سياراة ونجعة ، مساحلين ،
لم يبدن من المنكدر^(١) ولا واسط^(١) ولا فلج^(١) منهم أحد حتى أتوا البصرة في عام خصيب
وتمثلت عائشة :

دعى بلاد جموع الظلم إذ صلحت فيها المياه وسيرى سير مذعور
تخيري النبت ، فارعى ثم ظاهرة وبطن واد من الضمار ممطور^(١)

(١) الطبرى ٤٧٣/٣ — طريق المنكدر : طريق اليمامة إلى مكة . واسط قرية باليمامة وقرية بنجد
وقرية بالحجاز (والأول المقصود) . فلج : مدينة بأرض اليمامة ، واديين اليمامة والبصرة . الضمار : موضع
بين نجد واليمامة . — معجم البلدان .

الفصل الرابع

لحاق عليّ بأصحاب الجمل

تركنا علياً يتهياً — علي ما رأيت ص ٧٦ — ليغزو الشام؛ وبينما هو جاد في إحكام أمره ذلك، أتاه الخبر عن هياج أهل مكة للمطالبة بثار عثمان بتحريض عائشة وطلحة والزبير، فأثاره الخبر ولم يعرف عزيمة القوم، إلا أنه نهض بأهل المدينة فخطبهم قائلاً:

« إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام: الفوز والنجاة، فمن لم يسمع الحق أخذ بالباطل.

الأو إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالؤوا على سخط إمارتي، ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني عنهم»^(١).

ولما أحكم طلحة والزبير وبنو أمية أمرهم وجعلوا البصرة هدفهم، استأجرت أم الفضل بنت الحارث رجلاً من جهينة يدعى ظفراً: علي أن يطوى ويأتي علياً بكتابها، فقدم عليّ عليّ بكتاب أم الفضل وفيه جلية الخبر^(٢).

ساء الخبر أهل المدينة وجماعة المهاجرين والأنصار: فقد أشرفت الكلمة على التفرق، وانشقت العصا، وفي ذلك ما يسوء كل مخلص. إلا أن أبطال الشعب على عثمان كانوا أشد الناس استياءً، لأن المطالبين بدم عثمان إنما يريدون رقابهم، فحاولوا إحباط الأمر بالوسائل المختلفة، وكان من وسائلهم النصيحة تارة، والتهديد تارة، فقد كتب الأشتر أحد رؤوسهم من المدينة إلى عائشة وهي بمكة:

« أما بعد فإنك ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أمرك أن تقرى في بيتك، فإن فعلت فهو خير لك، وإن أبيت إلا أن تأخذى منسأتك وتلقى جلبابك، وتبدى للناس

(١) الطبري ٤٦٦/٣ .

(٢) الطبري ٤٧٠/٣ .

شُعيرتاك قاتلتك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك » .

فكتبت إليه في الجواب :

« أما بعد ، فإنك أول العرب شب الفتنة ، ودعا إلى الفرقة ؛ وخالف الأمة ، وسعى في قتل الخليفة ؛ وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم . وقد جاءني كتابك وفهمت ما فيه ، وسيكفينيك الله وكل من أصبح مماثلا لك في ضلالك وغيبك إن شاء الله » ^(١) .

أشفق عليّ من انشقاق العصا ، ورأى أمر هؤلاء أخطر من أمر معاوية ، وشرهم أغل وأنهم موشكون أن يزغزغوا خلافته من القواعد ، فتجهز للخروج إليهم والحوول دون بغيتهم ، فقال وقد بلغه خروجهم :

« إن فعلوا هذا اختل نظام المسلمين ، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه » .
تناقل أهل المدينة لما استنهضهم عليّ لجماعة عائشة وطلحة والزبير ، وعظم عليهم قتال إخوانهم ، ولم يكتف عليّ منهم بطاعته دون نصرته ، فجمع وجوههم وحضهم على النهوض ، وكان فيما قال :

« إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله ، فقد رأيتم عواقب قضاء الله عز وجل على من مضى منكم ، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم » . فلم ينشط أكثر الناس للنهوض معه ولم يكن فيمن خرج معه إلا ستة بدرين أو سبعة ^(٢) .

وخف لدعوته جماعة في أولهم أبو قتادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال لعليّ : « يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله قلدي هذا السيف ، وقد شتمته فطال شيمه ، وقد أذى (حان) تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة عشا ، فإن أحببت أن تقدمني فقدمني » ^(٢) ونشط زياد بن حنظلة وجماعة ، وقد مر بك (ص ٧٩) موقف أم سلمة وولدها . عزم عليّ على أن يأخذ عليهم الطريق بمن معه ، واستخلف على المدينة سهل بن حنيف (أوتام بن العباس على رواية ثانية للطبري) وعلى مكة قثم بن العباس « فخرج

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٨٠ والنسأة : العصا ، وأخذ النسأة كناية عن اعتزام السير .

(٢) الطبري ٣/٦٧ والكامل لابن الأثير ٣/٩٤ .

يبادهم في تبعثته التي كان تعبى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين ، متخفين في سبعمائة رجل وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج ، فلقبه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال : « يا أمير المؤمنين لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً » فسبوه فقال علي : « دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » .

خرجوا مسرعين يريدون معارضة القوم ؛ فلما بلغوا الربرة^(١) علم على أنهم فاتوه ، وقد كان فيهم من أمرهم : يخشى أن يكونوا قصدوا الكوفة وفيها الرجال والأموال وفيها شيعة ، فلما أيقن أنهم على قصد البصرة اطمأن وأقام بالربرة يحكم أمره . ولم يكتف سروره بقصدهم البصرة وتركهم الكوفة فقد قال لابن عباس : « الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم » و « أهل الكوفة أشد لي حبا » فأجاب ابن عباس : « إن الذي يسرك من ذلك ليسوؤني : إن الكوفة فسطاط فيه أعلام العرب ، ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله : فإذا كان ذلك شغب على الذي قد نال حتى يقنأه فيفسد بعضهم على بعض » . قال علي مبيناً خطته إزاءهم :

« إن الأمر ليشبه ما تقول ولكن الأثرة لأهل الطاعة والحق : لأحسنهم سابقة وقدمه فإن استووا أعفيناهم واجتبرناهم ؛ فإن أقنعهم ذلك كان خيراً لهم ، وإن كان لم يقنعهم كلفونا إقامتهم وكان شراً على من هو شر له » . فقال ابن عباس : « إن ذلك الأمر لا يدرك إلا بالقنوع »^(٢) .

هذا ولم يمر بالمسلمين موقف انهم عليهم أمره واستغلقت في وجوههم سبل الهداية فيه كهذا الموقف ، حتى إن الزعماء حين كانوا يفيئون إلى أنفسهم يقعون في حيرة مقلقة من أمرهم لا يدرون : أخطئون هم أم مصيبون . وكذلك الفتن إذا أقبلت لا يعرف سداها من خطلها فإذا أدبرت تكشفت للناس على حقيقتها وافتضح منها ما استخفي . ومن الخير أن أجولك هذا الحكم في شاهد وقع بالربرة ، وأظفرنا به الإمام الطبري في تاريخه ، إذ فيه ما يقفك على حيرة العامة والخاصة حتى الرؤوس منهم : قال طارق بن شهاب :

(١) من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها ، قرية من ذات عرق — معجم البلدان .

(٢) الطبري ٤٧٧/٣ يفتأ : يسكن ويكسر . القنوع : الرضى .

« خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان ، فلما اتهمنا إلى الربذة وذلك في وجه الصبح إذا الرفاق ، وإذا بعضهم يتلو بعضاً فقلت : « ما هذا ؟ » فقالوا : « أمير المؤمنين » . فقلت : « ماله ؟ » قالوا : « غلبه طلحة والزبير ، فخرج يعترض لها ليردها ، فبلغه أنهما قد فاتاه ، فهو يريد أن يخرج في آثارها » . فقلت : « إنا لله وإنا إليه راجعون ! .. آتى علياً فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين ؟ .. أو أخلفه ؟ .. إن هذا لشديد » . فخرجت فأتيتها ، فأقيمت الصلاة بغلس ، فتقدم فصلي ، فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فقال : « قد أمرتك فعصيتني فقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك » .

فقال علي : « إنك لا تزال تحن حنين الجارية . ما الذي أمرتني فعصيتك ؟ » قال : « أمرتك يوم أحيط بعمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل الأتباع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر^(١) ، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلاً أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك . فعصيتني في ذلك كله » .

قال علي : « أي بني ، أما قولك : (لو خرجت من المدينة حين أحيط بعمان) فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، وأما قولك : (تباع حتى تأتي بيعة الأمصار) فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك (حين خرج طلحة والزبير ...) فإن ذلك كان وهناً على الإسلام . والله ما زلت مقهوراً منذ وليت ، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي ، وأما قولك : (اجلس في بيتك) فكيف بما قد لزمني ؟ أو من تريدني ؟ أريد أن أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال : دَبَابِ دَبَابٍ ليست هاهنا ، حتى يحل عرقوبها ثم تخرج ؟ وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعينني فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أي بني^(٢) » .

(١) أنت ترى أن فهم العرب المساهين لما نسميه اليوم (بالديمقراطية) ، كان أصح فهم وأعمقه وأوسعها وأنها شيء مركوز في طباعهم وتقتضيه طبيعة معايشهم وعليه هذا القرآن الذي يتلونه ليل نهار ، والذي أدار النظم الاجتماعية كلها على الاشتراك والساواة . لقد كلف الحسن أباه الشطط غراماً بهذا الأصل وهياماً به وغلواً فيه .

(٢) الطبرى ٣/٧٤ ، الحنين هنا : شدة البكاء ، والحنين صوت كالبكاء . ودباب : استدعاء للضبع حتى تخرج ، وهي اسم فعل أمر من الدبيب وهو المشى .

واحتجاج الإمام هنا على ابنه الحسن وحيه في القضايا الثلاث ، ونصائح ولده غير صائبة . وليس بسديد أيضاً ما علق به على كلام الإمام ، المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار ، فإنه بعد أن أورد عن الطبري هذا الحوار الذي سقناه بين عليّ والحسن قال :

« وكأني به (يعني الإمام علياً) في هذا الأمر الأخير يقول بمقالة عثمان : « لا أخلع لباساً ألبسنيه الله عز وجل » . وهو اعتذار لا يقبله من يريد له وللمسلمين السلامة ، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار : بأنه لا مناص لهم من تحمل التبعة للمقاة على عاتقهم بإزاء الأمم التي يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهلها^(١) » .
ليس حكمه هذا بسديد من وجوه :

أولها : أن هناك فارقاً كبيراً بين موقف علي وموقف عثمان : فعثمان عظمت منه الشكوى واستطار من عماله الشر ، واستفحلت عليه الثورة وانتشرت الأمور ، فلو اعتزل لكان هناك أمل في إخماد الجذوة واستقامة الأمور . أما علي فلم يحتجّ عليه أحد بخطيئة أو ميل في حكم أو جور أو أثرة ، حتى الذين كرهوا بيعته استتروا بالمطالبة بدم عثمان ، أي أعلنوا : أن خصومهم قتلة عثمان ، لا علي ؛ فلو اعتزل على لكانت الأمور أضيغ والشر أعم ، ولازداد انتشار الأمر وتفرق الكلمة . فلا شك في أن اعتزاله هرب من الواجب ، وفرار من الصف وجريمة أي جريمة . وما كان عليّ من رجال الدنيا يوماً من الأيام حتى يصح أن نظن في حرصه على الإمارة إرضاء لطمع من الأَطاع .

ثانيها : لو كلفنا كل إمام أن يعتزل الحكم كلما كره إمامته كاره أو خرج عليه خارج ، ما انقضت ساعة إلا نصب فيها إمام جديد ؛ إذ لا يخلو رجل من كاره ، ونصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام ، هذا إن عدل .

ثالثها : تشبيه حجة الإمام هنا بدعوى دول الاستعمار أبعد عن الحق وأناي عن الواقع ، فهذه الدول مبطلّة تدعى باطلاً لتبرر ظلماً ، والإمام صاحب حق يقوم بالواجب عليه ، فهو يحتجّ بيعة واقعة وأمر لزمه يقتضيه النهوض والحماية ليعم الأمن والعدل ، وشتان ما بين الحاليين .
وبعد ، فإن علياً في جميع ما أتى حتى هذه الساعة ملتزم جانب الحق والصواب ، ولئن

(١) تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون - لعبد الوهاب النجار - ص ٤١٤ .

أخذنا عليه إسراعه في عزل معاوية وغيره من عمال عثمان وقلنا إن هذا التصرف لا سياسة فيه ، إن هذه المؤاخذة مؤاخذة سياسية لا قضائية وجدانية ؛ فليس من شك أنه — وقد اعتقد فيهم ما اعتقد — على حق في عزلهم ولا يجوز له — في دينه وأمانته — إبقاؤهم ولو ساعة إلا من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، وهذا هو الذي لم يأخذ به علي . وإذا أخطأ امرؤ مرة في سياسة فليس معنى ذلك أنه لا بصر له في السياسة ومقتضياتها . هذه كلمة رأيت من الإنصاف إثباتها إذ كثيراً ما رأيت بعض من (يتعاطى) التاريخ من أهل عصرنا يرمى علياً بالفنلة السياسية من أجل عزل معاوية ، ويتعاضى عن كثير من الحوادث الدالة على بصره في السياسة وحسن تصرفه لشؤون الدولة ، وهو بهذا من طراز كطراز أبي بكر وعمر .

لما تواردت إلى علي الجموع من المدينة إلى الربذة وتنام أمره ، سار منها قاصداً ذا قار^(١) وهو يريد أن يبادر فيحوز إلى جانبه الكوفة قبل أن تشيع فيها دعاية الخارجين . وهنا نعود إلى حديث العرفي الذي قطعناه (ص ٨٧) ونستمع إليه يتم لنا قصته :

« ... فانصرفت فما سرت إلا قليلاً وإذا أنا بعلي وركب معه نحو من ثلثائة ، فقال لي علي : « يا أيها الراكب » فأتيته فقال : « أين أتيت الظعينة ؟ » قلت : « في مكان كذا وكذا ، وهذه ناقها وبعثهم جملي » . قال : « وقد ركبتته ؟ » قلت : « نعم ، وسرت معهم حتى أتينا ماء الحووب فنبحت عليها كلابها ، فقالت كذا وكذا ، فلما رأيت اختلاط أمرهم انفتلت وارتحلوا » . فقال علي : « هل لك دلالة بذى قار ؟ » قلت : « لعل أدل الناس » . قال : « فسر معنا » . فسرنا حتى نزلنا ذا قار ، فأمر علي بجوالقين فضم أحدهما إلى صاحبه ، ثم جيء برجل فوضع عليهما ، ثم جاء يمشى حتى صعد عليه وسدل رجله من جانب واحد ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ثم قال :

« قد رأيتم ما صنع هؤلاء القوم وهذه المرأة .. » فقام إليه الحسن فبكى فقال له علي .

(١) ذوقار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، وبه سمى الوادى الذى جرت فيه الوقعة المشهورة بين العرب والفرس وانتصر فيها العرب نصراً مؤزرأ .

« قد جئت نحن حنين الجارية؟ » فقال : « أجل ، أمرتك فعصيتني فأنت اليوم تقتل بمضيعة لناصر لك » . قال : « حدث القوم بما أمرتني به » .

قال : « أمرتك حين سار الناس إلى عثمان ألا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك ، فأبيت على ؛ وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ما صنعوا أن تلزم المدينة وترسل إلى من استجاب لك من شيعتك » .
قال على :

« صدق والله ، ولكن والله يا بني ما كنت لأكون كالضبع تستمع للدم . إن النبي صلى الله عليه وسلم قبض وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني ، فبايع الناس أبا بكر فبايعت كما بايعوا ، ثم إن أبا بكر هلك وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني فبايع الناس عمر بن الخطاب فبايعت كما بايعوا ، ثم إن عمر هلك وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني فجعلني سهماً من ستة أسهم فبايع الناس عثمان فبايعت كما بايعوا . ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه ، ثم أتوني فبايعوني طائعين غير مكرهين ؛ فأنا مقاتل من خالفني بمن اتبعني حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين » (١) .

ثم أراد على أن يرمى بأخر سهم في كنانة السلم ، فكتب إلى السيدة عائشة ينصحتها ويعذرها :

« أما بعد ، فإنك خرجت من بيتك عاصية لله ورسوله ، أتطلبين أمراً كان عنك موضوعاً ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين الناس ؟ فخيريني : ما للنساء وقود العساكر ؟ وزعمت أنك طالبة لدم عثمان وعثمان رجل من بني أمية وأنت امرأة من بني تيم بن مرة ! ولعمري إن الذي عرضك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنباً من قتلة عثمان ، وما غضبت حتى أغضبت ، وما هجت حتى هُيجت ، فاتق الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك وأسبلي عليك سترك والسلام » .

فجاء الجواب إليه حاسماً مؤسماً :

(١) الطبري ٣/٤٧٥ ، ٤٧٦ - اللدم : النظم .

يبن أبي طالب ، جل الأمر عن العتاب ، ولن ندخل في طاعتك أبداً فاقض ما أنت قاض ، والسلام» (١) .

وكان علي قد كتب في هذا المعنى إلى طلحة والزبير أيضاً فكان جوابهما :
« إنك سرت مسيراً له مابعده ، ولست راجعاً وفي نفسك منه حاجة ، فامض لأمرك .
أما أنت فلست راضياً دون دخولنا في طاعتك ، ولسنا بداخلين فيها أبداً ، فاقض ما أنت قاض » (٢) .

(١) الإمامة والسياسة ص ٦٢/١ ، وأثبت زيادة عن (مطالب السؤل في مناقب آل الرسول) لكمال الدين محمد بن طلحة الشافعي المتوفى سنة ٦٥٤ ، و(الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية) .
(٢) الإمامة والسياسة ٥٥/١ وجمهرة رسائل العرب ٣٧٩/١ .

الفصل الخامس

في مساعي الجليلين السياسية ثم مناوشاتهم

نحن الآن مع السيدة عائشة زعيمة هذه الجموع المعارضة الثائرة ، قريباً من البصرة ،
نتنظر ما تسفر عنه مساعيها (الدبلوماسية) ومفاوضاتها في سبيل ضم هذا المصر الكبير من
أمصار المسلمين إلى دعوتها ، ونلمس صلابة هذا السور الذي صدم عائشة وحججها : كيف
ألفت صخوره أدمغة عربية من خاصة أهل البصرة ، ولم تستطع السيدة ولا من معها أن يوهنوا
منه بالبرهان ، بل رجع الوهن على كل ما قدم الخارجون من الدواعي المثيرة لهم على الخروج
بزعمهم . ولا غرو ، فقد كان مع معارضي عائشة من سادات أهل البصرة المنطق وحكم الدين
والجدال عن الوحدة العربية المشرفة على التفكك والسؤال عما لزم الثائرين من مبايعة الإمام
ولزوم طاعته . وأنا ألفت نظرك منذ الآن لتذوق هذا الإيجاز البليغ الذي زخرت به تلك
السفارات والمراسلات وذلك الحوار ، فهما في الذروة من البلاغة وستجد فيهما صوراً
عميقة لنواحي هذه الفتنة ولأسرارها ، وأحكاماً صائبة فيها . . . كل ذلك في كلمات قليلة
العدد قوية التعبير .

لما كانت جموع عائشة بقاء البصرة على عزم دخولها ، تقيم عمير بن عبد الله التيمي
فقال : « يا أم المؤمنين ، أنشدك بالله أن تقدمي على قوم لم تراسلي منهم أحداً فيكفيكمهم » .
فانتبهت لأمر كان غاب عنها فقالت : « جئني بالرأى فأنت امرؤ صالح » ، قال : « فعجلى
ابن عامر فليدخل فإن له صنائع فليذهب إلى صنائعه ، فليلقوا الناس حتى تقدمي ويسمعوا
ما جئتم فيه » . فأرسلته فاندس إلى البصرة فأتى القوم .

ثم أرسلوا كتباً إلى رؤوس أهل البصرة لينضموا إلى دعوتهم ، وانتظروا الأجوبة قبل
دخولهم البصرة ، ثم كانت سفارات ووفود . ونحن بادئون بالكتب فمشتوها مع أجوبتها ،
فهى خير ما تمثل نظر الناس إلى هذه الفتنة .

(١) المراسلات

١ - كتب طلحة والزبير إلى كعب بن سور :

« أما بعد فإنك قاضي عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن ، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام » .
فأجابهما :

« أما بعد : فإننا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان ، فجاء أمر الغير فيه بالسيف ؛ فإن يك عثمان قتل ظلماً فما لكما وله ، وإن قتل مظلوماً فغير كما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل ^(١) » .

٢ - وكتبنا إلى المنذر بن الجارود :

« أما بعد فإن أباك كان رئيساً في الجاهلية وسيداً في الإسلام ، وإنك من أهلك بمنزلة المصلي ^(١) من السابق : يقال : كاد أو لحق ، وقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك والسلام » .
فأجابهما :

« أما بعد ، فإنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر . وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس ، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه ، فمتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأي ^(١) ؟ !! » .

٣ - وكتبنا إلى الأحنف بن قيس :

« أما بعد ، فإنك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق ؛ وقد بلغك مصاب عثمان ، ونحن قادمون عليك والعيان أشقى لك من الخبر والسلام » .
فأجابهما :

« أما بعد فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان ؛ وأتم قادمون علينا :

(١) الإمامة والسياسة ٤٨/١ - المصلي : الفرس الذي يجيء تالياً للسابق .

فإن يك في العيان فضل نظرنا فيه ، وإلا يكن فيه فضل فليس في أيدينا ولا أيديكم ثقة والسلام^(١) .

٤ — وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان :

« من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان ! أما بعد ، فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم فانصرنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس عن عليّ » .

فكتب إليها :

« من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك ، وإلا فأنا أول من نابذك^(٢) » .

وهناك رواية ثانية لجواب زيد أوفى من رواية الطبري وهذا نصها :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإن الله أمرك بأمر وأمرنا بأمر : أمرك أن تقرى في بيتك ، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة ؛ فتركت ما أمرت به وكتبت تنهيننا عما أمرنا به ! فأمرك عندي غير مطاع ، وكتابك غير محباب والسلام^(٣) » .

وكتبت كتباً إلى الأحنف بن قيس وصبرة بن شيان وأمثالهما من الوجوه .

٥ — وكان هناك غير عائشة وطلحة والزبير من يرسل الكتب سرّاً لمن يتوسم في نصرتهم قوة توهي أمر عليّ ، وهم بنو أمية الذين لم يخرجوا نصررة لطلحة والزبير وعائشة وإنما جمعهم بهؤلاء كره خلافة علي ، فقد كانوا ساهرين على أمرهم لا تقوتهم خافية . عرف يعسوبهم في دمشق معاوية بن أبي سفيان أن سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة وصاحب فتح القادسية وأحد الستة أصحاب الشورى ... لم ينهض لهذا الأمر ، وأيقن أن في نهوضه إضعافاً لأمر علي ، فكتب إليه كتاباً يظهر فيه أمراً ويخفي غيره ، وأنت إذا

(١) المصدر نفسه الصفحة السابقة .

(٢) الطبري ٤٩٢/٣ .

(٣) جمهرة رسائل العرب ٣٧٩/١ والعقد الفريد ٩٧/٣ ، وفي رواية ابن أبي الحديد أنها كتبت إلى زيد « أما بعد فأقم في بيتك (!!) وخذل الناس عن علي ، وليبلغني عنك ما أحب فإنك أوثق عندي والسلام » — شرح نهج البلاغة ٨١/٢ .

أعنت فيه رأيته يقطر دهاء ، وإليك الكتاب فانظر كيف يحتال على سعد ويتلطف له ثم
يخدره ويدغدغه :

« إن أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشورى من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه
على غيره ، وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك في الأمر ونظيرك في الإسلام ، ونخفتُ
له أم المؤمنين ؛ فلا تكرهن ما رضوا ولا تردن ما قبلوا » .

فكتب إليه سعد ساداً الباب في وجهه :

« أما بعد فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة ، فلم يكن أحد منا أحق
بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ؛ غير أن علينا قد كان فيه ما فينا ولم يكن فينا ما فيه .
وأما طلحة والزبير فولو لزمنا بيوتهما كان خيراً لهما ، والله يغفر لأم المؤمنين ^(١) » .

لقد حمل معاوية دهاءه إلى وادٍ غير ذى زرع ، ولم يخف ما راوغ عن التصريح به على
سعد . الحق أن سعداً راسخ القدم في الحنكة والتجربة ، بصير رجال السياسة وما يضمرون .
إن في قوله : (لم يدخل عمر بالشورى إلا من تحل له الخلافة) لقطعاً للطريق على معاوية
وما يهيب له نفسه ، أما نقده مسير طلحة والزبير وعائشة فصريح غير خاف . لقد قتلت
صراحة سعد كيد معاوية به وفضحت ما جهد في كتمانها .

وأنا أثبت لك هذا الكتاب وجوابه لأطلعك على أن الحزب الأموي الذي جعل نصرة
عثمان وسيلة لأمر آخر كان يتعهد من قريب وبعيد : كل ما يسرع في نجاحه وبلوغ غاياته
من حيث لا يشعر الناس . وقد حفظت لنا كتب التاريخ هذا الكتاب ، وما يدرينا أن
مساعي معاوية الخفية انطوت على إرسال كثير من أمثاله إلى وجوه الناس وذوى الكلمة
فيهم ، وكان اجتهاد معاوية في كتمان أموره ناجحاً في إخفاء هذه المساعي عن التاريخ
إلى الأبد . †

(ب) السفارات والوفود

١ — بلغ أهل البصرة مراسلات عائشة ونزولها وجموعها بفناء البصرة ، فدعا عثمان
ابن حنيف أمير البصرة لعلئ ، رجلين : عمران بن حصين وكان رجل عامة وأبا الأسود الدؤلي

(١) تاريخ يعقوبي ٢/٢١٧ .

وكان رجل خاصة ، فأرسلهما سفيرين إلى عائشة وقال لهما : « انطلقا إلى هذه المرأة : فاعلما
علمها وعلم من معها » فخرجا فاتھيا إليها وإلى الناس وهم بالخفير^(١) ، فاستأذنا عليها فأذنت
لها ، فسلمها وقالا :

« إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ » .

فقالت : « والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ويغطي لبنيه الخبير :

إن الفوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع
ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، واتهبوا المال
الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، ومزقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم
كانوا كارهين لمقامهم ، ضارين مضرين غير نافعین ولا متقين [وأهل المدينة] لا يقدرون
على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا
وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا (وقرأت) :

« لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بَصْدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ^(٢) »

نهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصغير
والكبير والذكر والأثني . فهذا شأننا ، إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر نهاكم
عنه ونحسبكم على تغييره .

فخرجا من عندها وأتيا طلحة فقالا له : « ما أقدمك ؟ » قال : « الطلب بدم عثمان »

قالا : « ألم تبايع عليا ؟ » قال : « بلى واللج^(٣) على عنقي وما أستقبل عليا إن هو لم يحل بيننا
وبين قتلة عثمان » .

ثم خرجا من عند طلحة فأتيا الزبير فقالا له : « ما أقدمك ؟ » قال : « الطلب بدم

عثمان » . قالوا : « ألم تبايع عليا ؟ » قال : « بلى واللج على عنقي ، وما أستقبل عليا إن هو
لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان » .

(١) ماء لباهلة على أربعة أميال من البصرة ، إذا خرج الحاج من البصرة يريد مكة فيأخذ بطن فليج ،

فأول ماء يرد : الخفير — معجم البلدان .

(٢) سورة النساء ٤ الآية ١١٣ .

(٣) الطبرى ٤٧٩/٣ — ٤٨٠ ، اللج : السيف .

فرجما إلى أم المؤمنين فودعاها ، فودعت عمران وقالت : « يا أبا الأسود ، إياك أن يقودك الهوى إلى النار (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا ، هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) ^(١) » فسرحتهما .

رجع الرجلان إلى عثمان بن حنيف ، فعاجل أبو الأسود عمران فقال :

يا بن حُنَيْفٍ قَدْ أُتَيْتَ فَاَنْفِرِ

وطاعن القوم وجالد واصبر

وابرز لهم مستلماً وثمر

فقال عثمان : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، دارت رحي الإسلام ورب الكعبة ، فانظروا بأى زَيْفَانٍ تزييف ^(٢) » فقال عمران : « إى والله لتعركنكم عراكاً طويلاً ثم لا يساوى ما بقى منكم كثير شيء » ، قال عثمان : « فأشر على يا عمران » . قال : « إني قاعد فأقعد » . فقال عثمان : « بل أمنعهم حتى يأتي أمر أمير المؤمنين » .

قال عمران : « بل يحكم الله ما يريد » ^(٢) . وانصرف إلى بيته .

وكذلك عزم عثمان على مقاومتهم ومنعهم دخول البصرة .

٢ — وهذه السفارة رواية مهمة غير رواية الطبرى ولعلها سفارة ثانية ، يقصها أحد

السفيرين أبو الأسود الدؤلى وفيها زيادة ذات بال ، قال أبو الأسود :

« بعثنى وعمران بن حصين ، عثمان بن حنيف إلى عائشة فقلنا :

« يا أم المؤمنين ، أخبرينا عن مسيرك هذا : أعهدُ عهدهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم

أم رأى رأيته ؟ » .

قلت : « بل رأى رأيته حين قتل عثمان . إنا نقمنا عليه ضربة السوط وموقع المسحاة ^(٣)

الحماة ، وإمرة سعيد والوليد ، فعدوتم عليه فاستحلتم منه الحرم الثلاث : حرمة البلد وحرمة

الشهر الحرام [وحرمة الدم الحرام] ، بعد أن مصنناه ^(٣) كما يماص الإناء فاستقبتناه ، فركبتم

(١) سورة المائدة ٥ ، الآية ٩ .

(٢) الطبرى ٤٧٩/٣ — ٤٨٠ — . الزريفان : التبختر فى المشى .

(٣) بلاغات النساء ص ١٢ والعقد الفريد ٩٨/٣ — المسحاة موضع بسرف كان النبي حماه لحيله ،

ثم حماه عمر لحيل المسلمين ، ثم جاء عثمان فحاه لنفسه على ما قالوا — وقد تقدم شرح بقية الكلمات فى

ص ٦٩ — هذا وانظر البيان والتبيين للجاحظ (طبعة السندونى) ٢/٢٠٩ ، ٢١٠ .

تحقيق
الم

منه هذه ظالمين . وغضبنا لكم من سوط عثمان ولا تغضب لعثمان من سيفكم ؟ » .
قلت : « ما أنت وسيفنا وسوط عثمان وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أمرك أن تقرى في بيتك فجئت تضر بين الناس بعضهم ببعض ! »
قالت : « وهل أحد يقاتلني أو يقول غير هذا ؟ » قلت : « نعم » قالت : « من يفعل
ذلك ؟ أزنيم ابن عامر ؟ هل أنت مبلغ عنى يا عمران ؟ » قال : « لا ، لست مبلغاً عنك
خيراً ولا شراً » قلت : « لكنى مبلغ عنك ، هات ما شئت »
قالت : « اللهم اقتل مذمماً قصاصاً بعثمان ، وارم الأثتر بسهم من سهامك لا يشوى ،
وأدرك عماراً بخفرتة فى عثمان ^(١) » .

ويزيد صاحب الإمامة والسياسة أن السيدة قالت لأبى الأسود :
« يا أبا الأسود ، بلغنى أن عثمان يريد قتلى ! » فقال أبو الأسود : « نعم والله ، قتلاً
أهونه تندر منه الرؤوس ^(٢) » .

امتداد عائشة البصرة :

لم تسفر تلك الكتب وهذه السفارات والوفادات عن كبير أمر فى مصلحة عائشة ومن
معها ، إلا أن البصرة لم تخل من طائفة هواها معهم يقولون بمقاتلتهم :
أصبح عثمان بن حنيف أمير البصرة لعلى ، على قلق من أمر عائشة ، وشاور نصحاه
فأشاروا عليه بمنعهم دخولها ، ومع ذلك لم يعدم من أشار عليه بالمساحة ، روى الطبرى أن
هشام بن عامر دخل عليه فقال : « يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره ،
إن هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر ؛ فساحهم حتى يأتى أمر على ولا تحادهم » فأبى .
ونادى عثمان فى الناس وأمرهم بالتهيو ، ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع ،
وأقبل عثمان على الكيد فكاد الناس لينظر إلى ما عندهم ، فدى رجلاً إلى الناس خدعاً
كوفياً قيسياً فقام فقال :

(١) انظر الحاشية السابقة .

(٢) الإمامة والسياسة ٥١/١ .

يا أيها الناس ، أنا قيس بن العقدية الحميسى ؛ إن هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إن كانوا جاؤوكم خاتقين فقد جاؤوا من المكان الذي يأمن فيه الطير ، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان ، أطيعوني في هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤوا .

فقام الأسود بن سريع السعدي فقال : « أو زعموا أننا قتلة عثمان ؟ ! فإنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان من غيرنا ؛ فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنهم من إخراجهم ؟ الرجال أو البلدان ؟ » فخصبه الناس ، فعرف عثمان أن لهم البصرة ناصراً ممن يقوم معهم ، فكسره ذلك .

ثم أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المرْبَد^(١) ، ودخلوا من أعلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه ، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها ... فاجتمعوا بالمرْبَد ، وجعلوا يشوبون حتى غص بالناس .

فتكلم طلحة وهو في ميمنة المرْبَد ومعه الزبير ، وعثمان بن حنيف أمير البصرة في ميسرته ؛ فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدمه وقال : « إن في ذلك إعزاز دين الله وسلطانه ، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه حد من حدود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم ، وإن تركتم لم يبق لكم سلطان ولم يكن لكم نظام » .

ثم تكلم الزبير بمثل ذلك ، فقال من في ميمنة المرْبَد : « صدقا وبراً وقالوا الحق وأمرنا بالحق » . وقال من في ميسرته : « فجرا وغدرا وقالوا الباطل وأمرنا به ، قد بايعا ثم جاء يقولان ما يقولان ! » وتحاثى الناس وتحاصبوا وأرهبوا (شعبوا) .

حينئذ تكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة (كأنه صوت امرأة جلييلة) فحمدت الله وأثنت عليه وقالت :

« كان الناس يتجنون على عثمان ، ويُزرون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا

(١) المرْبَد : مرْبَد البصرة من أشهر محالها ، وكان به سوق للابل قديماً ، ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس . وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء . ثم تضاءل أمره وتقلص العمران من حوله حتى أصبح في أيام ياقوت صاحب معجم البلدان (من أهل المئة السابعة) بائناً عن البصرة وسط البرية وبينهما ثلاثة أميال . انظر أوفى تفصيل عن البصرة والمرْبَد في كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) ص ٣٥٦ — ٤٠٤ .

فيما يخبروننا عنهم ، ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم ، فننظر في ذلك فنجده بريئاً نقياً وفاقياً ، ونجدهم خجراً كذبة يحاولون غير ما يظهرون ؛ فلما قووا على المسكثرة كاثروه فاقتموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر : ألا إن مما ينبغي — ولا ينبغي لكم غيره — أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله عز وجل (وقرأت) : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم مغرضون ^(١) » .

فماج الناس وافترق أصحاب عثمان فرقتين :

فقال فرقة : « صدقت والله وبرت وجاءت والله بالمعروف » .

وقال الآخرون : « كذبتم والله ، ما نعرف ما تقولون » فتحاثوا وتحاصبوا وأرهبوا .
ولدينا نص أوفى وأجمع لأغراضهم التي خرجوا من أجلها ، نقله عن ابن أبي الحديد ، فهو يدكر بصراحة وجلاء سبباً مهماً في خروجهم غير الثأر لعثمان ، ذلك هو خلع على وإعادة الأمر شورى وإليك إياه :

لما حصل المهرج من كلام طلحة والزبير ، صرخت عائشة بصوت مرتفع :

« أيها الناس ، أفلوا الكلام واسكتوا ... »

فأسكت الناس لها فقالت :

« إن أمير المؤمنين عثمان كان قد غير وبدل ، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوماً تائباً . وإنما نعموا عليه ضر به بالسوط وتأميره الشبان وحماية موضع الغمامة ، فقتلوه محرماً في حرمة الشهر وحرمة البلد : ذبحاً كما يذبح الجمل . ألا وإن قريشاً رمت عرضها بنباها وأدمت أفواهها بأيديها ، وما نالت بقتلها إياه شيئاً ، ولا سلكت به سيلاً قاصداً . أما والله ليرؤنها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس ، وليسلمن عليهم قوم لا يرحمونهم يسومونهم سوء العذاب .

أيها الناس ، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل دمه ، مصتموه كما يماص الثوب الرخيص ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه ، وبايعتم ابن أبي طالب بغير

(١) سورة آل عمران ٣ الآية ٢٣ ، والخطبة في الطبرى .

مشورة من الجماعة : ابتزازاً وغضباً . ترانى أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ولا أغضب
لعثمان من سيوفكم !

ألا إن عثمان قتل مظلوماً فاطلبوا قتلته ، فإذا ظفرت بهم فاقتلوهم ، ثم اجعلوا الأمر شورى
بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر ، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان ^(١) .
أوقعت هذه الخطب الانقسام في جماعة عثمان بن حنيف ، ولما رأت عائشة ذلك انحدرت
وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا في المربد في موضع الدباغين . وبقى أصحاب
عثمان على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى عائشة ، وبقى بعضهم مع عثمان على
فم السكة ، وأتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن يمين الدباغين
استقبلوا الناس فأخذوا عليهم بفمها .

وهكذا ابتدأت هذه المأساة التي جعلت المسلمين ذوى الكلمة الواحدة يقفون صفين
متناجزين يقاتل بعضهم بعضاً بعد أن كانوا جميعاً بدأ واحدة على عدوهم . ولعل كثيراً من
العقلاء ذوى النظر البعيد كشف لهم ما بعد هذا التقاذف بالشتائم والتخاصب والإرهاج :
من دماء الألو ف ترهق في سبيل هذا الخلاف ، فخالوا بكل ما استطاعوا من نصح صريح
وشدة في الإنكار فلم يثمر مسعاهم . وإليك نمطاً مما جبهوا به السيدة عائشة نفسها وصاحبها :
ذكر الطبرى عقب ذلك أن جارية بن قدامة السعدى أقبل على السيدة فقال :

« يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا
الجل الملعون عرضةً للسلاح ؛ إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وأبجت
حرمتك : إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت أتيتنا طائعة فارجعى إلى منزلك ،
وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس » .

فخرج غلام شاب من بنى سعد أيضاً إلى طلحة والزبير فقال :
« أما أنت يا زبير فحوارى ^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما أنت يا طلحة فوقيت

(١) شرح نهج البلاغة ٢/٤٩٩ والإمامة والسياسة ١/٦٠ — الموص : الغسل اللين والدلك باليد
— الرحيض : المغسول — ولست أدري هل أقجموا (وبيعتم ابن أبى طالب ...) في خطبتها فيما بعد إقحاما
افتضته الدعاية المذهبية أم لا ؟ أما أنا فأستبعد أن تصرح بذلك والمصادر غير الشيعية خالية من هذا التصريح .
(٢) الحوارى : الناصر وهو لقب الزبير : جاء في تهذيب تاريخ ابن عساکر ٥/٣٥٩ (لما كان يوم
قريظة برز رجل من يهود يصبیح : « من يبارز ؟ » فبرز إليه محمد بن مسلمة فقتله اليهودى وكانت معه حربة =

رسول الله بيدك؛ وأرى معك أمكنا: فهل جئنا بنسائكما؟» قال: «لا» قال: «فما أنا منكما في شيء» واعتزل. وقال السعدي في ذلك:

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم هذا — لعمر ك — قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيوها في بيتها فهوت تشق اليد بالإيجاف^(١)
غرضاً يقاتل دونها أبناؤها بالنبل والخطى والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها، هذا المخبر عنهم والكافي
وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة — وكان محمد رجلاً عبداً — فقال:

«أخبرني عن قتلة عثمان»، فقال محمد: «نعم، دم عثمان ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبة اليهودج (يعني عائشة)، وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعني أباه طلحة)، وثلث على علي بن أبي طالب». فضحك الغلام وقال: «لا أراني على ضلال» ولحق بعلي ابن أبي طالب وقال في ذلك شعراً:

سألت ابن طلحة عن هالك بجوف المدينة لم يقبر
فقال: ثلاثة رهط هم أماتوا ابن عفان واستعبر:
فثلث على تلك في خدرها وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبي طالب ونحن بدويّة قرقر
فقلت: صدقت على الأولين وأخطأت في الثالث الأزهر^(٢)

وكاد الأمر يقف عند هذا، فإن أصحاب عائشة ما أرادوا حينئذ قتالاً، ولكن جماعة في أصحاب عثمان بن حنيف — ولعل أكثرهم ممن اشترك في دم عثمان — تعجلوا الحوادث وأرادوا إنشابه القتال، وأصبح الفريقان قد سيقا إلى النتيجة المحتومة، حين أقبل حكيم ابن جبلة — وهو ممن شرك في الشعب على عثمان واشترك في قتله — وكان على الخيل فأنشب

— يحوش بها المسلمين حوشاً، فبرز له علي فقال له الزبير: «أقسمت عليك إلا خليت بيني وبينه» فبرز إليه فقتله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير» اهـ.

(١) الإيجاف: ضرب من سير الخيل والإبل — القاموس.

(٢) الطبرى ٤٨١/٣ — ٤٨٣، الدوية: القلاة. القرقر: الأرض المطمئنة اللينة، قرقر البلدة:

نواحيها الظاهرة — القاموس.

القتال ، ومع هذا حاول أصحاب عائشة الكف وعدم المقابلة « فأشرعوا رماحهم وأمسكوا
لميسك أصحاب حكيم ، فلم ينته حكيم ولم يُثْن ، فقاتلهم وأصحاب عائشة كافون إلا ما دفعوا
عن أنفسهم ، وحكيم يذمر (يحث) خيله ويركبهم ويقول : إنها قريش ، ليردينها
جنبها والطيش .

واقتلوا على فم السكة ، وأشرف أهل الدور ممن كان له في واحد من الفريقين هوى ،
فرموا باقي الآخرين بالحجارة ، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن
فوقفوا بها ملياً ، وثار إليهم الناس ، فحجز الليل بينهم ، فرجع عثمان إلى مقره ورجع الناس
إلى قبائلهم .

وجاء أبو الجرباء (أحد بنى عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم) إلى عائشة وطلحة والزبير
فأشار عليهم بأمثل من مكانهم فاستنصحوه وتابعوا رأيه ، فساروا من مقبرة بنى مازن فأخذوا
على مسناة البصرة من قبل الجبانة حتى انتهوا إلى الزابوقة ، ثم أتوا مقبرة بنى حصن وهي
متنحية إلى دار الرزق فباتوا يتأهبون ، وبات الناس يسرون إليهم ، وأصبحوا وهم على
رجل^(١) في ساحة الرزق .

وأصبح عثمان بن حنيف فغادهم يريد منعهم دخول البصرة ، وغدا حكيم بن جبلة
وهو يبربر (شاعراً عائشة) وفي يده الرمح ، فقال له رجل : « من هذا الذى تسب وتقول له
ما أسمع ؟ » قال : « عائشة » قال : « يابن الخبيثة ، ألام المؤمنين تقول هذا ؟ » فوضع
حكيم السنان بين ثديه فقتله ، ثم مر بامرأة (وهو يسب) فقالت : « من هذا الذى أجبأك
إلى هذا ؟ » قال : « عائشة » قالت : « يابن الخبيثة ، ألام المؤمنين تقول هذا ؟ » فطعنها
بين ثديها فقتلها ، ثم سار .

فلما اجتمعوا واقفوه ، فاقتتلوا بدار الرزق قتالاً شديداً من حين بزغت الشمس إلى أن
زال النهار ، وقد كثر القتلى فى أصحاب ابن حنيف وفشت الجراحة فى الفريقين ، ومنادى
عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون ؛ حتى إذا مسهم الشر وعضهم ، نادوا أصحاب
عائشة إلى الصلح فأجابوهم ، وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولاً إلى المدينة «

(١) من الحجاز قولهم فلان قائم على رجل : إذا جد فى أمرٍ حربه — الزمخشرى فى أساس البلاغة .

يسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير لعلى : فإن كانا أكرها خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة ، وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير ، وتبقى الهدنة قائمة حتى يرجع الرسول بالخبر فينفذ الفريقان ما اتفقا عليه . وهذا نص وثيقة الصلح :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اصطاح عليه : (أ) طلحة والزبير ومن معه من المؤمنين والمسلمين ،

(ب) وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين :

١ - أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده وأن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما

الصلح على ما في أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعب بن سور من المدينة ؛

٢ - ولا يضارَّ واحد من الفريقين في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فُرْضة^(١) : بينهم عَيْبَةٌ^(١) مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر ؛

٣ - فإن رجع : بأن القوم أكرهاوا طلحة والزبير فالأمر أمرها ، فإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بِطَيْبَتِهِ وإن شاء دخل معهما ؛

٤ - وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان ، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة على^٢ وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيئتهما .

٥ - والمؤمنون أعوان الفالح^(١) منهما^(١) « ١ هـ .

وعلى ذلك انقضت هذه المناوشة بالمربد وهي المسماة بيوم الجمل الأصغر^(٢) .

يلحق المؤرخ المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار بعد أن نقل ما نقلناه هنا عن الطبرى بقوله :

« من تمام الأمر بالصورة التي وصفنا ، نعلم أن الأمر لا يزداد مبرمه إلا انتكاثاً في يد

(١) الطبرى ٤٨٤/٣ - الفرضة من النهر : ثلثة يستقى منها ، ومن البحر محط السفن ، وكانت البصرة كثيرة الأنهار جداً (انظر : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ص ٣٤٧) ، والعيبة : موضع سر الرجل . الفالح (بالحاء والجيم) : الفائز - ويذكر ابن أبي الحديد صلحاً وقع بين الفريقين أن يتهادنوا إلى حين مجئ على واجتماع عثمان به - شرح نهج البلاغة : ٥٠٠/٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٥٠١/٢ أما يوم الجمل الأكبر فهو يومهم مع على بن أبي طالب ، وهذا كان مع عثمان بن حنيف .

على ، والحال تسير على غير نظام : فإن عثمان بن حنيف لم يولّه (إمامه) على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين ، ولم يأخذ عليه العهد بأن يبذل الشروط التي تفضى إلى ضياع الأمصار . وقد كان الرجل على غير ما يجب في أمثاله من الإرب وقوة الحجة ، ولو كان على شيء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ، ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة عليّ ، ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن إقامة الحد إنما هي للإمام ، ولا ينبغي النهوض إلا في طاعة إمام ، وهم قوم نزاع لا إمام لهم ، ومن كانت في عنقه بيعة فإنه خارج على إمامه . وكان في وسعه أن يلزم القوم التبرص حتى يؤامر علياً . ومن انخرق في الرأي أن يرخص لحكيم بن جبلة في القتال قبل أن يتقدم إليه إمامه في ذلك . وإن الإمسك كان أحسن في العاقبة وأرجى في العافية ^(١) » ا هـ .

أقول : قد حج القوم بالحجة التي ذكرها الأستاذ كثير من رؤوس البصرة ؛ بل إن بعضهم تعداها إلى التصريح لهم بما يحملون من الشركة في إثم قتل عثمان . وما كان المنطق يوماً من الأيام سلاحاً ينفذ في الجماهير ؛ إنما السلاح الماضي فيهم هو التمويه عليهم واستجلابهم بما يهز قلوبهم ومشاعرهم من الخطايات . ولا أدري : كيف يسع عثمان بن حنيف — وهو والٍ مسؤول عن سلامة البصرة — أن يكف حتى يأتيه جواب علي ، والقوم جادون نحو البصرة يريدون احتلالها ويطلبون رقاب الذين دخلوا المدينة على عثمان بن عفان رضي الله عنه . بل إن الطبري ليدكر رواية تدحض ما أخذه الأستاذ النجار على عثمان بن حنيف وتثبت أن هذا الوالي كاتب علياً من أول الأمر ، لكن الجماعة لم يمهله بل عاجلوه القتال ؛ لقد قال لهم عثمان لما قدموا البصرة : « ما نقتم على صاحبكم ؟ » فقالوا : « لم نره أولى بها منا وقد صنع ما صنع » . قال عثمان : « فإن الرجل أمرني فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له ، على أن أصلي بالناس حتى يأتينا كتابه » . فوقفوا عليه وكتب ؛ فلم يلبث إلا يومين حتى وثبوا عليه فقتلوه ^(٢) .

وإذا ملنا مع الأستاذ النجار إلى تخطيط عثمان فلينبئنا : هل استطاع أحد من الولاة بعد عثمان هذا أن يجمع أهل العراق على رأي واحد ؟ وهل خلا العراق — في تاريخه الطويل — من خارج على خليفة أو أمير يوماً من الأيام ؟ ؟

(١) تاريخ الإسلام : (الخلفاء الراشدون) ص ٣٩٧ . (٢) الطبري ٣/ ٤٨٦ .

ومهما يكن من أمر فإن ما يؤخذ به عثمان شيء واحد : هو عدم مراجعة إمامه في شروط الصلح حين كان أصحاب عائشة هم الطالبين له . وموقف عثمان أقوى (شرعية) من موقف خصومه ، ولو هو فعل لأجابوه إلى ما يريد ، ولعله استشعر ضعفاً ولو وجد من القوة ما يكثر به أصحاب عائشة ما توقف ، وقد علمت قبل قليل أن جماعات لا يستهان بها من أصحابه لحقت بعائشة . وكان بوسعها أيضاً ألا يعطى بيده هذه الخطة الشائنة : فيرجع إلى أهل المدينة وهم ليسوا له بمرجع ، إنما مرجعه إمامه ليس غير . وهذه الهفوة تحملها التبعة في إضعاف أمر علي في العراق تلك الفترة .

فإنما كان عثمان قد استشعر ضعفه ولو وجد من القوة ما يكثر به أصحابه لحقت بعائشة ما توقف ، وقد علمت قبل قليل أن جماعات لا يستهان بها من أصحابه لحقت بعائشة . وكان بوسعها أيضاً ألا يعطى بيده هذه الخطة الشائنة : فيرجع إلى أهل المدينة وهم ليسوا له بمرجع ، إنما مرجعه إمامه ليس غير . وهذه الهفوة تحملها التبعة في إضعاف أمر علي في العراق تلك الفترة .

الفصل السادس

في استيلاء الجملين على البصرة

سفارة كعب بن سور الى المدينة :

خرج كعب بن سور إلى المدينة ، إنفاذاً لما اتفقوا عليه ، فبلغها ، واجتمع الناس لتقدمه وكان يوم جمعة ، فوقف في الناس فقال :

« يا أهل المدينة ، إني رسول أهل البصرة إليكم : أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة عليّ أم أتياها طائعين ؟ » .

فلم يجبه أحد من القوم رهبة وخشية أن يُبطش به . وكأنه عظم على أسامة بن زيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وابن حبه أن يبقى الحق مكتوماً ضعيفاً ، فوقف وقال :

« اللهم لم يبايعا إلا وهما كارهان ^(١) » .

فأمر به تمام بن العباس أمير المدينة لهليّ ، فوائبه سهل بن حنيف والناس حتى كاد أسامة يتلف ، لولا أن ثار صهيب بن سنان وأبو أيوب الأنصاري في عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوا أن يقتل أسامة فقال : « اللهم نعم ، فانفرجوا عن الرجل » . فانفرجوا عنه . وأخذ صهيب بيده حتى أخرجه فأدخله منزله وقال : « قد علمت أن أم عامر ^(٢) حامقة ، أما وسعك ما وسعنا من السكوت ؟ » قال : « لا والله ، ما كنت أرى أن الأمر يتراى إلى ما رأيت وقد أبلسنا ^(٣) (الأمر) العظيم » .

وصل خبر ما كان بالمدينة إلى علي فكره ذلك ، وساءه ما فعل عثمان وهو وال له علي

(١) حربك ص ٧١ تفاصيل بيعتهما لهلي .

(٢) أم عامر كنية الضبع والعامر : جروها ، فلعله يعرض به أو يقول : إن الحق من شأن الجماعات .

(٣) أبلسنا : أسلنا للهلاك .

البصرة : عليه أن يحميها منهم ، فأتى ما أضعف أمره وأمر عليّ ، فبادر علي بالكتابة إليه يعجزه ويقول :

« والله ما أكرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل ؛ فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا^(١) » .

وقد وقع في غياب كعب أشياء بين الفريقين ، عدها طلحة والزبير اعتداءً ونقضاً لشروط الصلح فاضطغنوها في أنفسهم ، منها : أن محمد بن طلحة — وكان على ما مر بك : زاهداً متعبداً صاحب صلاة — قام في المسجد مقاماً قريباً من أمير البصرة عثمان بن حنيف ، فارتيب به ، وخشى الزط والسيابجة^(٢) أن يكون جاء لغير الصلاة فنحياه ، فبعث طلحة والزبير إلى عثمان يقولان : « هذه واحدة » .

رجوع كعب واهتزاز عثمان عنه إنقاذ السروط :

رجع كعب إلى البصرة ، وأخبر القوم بجواب أهل المدينة ، وأرسل طلحة والزبير ومن معهما إلى عثمان بن حنيف : « أن اخرج عنا » . وكان طلباً حقاً ، فعلى ذلك اصطلحوا وهذا ما شرطوه .

إلا أن عثمان بن حنيف اعتذر بأنه أصبح أمام حادث جديد ، فإن الكتاب الذي أرسله على إليه يعجزه فيه ، يجعل البت في هذا الأمر إلى عليّ نفسه لا إلى عثمان . وذلك حيث يقول في كتابه الذي مرّ آنفاً : « فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا » .

أرسل عثمان إليهما محتجاً بالكتاب المذكور قائلاً : « هذا أمر آخر غير ما كنا فيه » . فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندی ، ثم قصدا المسجد فوافقا صلاة العشاء ، وكانوا يؤخرونها ، فأبطأ عثمان بن حنيف ، فقدم عبد الرحمن بن عتاب ليصلي بالناس ، فشهز الزط والسيابجة السلاح ثم وضعوه فيهم ، فأقبل أصحاب الجمل واقتتلوا

(١) الطبري ٤٨٥/٣ .

(٢) السيابجة : هم الشرط حرس بيت المال — شرح نهج البلاغة ٢/٥٠٠ .

في المسجد وصبروا لهم حتى قتلوه ، ثم دخلوا على عثمان بن حنيف ليخرجوه إليهما ، فلما وصل إليهما توطؤوه حتى ما بقيت في وجهه شعرة ، فاستعظم طلحة والزبير ذلك ، فأرسلا إلى عائشة بالذي كان ، واستطلعا رأيها ، فأرسلت إليهما أولاً : « أن اقتلوه » فقالت لها امرأة : « نشدتك الله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فاستردت الرسول وقالت له : « احبسوه ولا تقتلوه » قال الرسول : « لو علمت أنك تدعينني لهذا لم أرجع » . فقال لهم مجاشع بن مسعود : « اضربوه وانتفوا شعر لحيته » . فضربوه أربعين سوطاً وانتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه (١) .

وقام بعد ذلك طلحة والزبير خطيبين فقالا :

« يا أهل البصرة ، توبة بحوبة (٢) ، إنما أردنا أن يستعذب أمير المؤمنين عثمان ولم نرد قتله ، فغلب سفهاء الناس العلماء حتى قتلوه » .

فقال الناس لطلحة : « يا أبا محمد ، قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! » .

فقال الزبير : « فهل جامكم مني كتاب في شأنه ؟ » ثم ذكر قتل عثمان رضي الله عنه وما أتى إليه وأظهر عيب على . . . فقام إليه رجل من عبد القيس فقال : « أيها الرجل ، أنصت حتى نتكلم » . فقال عبد الله بن الزبير : « ومالك وللكلام ؟ » فقال الرجل العبدى : « يا معشر المهاجرين ، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل ، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم ، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلاً منكم : والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك ، فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله عز وجل في إمارته بركة . ثم مات رضي الله عنه واستخلف عليكم رجلاً منكم فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا ، فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر ، فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منا ، ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئاً فقتلتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم علينا عن غير مشورة منا : فما الذي نقيم عليه فنقاتله ؟ هل استأثر بغير الحق ، أو عمل شيئاً تسكرونه فنكون معكم عليه ؟ وإلا فما هذا ؟ » فهموا بقتل ذلك الرجل ،

(١) الطبرى ٣/ ٤٨٥ .

(٢) الحوبة : الخطيئة .

فقام من دونه عشيرته ، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من كان معه فقتلوا سبعين رجلاً^(١) .
وقد كان هذا الحادث في جملة ما اعتد به أصحاب عليّ على أصحاب الجمل ؛ وما أكثر
الذين يقولون قول هذا الرجل العبدى^(٢) ، وما أكثر الذين وقعوا معه في حيرة من أمر
طلحة قبل قتل الخليفة عثمان وبعده .

ومهما يكن من شيء فإن في كلام هذا العبدى إنصافاً وحياداً ومنطقاً وحقاً ولكن
ما كان المنطق مغيراً شيئاً من ثورة الجماهير العمياء . لقد طحنت الجماهير هؤلاء السبعين مع
العبدى وكانت هذه الجزرة من أقوى ما أضرم الغيظ والحقد في النفوس ، فعجلت الحرب
وملأت بالغضب والحركة صدر عليّ ومن معه فيما بعد .

استولى أصحاب عائشة على دار الرزق في الليلة التي قبضوا فيها على عثمان ، وكان في
رحبتها طعام كثير يرتزقه الناس ، فأراد الزبير وابنه أن يرزقاه أصحابهما خاصة ، وصيرا على
بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر بعد اختلاف يسير فيما بينهم .

* * *

لم يكن بقاء الطائفتين متجاورتين في البصرة أمراً طبيعياً ، بل لابد من إخراج الضعيفة
منهما واستئثار القوية بالبلدة ومرافقتها . وكانت الطائفة القليلة هي البادئة بالشر وهي التي
تنجزت القضاء على نفسها : فقد « أصبح طلحة والزبير : وبيت المال في أيديهما والناس
معهما ، ومن لم يكن معهما فهو مغمور مستخف^(٣) » ، وعلمنا أن حكيم بن جبلة — وهو
أشد الناس عراماً في عداوتهما ورغبة في القتال — قد أخذ يجمع الأنصار للتحفز ، فأرسلا
بذلك إلى عائشة .

« وأصبح^(٣) حكيم بن جبلة على رجل فيمن تبعه من عبد القيس ومن نزع إليهم من
أفناء ربيعة ، ثم توجهوا نحو دار الرزق « وحكيم يقول : « نست بأخيه إن لم أنصره »
وجعل يشتم عائشة رضي الله عنها ، فسمعت امرأة من قومه فقالت : « يابن الخبيثة ، أنت
أولى بذلك » فطعنها فقتلها كما فعل في المناوشة الأولى ، فضربت عبد القيس فقالوا : « فعلت

(١) الطبرى ٤٨٦/٣ .

(٢) نسبة إلى عبد القيس .

(٣) الطبرى ٤٨٦/٣ — ٤٨٨ و ٤٩١ بتصرف يسير .

بالأس ، وعدت لمثل ذلك اليوم ؟ والله لندعنك حتى يقيدك الله » ، فرجعوا وتركوه .
وسار حكيم بمن يقي معه من بكر بن وائل وعبد القيس نحو دار الرزق ، فأتى عبد الله
ابن الزبير فقال عبد الله : « مالك يا حكيم ؟ »

قال : « نريد أن نرتزق من هذا الطعام ، وأن تخلوا عثمان يقيم بدار الإمارة على ما كتبتم
بينكم حتى يقدم على ؛ والله لو أجد أعواناً عليكم أخبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى
أقتلكم بمن قتلتم . ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا ، أما تخافون
الله عز وجل ؟ بم تستحلون سفك الدماء ؟ »

فقال ابن الزبير : « بدم عثمان »

قال حكيم : « فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان ؟ أما تخافون مقت الله ؟ »

فقال ابن الزبير : « لا نرتزقكم من هذا الطعام ولا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى
يخلع علينا . »

قال حكيم : « اللهم إنك حكم عدل فاشهد . »

وقال لأصحابه : « إني لست في شك من قتال هؤلاء ، فمن كان في شك فلينصرف . »

ولما رأى أصحاب الجمل الجد من حكيم ومن معه قالت عائشة : « لا تقتلوا إلا من

قاتلكم . » ونادى أصحاب الجمل : « من لم يكن من قتلة عثمان فليكف عنا ، فإننا لا نريد إلا

قتلة عثمان ولا نبداً أحداً »

فأنشب حكيم القتال ، ولم يرعو للمنادى ، فقال طلحة والزبير :

« الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة . اللهم لا تبق منهم أحداً ، وأقِدْ منهم

اليوم فاقتلهم . »

فجادوهم القتال فاقتلوا قتلاً شديداً ، واصطفوا فرقاً أربعاً عليها قواد أربعة ممن أغار على

عثمان ؛ فكان حكيم بجيالة طلحة ، وذريح بجيالة الزبير ، وابن الحرش بجيالة عبد الرحمن

ابن عتاب ، وحر قوص بن زهير بجيالة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ...

فرحف طلحة لحكيم وهو في ثلثمائة رجل ، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول :

أضربهم باليأس
ضرب غلام عابس
من الحياة آيس
في الغرفات نافس
فضرب رجل رجله فقطعها ، فجا حتى أخذها فرمى بها صاحبه ، فأصاب جسده
فصرعه ، فأتاه حتى قتله ثم اتكأ عليه وقال :

يا فخذُ لن تراعى
إن معي ذراعى
أحمى بها كراعى^(١)

وارتجز أيضاً :

أقول لماجد بي زماعى^(٢)

للرجل : يارجلى لن تراعى

إن معي من نجدة ذراعى

وتكلم يومئذ حكيم وإنه لقائم على رجل واحدة ، وإن السيف لتأخذ منهم فما يتتبع
(يتلعم) ويقول :

« إنا خلفنا هذين (طلحة والزبير) وقد بايعا علينا وأعطياه الطاعة ، ثم أقبلنا مخالفين
محاربين يطلبان بدم عثمان ، ففرقا بيننا ونحن أهل دار وجوار ، اللهم إنهما لم يريدا عثمان »
فنادى مناد : « ياخيث ، أجزعت حين عضك نكال الله عز وجل إلى كلام من نصبك
وأصحابك مباركتم من الإمام المظلوم وفرقتم الجماعة ، وأصبتم من الدماء ونلت من الدنيا ؟ فذق
وبال الله عز وجل وانتقامه ، وأقيموا فيمن أتم ... »
ثم خارت قوى حكيم وهو يرتجز :

ليس على أن أموت عار
والعار في الناس هو الفرار
والمجد لا يفضحه الدمار

(١) الكراع : ما دون الكعب من الدابة ، ودون الركبة من الإنسان .

(٢) الزماع : المضى في الأمر لا يثنيك عنه شيء .

فأتى عليه رجل وهو رثيث (جريح به رمق) قد أسند رأسه على جسد الذى قتله ، فقال : « مالك يا حكيم ؟ » قال : « قتلت » قال : « من قتلت ؟ » قال : « وسادى » فاحتمله وضمه فى سبعين من أصحابه من عبد القيس جميعهم قتلوا .

هم أصحاب الجمل — بعد قتل حكيم — أن يقتلوا عثمان بن حنيف ثانية فقال لهم عثمان : « ماشتم ، أما إن سهل بن حنيف والى على المدينة ، إن قتلتمونى انتصر » فأقلعوا عن قتله خوفاً على ذويهم بالمدينة وخشية من غضب من فى البصرة من الأنصار . وأرسلت عائشة امرأة أن : « خلوا سبيله فيذهب حيث يشاء ولا تجسوه » . فأخرجوا الحرس الذين يعقبون حرسه وكانوا أربعين رجلاً . ومضى عثمان بن حنيف فيمن غزا عثمان بن عفان وحصره من نزاع القبائل ، وعرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة .

* * *

قتل فى هذه الواقعة حكيم وابنه الأشرف وأخوه الرعل ، وقتل ذريح ومن معه ، وأفلت منهم حرقوص بن زهير فى نفر من أصحابه فلبجؤوا إلى قومهم .

وهنا أمرت عائشة — لما اختلفوا على الصلاة — أن يصلى بالناس ابن اختها عبد الله ابن الزبير . ونادى بالبصرة منادى طلحة والزبير عقب الحادث :

« ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم » . فجاء بهم كما يجاء بالكلاب فقتلوا ، فما أفلت من أهل البصرة جميعاً إلا حرقوص بن زهير^(١) فإن قومه بنى سعد منعه .

ولم يكتف أصحاب عائشة بما صنعوا ، وإن فيه لكفاية ومزيدياً على الكفاية ، بل أرادوا أن يقتصوا لعثمان من جميع الآلاف التى قصدت المدينة وحرصوا على ألا يفوتهم أحد . وخسروا — بما شددوا — جوعاً كثيرة هرعت إلى على : كان فى الإمكان أن تظل محايدة إن لم نقل حاطبة فى حبل أصحاب الجمل . لقد منعت قبيلة بنى سعد رجلاً منهم فلم يتركه طلحة وأصحابه ، ولم يلاينوا قبيلة بأسرها فشدوا عليهم وضربوا لهم أجلاً وخشوا صدور بنى سعد

(١) الكامل لابن الأثير ٣/٩٣ .

— وإينهم لعثمانية — حتى قالوا : نعتزل . وغضبت بنو عبد القيس حين غضبت بنو سعد لمن قتل منهم بعد الوقعة ومن كان هرب إليهم وهم — على خلاف بنى سعد — طاعتهم وميلهم إلى على .

ثم زاد طلحة والزبير الأمر ، حين أمرا للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وحقوقهم ، وفضلا بالفضل أهل السمع والطاعة — من جماعتهم طبعاً — فخرجت عبد القيس وبكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول فبادروا إلى بيت المال ، وأكب الناس عليهم فأصابوا منهم ، وخرج القوم حتى نزلوا على طريق على . وهكذا قوى أمر ابن أبي طالب بعض القوة .

أما السيدة فلم تقتر بعد هذا الظفر المؤقت عن إحكام الدعاية لدعوتها السياسية ، تحاول أن تجتلب من لا يزال يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، وأرادت أن تعوض عما خسر أصحابها من قبائل ذهبت عنهم إلى على مغاضبة . بل لقد طمعت أن تجتذب إلى دعوتها حتى رؤساء الناس أصحاب الدهاء والغور البعيد ممن هم على خلاف مذهبها السياسي ؛

خطبت عقب هذه الحوادث لما دخلت البصرة وبحضرتها الأحنف بن قيس وموسى ابن طلحة ورجال من وجوه العرب ، فقالت :

« إن لي حرمة الأمومة وحق الموعظة ، لا يتهمني منكم إلا من عصى ربه ، وقبض رسول الله بين سحري ونحري وحاقتي وذاقتي وأنا إحدى نسائه في الجنة . وبه حصني ربي من كل وضع ، وبى ميز مؤمنكم من منافقكم ، وبى رخص لكم فى صعيد الأبواء ، وأبى تانى اثنين ، ورابع أربعة من المسلمين وأول من سمى صديقا ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وقد طوّقه وهف الإمامة . ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه ورتق لكم أثنائه ، فوَقَدَ النفاق وأغاض نبغ الردة ، وأطفأ ما حشّت يهود ؛ وأنتم يومئذ جُحُظَ العيون تنظرون العدو وتستمعون الصيحة . . . فرأب الثأى وأوذم السقاء ، وامتاح من المهواة ، واجتهر دفن الرواء . . . حتى قبضه الله إليه واطئاً على هام النفاق ، مذكياً لحرب المشركين ، يقظان الليل فى نصره الإسلام ، صفوحاً عن

الجاهلين ، بعيد ما بين اللابتين ، عُرْكة للأذاة بجنبه ، خشاش المرأة والمخبرة ، فسلك مسلك السابقين .

تبرأت إلى الله من خطب جمع شمل الفتنة ومزق ما جمع القرآن . أنا نصب المسألة عن سيرى هذا [لم أتمس إثمًا ولم أدلس فتنة أوطئكموها] : ألا وأنى أقبلت لدم الإمام المظلوم المركوبة منه الفقر الأربع : حرمة الإسلام وحرمة الخلافة وحرمة الصحبة وحرمة الشهر الحرام ؛ فمن ردنا عن ذلك بحق قبلناه ، ومن ردنا عنه بباطل قتلناه ، فربما ظهر الظالم على المظلوم والعاقة للمتقين^(١) . [أقول قولى هذا صدقًا وعدلاً وإعذاراً وتعذيراً ، وأسأل الله أن يصلى على محمد ، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين]^(٢) .

فقال لها الأحنف : « إني سائلك ومغلظ لك في المسألة فلا تجدى (تغضبي) على :
« أعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجك هذا ؟ » قالت : « لا »
قال لها :

« أفعدك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك معصومة عن الخطأ ؟ » قالت :
« لا » .

قال لها : « صدقت ، إن الله رضى لك المدينة فأبيت إلا البصرة ، وأمرك بلزوم بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فنزلت بيت الحرشة الضبي . ألا تخبرينى يأم المؤمنين : أللحرب قدمت أم للصلح ؟ » قالت : « بل للصلح . » فقال لها :

(١) ذكر بعض هذه الخطبة وخبرها في أخبار النساء لابن الجوزى ص ١٣ ، وذكر في الفائق للزمخشري ٢٨٧/١ ، وفي بلاغات النساء ص ٧ وفي العقد الفريد ٩٦/٣ ، وقد اعتمدنا رواية الفائق غالباً واستفدنا من بلاغات النساء في الإصلاح والزيادة ، وتختلف الألفاظ في الروايتين .

الفرح — السحر : الرئة . الحاقنة : النقرة بين الترقوة وحبل العاتق . الذاقنة : طرف الحقوم . صعيد الأبواء : مكان ضاع فيه عقدها فاحتبس الجيش في التفتيش عنه ولم يكن ثمة ماء فأنزل الله رخصة التيمم ، الوهف : الإقامة . نبغ الردة : ما ظهر منها . حشت : أوقدت . رأب الثأى : أصلح الفاسد . أوذم السقاء : شده بالأوذام وهي السيور الطوال . امتاح من المهواة : استخرج الماء من البئر . اجتهر دفن الرواء : كسح الماء الكثير . [ويروى : اجتعى دفين الداء : اللابتان : حرثا المدينة (تريد : واسع الصدر) عركة : محتمل . خشاش المرأة والمخبرة : ماض خفيف ظاهراً وحقيقة . أنا نصب المسألة : أنا عرضة لأن أسأل . الفقر : الحرمان .

(٢) زيادة عن أخبار النساء لابن الجوزى .

والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى ما اصطلحوا على يدك ،
فكيف والسيوف على عواتقهم ؟ ! »

فبدا للسيدة ما لم تكن تحتسب . وانكسرت نفسها فقالت :

« لقد استغرق حلم الأحنف مهاوّه إياي ، إلى الله أشكو عقوق أبنائي ^(١) . »

أقام طلحة والزبير ، وباع لها أهل البصرة ، واستخفها هذا الظفر حتى استحليا أن
أن يعجلا النتيجة قبل استتمام مقدماتها ، فقد روى الطبري أن الزبير قال لما بوع لها :

« ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي ، فإما يتته وإما صبحته ، لعلى أقتله قبل أن يصل
إلينا ؟ » فلم يجبه أحد ، فقال : « إن هذه هي الفتنة التي كنا نحدّث عنها ^(٢) » فتربصا
وأصحابهما ليس معهما بالبصرة ثار إلا حرقوص بن زهير . وكتبوا بما تم لهم من الظفر كتاباً
لأهل الشام وآخر إلى أهل المدينة ، وآخر إلى اليمامة ، ورابعاً إلى أهل الكوفة . ولا حاجة
لذ كر جميع هذه الكتب ، بل نكتفي بأوقاها وأجمعها وهو الكتاب الذي أرسلته عائشة
إلى أهل الكوفة مع رسولهم ، فإن فيه بلاغاً ، أرسلت إليهم :

« أما بعد فإني أذكركم الله عز وجل والإسلام ، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه ، اتقوا
الله واعتصموا بحبله وكونوا مع كتابه ؛ فإننا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله
بإقامة حدوده فأجابنا الصالحون إلى ذلك ، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح وقالوا :
لُنْتَبِعَنَّكَ عثمان » ليزيدوا الحدود تعطيلاً . فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر ،
فقرأنا عليهم :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ^(٣) . »

فأذعن لي بعضهم واختلفوا بينهم فتركناهم وذلك ، فلم يمنع ذلك من كان منهم على

(١) المصادر السابقة .

(٢) الطبري ٤٩١/٣ .

(٣) سورة آل عمران ٣ الآية ٢٣ .

رأيه الأول من وضع السلاح في أصحابي ، وعزم عليهم عثمان بن حنيف إلا قاتلوني ، حتى منعتني الله عز وجل بالصلحين ، فرد كيدهم في نحورهم . فكئنا ستاً وعشرين ليلة : ندعوهم إلى كتاب الله وإقامة حدوده وهو حقن الدماء أن تهراق ، دون من قد حل دمه ، فأبوا واحتجوا بأشياء فاصطلحنا عليها ، فخانوا وغدروا وخافوا وحشروا ، فجمع الله عز وجل لعثمان رضى الله عنه ثأره ، فأقادهم فلم يفلت منهم إلا رجل . وأردأنا (حمانا) الله ومنعنا منهم بعمير بن مرثد ومرثد بن قيس ، ونفر من قيس والرباب والأزد . .

فألزموا الرضى إلا عن قتلة عثمان بن عفان حتى يأخذ الله حقه ، ولا تخاصموا عن الخائنين ولا تمنعوا ، ولا ترضوا بذوى حدود الله فتكونوا سن الظالمين ^(١) »

وكتبت إلى رجال بأسمائهم :

« . . فنبطوا ^(١) الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، واجلسوا في بيوتكم ؛ فإن هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان رضى الله عنه ، وفرقوا بين جماعة الأمة وخالفوا الكتاب والسنة . . . حتى شهدوا علينا — فيما أمرناهم به وحشناهم عليه من إقامة كتاب الله وإقامة حدوده — بالكفر ، وقالوا لنا المنكر . فأنكر ذلك الصالحون وعظموا ما قالوا ، وقالوا : « ما رضيتم أن تقتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم : أن أمرتكم بالحق ، لتقتلوهما وأصحاب رسول الله عليه وسلم وأئمة المسلمين ؟ » فعزموا وعثمان ابن حنيف معهم على من أطاعهم من جهال الناس وغوغائهم : على زطهم وسيابجتهم ، فلذنا منهم بطاقة من الفسطاط . . . فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوماً : ندعوهم إلى الحق وألا يحولوا بيننا وبين الحق ، فغدروا وخانوا فلم نقايسهم ، واحتجوا ببيعة طلحة والزبير ، فأبردوا بريداً فجاءهم بالحجة فلم يعرفوا الحق ولم يصبروا عليه ، فغادوني في الغلس ليقتلوني والذي يحاربهم غيري ، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي ومعهم هاد يهديهم إلى ، فوجدوا نفراً على باب بيتي منهم عمير بن مرثد ومرثد بن قيس ويزيد بن عبد الله بن مرثد ، ونفر من قيس ونفر من الرباب والأزد . . ، فدارت عليهم الرحي ، فأطاف بهم المسلمون فقتلوهم ،

(١) الطبرى ٤٨٩/٣ .

وجمع الله عن وجل كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزبير وطلحة . فإذا قتلنا بثأرنا
وسعنا العذر .

وكانت الواقعة لخمس ليالٍ من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين .
وكتب عبيد بن كعب في جمادى .

ويظهر من كتابها هذا أن بعض الغوغاء ممن لا خلاق لهم ، هموا بالاعتداء على السيدة
نفسها . ولم أعر — في المصادر التي رأيتها — بخبر هذا الاعتداء إلا ما أشارت إليه في كتابها
هنا وإلا ما جاء في كتاب أصحاب عائشة إلى أهل الشام ، فقد روى الطبرى^(١) فيه هذه الجملة .
« ... فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم ، وخالفنا شرارهم ونزاعهم ، فردونا بالسلاح
وقالوا فيما قالوا : (نأخذ أم المؤمنين رهينة ..) أن أمرتهم بالحق وحثهم عليه ، فأعطاهم الله
عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة .. الخ » .

وظل القوم في نشوة من استيلائهم على البصرة وإخراجهم منها أميرها مدحوراً ،
وقتلهم قتلة عثمان . ومجّلت عائشة في حسابها وظنت أن الأمر معها إلى تمام ، فأحبت أن
تبشر بذلك أم المؤمنين حفصة بنت عمر بالمدينة ، فكتبت إليها :
« أما بعد فأخبرك أن علياً نزل ذا قار ، وأقام بها مرعوباً خائفاً لما بلغه من عدتنا
وجماعتنا ؛ فهو بمنزلة الأشقر : إن تقدم عُقر ، وإن تأخر نحر .. »^(٢)

(١) ٤٨٨/٣ .

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/٢٩٢ — الأشقر : الفرس ، وهذا مثل .

الباب الثالث

يوم الجمل الأكبر

الفصل الأول

على في طريقه إلى الكوفة

سفارات ومراسلات

نرجع الآن بالحديث إلى علي بعد أن علمنا كيف تم الأمر لأصحاب الجمل منذ خروجهم من مكة حتى احتلالهم البصرة وكتابتهم بذلك إلى الأمصار.

عرفت — علي ما تقدم في ص ٩٣ — أن علياً خرج من المدينة يريد معارضة أصحاب الجمل في الطريق ، وأنهم لما فاتوه تربص بالربذة بعد أن بلغه مسيرهم إلى البصرة دون الكوفة ؛ وقد كان يخشى أن ينزلوا الكوفة ، فلما عرف طيبتهم سرى عنه وقال : « إن أهل الكوفة أشد لي حباً وفيهم رؤوس العرب وأعلامهم » .

أنته — وهو بالربذة — وفود القبائل من طيء وبكر بن وائل وأسد : تقدم إليه الطاعة وتعرض عليه الخروج معه ، فشكرهم وأثنى عليهم خيراً . ولما قدّمت جماعة طيء فقيل له : « هذه جماعة طيء قد أتتك : منهم من يريد الخروج معك ، ومنهم من يريد التسليم عليك » قال علي : « جزى الله كلاً خيراً ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » . ثم دخلوا عليه فقال علي : « ما شهدتمونا به ؟ » قالوا « شهدناك بكل ما تحب » قال : « جزاكم الله خيراً : فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين » . فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه ، وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني ، وسأجتهد والله التوفيق :

أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية ، وأقاتل عدوك في كل موطن ، وأرى لك من

الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك » ، فأجابه علي : « رحمك الله ،
قد أدّى لسانك عما يُجَنِّ ضميرك^(١) » .

لقد نزلت هذه المقابلة من نفس عليّ ، نزول العذب البارد من ذى الغلة الصادي ،
فقويت نفسه بعد أن حزّ فيها خلاف معاوية وخلاف أصحاب الجمل ، وأرسل إلى المدينة
« فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمره ، وقام في الناس فخطبهم وقال :

« إن الله عز وجل أعزنا بالإسلام ورفعنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض
وتباعد ، فجزى الناس على ذلك ما شاء الله : الإسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب إمامهم
حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزعهم الشيطان لينزع بين هذه الأمة .
ألا إن هذه الأمة — لا بد — مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شر ما هو
كائن . فقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينكم واهتدوا بهدي نبيكم صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا
سنته ، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ؛ فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردّوه ،
وارضوا بالله جل وعز رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وبالقرآن
حكماً وإماماً » .

اعتبط علي بما كان يرى في الربذة يوماً بعد يوم من إقبال الناس على أمره . ولما عزم
على الخروج من الربذة ، قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أي شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ » .

قال : « أما الذي تريد وننوي : فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابوا إليه » .

قال : « فإن لم يجيبونا إليه ؟ »

قال : « ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر » .

قال : « فإن لم يرضوا ؟ » .

قال : « ندعهم ما تركونا » .

قال : « فإن لم يتركونا ؟ » .

قال : « امتنعنا منهم » .

(١) الطبري ٣/٤٩٤ — وذكر أن سعيد بن عبيد هذا بقي مع علي حتى قتل معه بصفين .

قال : « فنعْمُ إذْنٌ ^(١) » .

وبهذا كشف علي عن خطته التي اعتزم إمضاءها وهي — كما ترى — خطة سداد ومساحة ورتق فتق .

وقام الحجاج بن غزية الأنصاري فقال : « لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول ، وأنشد :

دَرَاكِهَا حِرَاكَهَا قَبْلَ الْقَوْتِ

وَانْفَرْنَا بِهَا وَاسْمُ بِنَانَحْوِ الصَّوْتِ

لَا وَأَلْتِ نَفْسِي إِنْ هَبَّتِ الْمَوْتِ

والله لأنصرن الله عز وجل كما سمانا أنصاراً ^(١) » .

ففي جيش علي من كان يخلص له النصره ، ويحب ملء قلبه أن يلقي الخارجين عليه ، فيروى سنانه وسيفه من دماهم .

هذا وقد وصل إلى علي وهو بالربذة ، واليه على البصرة عثمان بن حنيف منتوف شعر الرأس واللحية والحاجبين — على ما علمت ص ١١٧ — فقال :

« يا أمير المؤمنين بعثني ذا لحية وجئتك أمرد ! » .

قال : أصبت أجراً وخيراً . إن الناس وليهم قبلي رجلان فعلا بالكتاب ، ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا ، ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا بيعتي وألبا علي الناس ؛ ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما علي ، والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممن قد مضى ... اللهم فاحلل ما عقدا ، ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما ، وأرها المساءة فيما قد عملا ^(٢) » .

ثم قال علي لأصحابه بندي قار : « إن هذا انطلق من عندنا وهو شيخ فرجع وهو شاب » .
تعباً علي ، وخرج من الربذة في سبعمائة وستين ، وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح ، والراية مع محمد بن الحنفية ، وعلى اليمينه عبد الله بن عباس ، وعلى اليسرة عمر بن أبي سلمة ^(٣) ، وخرج علي على ناقه له حمراء يقود فرساً كميئاً وراجز يرجز به :

(١) الطبري ٣/٤٩٤ ، ٤٩٥ — وأل : نجا .

(٢) الطبري ٣/٤٩٥ .

(٣) انظر ص ٧٩ .

سيروا أباييل وحشوا السيرا
إذ عنم السير وقولوا خيرا
حتى يلاقوا وتلاقوا خيرا
يفرزو بها طلحة والزبير^(١)

انجه على إلى ذى قار ، وكان في الطريق لا يني عن استخبار الناس عما وراءهم ، وخاصة
عن أخبار أهل الكوفة فإن أمرها مما يهيمه . يروى الطبري أنه سأل عامر بن مطر أحد
بنى شيان عما وراءه فأخبره ، حتى سأله عن أبي موسى فأجابه : « إن أردت الصلح
فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك » . فقال علي :
« ما أريد إلا الإصلاح حتى يُردّ علينا » . قال الرجل : « قد أخبرتك الخبر » وسكت علي .
وكان لما انتهت إليه حوادث البصرة وما لقي عثمان بن حنيف وحرسه ، قام فأخبر جموعه
الخبر ثم قال : « اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين ، وسلمنا منهم
أجمعين . » وعلق علي قتل أصحاب الجمل حكيم بن جبلة وإخوانه الثائرين بالخليفة
الشهيد بقوله :

« الله أكبر ، ما ينجيني من طلحة والزبير إذ أصابا ثأرهما أو ينجيهما ؟ » وقرأ :
« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتابٍ من قبل أن نبرأها^(٢) »
ثم استقر بذي قار يحكم فيها أمره ، ويحاول أن يصل إلى توحيد الكلمة عن طريق
الإقناع والنصح : بالكتب والرسل والسفارات .

(١) الطبري ٤٩٥/٣ — أباييل : جماعات ، الكميت : الأشقر .

(٢) سورة الحديد ٥٧ الآية ٢٢ .

سفارات علي ومراسلاته

(١) إلى أهل الكوفة

١ — كتب علي — وهو متربص بالربذة — إلى أهل الكوفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم :

أما بعد ، فإني اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه ^(١) »

٢ — ثم أرسل إليهم من الربذة أيضاً يستنفرهم لنصرته ، وسرح إليهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر ، وبعث إليهم بالكتاب الآتي :

« إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث ؛ فكونوا لدين الله أعواناً وأنصاراً ، وأيدونا وانهضوا إلينا ، فالاصلاح ما تريد لتعود الأمة إخواناً . ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره ، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه ^(٢) » .

فضى الرسولان إلى الكوفة ، وأتيا أبا موسى بكتاب علي واستنهضا الناس إلى الخروج إليه ونصرته ، فلم يجابا إلى شيء . وفي المساء دخل ناس من وجوه أهل الكوفة وذوى الحجى منهم على أبي موسى يستشيرونه في هذا الأمر الجديد وقالوا : « ماترى في الخروج ؟ فقال : « كان الرأي بالأمس ليس اليوم : إن الذى تهاوتم به فيما مضى هو الذى جر عليكم ما ترون وما بقى . إنما هو أمران : التعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا » وبذلك حبط مسعى الرسولين ولم ينفر أحد ، فغضب المحمدان وأغلظا لأبى موسى الكلام فقال أبو موسى : « والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما ، فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا ^(٣) » .

وبهذا أشبه مذهب أبى موسى مذهب طلحة والزبير في البعد عن المنطق : إذ ليس من

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٣ (٢) ص ٤٩٤ — وغمص النعمة : كفرانها ، وهو ضد الشكر .

(٣) ص ٤٩٧ .

المعقول أن يقام حد والناس لا إمام لهم ، فإن وجد الإمام فليس لأحد أن يستبد بأمر إلى
إلى الإمام مرده ، إلا مشورة يبذلها أو نصحاً يدل به ثم عليه الاتمار بأمر إمامه .
رجع الرسولان إلى علي فوافياه بنى قار ، وأخبراه الخبر .

٣ — لما بلغ علياً جواب أبي موسى لمحمد بن أبي بكر قال : « لقد أردت عزله
وسألني الأشر أن أقره » . وأرسل ثانية هاشم بن عتبة — وهو الذي أبلغه ما كان من أبي
موسى — إلى الكوفة لينهض الناس ، وكتب علي إلى أبي موسى :

« إني وجهت هاشماً لينهض من قبلك من المسلمين إلى ، فأشخص الناس : فإني لم
أولك الذي أنت به إلا لتكون من أعوانى على الحق » .

فلما أتى أبا موسى الرسول والرسالة دعا السائب بن مالك الأشعري يستشير ، فقال له :
« ماترى ؟ » قال مالك : « أرى أن تتبع ما كتب به إليك . » قال أبو موسى : « لكنى
لا أرى ذلك » . وأصر أبو موسى على موقفه الأول ، فلم تغن الرسالة ولا الرسول شيئاً .
وكتب هاشم إلى علي :

« إني قد قدمت على رجل غالٍ مشاق ظاهر الغل والشنان » .

٤ — لما رأى علي إخفاق السفارتين المتقدمتين وقد كان ينتظر الإجابة والنجاح ليسرع
إلى الكوفة ، كره مقام أبي موسى في هذا الأمر ، وغدا يلوم الأشر النخعي لأنه هو الذي
كان أشار عليه بإبقاء أبي موسى ويقول له : « يا أشر أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض
في كل شيء ، اذهب أنت وعبد الله بن عباس فأصلح ما أفسدت » .

فخرج عبد الله بن عباس ومعه الأشر حتى قدما الكوفة ، فكلما أبا موسى واستعانا
عليه بأناس من الكوفيين ، فلم يغير ذلك من موقف أبي موسى شيئاً . بل جمع الناس
ليحذرهم من أن يؤخذوا بدهاء ابن عباس وفصاحته ، فلما اجتمعوا خطبهم أبو موسى فقال :
« يا أيها الناس ، إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين يحبوه في المواطن أعلم بالله
عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه ، وإن لكم علينا حقاً فأنا مؤديه إليكم :
كان الرأي ألا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترأوا عليه ، وكان الرأي الثاني أن
تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا ، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة

ولا تكلفوا الدخول في هذا؛ فأما إذ كان ما كان: فإنها فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الراكب... فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد... حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة».

كان نصيب هذه السفارة نصيب ما قبلها إخفاقاً، ولم ينجع دواء من لين وحجة مع عناد أبي موسى وإصراره على مخالفة إمامه. فدعا ذلك علياً إلى الأخذ بالعلاج الحاسم، وعرف أن الحلم وسعة الصدر كثيراً ما يضيعان على صاحبهما الخزم في أموره:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدر

٥ — عزز عليّ سفارته الثلاث بسفارة رابعة، فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر إلا أنه أرسل معهما عزل أبي موسى عن ولاية الكوفة، وولى عليها قرظة بن كعب الأنصاري ومعه هذا الكتاب إلى أبي موسى:

«أما بعد، فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل الله لك منه نصيباً يمنعك من رد أمري. وقد بعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر يستنفران الناس، وبعثت قرظة بن كعب والياً على مصر، فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً، فإن لم تفعل فإنني قد أمرته أن يباذلك؛ فإن نابذته وظفر بك: أن يقطعك آراباً^(١)».

ويظهر أن أبا موسى لم يعتزل العمل بسهولة: لم يعتزله حتى نهب متاعه واقتحم قصره وكاد يبطش به.

أقبل الرسولان حتى دخلا المسجد، فتذاكراهما وأبو موسى وغيرهم الأمور على رؤوس الأشهاد ودفع بعض حجة بعض، وكان موقف أبي موسى هذه المرة أليناً قليلاً وإن لم يغير نصحه للجاهير:

كان أول من أتى الرسولين مسروق بن الأجدع، فسلم عليهما وأقبل على عمار بن ياسر — وعمار ممن أوضع في فتنة عثمان — فقال له: «يا أبا اليقظان، علام قتلتم عثمان؟» قال: «على شتم أعراضنا وضرب أبقارنا». فقال: «والله ما عاقبتكم بمثل ما عوقبتم به، ولئن

(١) الطبري ٣ / ٥١٢ ونص كتاب العزل عند السعودى: «اعتزل عملنا يا بن الحائد مذموماً مدحوراً فما هذا أول يومنا منك، وإن لك فيها لهفات وهنيات». — صروج الذهب ٦/٢.

صبرتم لكان خيراً للصابرين . فخرج أبو موسى فضم إليه الحسن وأقبل على عمار قائلاً :
« يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحلت نفسك مع الفجار ؟ » قال
عمار : « لم أفعل ولم تسؤني » . فقطع عليهما الحسن فأقبل على أبي موسى يقول :
« لم تثبط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح ، وما مثل أمير المؤمنين يخاف على
شيء » .

فقال : « صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن : سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول : (إنها ستكون فتنة : القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ،
والماشي خير من الراكب) وقد جعلنا الله عز وجل إخوانا ، وحرّم علينا أموالنا
ودماءنا وقال :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ
منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً)^(١) وقال : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه
جهنم »^(١)

فغضب عمار وساءه كلام أبي موسى وقام فقال : « أيها الناس إنما قال له خاصة : أنت
فيها قاعداً خير منك قائماً » .

وقام رجل من بني تميم فقال : « اسكت أيها العبد ، أنت أمس مع الغوغاء واليوم
تسافه أميرنا ؟ » .

وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار الناس ، وجعل أبو موسى يكفكف الناس ، ثم
انطلق حتى أتى المنبر وسكن الناس .

وأقبل زيد بن صوحان على حمار حتى وقف بباب المسجد ومعه الكتابان من عائشة
إليه وإلى أهل الكوفة ، فأقبل ومعه كتاب العامة وكتاب الخاصة ، كتاب العامة : « أما
بعد فثبطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان . » فلما فرغ من
الكتاب قال :

(١) سورة النساء ٤ الآيتان ٢٨ ، ٩٢ .

« أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت بأن تقر في بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ؛ فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا به . !! »

فقام إليه شبت بن ربي فقال : « يا معاني ، سرقت بجلولاء فقطعك الله ، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله . والله ما أمرت إلا بما أمر الله عز وجل به : بالإصلاح بين الناس »
وثار الشعب وتدافع الناس فوقف أبو موسى يخطب :

أيها الناس أطيعوني تكونوا جرنومة من جرائم العرب : يا أباي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف . إنا معشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا : إن الفتنة إذا أقبلت شبت ، وإذا أدبرت ينت . إن هذه الفتنة باقرة كداء البطن : تجرى بها الشمال والجنوب والصباء والدبور ، فتسكن أحياناً فلا يدري من أين تأتي ، تذر الحليم كابن أمس . شيموا سيوفكم ، وقصدوا رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزمو بيوتكم . خلوا قريشاً — إذ أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمرة — ترق فتقها وتشعب صدعها ، فإن فعلت فلا نفسها سعت ، وإن أبت فعلى أنفسها جنت : سمها شريق في أديمها . استنصحنوني ولا تستغشوني ، وأطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها^(١) »

فقام زيد فسال يده المقطوعة وقال :

« يا عبد الله بن قيس (اسم أبي موسى) ردّ الفرات عن دراجه ، اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ ؛ فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ، فدع عنك مالست مدركه . » ثم قرأ : (الم . أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) .^(٢) سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين ، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق . »

(١) الطبرى ٣ / ٤٩٨ — فتنة باقرة : صادعة للألقة مفرقة للكلمة ، محيرة — الصبا : ريح

تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار — الدبور : ريح تقابل الصبا في مهبها . شيموا : أغمدوا

قصدوا : كسروا . تشعب : تلام وتصلح . الصدع : الشق

(٢) سورة العنكبوت ٢٩ الآيات ١ — ٣ .

فأثر كلامه في الناس ، ورفع أنصار عليّ رؤوسهم قليلاً ، ثم وقف متكلم آخر هو القمقاع بن عمرو فقال :

« إني لكم ناصح وعليكم شفيق أحب أن ترشدوا ، ولأقولن قولاً هو الحق :

أما ما قال الأمير — يعني أبا موسى — فهو الأمر لو أن إليه سيلاً ، وأما ما قال زيد فزيد في هذا الأمر [يعني اشتراكه في فتنة عثمان] فلا تستنصحوه فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طمن فيها وجرى إليها . وإن القول الذي هو القول : أنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم ، وهذا عليّ يلي بما ولى ، وقد أنصف في الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع . »

وتتابع أشيعاء على يستنفرون : قام سيحان فقال :

أيها الناس إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس ، وهذا واليكم يدعوكم لِيُنظَر فيما بينه وبين صاحبيه ، وهو المأمون على الأمة ، الفقيه في الدين ؛ فمن نهض إليه فإنا سائرون معه . »

فتكلم عمار وقد قام الحسن في أعلى المنبر وعمار في أسفل منه — فقال : « إن عائشة قد سارت إلى البصرة ، إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم إياه تطيعون أم هي . »^(١)

وقال أيضاً : « هذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنفركم إلى زوجة رسوله وإلى طلحة والزبير ، وإني أشهد أنها زوجته في الدنيا والآخرة فانظروا ثم انظروا في الحق فقاتلوا معه . » فقال له رجل : « يا أبا اليقظان ، إن الحق لمع من شهدت له بالجنة علي من لم تشهد له »^(٢) .

حينئذ قال الحسن : « اكفف عنا يا عمار فإن للإصلاح أهلاً » ثم قام خطيباً في الناس فقال :

(١) تيسير الوصول ٤ / ٣٠ وقال : أخرجه البخاري ، والسمط الثمين ص ٣٤ عن الترمذي إلا أن آخره هنا : « لتبعوه أو إياها »

(٢) يريد أن الحق مع عائشة على علي . وانظر كلام الإمام ابن حزم في رسالة المفاضلة بين الصحابة تطبيقاً على هذا الخبر ص ٢٢٧ من كتابنا (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة)

« أيها الناس ، أجيئوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه . والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا ، وأعينونا على ما ابتليتم به وابتلينا . » فتسامح الناس وأجابوا ، ورضوا به .

بذلك نجحت هذه السفارة واستجابت لها الجماهير والرؤوس : نفرت إلى عليّ طيياً بأمر عدى بن حاتم ، ونهض كذلك هند بن عمرو وحجر بن عدى وسادات الناس وقالوا خيراً ؛ حتى الذين لم يرضوا عن أحد الرسولين عمار بن ياسر وردوا عليه أقبح الرد ، ما وسعهم إلا إجابة الحسن إلى ما استنفرهم إليه :

ذكر الطبري أن قوماً من طيياً أتوا عدياً فقالوا : « ماذا ترى وماذا تأمر ؟ » فقال : « ننتظر ما يصنع الناس » فأخبر بقيام الحسن وكلام من تكلم فقال :

« قد بايعنا هذا الرجل وقد دعانا إلى جميل وإلى هذا الحدث العظيم لننظر فيه ، ونحن سائرون وناظرون » .

وقام هند بن عمرو فقال : « إن أمير المؤمنين قد دعانا وأرسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه ؛ فاسمعوا إلى قوله واتهوا إلى أمره ، وانفروا إلى أميركم فانظروا معه في هذا الأمر وأعينوه برأيكم » .

وقام حجر بن عدى فقال : « أيها الناس أجيئوا أمير المؤمنين ، وانفروا خفاً وثقلاً ، مروا وأنا أولكم » .

عندئذ قام الأشتر فذكر الجاهلية وشذبتها ، والإسلام ورخاءه ، وذكر عثمان بن عفان .. فقاطعه المقطع العامري بقوله : « اسكت قبحك الله ، كلب خلى والنباح . » فثار الناس فأجلسوه ، وقام المقطع فقال : « إنا والله لا نحتمل بعدها أن يبعث أحد بذكر أحد من أمتنا ؛ وإن علينا عندنا لمتنع . . . فأقبلوا على ما أحثناكم . » فقال الحسن : « صدق الشيخ » .

أعلن الحسن بعد هذا في الناس :

« أيها الناس ، إني غاد ، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظاهر (الدواب) ، ومن

شاء فليخرج في الماء . فنفر معه تسعة آلاف ، فأخذ منهم البر ستة آلاف ، وأخذ منهم الماء ألفان وثمانمائة ، وعلى كل سبع رجل (١) .

تخية أبي موسى فسرا

بعد أن أخذت الحوادث مجراها على ما رأيت ، وقف رجل اسمه عبد خير يناقش أبا موسى على موقفه فقال له : « يا أبا موسى ، هل كان هذان الرجلان (يعني طلحة والزبير) ممن بايع علياً ؟ » قال : « نعم » قال : « هل أحدث على حدثاً يحل به نقض بيعته ؟ » قال « لا أدري . » قال : « فإننا تاركوك حتى تدرى . يا أبا موسى ، هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التي تزعم أنها فتنة ؟ إنما بقي أربع قرون (فرق) : عليّ بظهر الكوفة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز : لا يجيء بها فيء ولا يقاتل بها عدو . » فقال أبو موسى : « أولئك خير الناس وهي فتنة . » فقال عبد خير : « يا أبا موسى غلب عليك غشك » .

هذا مبلغ ثبات أبي موسى على رأيه ومجادلته عنه حتى في أخرج المواقف ، وقد انقلبت الجماهير مع علي ، فلم يكن بد إذن من إزالة هذا العناد بالعنف :

كان الأشر قد طلب إلى علي أن يرسله على أثر عمار والحسن قائلاً : « إن أهل المصر أحسن شيء لي طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت ألا يخالفني منهم أحد . . » فقال له : « الحق بهم » فأقبل حتى دخل الكوفة وقد اجتمع الناس في المسجد الأعظم ، ولما رأى جدال أبي موسى وحجابه « جعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلا دعاهم ويقول : (اتبعوني إلى القصر) . . . فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس ، فاقتم القصر فدخله ، وأبو موسى قائم في المسجد يخطب الناس ويثبطهم قائلاً :

« أيها الناس ، إن هذه فتنة عمياء صماء ، تطأ خطامها ، النائم فيها خير من القاعد . . الخ » — على ما سر بك ، وقد نفذ صبر حزب علي — وعمار يخاطبه والحسن يقول له : « اعتزل عملنا لا أم لك ، وتنح عن منبرنا » . . . وعمار يقول له : « غلب الله

من غالبه وجاحده » ... فبينما هم على ذلك في المسجد ، إذ خرج غلمان أبي موسى يشتدون
ينادون : « يا أبا موسى هذا الأشرق قد دخل القصر فضر بنا وأخرجنا .. » فنزل أبو موسى
فدخل القصر ، فصاح به الأشرق : « اخرج من قصرنا لا أم لك ، أخرج الله نفسك ،
فوالله إنك لمن المنافقين قديما .. » قال : « أجاني هذه العشية » فقال : « هي لك ولا تبتين
في القصر الليلة . » ودخل الناس يتهبون متاع أبي موسى ، فمنعهم الأشرق وأخرجهم من
القصر وقال : « إني قد أخرجته . » فكف الناس ^(١) .

[Faint, illegible handwritten text, likely bleed-through from the reverse side of the page.]

(١) الطبري ٣ / ٥٠١ .

الفصل الثاني

(ب) سفارات على إلى أصحاب الجمل وأهل البصرة

وإني جموع أهل الكوفة علياً بندي قار ، فاستقبلهم في أناس من وجوه أصحابه فيهم ابن عباس ، فرحب بهم وأثنى عليهم ثم خطب فيهم فقال :

« الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين .

أما بعد ، فإن الله بعث محمداً إلى الثقيلين كافة والناس في اختلاف ، والعرب بشر المنازل ، مستضعفون لما بهم ، فرأب به الثأى ، ولأم به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأمن به السبل ، وحقق به الدماء وقطع به العداوة الواغرة للقلوب ، والضغائن المحشنة للصدور ، ثم قبضه الله تعالى مشكوراً سعيه ، مرضياً عمله ، مغفوراً ذنبه ، كريماً عند الله نزلُهُ ، فيالها مصيبة عمت المسلمين ، وخصت الأقربين ، وولى أبو بكر فسار بسيرة رضى رضى بها المسلمون ، ثم ولى عمر فسار بسيرة أبي بكر (رضى الله عنهما) ثم ولى عثمان فنال منكم ونلت منكم ، ثم كان من أمره ما كان : أتيتموه فقتلتموه ، ثم أتيتموني فقتلتكم : « لو بايعتنا » فقلت : « لا أفعل » وقبضت يدي فبسطتموها ، ونازعتكم كفي فحذبتموها وقتلتكم : « لا ترضى إلا بك ولا تجتمع إلا عليك » وتراكم على تراكم الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ... حتى ظننت أنكم قاتلي وأن بعضكم قاتل بعضا . فبايعتموني وبايعنى طلحة والزبير ، ثم ما لبثنا أن استأذنا إلى العمرة ، فسارا إلى البصرة فقاتلنا بها المسلمين وفعلا بها الأفاعيل ، وما يعلمان — والله — أنى لست بدون من مضى ، ولو شاء الله أن أقول لقلت . اللهم إنهما قطعا قرابتي ، ونكثنا بيعتي ، وألبا على عدوى ؛ اللهم فلا تحكم ما أبرما ، وأرها المساءة فيما عملا^(١) .

ثم أعلن خطته لهم ، ونفرتة من القتال ، ورغبته في الإصلاح والعافية . وكان فيما قال لهم :

(١) العقيد الفريد ٣ / ٩٧ — رأب الثأى : أصلح الفساد ، الواغرة : المتوقدة غيظاً . الهيم : العطاش .

« يا أهل الكوفة ، أتم وليتم شوكة العجم وملوكها ، وفضضتم جمعهم حتى صارت إليكم موارثهم ، فأغنيتم حوزتكم ، وأعنتم الناس على عدوكم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة : فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجؤا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدوونا بظلم ؛ ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله » .

وهذا غاية ما يفعله رجل يهوى السلامة ويجتهد لها مع القدرة القادرة على الإيقاع بمخالفه . فقد اجتمع لديه بذى قار — على ما يقول الطبرى — سبعة آلاف ومئتان سوى من كان في الماء وهم أكثر من ألفين ، وكانت قبائل عبد القيس التي خرجت من البصرة مغاضبة لأصحاب الجمل — على ما رأيت ص ١٢٢ — مرابطة في الطريق بين ذى قار والبصرة : تنتظر مرور على بهم ليكونوا معه وهم آلاف^(١) . وإليك الآن سفارات على إلى أصحاب الجمل .

١ — عزّز على مساعيه في سبيل الإصلاح بمسعى جديد ، حين أرسل إلى أهل البصرة القعقاع بن عمرو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سفيراً بينه وبينهم ، وكان مما قاله له :

« ألق هذين الرجلين يا بن الحنظلية ، فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظّم عليهما الفرقة . » ولم يزد على هذه الكلمات الجامعات ، وترك لسفيره أن يُحكّم الأمر على ما يرى . وقد كان على موقفاً كل التوفيق باختياره ، ومع هذا أراد أن يستوثق فسأله :

« كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ »

فقال : « نلقاهم بالذى أمرت ؛ فإن جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا وكلناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . » فقال له على : « أنت لها » .

خرج القعقاع حتى قدم البصرة ، فبدأ بعائشة فقال لها : « أى أمته ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ » قالت : « أى بنى : إصلاح بين الناس » قال : « فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامي وكلامهما » فبعثت إليهما فجاء فقال لهما :

« إني سألت أم المؤمنين : ما أشخصها ؟ فقالت : (إصلاح بين الناس) ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان » ؟ قالا : « متابعان » .

قال : « فأخبراني : ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح » .

قالا : « قتلة عثمان رضى الله عنه ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن » .

فقال : « قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب من الاستقامة منكم اليوم : قتلتم ستمائة رجل إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذى أفلت (يعنى حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولان ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا^(١) عليكم فالذى حذرتهم وقربتهم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون . وأنتم أحيتهم مضرور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصره لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير » .

فقالت أم المؤمنين : « فتقول أنت ماذا ؟ »

فقال وفي قوله بصر بعيد ونصح رشيد وحكمة كبيرة : « أقول : هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا ؛ فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بئار هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ؛ وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه^(٢) كانت علامة شر ، وذهاب هذا الثأر ، وبعثة الله فى هذه الأمة هزاهرها^(٣) . فأثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم . وإيم الله إني لأقول هذا وأدعوك إليه وإني لخائف الأيتام حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها ما نزل ؛ فإن هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر ، وليس كالأمر ، ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا النفر الرجل ، ولا القبيلة الرجل^(٤) » .

(١) أديلوا : تغلبوا . اعتساف الطريق : الحبط فيه على غير هدى والضلال عن الطريق . الهزاهن : الشدائد . (٢) الطبرى ٣ / ٥٠٣ .

كان لهذه الحكمة ينفثها القمعاع عن قلب غيور وإخلاص متقد ، أثرها المطلوب في نفوس المستمعين عائشة وطلحة والزبير فمن دونهم ، فقالوا :

« نعم إذن ، قد أحسنت وأصبت ، فارجع فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر » .

وقد تمت هذه السفارة على أحسن ما تمت عليه سفارة : إخلاص نصيح ، وتهديداً برفق ، ونجحاً في النهاية .

٢ — أقبلت وفود أهل البصرة من تميم وبكر — والقمعاع لما يعد من سفارته — نحو على بنى قار : يريدون أن ينظروا : مارأى إخوانهم من أهل الكوفة ؟ وعلى أى حال نهضوا إليهم ؟ وليعلموهم أن الذى عليه رأيهم الإصلاح ولا يخطر لهم القتال على بال . فلما لقوا عشائرم من أهل الكوفة بالذى بهمهم فيه عشائرمهم من أهل البصرة ، قال لهم الكوفيون مثل مقاتهم ، وأدخلوهم على عليّ فأخبروه خبرهم ^(١) .

٣ — اختلفت الوفود بين البصريين والكوفيين ، وقد حفظ لنا الطبرى وفادة طريفة ابتدأها برؤيا كان رآها أحد الوافدين فتحققت الآن ، فهو يقص كيف تحققت ثم يتخلص إلى ذكر وفادته ، ونحن نسوق إليك حديثها كما فى الطبرى ^(١) .

« قال كليب الجرمى :

رأيت فيما يرى النائم فى زمان عثمان بن عفان : (أن رجلا يلى أمور الناس مريضاً على فراشه وعند رأسه امرأة ، والناس يريدونه وبهشون ^(٢) إليه ، فلو نهتهم هذه المرأة لاتهموا ، ولكنها لم تفعل ، فأخذوه وقتلوه) . فكننت أقص رؤياى على الناس فى الحضر والسفر فيعجبون ولا يدرون : ما تأويلها . فلما قتل عثمان ، أتانا الخبر ونحن راجعون من غزاتنا ، فقال أصحابنا : « رؤياك يا كليب » . فانتهينا إلى البصرة فلم نلبث إلا قليلا حتى قيل : « هذا طلحة والزبير معهما أم المؤمنين » . فراع ذلك الناس وتعجبوا ... فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضباً لعثمان وتوبة مما صنعوا من خذلانه ، وإن أم المؤمنين تقول : « غضبنا لكم على عثمان فى ثلاث : « إمارة الفتى وموقع الغامة وضربة السوط والعصا ؛ فما أنصفنا إن لم تغضب له عليكم فى ثلاث جررتوها إليه : حرمة الشهر والبلد والدم » . فقال الناس ألم تبايعوا علياً وتدخلوا فى أمره ؟ » فقالوا : « دخلنا والنج على أعناقنا » ... وقيل : « هذا على قد أظلمكم » فقال قومنا لى ولرجلين معى : « انطلقوا حتى تأتوا علياً وأصحابه فسلوهم عن هذا الأمر الذى اختلط علينا . » فخرجنا ... حتى إذا دنونا من العسكر طلع علينا رجل جميل على بغلة فقلت لصاحبي : « أرايت المرأة التى كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس الوالى ؟ إنها أشبه الناس بهذا » ففطن أنا نخوض فيه ؛ فلما

(١) الطبرى ٣/ ٥٠٤ — ٥٠٦

(٢) بهش بيده إليه : مدها ليتناوله — القاموس .

انتهى إلينا قال : « قفوا ، ما الذى قلم حين رأيتونى ؟ » فأبينا عليه ، فصاح بنا وقال : « والله لا تبرحون حتى تجربوني » فدخلتنا منه هيبة فأخبرناه ، فجاوزنا وهو يقول : « والله لقد رأيت عجبا ! » فقلت لأذى العسكر إلينا : « من هذا ؟ » فقال : محمد بن أبى بكر « فعرفنا أن تلك المرأة عائشة رضى الله عنها ، فازددنا لأمرها كراهية (١) .

اتهبنا إلى على ، فسلطنا عليه ثم سألناه عن هذا الأمر فقال :

« عدا الناس على هذا الرجل يعنى (عثمان بن عفان) وأنا معتزل فقتلوه ، ثم ولونى وأنا كاره ، ولولا خشية على الدين لم أجهم . ثم طفق هذان (طلحة والزبير) فى النكث ، فأخذت عليهما وأخذت عهدهما عند ذلك ، وأذنت لهما فى العمرة ، فقدمتا على أمهما حليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضيا لها مارعبا بنسأتهما عنه ، وعرضاهما لما لا يحل لهما ولا يصلح ، فاتبعتهما لكيلا يفتقوا فى الإسلام فتقاً ولا يخرقوا جماعة . »

ثم قال أصحابه : « والله ما نريد قتالهم إلا أن يقاتلوا ، وما خرجنا إلا للإصلاح . » فصاح بنا أصحاب على : « بايعوا » فبايع صاحبى ، وأما أنا فأمسكت وقلت : « بعثنى قوماً لأمر فلا أحدث شيئاً حتى أرجع إليهم » فقال على : « فإن لم يفعلوا ؟ » فقلت : « لم أفعل . » فقال : « رأيت لو أنهم بعثوك رائداً ، فرجعت إليهم فأخبرتهم عن الكلاء والماء ، فمالوا إلى المعاطش والجدوبة : ما كنت صانعاً ؟ »

قلت : « كنت تاركهم ، ومخالفهم إلى الكلاء والماء . » قال : « فمد يدك » فوالله ما استطعت أن أمتنع ، فبسطت يدي فبايعته (٢) وسألنى على : « ما سمعت من طلحة والزبير ؟ » فقلت : « أما الزبير فإنه يقول : « بايعنا كرها » وأما طلحة فقبل على أن يتمثل الأشعار ويقول :

(١) هذا الخبر كبير الدلالة على الوجهة التى اتجه إليها الرأى العام فى إلقاء تبعة الحوادث على السيدة عائشة . وسواء أوقعت هذه الرؤيا أم لم تقع إن شيعوع هذا الخبر منذ زمن الحوادث حتى زمن الطبرى كاف فى تصوير (نفسية الجماهير) وموقفها من حوض السيدة عائشة فى خضم السياسة . وما أجدر المؤرخ أن يكثر الوقوف والتأمل عند مثل هذه الأخبار وتناقضها : فليس أقوى منها فى الدلالة على ما يختلج فى النفوس على غير وعى منها من أحكام وجدانية ، حين لا يعلكون من تفاصيل الحوادث ما يسعفهم على إصدار الأحكام منطقية ، ويقنع حدسهم (وشعورهم اللاواعى) باتجاه خاص فيعبرون عنه بالرؤى والأحلام أو بتناقضها لما فيها من نصرة لما قر فى نفوسهم من رأى أو عقيدة .

(٢) كان هذا المحدث يشهد بعدها : « أن علياً من أدهى العرب . »

ألا أبلغ بني بكر رسولا
فليس إلى بني كعب سبيل
سيرجع ظلمكم منكم عليكم
طويل الساعدين له فضول
فقال علي : « ليس كذلك ، ولكن :

ألم تعلم أبا سمان أنا
نرد الشيخ مثلك ذا الصداع
ويذهل عقله بالحرب حتى
يقوم فيستجيب لغير داع
فدافع عن خزاعة جمع بكر
ومابك يامراقة من دفاع^(١)

ثم سار علي حتى نزل إلى جانب البصرة ، وقد خندق طلحة والزبير ، فقال لنا أصحابنا من أهل البصرة : « ماسمعتم إخواننا من أهل الكوفة يريدون ويقولون « ؟ فقلنا : « يقولون : خرجنا للصلح وما نريد قتالا » ا هـ

الإشراف على الصلح :

رجع القعقاع إلى علي بجواب طلحة والزبير وعائشة ، فسرى عنه وأيقن بالعافية وجمع الكلمة . ثم قام عليّ على الغرائر يخطب ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة ، وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ، ثم الذي يليه ثم الذي يليه ، ثم حدث هذا الحدث الذي جره علي هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أديبارها ، والله بالغ أمره ومصيب ما أراد ... ثم قال :

« ألا وإني راحل غداً فارتحلوا ، ألا لا يرحلن غداً أحد أعان علي عثمان بشيء وليُفَنِّ السفهاء عنى أنفسهم^(٢) »

وعلى هذه الرغبة نفسها في الصلح والإصلاح بات أصحاب الجمل ، ولم يستمعوها إلى من

(١) ذكر الطبري أيضاً (٣ / ٥٠٤) أن علياً سأل جرير بن شرس عن طلحة والزبير فأخبره عن دقيق أمرهما وجلبه وروى له تمثل طلحة بهذين البيتين والظاهر أنه كان كثير السؤال عنهما .

(٢) الطبري ٣ / ٥٠٧ — لقد فطن علي إلى عامل هام من عوامل الفتنة وهو حسد الرعاع أهل الغنى . وذلك من أقوى الحوافز على الثورات .

كان يحرض على قتال . ومن المفيد أن ننقل لك حواراً بين الزبير نفسه وأحد هؤلاء المتحمسين لتعرف إخلاص القوم في الرغبة في الصلح :

قام أبو الجرباء إلى الزبير بن العوام فقال :

« إن الرأى أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل (يعنى علياً) أو يصبحوه قبل أن يوافي أصحابه »

فقال الزبير — وهو الذى تمنى قبل ذلك ألف فارس يقتل بهم علياً على ما مر بك ص ١٢٤ — :

« يا أبا الجرباء ، إنا نعرف أمور الحرب ولكنهم أهل دعوتنا ، وهذا أمر حدث فى أشياء لم تكن قبل اليوم ؛ هذا أمر : من لم يلق الله عز وجل فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة ، ومع ذلك إنه قد فارقنا وافدهم على أمر ، وأنا أرجو أن يتم لنا الصلح فأبشروا واصبروا^(١) . »

ثم جاء صبرة بن شيان فقال :

« يا طلحة ، يا زبير ، اتهمنا بنا هذا الرجل ، فإن الرأى فى الحرب خير من الشدة^(١) » فقال : « يا صبرة ، إنا وهم مسلمون ، وهذا (يريد الثأر لعثمان) أمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه قرآن أو يكون فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ، إنما هو حدث . وقد زعم قوم أنه لا ينبغي تحريكه اليوم ، وهم على ومن معه ؛ فقلنا نحن : (لا ينبغي أن نتركه اليوم ولا تؤخره) فقال على : (هذا الذى ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم : شر ، وهو خير من شر منه ... وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعمها منفعة وأحوطها » .

وكذلك أقبل كعب بن سور يحرض طلحة والزبير ومن معهما على مبادرة القتال فأجابوه . « يا كعب ، إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا وهو أمر ملتبس . لا والله ما أخذ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مذبح الله عز وجل نبيه طريفاً إلا علمنا أين مواقع أقدامهم ... حتى حدث هذا ، فإنهم لا يدرون : أمقبولون هم أم مدبرون ؟ إن الشئ

(١) الطبرى ٣/ ٥٠٨ و ٥٠٩

يحسن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا ، فإذا كان من الغد قبح عندنا وحسن عندهم . وإنا
لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة ، ثم يحتجون بمثلها علينا . ونحن نرجو الصلح إن
أجابوا إليه وتموا ، وإلا فإن آخر الدواء السكى^(١) »

كثير جدال الناس من الفريقين لزعمائهم في هذا الأمر ، ومن الحق أن نعرض صورة
لرغبة علي ، مثل هذه التي تقدمت لأصحاب الجمل ، تمثل رغبته المخلصة في السلامة وإيثار العافية :
سأله الأعور المنقري في جماعة من أهل الكوفة عن سبب إقدامهم فقال علي :
« على الإصلاح وإطماء النائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ، ويضع حربهم ،
وقد أجاوبني »

قال : « فإن لم يجيبونا ؟ » قال : « تركناهم ما تركونا »

قال : « فإن لم يتركونا » قال : « دفعناهم عن أنفسنا »

قال : « فهل لهم مثل ما عليهم من هذا ؟ » قال : « نعم »

ونهبض إليه أبو سلامة الدالاني فقال : « أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا

الدم إن كانوا أرادوا الله عز وجل بذلك ؟ » قال : « نعم »

قال : « فترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ » قال — وأرجو أن تمنع في جوابه — :

« نعم ، إن الشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعاً^(١) . »

ومثل علي عن قتلى الفريقين إن لم يتم الصلح فكان جوابه :

« إني لأرجو ألا يقتل أحد نقي قلبه لله منا ومنهم إلا أدخله الله الجنة^(١) »

ولما كثر السؤال والجدال ، خشى على استرسال الناس إلى أهوائهم الجاحمة فأراد أن

يفرغ على قلوبهم السكينة والرغبة في العافية فخطبهم قائلاً :

« يا أيها الناس ، املكوا أنفسكم ، وكفوا أيديكم وأسننكم عن هؤلاء القوم فإنهم

إخوانكم ، واصبروا على ما يأتيكم . وإياكم أن تسبقونا فإن المحصوم غداً من خصم اليوم^(١) »

لقد كانت منازع الزعماء من الفريقين متحدة في رغبة انصلح وكره القتال طمعاً في

العافية وإيثاراً للسلامة وخوفاً لله عز وجل .

نزول على البصرة :

ارتحل على بمجموعه نحو البصرة ، وقد وقف له الناس بالطريق يريدون الانضمام إليه ، ولم يصل البصرة حتى تكامل جيشه بمن انضم إليه : عشرين ألفاً ، ورايته مع ابنه محمد بن الحنفية ، وعلى ميمنته ابنه الحسن ، وعلى ميسرته ابنه الحسين حتى إذا أطل على القوم بعث إليهم مع حكيم بن سلامة ومالك بن حبيب :

« إن كنتم على ما فارقتم عليه التعقاع بن عمرو فكفوا ، وأقرونا نزل وننظر في هذا الأمر^(١) » فأرسل إليه أصحاب الجمل : « إنا على ما فارقنا عليه التعقاع فاقدم »

فقدم على حتى نزل على الزاوية ، ونزل طلحة والزبير في الزابوقة وقد نزلت مضر جميعاً ونزلت فوقهم ربيعة جميعاً ، ونزلت أسفل منهم اليمن جميعاً : لا يشكون أن الأمر آخذ بالانقشاع وأن الكلمة إلى اجتماع .

وكان أهل البصرة فرقتين : فرقة مع طلحة والزبير وهي الغالبة ، وفرقة مع علي ، وفرقة لا ترى القتال مع أحد من الفريقين ؛ ومن هؤلاء الأحنف بن قيس أحد سادات البصرة ولعله أدهى هؤلاء على الإطلاق ، وقد علمت موقفه من أصحاب الجمل ص ١٢٣ . قدم الأحنف ومعه بنو سعد مشمرين قد منعوا — كما علمت — حرقوص بن زهير أن يناله أحد من أصحاب الجمل بسوء ، وهم لا يرون القتال مع أحد الفريقين ؛ قدموا على علي فقال الأحنف لعلي :

« يا علي ، إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً : أنك تقتل رجالهم وتسي نساءهم »

فقال علي : « ما مثلي يخاف هذا منه ، وهل يحل هذا إلا من تولى وكفر ؟ ألم تسمع إلى قول الله عز وجل : (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ^(٢)) وهم قوم مسلمون ؛ هل أنت مغن عن قومك ؟ »

قال : « نعم ، واختر مني واحدة من اثنتين : إما أن أكون معك بنفسي ، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف » فسأله علي : « كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ »

(١) الصفحة السابقة .

(٢) سورة الفاشية ٨٨ الآيات ٢٢ ، ٢٣ .

قال: « إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم » فقال علي: « كفَّ من قدرت على كفه ». .
رجع الأحنف من عند علي فلقبه من قومه هلال بن وكيع فسأله: « ما رأيك؟ » قال
الأحنف: « الاعتزال، فما رأيك؟ »

قال هلال: « نصره أم المؤمنين: أفتدعنا وأنت سيدنا؟ »
قال الأحنف: « إنما أكون سيدكم غداً إذا قُتِلتَ وبقيتُ »
فقال هلال: « هذا وأنت شيخنا؟! » فقال: « أنا الشيخ المعصي وأنت الشاب المطاع »
ثم أقبل الأحنف ونادى: « يا آل زيد، اعتزلوا هذا الأمر وولوا هذين الفريقين
كَيْسَه وعجزه (يريد صوابه وخطأه) ^(١) »

فقام المنجاب بن راشد فقال: « يا آل الرباب، لا تعزلوا واشهدوا هذا الأمر، وتولوا
كَيْسَه » فأجابوه .

وقام أبو الجرباء فقال: « يا آل عمرو، لا تعزلوا هذا الأمر، وتولوا كَيْسَه ». .
وعلى هذا اعتزل الأحنف إلى (وادي السباع ^(٢)) ومعه بنو سعد؛ ونهض المنجاب
لنصرة عائشة على رأس قومه بني الرباب وبني ضبة، وانضم أبو الجرباء على رأس بني عمرو
إلى أصحاب الجمل أيضاً، وكذلك هلال بن وكيع على حنظلة .

وعلى هذه الوتيرة انقسمت بقية القبائل، كل فرقة تتبع رئيس فرقها: منهم إلى القتال
ومنهم إلى الاعتزال. حتى الأزدي وهي من أشد القبائل نصرة لعائشة، كان فيها من مال
إلى الاعتزال إما إشاراً للسلامة وإما عن اجتهاد، فقد جاء كهب بن سور إلى صبرة بن
شيمان سيد الأزدي ينصحه قائلاً:

(١) زاد الطبري: فلم يبق سعدي إلا أجا به، فاعتزل بهم ثم نظر ما يصنع الناس... فلما وقع
القتال وظفر على جاؤوه وافريرين، فدخلوا فيما دخل فيه الناس — ٥١٠/٣ .

(٢) ويروي الطبري أن الأحنف غدا على طلحة والزبير فقال لهما: « والله لا أقاتلكم ومعكم أم
المؤمنين وحواري رسول الله، ولا أقاتل رجلا ابن عم رسول الله أمرتوني ببيعته؛ اختاروا مني واحدة
من ثلاث: إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضى الله غزى وجبل من أمره ما قضى،
أو ألحق بمكة فأكون فيها حتى يقضى الله من أمره ما قضى، أو أعتزل فأكون قريباً ». قالوا: « إنا
نأتمر ثم نرسل إليك ». فآتمروا فقالوا: « نفتح له الجسر ونجبرهم بأخباركم؟ ليس ذاكم برأى. اجعلوه
ها هنا قريباً حيث تطؤون على صماخه وتنظرون إليه ». فاعتزل بالجلعاء علي فرسخين من البصرة، فاعتزل
معه ستة آلاف — ٥١١/٣

« إن الجوع إذا تراءوا لم تستطع ، وإنما هي بحور تدفق ، فأطعني ولا تشهدهم ، واعتزل بقومك ، فإني أخاف ألا يكون صلح وكن وراء هذه النطفة^(١) ودع هذين الفارين^(٢) من مضر وربيعة فهما أخوان : فإن اصطلحا فالصلح أردنا ، وإن اقتتلا كنا حكاماً عليهم غداً » .

فأجاب صبرة بعزيمة : « أخشى أن يكون فيك شيء من النصرانية (وكان كعب في الجاهلية نصرانياً) أنا مرنى أن أعيب عن إصلاح بين الناس وأن أخذل أم المؤمنين وطلحة والزبير إن ردوا عليهم الصلح وأدع الطلب بدم عثمان ؟ لا والله لا أفعل ذلك أبداً » فطبق أهل اليمن على الحضور وخسرت دعوة كعب إلى الاعتزال .

لقد كان من الممكن أن يكون لهذه الدعوات الاعتزالية أثر لو أن عائشة لم تكن مع أصحاب الجمل ، فقد كان وجودها أقوى ما أحى أنوف هؤلاء السادات ، إنهم يريدون نصرتها مهما كلفهم الأمر ، إنهم ضربوا بهذه الدعوات — على سدادها وخيرها — عرض الحائط مراعاة لتمامها وقياماً بحقوقها :

أرسل عمران بن الحصين كبير بني عدى رسولا إلى قومه ، وأمره أن ينادى على باب مسجدهم — وهم أجمع ما يكونون — قائلا :

« أرسلني إليكم عمران بن الحصين صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقرأ عليكم السلام ورحمة الله ، ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو : لأن يكون عبداً حبشياً مجدعا يرى أغترأ في رأس جبل حتى يدركه الموت ، أحب إليه من أن يرى بسهم واحد بين الفريقين » أترى هذا القول — على بلاغه وقوته — مغيراً شيئاً من موقف قومه ؟

كلا ، لقد رفع شيوخ قومه رؤوسهم إليه فقالوا : « إنا لاندع ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيء أبداً^(٢) »

وهذا يقوله شيوخ الحى المحنكون العلماء لاشبانهم ولافتيانهم ، فانظر مبلغ أثر عائشة في النفوس !!

ولقد شكنا من مكانتها هذه وغار منها على نفسه ، فقد كان يقول : « بليت بأرضي

(١) من معاني النطفة : الماء الصافي قل أو أكثر . الفار : الجمع العظيم .

(٢) الطبرى ١٥٠/٣ والمراد بالنقل : الزوجة .

الناس وأنطق الناس وأطوع الناس في الناس» يريد بأنضى الناس : يعلى بن منية الذى
جهز أصحاب الجمل من ماله ، وبأنطق الناس طلحة ، وبأطوع الناس فى الناس عائشة (١) .
ومن الحق أن نقرر هنا أن كثيراً من العقلاء حاولوا استئصال الشر قبل نشوبه فلم
يفلحوا ، وأن طلحة والزبير أصبحا صادقى النية فى الثأر لعثمان كما كانا مخلصين كل الإخلاص
فى رغبتهما فى الصلح لما تملكهما من حيرة فى مسيرهما هذا : هما لا يرضيان بديلا من قتل
قتلة عثمان بأسرع وقت مهما كلفهما الأمر ، وفى الوقت نفسه يخشيان أن يؤدى هذا الأمر إلى
إهراق دماء بريئة يكونان هما المسؤولين عنها أمام الله ، وكانت عزيمتهما قوية صادقة فى
الاستئصال توبة إلى الله مما قصرافى حق عثمان رحمه الله ، لم يستطع أحد أن يردهما عنها على
رغم خطئها الظاهر ، إنهما كانا مع هذه العزيمة الصادقة فى حيرة قاتلة ، ولقد سمع الناس
منهما ما يدل على هذه الحيرة مرار عديدة ، مر بك بعضها وسيمر بعضها الآخر ، وتأمل
الآن موقفاً لكل منهما تدرك ما فى نفوسهما من قلق وألم :

قال رجل للزبير : « يا أبا عبدالله ، ماجاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة حتى قتلتم جثم
تطلبون بدمه ؟ »

فقال الزبير : « إنا قرأناها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر : (واتقوا
فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ولم نكن نحسب أنها أهلها حتى وقعت منا حيث
وقعت (٢) » .

أما طلحة فخبرته أشد وأعجب : قال له علقمة بن وقاص الليثى : « يا أبا محمد ، أرى أحب
المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على زورك (صدرك) !! ؟ »
قال طلحة : « يا علقمة بينا نحن يد واحدة على من سوانا ، إذ صرنا جبلين من حديد
يطلب بعضنا بعضاً ؛ إنه كان منى فى عثمان شيء ليس توبتى منه إلا أن يسفك دمي فى
طلب دمه » .

قال علقمة : فرد محمد بن طلحة فإن لك ضيعة وعيالا ، فإن يكن شيء يخلفك » .
فقال طلحة : « ما أحب أن أرى أحداً يخف فى هذا الأمر فأمنعه !! »

(١) العقد الفريد ١٠٢/٣ أنضى الناس : أكثرهم ناضاً (أى مالا) .
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساکر ٣٦٤/٥ والآية هى الخامسة والشمرون من سورة الأنفال (٨) .

فأتى علقمة محمد بن طلحة فقال له : « لو أقت ، فإن حدث به حدث كنت تحلفه في ضيعته وعياله » .

فقال محمد : « ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره؟! ^(١) »

فانظر كيف كان أخذ هذه الفتنة شديداً لهؤلاء الناس ، حتى استعصى نزعمهم عنها على الحجج الواضحة والنصح المخلص . وما أصدق الحكمة القائلة : « الفتنة عياء : إن أقبلت اشتبهت ، وإن أدبرت تبينت » ولو كان أحد مقلعا عنها بعد وقوع فيها لنصح أو تذكير ، لأقلع عنها هؤلاء الطيبون الأخيار .

بقى الناس ينتظرون هذا الصلح ، وتجري بينهم الرسل ، وتقبل جماعة منهم إلى جماعة ثلاثة أيام . وكان فيها بين طلحة والزبير وعلى ما نحن قاصوه عليك :

اجتماع الطرفان :

سار على من الزاوية يريد طلحة والزبير وعائشة ، وساروا من الفرضة يريدون علياً ، والتقوا عند قصر عبيد الله بن زياد ، ونزلت عائشة مسجد الحدان في الأزدي ، وفي ساحتهم نشب القتال فيما بعد . وخطبت هناك عائشة أيضاً :

« أما بعد ، فإننا نقمنا على عثمان : ضرب السوط ، وإمرة الفتيان ، وموضع المسحاة الحمية . ألا وإنكم استعبتتموه فأعتبكم ، فلما مصتموه كما يماص الثوب الرحيض عدوتم عليه فارتكبتن منه دماً حراماً ، وإيم الله : إن كان لأحصنكم فرجاً وأتقاكم الله ... ^(٢) »

ترأى الجمعان ، وخرج الزبير على فرسه (ذى الخمار) وعليه سلاح — وكان ذلك على رواية الطبري في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين — قليل لعلى : « هذا الزبير » فقال : « أما إنه أحرى الرجلين إذا ذكر بالله أن يذكر » . وخرج طلحة ، فخرج إليهما على فدان منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم ، فقال على :

« لعمرى لقد أعددتما خيلاً وسلاحاً ورجالاً إن كنتما أعددتما عند الله عذراً ، فاتقيا الله

(١) الكامل لابن الأثير ٩٣/٣ والطبري

(٢) شرح نهج البلاغة ٢ — ٨١ الموص : الغسل ، الرحيض : المنسول .

سبحانه ولا تكونا (كَأَلَى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا^(١)) « ألم أكن أخا كما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دماءكما؟ فهل من حدث أحل لكما دمي؟ »

قال طلحة: « أَلَبَّتِ النَّاسَ عَلَى عُمَانَ !! »

قال علي: « يَوْمَئِذٍ يُؤَفِّقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ^(٢) »
ياطلحة تطلب بدم عثمان!! فلعن الله قتلة عثمان، « ياطلحة، جئت بعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت!! أما بايعتني؟ »

قال: « بايعتك وعلى عنقي اللج (السيف) »

وقال علي للزبير: « ماجاء بك؟ » قال: أنت ولا أراك لهذا الأمر أهلا، ولا أولى به منا. فقال علي: « لست لها أهلا بعد عثمان؟! قد كنا نعدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء، ففرق بيننا وبينك ». وعظم عليه أشياء تزعم الرواية أنه ذكره بها وأن مما قاله له:

« يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم، فنظر إلى فضحك وضحكك إليه، فقلت (لا يدع ابن أبي طالب زهوه) فقال لك رسول الله: (صه) إنه ليس به زهوه، ولتقاتلنه وأنت له ظالم؟ »

قال الزبير: « اللهم نعم: ولو ذكرت ماسرت مسيرى هذا، والله لا أفاتلك أبداً^(٣) »
ويذكرون أيضاً — وعلى الرواة العهدة دائماً — أن علياً قال لطلحة والزبير قبل القتال: « استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله عليها أربع خصال أن تصدق فيها:

١ — هل تعلم رجلا من قريش أولى مني بالله ورسوله وإسلامي قبل كافة [كذا] الناس

أجمعين وكفايتي رسول الله بسيفي ورحمي؟

٢ — وعلى براءتي من دم عثمان،

٣ — وعلى أنني لم أستكره أحداً على بيعة،

(١) سورة النحل ١٦ الآية ٩٢ — يعرض لها على بيعتهما ثم تقضهما . والمضروب بها الشل في الآية امرأة حمقاء من مكة كانت تنزل طول يومها ، فإذا أمست نقضت كل ما غزلت في يومها . ضرب الله هذا المثل للذين يعاهدون ثم ينقضون .

(٢) سورة النور ٢٤ الآية ٢٥ .

(٣) كذا في الطبري ٥١٤/٣ والله أعلم .

٤ — وعلى أنى لم أكن أحسن قولاً في عثمان منكم .

فأجابه طلحة جواباً غليظاً ورق له الزبير^(١)

ولعل هذا الاجتماع قد قرب بين الفريقين ، فرجع على إلى عسكريه وقال لهم : « أما الزبير فقد أعطى الله عهداً ألا يقاتلكم » ، ورجع طلحة والزبير إلى عسكريهما ثم تبادلوا الرسل ، فأرسل على عبد الله بن عباس من العشى إلى طلحة والزبير ، وكان فيما قال له : « انت الزبير ولا تأت طلحة ، فإن الزبير ألين — وأنت تجد طلحة عاقصاً بقرنه : يركب الصعوبة ويقول : هي أسهل — فأقرته منى السلام وقل له : (يقول لك ابن خالك : عرفنتي بالحجاز وأنكرتني بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟؟) » [فجعل الزبير ينقر بمروحة كانت بيده في الأرض ، ثم رفع رأسه وقال : « ترفع لكم المصاحف غداً فما أحلت حللنا وما حرمت حرمتنا » . ثم انصرف فناداه عبدالله بن الزبير ، فأقبل ابن عباس وهو كاره لكلامه]^(٢) فقال : « قل له : بيننا وبينك عهد خليفة ودم خليفة ، واجتماع ثلاثة وانفراد واحد ، وأم مبرورة ، ومشاورة العشيبة ، ونشر المصاحف : تحل ما أحلت وتحرم ما حرمت^(٣) »
وبعث طلحة والزبير محمد بن طلحة إلى على ، واتفقت كلمة الجميع ظاهراً وباطناً ما خلا الذين اشتركوا في دم عثمان .

وأرسل على إلى رؤساء أصحابه ، وكذلك فعل طلحة والزبير فأرسلا إلى رؤساء أصحابهما ما كان عليه الإجماع ، فقالوا : « نعم » واتفقوا على الصالح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية والسلم الذى أشرفوا عليه ، وبات الذين أثاروا على عثمان بشر ليلة باتوها قط . وجعلوا يتشاورون ليلتهم سرّاً خشية أن يفطن أحد لما يحاولون من الشر .

(١) الإمامة والسياسة ٦٣/١ . ومما ضعف الخبر عندى — عدا استبعادى تكليف على صاحبه تحليف عائشة قبل القتال ، وعدا حزبية صاحب الإمامة والسياسة ، وعدا أن العرب الأولين لا يقولون (كافة الناس) بل يقولون (الناس كافة) — أن عائشة لم تكن حاضرة البيعة في المدينة ، كانت حينئذ بمكة ولم ترجع إلى المدينة حتى هذا الاجتماع ، فكيف تستحلف على أمر لم تكن شاهدته ؟؟!

(٢) هذه الزيادة الضرورية بين زاويتين عن تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٦٣/٥

(٣) العقد الفريد ٩٦/٣ — أراد هو بالخليفة الأول عمر حيث عهد إلى طلحة والزبير وعلى وبقية السنة أصحاب الشورى عند مقتله : أن يكون الخليفة أحدهم . والخليفة الثانى عثمان . وأراد بالثلاثة طلحة والزبير وعائشة — وابن عساكر يعزو هذا الجواب عدا الجملة الأخيرة (ونشر المصاحف الخ) إلى ابن الزبير لا إلى الزبير كما فى العقد . وهذا أشبه أن يكون .

المؤامرة :

أشرف الفريقان على الصلح والاجتماع ، وكان في هذا ما يسر الناس جميعاً إلا فريقاً لا يطيب عيشهم إلا بتأريث الشر ، وهم السبئية المؤلّبة على عثمان والوالقة في دمه ، عرفوا أن لا مقام لهم سواء : أنتصر على أم خصومه : لأن علياً لن يسكت عن إقامة حد متى تم له الأمر وأمكنته الفرص ، وكذلك أصحاب الجمل إن ظفروا لم يتركوا أحداً ممن شرك في دم عثمان ، لقد كان همهم قتلة عثمان أينما كانوا .

جمع ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) وخالد بن ملجم هؤلاء نفر ، وكان منهم علباء ابن الهيثم وعدى بن حاتم وسالم بن ثعلبة ، وشريح بن أوفى ، والأشتر . . . في عدة ممن سار إلى عثمان . . . وتشاوروا فقالوا :

« ما الرأي ؟ وهذا والله على — وهو أبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان ، وأقربهم إلى العمل بذلك — وهو يقول ما يقول (يعنون خطبته على الغرائر ص ١٤٥) ولم ينفر إليه إلا هم (أى قتلة عثمان) والقليل من غيرهم ؛ فكيف به إذا شام (نظر) القوم وشاموه وإذا رأى قلتنا في كثرتهم ؟ . . . أنتم والله ترادون ، وما أنتم بأنجي من شيء » .

فقال الأشتر : « أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما ، وأما على فلم نعرف أمره حتى كان اليوم . ورأى الناس فينا واحد ، وإن يصطلحوا فعلى دماننا . . . فهلموا فلنتواثب على على فنلحقه بعثمان ، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون » .

فقال ابن السوداء : « بئس الرأي رأيت : أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذي قار ألفان وخمسمائة ، وهذا ابن الحنظلية (القعقاع بن عمرو) وأصحابه في خمسة آلاف بالأشواق إلى أن يجردوا إلى قتالكم سييلاً ؛ فارقاً على ظلمك ^(١) » .

وقال علباء بن الهيثم : « انصرفوا بنا عنهم ودعوهم ؛ فإن قلوبنا أقوى لدعوتهم عليهم وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم . دعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تتقون به ، وامتنعوا من الناس » .

(١) الظلم : الغمز في المشي واللبل ، أى إنك ضعيف فتكلف ما تطيق — القاموس .

فقال ابن السوداء : « بئس ما رأيت : ود — والله — الناس أنكم على جديلة (ناحية) ولم تكونوا مع أقوام برآء ، ولو كان ذلك الذى تقول لتخطفكم كل شىء »
وقال عدى بن حاتم : « والله ما رضيت ولا كرهت ، ولقد عجبت من تردد من تردد عن قتله فى خوض الحديث ؛ فأما إذ وقع ما وقع ، ونزل من الناس بهذه المنزلة ، فإن لنا عتاداً من خيول وسلاح محموداً ؛ فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا .
فقال ابن السوداء : « أحسنت » .

وقال سالم بن ثعلبة : « من كان أراد فيما أتى الدنيا فإنى لم أرد ذلك ، والله لئن لقيتهم غداً لأرجع إلى بيتى ، ولئن طال بقائى إذا أنا لا قيتهم لا يزيد على جزر جزور^(١) وأحلف بالله إنكم لتفرقون من السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف » .
فقال ابن السوداء : « إن هذا قد قال قولاً » .

وقال شريح بن أوفى : « أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا ، ولا تؤخروا أمراً ينبغى لكم تعجيله ، ولا تعجلوا أمراً ينبغى لكم تأخيره ؛ إنا عند الناس بشر المنازل ، فلا أدرى : ما الناس صانعون بنا غداً إذا ما هم التقوا » .

ثم تكلم ابن السوداء فقال :

« يا قوم ، إن عزمكم فى خلطة الناس ، فصانعوهم ، وإذا التقى الناس غداً فأنشبوا القتال ولا تفرغوه للنظر : فإذا من أتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون . فأبصروا الرأى وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون^(٢) »

فقال الله ابن السوداء ، فوالله ما أراه إلا شيطاناً خلق من مارج من نار . ما أبصره بطرق الفتنة وبث العقارب ؛ وما أدق توهينه تلك الطرق التى أشار إليها أصحابه ، ما أظننه إلى ضعفها وقلة غنائمها ، ثم كيف آل به تقليب الرأى حتى اهتدى إلى التى ليس بعدها شر منها : قاصمة الظهر ومبيدة الأمم !

(١) يريد وقتاً بمقدار ما تنحر الذبيحة وتجلد (تسلخ) .

(٢) حفظ هذه المؤامرة الطبرى فى تاريخه ٥٠٧/٣ — ٥٠٨

ومذا الذي يقرأ هذه المؤامرة وكيف قلب أصحابها الآراء على وجوهها المختلفة ، ثم لا يرجع ذهنه بسرعة البرق إلى ما ذكره أصحاب السير عن مجلس كفار قریش في دار الندوة : يجيئون الرأي في محمد صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، وقد حضر اجتماعهم ذلك إبليس بهيئة شيخ نجدى ، فجعل كلما عرض أحدهم رأياً في القضاء على دعوة محمد ، وهنه وأظهر فسادة . . حتى أعياء القوم جميعاً بحجته ، فسألوه : ما عنده ؟ فقال : « تختارون من كل قبيلة رجلاً جلدأ فيجتمعون ويضربون محمداً ضرب رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل ، ولا طاقة لبني هاشم بقتال العرب كافة » .

أليست تلك المؤامرة نسخة طبق الأصل (كما يقولون) عن هذا المجلس ؟ أليس ابن السوداء هذا إبليس بعينه ؟ وأستغفر الله ، فأين يقع منه إبليس !! هو والله أبلغ نكايه بهذه الأمة من إبليس ، وأبعد منه أثراً في الدس والكيده . وأخشى أن يكون الذي ظنوه إبليس : ابناً من أبناء السوداء أبطال الشر والمكر والفساد من اليهود : تنكر لهم شيخاً نجدياً إحصاءاً لنديسته .

وبعد ، فهل ألب الأمصار على عثمان إلا ابن السوداء ^(١) ؟ وهل غرهم أحد بمثل ما زور لهم من كلام ترويحاً لدعوته ^(٢) ؟ وهل دم عثمان إلا ثمرة نجاح خطة ابن السوداء هذا ؟ وهل هذه العشرات الألوف من دماء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيهم إلا ثمرة خيبه وكيده ومكره بهذا الدين وأهله ؟ وما يزال المسلمون من يومهم ذلك إلى الآن في شرور أخذ بعضها بقراب بعض ، يزجها إليهم أبناء السوداء ^(٣) في مختلف الأمصار والأعصار ؛ وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تقطن إليهم إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

الليل في عنته
ان الصدوقه نمره في
دستعمل الحرب
تسمية ارا انتروا
بسم الله من
كل هبة ويكافؤهم اذا
اشلوا نار الفتنة بين جميع القبائل التي هي
البيمة .

(١) لعلك تذكر ما تقدم عنه في أيام عثمان ص ٤٨ فما بعد .

(٢) يصح أن يطلق (أبناء السوداء) على الذين قاموا ويقومون في المجتمع الإسلامي في ميادينه

الفكرية والعامة والاجتماعية والسياسية والدينية . . . بمثل مهمة (الطابور الخامس) لأيماننا هذه ، تسمية ارا انتروا لهم باسم أعظمهم شراً وديساً وكيده : عبد الله بن سبأ ، ابن السوداء .

بسم الله من كل هبة ويكافؤهم اذا اشلوا نار الفتنة بين جميع القبائل التي هي البيمة .

الفصل الثالث

الدسيسة والمعركة الكبرى

الريسة :

لما كان الفلج انسل هؤلاء المؤتمرون — وما يشعر بهم جيرانهم — إلى الأمر الذي أجمعوا عليه انسلوا وعليهم ظلمة ، فخرج مضريةهم إلى مضريةهم ، ووربعهم إلى ربعهم ، ويمنيتهم إلى يمانيتهم ، فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بغتوهم . .

فجىء الناس جميعاً ، وخرج طلحة والزبير فسألوا : « وما هذا ؟ » قالوا : « طرقتنا أهل الكوفة ليلاً » فقالوا : « قد علمنا أن علينا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه ، وأنه لن يطاوعنا » . ثم خرجا في وجوه الناس من مضر ، فبعثا إلى اليمنة — وهم ربيعة — عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يعيها ، وإلى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وثبتا في القلب .

استطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم ؛ فسمع على الصوت — وكان السبثيون المؤتمرون وضعوا طبقاً لخطتهم رجلاً قريباً منه ليخبره بما يريدون — فلما قال : « ما هذا ؟ » قال ذلك الرجل :

« ما فئتنا إلا وقوم منهم قد يبتونا ، فرددناهم من حيث جاؤوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس » .

فقال على لصاحب ميمنته : « انت اليمنة » وقال لصاحب ميسرته : « انت الميسرة » « قد علمت : أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمه ، وأنهما لن يطاوعانا » .

والسبئية لا تفتقر إنشأبا، وألجأتهم المعركة إلى الخندق ، فاقتلوا عليه حتى أفضوا إلى موضع القتال ، وعلى ينادى :

« أيها الناس كفوا ، فلا شيء »

وكان من رأيهم جميعاً في تلك الفتنة ألا يقتتلوا حتى يُبدؤوا : يطلبون بذلك الحججة على الآخرين ، وقد نادى منادى كل من الفريقين : « لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ^(١) » .

المعركة :

أسرع كعب بن سور قاضي البصرة إلى عائشة يقول :

« أدركي فقد أبا القوم إلا القتال لعل الله يصلح بك » .

فألبسوا هودجها الأذراع ثم بعثوا جملها (عسكر) ، فلما برزت من البيوت وكانت بحيث تسمع الفوغاء وقفت ، فلم تلبث أن سمعت غوغاء شديدة فقالت : « ما هذا ؟ » قالوا « ضجة العسكر » قالت : « بخير أم بشر ؟ » قالوا : « بشر » .

قالت : « فأى الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون » . ثم كانت كلما سمعت تكبيرهم قالت : « لا تكثروا الصياح فإن كثرة التكبير عند اللقاء من الفشل ^(٢) » .

لم يكن الجند في الصفين من العامة والفوغاء فحسب ، بل كان فيهم عدد كبير من أمائل الناس وعيونهم وقرائهم وقضاتهم وفقهائهم : فريق مع علي وفريق مع عائشة . والعجيب أن كلا من الفريقين أراد إلزام خصمه الحججة ، وأراد ألا يقدم على قتال حتى يبدأه خصمه فيثبت بذلك لنفسه عذراً بينه وبين الله ؛ فكلا الفريقين أرسل رجلاً بيده مصحف يدعو إليه ، وكلا الرجلين قتل :

روى الطبري أن علياً طاف على أصحابه بيده مصحف وقال :

(١) الطبري ١٨/٣ هـ

(٢) عيون الأخبار ١٠٨/٣ وقيل هذه الفقرة : « قال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه :

« ألا ترونهم (يعني أصحاب محمد) جثياً على الركب كأنهم خرس يتلمظون تلمظ الحيات ؟ »

ورواية القعد الفريد (٥١/١) أنها قالت وقد سمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم : « المنازعة في

الحرب خور ، والصياح فيها فشل ، وما برأني خرجت مع هؤلاء » .

« أيكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه ؛ فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى ،
وإن قطعت أخذه بأسنانه وهو مقتول ؟ »

فقام إليه فتى من أهل الكوفة ، عليه قباء أبيض محشو ، فقال : « أنا » فأعرض
عنه ثم قال : « من يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول ؟ » فقال الفتى :
« أنا » فأعرض عنه ، ثم قال ثالثة ، وقال الفتى : « أنا » فدفعه إليه وقال له :

« اعرض عليهم هذا وقل : هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره ، والله في دماننا
ودمانكم . » فحملة الفتى ودعاهم ، فحملاوا عليه فقطعوا يده اليمنى ، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم
فقطعوا يده اليسرى ، فأخذه بصدرة والدماء تسيل على قباؤه ، فرشقوه رشقاً واحداً
فقتلوه . . فقال علي : « الآن حل قتالهم وطاب لكم الضراب ^(١) » .
فبدأ القتال حين قتل هذا الفتى .

كان علي ميمنة على ابنه الحسن وعلي ميسرته ابنه الحسين ، ورايته مع ابنه محمد بن
الحنفية . ويسمى صاحب العقدة الفريد زيادة على الطبرى : عمار بن ياسر على الخليل ، ومحمد
ابن أبي بكر على الرجالة ، وعبد الله بن عباس على المقدمة .

وأما جيش البصرة فكان فيه علي الخليل طلحة ، وعلي الرجالة عبد الله بن الزبير ، والراية
مع عبد الله بن حكيم بن حزام .

كان اللقاء بموضع قصر عبيد الله بن زياد ، وكان القتال ذلك اليوم من ارتفاع النهار إلى
قريب من العصر :

(١) الطبرى ٣/٥٢٠، ٥٢٢ - وذكر أن أم الفتى قالت بعد ذلك فيما ترويها :

لاهم إن مسلماً أتاهم
مستسلماً للموت إذ دعاهم
إلى كتاب الله لا يخشاهم
فزملوه من دم إذ جاهم
وأهم فأممة تراهم
يأترون الفتى لا تنهاهم
قد خضبت من علق لحاهم «

رشته
مكة
بومرارة
السرور

انهزم أصحاب الجمل بعد مقتل الفتى وحملة أصحاب على عليهم صدر النهار ، فنادى الزبير^(١) : « أنا الزبير ، هلموا إلى أيها الناس » ومعه مولى له ينادى : « أعن حوارى رسول الله تنهزمون ؟ » وصدق الزبير الحملة ، إلا أن أصحاب على كانوا يفرجون له ولا يقتلونه لما عرفوا من أنه محرج ؛ حتى إن عمارا حمل عليه في المعركة ، فجعل يحوزه بالرمح فيقول له الزبير : « أتريد أن تقتلني يا أبا اليقظان ؟ » فيقول عمار « لا يا أبا عبد الله . » ثم انحاز الزبير إلى وادى السباع (في قصة سيأتي تفصيلها عند الكلام على القتلى) واتبعه فرسان وتشاغل الناس عنه بالناس ، فلما رأى الفرسان تتبعه عطف عليهم ففرق بينهم ، فكروا عليه ، فلما عرفوه قالوا : « الزبير ، دعوه » .

وجرح في أول المعركة طلحة فمربه القعقاع — وهو على ماعرفت من جنود على — في نفر وطلحة يقول : « إلى عباد الله إلى ، الصبر الصبر » فقال له : « يا أبا محمد ، إنك لجريح ؛ وإنك عما تريد لليليل ؛ فادخل الأبيات » . فقال طلحة : « يا غلام ، أدخلني وابغني مكاناً » فادخل البصرة ومعه غلام ورجلان .

* * *

أقتل الناس — وقد غاب طلحة والزبير — وانهزم أصحاب الجمل صدر النهار وأقبلوا في هزيمتهم تلك وهم يريدون البصرة ، فلما رأوا الجمل وأطافت به مضر ، عادوا قلباً كما كانوا حيث التقوا ، وعادوا إلى أمر جديد ، ووقفت ربيعة البصرة : منهم ميمنة ومنهم ميسرة وحف بالجمل أولو النجدة الشجعان : كلما أخذ بخطامه قرم فلقى حتفه ، جاء آخر يقوده والأبطال تلذبه وتدود عنه ، وترتجز : تغدى الجمل ومن عليه . وقد قتل يومئذ سبعون رجلاً من قريش .

(١) يذكرون أن فارساً أتى الزبير قبيل ذلك فقال له : « السلام عليك أيها الأمير ، قد جاء القوم (أصحاب على) حتى أتوا مكان كذا ، فسمعوا بما جمع الله عز وجل لكم من العدد والعدة ، فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا مدبرين » قال الزبير : « إيهأ عنك ، فوالله لو لم يجد ابن أبي طالب إلا العرفج لدب لنا فيه » . — العرفج : شجر سهلى ، والعرفج : رمال لا طريق فيها — الطبرى ٥٢١/٣

والذى أخرج به من هذا النص أن رؤوس أصحاب الجمل موقوفون بغلبة على ، وأن اجتهادهم في القتال كان حية من جهة وتكفيراً عن تقصيرهم في حق الخليفة الشهيد ، فأرادوا أن يبلوا عذراً في الواقعة بمحيش أغلب المؤلئين على عثمان فيه .

تصادمت المجنبتان حين تزاخفتا صداماً شديداً ، وحى القتال من جديد ، وحملت
ميمنة على على ميسرة أهل البصرة فاقتتلوا ، ولاذ الناس بعائشة وأكثرهم من ضبة والأزد
وهم ينادون بعلي : « أعطنا سنة العمرين ^(١) »

وأرادت عائشة وقد أصبحت هي قلب المعركة ، أن تقوم بمحاولة جديدة إن نجحت
وقفت القتال ، وإلا كان منه إخماء لجندها حتى يستبسوا أو يفنوا :

قالت لقائد جملها كعب بن سور :

« خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه » ودفعت إليه
مصحفاً . وأقبل القوم فاستقبلهم كعب بالمصحف بين الصفيين : يناشدهم الله في دمائهم ،
وأعطى كعب درعه فرمى بها تحته ، وأتى بترسه فتنكبه ، وهو يدعوهم مجتهداً إلى كتاب الله
والكف عن القتال .

وكان أمام القوم في كرم السبئية ؛ يجتهدون في إنشابه القتال ويتولون إضرامه كلما فتر
خوفاً من أن يجري الصلح ، فتقدموا ، وأدرك على غرضهم فجعل يزعمهم (يمنعهم) من خلفهم
ويأبون إلا إقداماً ؛ فلما رأوا كعباً والمصحف رشقوه رشقا واحداً فقتلوه ، ورموا عائشة في
هودجها فجعلت تنادى :

« يا بني البقية البقية (ويعلو صوتها كثرة) الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب »

فيأبون إلا إقداما ..

فكان أول شيء أحدثته حين أبوا ، أن قالت : « أيها الناس انموا قتلة عثمان
وأشياهم » . وأقبلت تدعو .. وضج أهل البصرة بالدعاء . وسمع على الدعاء فقال : « ماهذه
الضجة ؟ » فقالوا : « عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياهم » فأقبل على نفسه
— وعلى يمينه ابنه محمد بن الحنفية وعلى يساره ابن عباس — يدعو أيضاً وهو يقول :
« اللهم العن قتلة عثمان وأشياهم في السهل والجبل والبر والبحر ^(٢) »

وأرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن بن الحارث : « اثبتا مكانكما »

(١) السكامل للعبرد ص ٨٣ (طبعة أوروبا) والعمران : أبو بكر وعمر

(٢) الطبري وابن خلدون ١٦٣/٢ والعقد الفريد ٩٠/٣

وحرصت الناس حين رأت أن القوم لا يريدون غيرها ولا يكفون عن الناس .

« فازدلفت مضر البصرة فقصفت مضر الكوفة حتى زوحم على نفسه ، فنخس قفا ابنه محمد صاحب رايته وقال له : « احمل » فنكل ، وأهوى على إلى الراية ليأخذها منه ، فحمل محمد ، وحملت مضر الكوفة فاجتلدوا قدام الجمل حتى ضرسوا^(١) ، والمجنبات على حالها لا تصنع شيئاً . ومع على أقوام غير مضر قد أشفق كثير منهم لما عضهم القتال بوطأته ، وكان فيهم زيد بن صوحان — وهو غير مضرى — بيده راية ميسرة أهل الكوفة فقال له رجل : « تنح إلى قومك ، مالك ولهذا الموقف ؟ ألست تعلم أن مضر حيالك ؟ وأن الجمل بين يديك ، وأن الموت دونه ؟ » فقال زيد : « الموت خير من الحياة ، الموت ما أريد . » فأصيب فأخذ الراية أخوه سيحان ثم صعصعة ، ثم ارتث صعصعة واشتدت الحرب ...

فلما رأى ذلك على ، بعث إلى اليمن وربيعة : « أن اجتمعوا على من يليكم » وقام رجل من عبد القيس ينادى في أصحاب الجمل : « ندعوكم إلى كتاب الله عز وجل . » فقالوا : « كيف يدعو إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله سبحانه ، ومن قتل داعي الله كعب بن سور ؟؟ » ورمته ربيعة رشقاً واحداً فقتلوه ، وقام مقامه مسلم بن عبد الله العجلي فرشقوه أيضاً فقتلوه ثم دعت يمن الكوفة يمن البصرة فرشقوهم^(٢) .

رأى على أن يمن البصرة هزمت يمن الكوفة ، وأن ربيعة البصرة هزمت ربيعة الكوفة ، فزحف بمضر الكوفة إلى مضر البصرة يقول : « إن الموت ليس منه فوت : يدرك الهارب ولا يدع المقيم » فحى القتال هكذا . وكان إزاء كل قبيلة أقرانهم من أبناء عمهم يقاتلونهم حمية لمصرهم ولرؤسائهم .

ورروا أن علياً قال للأشتر النخعي يوم الجمل : « احمل » فحمل في أصحابه أهل اليمن فكشف من يازائه ثم قال لهاشم بن عتبة وكان على الميسرة : « احمل » فحمل في المضرية فكشف من يازائه فذكروا أن علياً جعل يقول : « كيف رأيتم مضرى ويمنى ؟! »^(٣)

كاد القتال ينتهي صدر النهار بعد غياب طلحة والزبير بعد أن شهدا أوله ، لولا أن

(١) مارسوا شدتها حتى صاروا لها محكين مجريين .

(٢) الكامل للمبرد (ص ٢٣٥ طبعة أوربا) .

عائشة شهدت وسطه وآخره ، ولها اليد الطولى في دوامه وثبات البصريين بما كانت تحضهم
وتخطبهم وتغديهم . ثم استحر القتل ثانية واشتد ، واستمات الناس في القتال حتى لم ير محمد
ابن الحنفية صاحب راية على متقدماً إلا على رمح ، وأبوه يقول له : « تقدم لأم لك » وهو
يتلکأ ويقول : « لا أجد متقدماً إلا على سنان رمح » فانزع على الراية من يده
وهو يرتجز :

أنتِ التي غرِكِ مني الحسنی
يا عَيْشُ إن القوم قوم أعدا
الخفض خير من قتال الأبناء^(١)

ثم تراحت المجنبتان ، واقتلتا قتالا شديداً يشبه ما فيه القلبان ، واقتتل أهل اليمن ،
فقتل على راية على من أهل الكوفة عشرة كلما أخذها رجل قتل : خمسة من همدان وخمسة
من سائر اليمن ، فلما رأى ذلك يزيد بن قيس أخذها فثبتت في يده وهو يقول :

قد عشت يا نفس وقد غنيتِ
دهراً فقَطَكِ^(٢) اليوم ما بقيتِ

والتقى عبد الله بن حكيم بن حزام حامل راية قريش من أصحاب الجمل بعدى بن
حاتم ، فتصاولا كالفلحين ، فتعاور أصحاب عليّ عبد الله حتى قتلوه ، بعد أن طعن عدياً في
عينه فقأها .

ما زال القتلى يسقطون حتى تنادى الكفاة في المسكرين :

« يا أيها الناس ، طرّفوا إذا فرغ الصبر وعز النصر » أى « أصيبوا الأطراف وميلوا
عن المقاتل » . وذلك لما رأوا من استماتة الناس وتفانيهم وصبرهم على القتال ، فجعلوا يقصدون
الأطراف : الأيدي والأرجل ، فما رثيت وقعة قط قبلها ولا بعدها أكثر يداً مقطوعة ورجلا
مقطوعة منها : لا يدري من صاحبها . وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب يومئذ قبل قتله ،

(١) الطبرى ٥٢٤/٣ .

(٢) غسبك .

وكان الرجل من هؤلاء وهؤلاء إذا أصيب شيء من أطرافه استقتل حتى يقتل .
ثم حمى القتال وزاد شدة ، حتى رجعت ميمنة الكوفة إلى القلب ، ولزقت ميسرة
البصرة بقلبهم ومنعوا ميمنة الكوفة أن يختلطوا بقلبهم وإن كانوا إلى جنبهم ، وفعل مثل
ذلك ميسرة الكوفة وميمنة البصرة . وجعلت عائشة تشجع الناس وتثني على حميتهم :
قالت لمن على يسارها : « من القوم ؟ » فقال صبرة بن شيان : « بنوك الأزد » فقالت :
« يال غسان ، حافظوا اليوم على جلاذك الذي كنا نسمع به ، وتمثلت :
وجالد من غسان أهل حفاظها وهنّب وأوس جالدت وشيبب
وقالت لمن على يمينها : « من القوم ؟ » قالوا : « بكر بن وائل » فقالت : « لكم
يقول القائل :

وجاؤوا إلينا في الحديد كأنهم
من العزة القعاء بكر بن وائل
فاقتلوا أشد من قتالهم قبل ذلك .

وأقبلت على كتيبة بين يديها فقالت : « من القوم ؟ » قالوا : « بنو ناجية » ، قالت :
« بنج بنج ، سيوف أبطحية وسيوف قرشية ، جالدوا جلاداً يتفادى منه » .
ثم أطافت بها بنو ضبة فقالت : « وَيَهْنُ : جمرة الجمرات ^(١) » ؛ حتى إذا رقوا وضعفوا
خالطهم بنو عدى وكثروا حولها ، فقالت : « من أتم ؟ » قالوا : « بنو عدى ، خالطنا
إخواننا » . فقالت : « ما زال رأس الجمل معتدلاً حتى قتلت بنو ضبة حولي » .
فأقاموا رأس الجمل ، ثم ضربوا ضرباً ليس بالتعذير ^(٢) ، ولا يعدلون بالتطريف ، حتى
إذا كثرت ذلك وظهر في العسكرين جميعاً قالوا : « لا يزال القوم أو يصرع الجمل » وثبتت
مجنبتنا على وطاعتنا حتى صارتا في القلب وكره القوم بعضهم بعضاً ^(٣) .

(١) التجمير : التجميع ، وجمرات العرب ثلاث : بنو عامر ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن
أد . وإنما سماها بذلك لأنهم يتوافرون في أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم لكثرتهم وعزيتهم — انظر زهر
الآداب ١/٥٥ . ٥٦ (الطبعة الثانية بالطبعة الرحمانية) .

(٢) التعذير : عدم ثبات العذر ، التصدير — يعني أنهم لم يقصروا .

(٣) الطبرى ٣/٥٢٦ .

من غريب ما يدل على تفاني القوم بإخلاص في هذه الحرب ، استماتة رجل من الفقهاء
الأجلة بين يدي عائشة ؛ وهو عمرو بن يثربى وكان قاضياً على البصرة قبل كعب بن سور .
كان عمرو آخذاً بزمام الجمل بعد مقتل كعب بن سور وهو يرتجز :

يا أمنا يا زوجة النبي

يا زوجة المبارك المهدي :

نحن بنو ضبة لا نفرئ

حتى نرى جاجماً تحرئ

يخر منها العلق المحمر^(١)

فلما انتدب على للجمل من يعقره ، انتدب هند بن عمرو المرادي ، فاعترضه ابن يثربى ،
فاختلفا ضربتين قتله ابن يثربى ، ثم حمل سيحان بن صوحان فاعترضه ابن يثربى فاختلفا
ضربتين قتله ابن يثربى ، ثم علباء بن الهيثم فاعترضه ابن يثربى فقتله ، ثم حمل صعصعة
فقتله ابن يثربى وجعل يرتجز :

أنا لمن ينكرني ابن يثربى

قاتل علباء وهند الجملى

وابن لصوحان على دين على

فناداه عمار : « قد — لعمري — لذت بحريز ، وما إليك سبيل ، فإن كنت صادقاً
فاخرج من هذه الكتيبة إلى . » فترك ابن يثربى الزمام بيد رجل من بني عدى حتى كان
بين أصحاب عائشة وأصحاب على ، وقال : « من يبارز ؟ » فبرز له رجل فقتله ، ثم برز آخر
فقتله وارتيجز :

أقتلهم ولا أرى عليا

ولو أشأ أوجرته عمرياً^(٢)

أقتلهم ولا أرى أبا حسن

كفى بهذا حزناً من الحزن

(١) الكامل لابن الأثير ١٠٦/٣ ، وقد أوردها كما أثبتتها (نحن بنو ضبة) .

(٢) أوجره الرمح : طعنه به في فيه — أمر الأمر : أحكمه ، أمر الجبل : أحكم فتل طيقانه .

إنا نمرّ الأمر بإصرار الرسن^(١)

فبرز له عمار بن ياسر وهو يومئذ ابن تسعين سنة ، وكان قضيماً حمش الساقين^(١) ، عليه سيف حائله بشقه ، قائمه قريب من إبطه ، وعليه فرّو قد شد وسطه بجبل من ليف ، وإن عماراً لأضعف من بارزه ابن يثربي . فلما خرج جعل الناس يسترجعون ويقولون لضعفه : « هذا والله لاحق بأصحابه » فبدر له عمرو بن يثربي ، فنحى له درقته (ترسه) ، فنشب سيفه فيها ، وضربه عمار فأوهطه^(٢) وأسف^(٣) لرجليه فقطعهما فوقع على استه ، وحمل عليه أصحاب على بالحجارة حتى أثنوه وارثوه ، فملوه إلى على فقال له : « استبقي » فقال على : « أبعث ثلاثة تقبل عليهم بسيفك تضرب به وجوههم^(٤) ؟ » فأمر به فقتل وربما كان هذا هو الوحيد الذي أمر على بالإجهاز عليه ، على رغم ما كان نهى عنه من ذلك . لما قتل ابن يثربي ، ترك العدوي الزمام ثم خرج فنأدى : « من يبارز؟ » فخنس عمار ، وبرز إليه من أصحاب على رجل يدعى ربيعة العقلي وهو من أشد الناس صوتاً ، فخرج يرتجز ويقول :

يا أمنا أعق أمّ نعلم
والأم تغذو ولداً وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلي منه يد ومعصم؟؟^(٥)

ثم اضطربا ، فأثنى كل واحد منهما صاحبه فأتانا . فقام مقامه رجل من بني ضبة^(٥) مارئ أشد منه قط ، يقلب سيفاً بيده كأنه مخراق وهو يقول :

نحن بني ضبة أصحاب الجمل
ننازل الموت إذا الموت نزل
لا عار في الموت إذا حان الأجل

(١) انظر الحاشية السابقة . القضيف : النجيف . حمش : دقيق .
(٢) طعنه وأوهنه . الإسفاف : دنو الطائر من الأرض في طيرانه .
(٣) الطبرى ٥٢٨/٣ ، ٥٢٩ .
(٤) يكلم : يجرح . تختلي : تقطع .
(٥) سماه الطبرى الحارث وسماه ابن أبي الحديد عمرو بن ضرار الضبي .

والموت أحلى عندنا من العسل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل
إن علياً هو من شر البدل
إن تعدلوا بشيخنا لا يعتدل
أين الوهاد وشمارخ القلل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل^(١)
وقد ارتجز ببعض هذا الرجز عدة من أصحاب الجمل ، فأجابه عمير بن أبي الحارث من
أصحاب علي ينقض عليه رجزه :

نحن قتلنا (نقتلاً) فيمن قتل
أكثر من أكثر فيه وأقل
كيف نرد شيخكم وقد قتل
نحن ضربنا صدره حتى انجفل
لحكمه حكم الطواغيت الأول
آثر بالفء وجافى بالعمل
فأبدل الله به خير بدل
إني امرؤ مستقدم غير وكل
مشر للحرث معروف بطل^(٢)

... ، حتى بنو ضبة حول الجمل واستماتوا ، وأتوا بضروب من البلاء عجيبية ؛ شغلتهم نصرتهم
لأهمهم عن كل شيء ، حتى عن قول (لا إله إلا الله) وقد بلغت الروح الحلقوم : جرح
أحدم (عمير بن الأهلبي الضبي) فر به رجل من أصحاب علي فرآه جريماً يفحص الأرض
برجله وهو يقول :

(١) الأسل : الرماح . الوهاد : المنخفضات من الأرض . شمراخ القلل : رؤوس الجبال . بجل :
اسم فعل بمعنى حسبك وتأتي حرفاً بمعنى نعم . والمراد بالشيخ : عثمان بن عفان . وانتصبت بنو ضبة على
الاختصاص — انظر الكامل للمبرد (س ٦٥ طبعة أوروبا) .
(٢) ليس في الطبري إلا الشطران الثالث والرابع والزيادة عن شرح نهج البلاغة ١/٨٤ . قتل :
بئس جلده على عظمه .

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم ننصرف إلا ونحن رواء
لقد كانت عن نصر ابن ضبة أمه وشيعتها مندوحة وغناء
أطعنا قريشاً ضلة من حلومنا ونصرتنا أهل الحجاز غباء
أطعنا بنى تيم بن مرة شقوةً وهل تيم إلا أعبد وإماء^(١)
فقال له الرجل: «يا عبد الله، قل: لا إله إلا الله.» قال: «أذن منى ولقني فإن في أذني
وقراً». فدنا منه، فقال له: «ومن أنت؟» فقال الرجل: «رجل من أهل الكوفة» فوثب
الجريح عليه فقطع أذنه بأسنانه وقال له: «إذا لقيت أمك فأخبرها أن عمير بن الأهلب الضبي
فعل بك هذا».

لقد كان بالرجل من نفسه شاغل عن هذا الأذى لولا ما في القلوب .
وأكثر رجّاز أهل البصرة من الرجز حول الجمل يحمسون ويتحمسون ، فمن قائل :

أسمع أنت مطيع لعملى
من قبل أن تذوق حد المشرفى
وخاذل فى الحق أزواج النبى^(١)

وقائل :

يا أمنا عائش لا تُراعى
كل بنيةك بطل المصاع
ينعى ابن عفان إليك ناعى
كعب بن سور كاشف القناع
فارضى بنصر السيد المطاع
والأزد فيها كرم الطباع^(٢)

روى الطبرى عن القمعاع فى وصف شدة القتال :

« مارأيت شيئاً أشبه بشيء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين : لقد رأيتنا ندافعهم

(١) الطبرى ٣/٥٣١ ، ٥٣٢ ، وتيم قوم عائشة ومنهم طلحة .

(٢) شرح نهج البلاغة ١/٨٤ . المصع : الضرب بالسيف .

بأسنتنا وتكيء على أزجتنا (أطراف رماحنا) ، وهم مثل ذلك ، حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم . « ولقد تراموا بالنبل حتى فنيت ، وتطاعنوا بالرماح حتى تشبكت في صدورهم فلو سيرت عليها الخيل لسارت . وكان أحد الذين شهدوها ، كلما مر بعدها بالقصارين (الذين يدقون الثياب) فسمع أصواتهم يضر بون ، ذكر قتال الناس يوم الجمل^(١) . وذكر شاهد آخر : « أنهم حاصوا حيصة في القتال ثم رجعوا فإذا عائشة على جمل أحمر في هودج أحمر ، ماشهته إلا بالقفذ مما رمى فيه من النبل^(٢) » .

وكانت أم المؤمنين في حلقة من أهل النجدات والبصائر من أفناء مضر ، فكان لا يأخذ أحد بالزمام إلا كان يحمل الراية واللواء ، وكان لا يأخذه إلا معروف عند المطيفين بالجمل : فينتسب لعائشة قائلاً : « أنا فلان بن فلان » ثم روى الطبري عن أحد شهود الواقعة قوله : « فوالله إن كانوا ليقاتلون عليه (أي الجمل) وإنه لموت لا يوصل إليه إلا بطلبة وعنت ؛ وما رامه أحد من أصحاب علي إلا قتل أو أفلت فلم يعد^(٣) » ، وعرفت — لما اختلط الناس بالقلب — أن عدى بن حاتم جاءه فحمل عليه ففقت عينه ونكل ... وتتابع الناس على خطام الجمل وهم يقتلون . وجاء محمد بن طلحة فأخذ بالخطام وقال : « يا أماء ، مريني بأمرك . » فقالت أمرك أن تكون خير بني آدم إن تركت . « ، فحمل ، فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وهو يقول : (حم ، لا ينصرون) واجتمع عليه نفر من أصحاب علي فأنفذه أحدهم بالرمح وقال :

وأشعث قوام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلماً
هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللعم
يدكرني (حاميم) والرمح شاجر فهلا تلا (حاميم) قبل التقدم

(١) الطبري ٥٣٨/٣ — ثم ذهب يوم الجمل في العرب مثلاً في شدة القتال وتفاني المتحاربين ، وخذ على سبيل المثال قول إسحق بن خلف البهراني يخاطب علي بن عيسى القمي :

وللكرد منك إذا زرتهم بكيدك يوم كيوم الجمل

انظر الكامل للمبرد (ص ٣٦١) طبعة لندن .

(٢) الطبري ٥٣٢/٣ .

على غير شيء غير أن لست تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يندم^(١)
ثم تقدم من الزمام عبد الله بن الزبير، فقالت حين لم يتكلم: « من أنت؟ » فقال:
« أنا عبد الله، أنا ابن اختك » فقالت: « واثكل أسماء » خوفاً عليه أن يصيبه ما أصاب
عبد الرحمن بن عتاب والأسود بن أبي البختري وغيرهم من الأنجاد الذين قتلوا قبله. وكان
بعبد الله حينئذ سبع وثلاثون جراحة بين ضربة وطعنة من شدة ما لاقى من الهول، ولقد
رئى به تسع عشرة ضربة ما منها طعنة ولا رمية، وإن من به مثل جراحاته لكثير.
ولقد صدق ابن الزبير في صفة الواقعة حين قال:

« ما رأيت مثل يوم الجمل قط: ما ينهزم منا أحد، وما نحن إلا كالجيل الأسود... »
وكان أشد ما كان يخشاه ابن الزبير أن يلقاه الأشر: فقد بلغه عنه أنه قال: « إن ابن الزبير
هو الذى أكره عائشة على الخروج، وأنا أدعو الله أن يلقينيه ». وقد وصفه له رجل فقال:
« علامة الأشر أن إحدى قدميه بادية من شيء يجد بها ».

وكان أن مر به الأشر فعرفه، ولقيه كفة لكفة (وجهاً لوجه)، فعانقه وتعاركا،
وبادره الأشر فضربه على رأسه، قال الأشر: « لما قصدلى ابن الزبير، سوى رحبه
لرجلى فقلت: « هذا أحق، وما عسى أن يدرك منى لو قطعها؟ ألسنت قاتله؟ فلما دنا منى
جمع يديه فى الرمح ثم التمس به وجهى فعملت أنه أحد الأقران. » وتعاركا، واعتنق كلُّ
صاحبه وخرّاً إلى الأرض، فذكروا أن عبد الله بن الزبير صار يصرخ بأصحابه ويقول:
« اقتلونى ومالكاً »^(٢) ومالك اسم الأشر، وقد جاد عبد الله بروحه ورضى بذهابها إذا

(١) ادعى كل واحد من نفر أنه هو القاتل، وسيأتى أن الأشر نفسه قتله. وقائل الأبيات هو
— على ما فى شرح أدب الكاتب للجوالقي، ولم أره فى مصدر آخر — كعب بن حدير المقرئ، ادعى
أنه طعنه. والبيت الرابع موضعه عند الجوالقي ثالثاً وروايته له هكذا:

على غير ذنب غير أن ليس تابعاً علياً ومن لا يتبع الحق يظلم

انظر شرح أدب الكاتب ص ٣٥٩ طبعة القدسي.

(٢) رواه الطبرى ورواه الميدانى فى مجمع الأمثال وقال: إنه يضرب لسكل من أراد بصاحبه مكروهاً
وإن ناله منه ضرر — ٥١.

قلت: هذا هو المشهور إلا أن الواقع غيره، فقد ذكر الطبرى روايتين غير هذه، وكلتاها تنيد أن
قاتله عبد الرحمن بن عتاب لا عبد الله بن الزبير:

قالوا للأشر لما وصف لقاء ابن الزبير: « فهو القاتل: اقتلونى ومالكاً؟ » فقال الأشر: « لا، =

كان في ذلك قتل الأشتر وخالو جيش على منه ، لما له من البلاء العظيم ، ولقد كان — في الواقع — أردّ على عليّ من العديد الكثير . ولو عرفه أصحاب الجمل لقطعوه إرباً إرباً من كثرة ما لا قوا منه . قال الأشتر : « ما أحب أن يكون قال : « اقتلوني والأشتر » وأن لي به حمر النعم » وكان الناس لا يعرفونه بمالك ، ولو عرفوه وكانت له ألف نفس ما نجا منها شيء ، وما زال يضطرب حتى نجا^(١) .

ما تركته وفي نفسي منه شيء ؛ ذاك عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد : لقبني فلقبت أشد الناس وأروعهم ، فماقتنه واختلفنا ضربتين ، فصرعني وصرعته ، وسقطنا إلى الأرض جميعاً ، فنادى : (اقتلوني ومالك) ، وإن عبد الرحمن لأقطع منزوف « فاعتقه الأشتر جلد به الأرض عن دابته ، فاضطرب تحته — ٥٢٨/٣ . وليس بغريب أن يتواتر هذا المثل عن ابن الزبير ويثبت كذلك في الأمهات ، فقد غلط الناس فيه لذلك العهد ، وعرفوه كذلك ، حتى صححه الأشتر نفسه . ولا يبعد أن يكون قاله الاثنان : ابن عتاب وابن الزبير ، فيكون الأشتر قد نفي أن يكون ابن الزبير القائل الأول . وعلى ذلك تستقيم الرواية القائلة أن الأشتر قال مخاطباً السيدة عائشة :

| | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| أعائش لولا أنني كنت طاوياً | ثلاثاً لألفيت ابن أختك هالكا |
| غداة ينادى والرجال تحوزه | بأضعف صوت : « اقتلوني ومالكا » |
| فلم يعرفوه إذ دعاهم وعمه | خدبّ عليه في العجاجة باركا |
| فجاء مني أكله وشبابه | وأني شيخ لم أكن متماسكا |
| وقالت : « على أي الحصال قتلته ؟ | بقتل آني ، أم ردّة لا أبالكا |
| أم المحسن الزاني الذي حل قتلته » | فقلت لها : « لا بد من بعض ذلكا » |

وقد كنت على ظن أن هذه الآيات وهذا الخطاب مصنوعان ، قبل أن أجد في مسند أحمد ما يؤيد هذا الخبر ويسمى له زمناً بعد المعركة :

روى الإمام أحمد في مسنده (٥٨/٦ ، ٢٠٥) : أن الأشتر وعماراً دخلا على عائشة ، فسلم عمار فقالت : « السلام على من اتبع الهدى » مرتين أو ثلاثاً ، ثم قال عمار : « أما والله إنك لأبى وإن كرهت » . قالت : « من هذا معك ؟ » قال : « الأشتر » . فقالت : « أنت الذي أردت أن تقتل ابن أختي ؟ » ، قال : « نعم ، قد أردت ذلك وأراده » . قالت : « أما والله لو فعلت ما أفعلت ، أما أنت يا عمار فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا من ثلاثة : إلا من زنى بعد إحصان ، أو كفر بعد ما أسلم ، أو قتل نفساً فقتل بها » . ٥٨/٦ هـ ١٠١ — الحدب : الجمل الشديد الصلب . وكقوله (اقتلوني ومالكا) قول شمشون الجبار : « على وعلى أعدائي يا رب » .

(١) الطبري ٥٣٣/٣ . وهنا خبر وملاحظة :

روى ابن عبد ربه : أن ابن الزبير قال : « التقيت مع الأشتر يوم الجمل ، فما ضربته ضربة حتى ضربني خمساً أو ستاً ، ثم جرّ برجلي فألقاني بالخندق وقال : « والله لولا قربك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع فيك عضو إلى عضو » العقد الفريد ٦٢/١ ، ١٠٢/٣ — وهذا خبر لطيف يدل على نبل في الأشتر كبير ومحبة للرسول صادقة ، وزيدته لطفاً أن رواه هو ابن الزبير نفسه . إلا أنه لا يثبت على النقد ، للرواية التي مرّت بك آنفاً عن مسند الإمام أحمد . =

عفر الجمل واشتهاء المعركة :

اختلط المسكران ، وحى الوطيس ، وتضرم القتال ، ولاذ الجميع بالصبر حفاظاً وأنفة ، ولم يعد للرماح مجال فنأدى على : « السيف يا أبناء المهاجرين » وكان على يحمل الحملات الصادقة فتصدع لمحاته الصفوف ، ويضرب بسيفه حتى يثنى ، ثم يرجع فيقول : « لا تلوموني ولوموا هذا » ثم يقومه أو يأخذ غيره ويعود ، ولقد صدق الذى قال وأحسن :

شهدت الحروب وشيئني فلم تر عيني كيوم الجمل
أشد على مؤمن فتنةً وأفتك منه لخرق بطل
فليت الظعينة في بيتها وليتك (عسكر) لم ترتحل^(١)

واستمت الناس أمام الجمل حتى كثرت القتلى حوله ، وكان القادم إليه ملق نفسه على الموت يطلبه طلباً ، حتى قيل للواقف حوله « ما يوقفك حيال الجمل ، الموت معك وبإزائك^(٢) » وكثر الرجز في ذلك اليوم : يقول قائل من أهل البصرة :

يا أيها الجند الصليب الإيمان
قوموا قياماً واستغيثوا الرحمن
إني أتانى خبر ذو ألوان :
أن علياً قتل ابن عفان

— أما الملاحظة فهي أن ابن عبد ربه روى أن ابن الزبير أرسل إلى عائشة يوم الجمل : « إني صالح » ، فسجدت لله شكراً ، وأعطت من بشرها بخلاصه حين التقى بالأشتر أربعة آلاف — العقد الفريد ٦٢/١ ، ١٠٢/٣ .

وذكر ابن عساكر : أن ابن الزبير أخذ من وسط القتلى يوم الجمل وبه بضع وأربعون طعنة ، وأعطت عائشة للذى بشرها به عشرة آلاف درهم ثم سجدت شكراً . تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤٠٢/٧ . فذكر بعض المحققين (وضاع على اسمه وعصره) أن صلتها من بشرها بنجاة كانت يوم إفريقية لا يوم الجمل لشغلها حينئذ عن ذلك بنفسها ، وما تشاهد من أهوال ، ولبعد المال عنها حينذاك .

ولست أرى في ذلك بعداً ، وأرجح أن العطاء كان منها مرتين ؛ أما بعد المال منها فليس في النصين : نص ابن عبد ربه ونص ابن عساكر ما يفيد أن العطاء والبخارة كانا في المعركة لا عقبها . هذا « ولم يكن أحد أحب إلى عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبيها من ابن الزبير ، وما دعت لأحد مثل دعائها له ، وأوصت له بحجرتها » — المصدران السابقان .

(١) العقد الفريد ٢٠١/٣ .

(٢) انظر في شدة القتال ص ١٧٠ من هذا الكتاب .

ردوا إلينا شيخنا كما كان
يا رب وابعث ناصرًا لعثمان
يقتلهم بقوة وسلطان

فيجيبه مجيب من عسكر الكوفة :

أبت سيوف مذبح وهدان
بأن ترد (نعثلاً) كما كان
خلقاً سويًا بعد خلق الرحمن
وقد قضى بالحكم حكم الشيطان
وفارق الحق ونور الفرقان
فذاق كأس الموت شرب الظمان ،

ويحى من عسكر عائشة من يقول :

يا أمنا يكفيك منا دنوة ،
لن يؤخذ الدهر الخطامُ عنوه
وحولك اليوم رجال شنوه
وحى همدان رجال الهبوه
والمالكيون القليلو الكبوه
والأزد حى ليس فيهم نبوه^(١)

ومن يقول :

أبا تراب ادن منى فترا
فاننى دانِ إليك شبرا
وإن فى صدرى عليك غمرا^(٢)

(١) الهبوة : الغبار (يعنى : أنهم رجال حرب) — الكبوة : عثرة الجواد . النبوة : أن يجيد
السيف عن الضريبة ، ومن قولهم « لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة » .
(٢) أبو تراب : كنى بها الإمام على . الغمر : الحقد .

ومن أخذ بخطام الجمل لا يدنو منه أحد إلا خبطه بسيفه ، فيقبل الحارث بن زهير الأزدى وهو يقول :

يا أمنا يا خير أم نعلمُ
أما ترين كم شجاع يُكلم
وتختلي هامته والمعصم

ولعله يريد توفير هذه الدماء الجارية بعقر الجمل ، فيختلفان ضربتين حتى يراها الراى يفحصان الأرض بأرجلهما حتى ماتا^(١) .

وإن أحزن لشيء فهذا الشيخ النبيل الصبيح الوجه ، الذى ملك عليه إخلاصه لعائشة واستماتته دونها ، فخرج وعليه جبة وشى يحض الناس على الحرب والدفاع ، وملء قلبه وجوارحه صدق وإيمان وهو يقول :

يا معشر الأزد عليكم أممكم
فإنها صلاتكم وصومكم
والحرمة العظمى التى تعمكم
فأحضروها جدكم وحزمتكم
لا يغلبن سم العدو سمكم
إن العدو إن علاكم رقمكم
وخصمكم بجوره وعمكم

لانفضحوا اليوم - فداكم - قومكم^(٢)

وهذا المنطلق كالنمر الغضبان ، من بين بنى ضبة آساد الطعان ، عوف بن قطن الضبى :

(١) ثم يقول راوى هذا الخبر : « ... فدخلت على عائشة (بعد ذلك بطويل) بالمدينة فقالت : « من أنت ؟ » قلت : « رجل من الأزد أسكن الكوفة » . قالت : « أشهدتنا يوم الجمل ؟ » قلت : « نعم » قالت : « لنا أم علينا ؟ » قلت : « عليكم » قالت : « أفتعرف الذى يقول : « يا أمنا يا خير أم نعلم ؟ » .

قلت : « نعم ، ذاك ابن عمى » فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت » - الطبرى ٥٢٩/٣ .

(٢) رم الشيء : أكله .

يندفع اندفاع السيل وهو ينادى : « ليس لعنات نار إلا على .. » ويأخذ بخطام الجمل وهو يقول :

يا أمُّ يا أمُّ خلا مني الوطن
لا أبتغي القبر ولا أبعي الكفن
من هاهنا محشر عوف بن قطن
إن فاتنا اليوم على فالغبن
أو فاتنا ابناء حسين وحسن
إذا أمت بطول هم وحزن^(١)

لقد كانت نصرة بني الأزد وبني ضبة لعائشة بالغة المدى قوة وشدة واستماتة ، على قدر ما يكونون لها من إجلال وتوقير ومحبة واحترام . حتى لقد ذكر الطبري : « أن المطيفين بها من الأزد كانوا يأخذون بعرج الجمل فيفتونه ويشمونهم ويقولون : بعرجل أمنا ، ريجه ريح المسك^(٢) » .

وهذا رجل من أصحاب علي يقاتل فيهم وهم حافون بالجمل ويقول :

جردت سيفي في رجال الأزد
أضرب في كهولهم والمرد
كل طويل الساعدين نهدي

وعلم على والناس أن القوم ما هم بكافين عن التساقط حول الجمل ، ولقد كادت بنو ضبة تفنى ، وكذلك بنو عدى ، وقد قتل حوله سبعون من قریش خاصة ، وليس أدل على تفاني بني ضبة وصدقهم القتال وتسارعهم إلى الفناء من شهادة عائشة المشهورة حين قالت : « ما زال جملي معتدلاً حتى فقدت أصوات بني ضبة » .

أولا تشرمعى — في شدة تلك الحرب — بالحسرة اللاذعة تملأ قلب الحارث بن سويد وكان شهد يوم الجمل مع طلحة والزبير ، لقد ترك لنا وصفاً موجزاً بليغاً لشدة يوم الجمل ، وكان يتقطع قلبه كلما ذكره بعد ذلك ، قال :

(١) الفين الحسارة . وهذه الأراجيز عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٤/١ فما بعد .

(٢) ٥٣٠/٣ .

« والله ما رأيت مثل يوم الجمل : لقد أشرعوا رماحهم في صدورنا وأشرعنا رماحنا في صدورهم ، ولو شاءت الرجال أن تمشى عليها لمشت ؛ يقول هؤلاء : (لا إله إلا الله) ويقول هؤلاء : (لا إله إلا الله) . . . فوالله لوددت أنى لم أشهد ذلك اليوم وأنى أعمى مقطوع اليدين والرجلين ^(١) . . . ! ! » .

رأى على أن الواجب يفرض عليه خطة حاسمة ينقذ بها هذه الأرواح القليلة الباقية التي عزمت عزماً لا رجعة فيه : على أن تموت حول الجمل ، فنادى :

« اعقروا الجمل »

وكان آخر من قاتل ذلك اليوم أمامه زفر بن الحارث آخر من أمسك بزمام الجمل ، زحف إليه القعقاع ، فلم يبق حول الجمل من بنى عامر يومئذ شيخ إلا أصيب قدام الجمل : يتسرعون إلى الموت تسرعاً . وقال القعقاع لبجير بن دلجة الضبي — وكان من الضبيين القلائل في عسكر على وأخوه في عسكر عائشة — : « يا بجير بن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين . »

فنادى هذا قومه وأخاه من عسكر عائشة قائلاً : « يا آل ضبة ، يا عمرو بن دلجة ، ادع بى إليك » . فدعا به ، فقال : « أنا آمن حتى أرجع ؟ » قال : « نعم » فمشى إلى البعير فاجتث ساقه ، فرمى بنفسه على شقه ، وجرجر البعير ولم يسمع قط صوت أشد من عجيجه ، فسئل بجير : « لم عقرته ؟ » فقال :

« رأيت قومي يقتلون حوله ، فحقت أن يفنوا ، ورجوت إن عقرته أن يبقى لهم بقية ^(٢) » . وفي ذلك قال الحارث بن قيس أحد أصحاب عائشة :

نحن ضربنا ساقه فأنجدلا
من ضربة بالنفر كانت فيصلا
لو لم نكوّن للرسول ثقلا
وحرمة لاقتسمونا عجلا ^(٣)

(١) العقد الفريد ١٠٢/٣ .

(٢) الطبرى ٥٣١/٣ .

(٣) ٥٣٧/٣ .

وقال القعقاع لمن يليه : « أتم آمنون » .
واجتمع هو وزفر بن الحارث على قطع بطان البعير وإزال الهودج عن ظهره ، فوضعا
وإنه لكاتفئذ من كثرة النبل فيه . « وأطافا بالهودج ، ونادى منادى على :
« إنكم آمنون »

فكف بعض الناس عن بعض .
وأمر على محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فقطعا غرصة^(١) الرجل ونحيا الهودج في نفر
من أصحابهما . فأدخل محمد يده فيه فقالت عائشة : « من هذا ! »
قال : « أخوك البر »
قالت : « عقوق ؟ »
قال : « محمد »
قالت : « مذمم ؟ »
قال : « يا أخية ، هل أصابك شيء ؟ »
قالت : « ما أنت من ذاك ؟ »
قال : « فمن إذن ؟ الضلال ؟ »
قالت : « بل الهداة » .

إلا أن هناك رواية ثانية للطبرى هي أخرى أن تكون وقعت ، فقد ذكر أن علياً أمر
أخاه محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة وينظر : هل وصل إليها شيء ؟ فأدخل أخوها
رأسه في الهودج فقالت : « من أنت ويلك ؟ » قال : « أبغض أهلك إليك . »
قالت : « ابن الخثعمية ؟ » ، قال : « نعم »
قالت : « بأبي أنت وأمي ، الحمد لله الذى عافاك^(٢) » .
وهذا أقرب أن يكون بين الإخوة مهما شجر بينهم .
وكانت بادرة من عمار لم تخل من جفاء ، فقد قال لها : « كيف رأيت ضرب بنيك
يا أمه ؟ »

(١) الغرصة للرجل : كالجزام للسرّج — القاموس .

(٢) الطبرى ٣/٢٢٨ .

قالت : « من أنت ؟ » ، قال « ابنك البار عمار »
قالت : « لست لك بأُم » ، قال : « بلى وإن كرهت ^(١) » .
قالت : « فخرتم أن ظفرتم ، وأنتيم ما نقتم . هيهات ، لن يظفر من كان هذا دأبه ^(٢) » .
أبرزوا السيدة يهودجها من القتلى ، وإن الهودج مثل الفرخ المقضب (المقطع) مما فيه
من النبل ، وإن سحت إحدى روايات الطبري يكن القوم قد ارتكبوا خطيئة كبرى بتركها
وحدها بلا حراس ، حتى أتاها أحد الأجلاف ممن ليس في قلوبهم نبل ولا إيمان : أعين
ابن ضبيعة المجاشعي « فاطلع في الهودج ، فقالت السيدة : (إليك لعنك الله) فقال (والله
ما أرى إلا حميراً) فقالت : (هتك الله سترك ، وقطع يدك وأبدى عورتك) فذكروا أنه
قتل — فيما بعد — بالبصرة وسلب وقطعت يده ، ورُمي به عرياناً في خربة من خربات
البصرة ^(٣) » .

وأنا — وإن ذكر ذلك الطبري — أستبعده كل الاستبعاد ؛ فليس يعقل أن يزدحم
من حولها المستमितون في الدفاع عنها ثم يتناثرون في طرفة عين فلا يبقى منهم أحد ويتركوها
عرضة لمثل هذا الجلف بعد أن أمن الفريقان بعضهم بعضاً ، وليس على ولا من معه من أجلاء
المسلمين ممن يصح أن يغفلوا عن رعايتها . وما أرى أحداً يتجرأ على السيدة بمثل هذا مهما
لؤم ، وليس يعقل أن يتركها أخوها محمد وحدها . وهذا الطبري قد ذكر في موضع آخر
أنه ضرب عليها فسطاطاً ^(٤) .

(١) الكامل لابن الأثير ١٠٩/٣ والطبري ٥٣٩/٣ .

(٢) ولم يكنف عمار — على ما يظهر — بهذا الخطاب يسيء به أمه ، فإنه لما عازمت على الرجوع
إلى المدينة وخرجت من البصرة وخرج مشيعوها لم يترك عمار أن يقول لها : « يا أم المؤمنين ما أبعد هذا
السير من العهد الذي عهد إليك ! » ، ولكن السيدة لطفت به لطف الأم بولدها الناشئ ، ورفقت في
جوابها فقالت : « إنك — ماعلمت — لقوال بالحق » قال عمار : الحمد لله الذي قضى لي على لسانك —
الطبري ٥٤٨/٣ والكامل لابن الأثير ١١١/٣ .

(٣) الطبري ٥٣٩/٣ والحميراء في لغة الحجاز : البيضاء — انظر في ذلك سير النبلاء للذهبي ٥٠/٢ .

(٤) الطبري ٥٢٨/٣ — وللطبري خبر طريف يتعلق بتعويض الأشتري السيدة عن جملها ، فإنه لما
فرغوا يوم الجمل ، أمر الأشتري رجلاً فاطلق فاشترى له جملاً بسبعائة درهم من رجل من مهرة وقال له :
« انطلق به إلى عائشة فقل لها : بعث به إليك الأشتري مالك بن الحارث ويقول : « إن هذا البعير مكان
بعيرك » . ففعل الرجل ، فقالت عائشة : « لا سلم الله عليه إذ قتل يعسوب العرب (يعني ابن طلحة) » ،
وصنع ابن أخي ما صنع « فرد الرجل البعير إلى الأشتري وأعلمه بما قالت ، فأخرج ذراعين شعراوين وقال :
« أرادوا قتلي فما أصنع ؟؟ » — ٥٤٥/٣ .

انتهى على بن أبي طالب إلى السيدة فوقف وقال :
« استفزرت الناس وقد فزوا ، فألّبت بينهم حتى قتل بعضهم بعضاً . . . » في كلام
كثير . . .

فقال عائشة : « يا بن أبي طالب ، ملكت فأسجح^(١) ، نعم ما أبلت قومك اليوم . »
فقال : « أي أمه ، يغفر الله لنا ولكم »
فقال : « غفر الله لنا ولكم »
وأمر أخاها وعماراً أن يدخلها البصرة ، فدخلها وأنزها أخوها دار عبد الله
ابن خلف الخزاعي ، على صفية بنت الحارث وهي أم طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف .

انتهى القتال ، وأمسى الناس ، ونفث على ما في صدره من الهم ، وجأر إلى ربه يقول :

إليك أشكو عُجْرِي وُبُجْرِي
ومعشراً غشوا على بصرى
قتلت منهم مضراً بمصرى
شفيت نفسي وقتلت معشري !!^(٢)

ونادى مناديه : « ألا يجهز على جريح ، ولا يُتبع مولٍ ، ولا يطعن في وجه مدبر ،
ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .
ثم أمّن الأسود والأحمر^(٣) .

كانت الموقعة من أول النهار حتى العصر إذ تمت الهزيمة على أصحاب الجمل ، وذلك
يوم الخميس (أو الجمعة) في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة^(٤) .

(١) أسجح : سهل ، كن سهلاً سمحاً .

(٢) العجر : العروق المتقدمة الناتئة في الجسد . والبيجر : ما تعقد منها على البطن خاصة ، ألقبت إليه
بعجري وبجري : أطلته على معايب لتقتي به ، أفضيت إليه بعجري وبجري : أي ما أعلن وما أخفي من
همومي وأحزاني .

(٣) اليعقوبي ٢/٢١٣ .

(٤) في توريضهم يوم المعركة بعض النضارب : فالطبري يجعله في إحدى روايته (٤١٤/٣) يوم =

الفصل الرابع

القتلى

الزبير :

أجفلت نفس الزبير من هذا القتال في أوله لما التقى بعلي وذكر له ما ذكر^(١) . فرجع إلى عائشة يقول : « ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى ، غير موطنى هذا »^(٢) . قالت : « فما تريد أن تصنع ؟ » قال : « أريد أن أدعهم وأذهب » ، فقال له ابنه عبد الله : « جمعت بين هذين الغارين ، حتى إذا حدّد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم

— الخميس في النصف من جمادى الآخرة ، وابن عبد ربه يجعله يوم الجمعة في النصف منه أيضاً ، ووفق في يوم واحد مما يقبل في الأشهر القمرية . إلا أن هناك رواية ثانية للطبرى يرويها عن الواقدي تجعل موقعة الجمل لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ (٤٣٩/٣) وهي رواية مرجوحة انفرد بها الواقدي ، فامتحن الروائين بالحساب فكانت الرواية الأولى هي الصحيحة دون رواية الواقدي . وعلى ذلك يكون المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار قد تسرّع في اعتاده الرواية المرجوحة في كتابه (تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون ص ٤٠٩ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) .

(١) من أطرف ما قرأت مما زعموا أنه دار بين علي والزبير ما أورده السعودي — وهو على ما عرفت راو غير ثقة في هذا الباب — في كتابه مروج الذهب ، وهذا هو بنصه :

قال الزبير لعلي وقد ذكره : « كيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان ، هذا والله العار الذي لا يغسل » ، فقال علي : « يا زبير أرجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار » ، فرجع الزبير وقال :

اخترت عارا على نار مؤججة ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى على بأمر لست أجهله عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن فبعض الذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبد الله ... الخ — مروج الذهب ٨/٢ .

(٢) ولصاحب الإمامة والسياسة زيادات مبثوثة في أنحاء الخبر ، كدأبه في أكثر ما يروى مما عيس حز بيته (الشيعة) ولا بأس بإيراد ما رواه :

ذكروا أن الزبير دخل على عائشة فقال : « يا أمه ، ما شهدت موطناً قط في الشرك ولا في الإسلام إلا ولي فيه رأى وبصيرة غير هذا الموطن ، فإنه لا رأى لي فيه ولا بصيرة ، وإن لي على باطل » . قالت عائشة : « يا أبا عبد الله ، خفت سيوف بني عبد المطلب » . ١٠ هـ .

ويورد عبارة عائشة مصدر آخر شيعي هو (الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية) على هذه الصورة : « لا والله ، بل خفت سيوف ابن أبي طالب ، أما والله لأنها حداد (تحملها) سواعد أمجاد ، فلئن خفتها لعد خافها الرجال قبلك » . فرجع إلى القتال — ص ١٥٣ .

وتذهب؟!... أحسست رايات ابن أبي طالب، وعلت أنها تحملها فتية أنجاد.. وعرفت أن تحتها الموت فجنت...» .

قال: «إني حلفت ألا أقاتله. وأغضبه ما قال ابنه وأحماءه، فقال عبد الله: «كفر عن يمينك وقاتله. فدعا بسلام له اسمه (مكحول) فأعتقه. فقال عبد الرحمن بن سليمان التيمي:

لم أر كاليوم أخوا إخوان
أعجب من مكفر الأيمان
بالتق في معصية الرحمن

وقال آخر:

يعتق مكحولاً لصون دينه
كفارة لله عن يمينه
والنكث قد لاح على جبينه^(١)

ولقد عبرته عائشة بمثل تعبير ابنه له، وهما يعلمان أنه ليس بالجبان، ولكننا أرادنا أن بصرفاه عن الاعتزال، خشية أن يكسر اعتزاله من قوة العسكر. فجعل الزبير يحمل على جند على فيفرجون له لما أخبرهم به على من أنه محرج (يقاتل كارها)، وعرفت أن عمارة حازه بالسيف ولم يؤذه.

وللرواة خبر طريف يعللون به انصراف الزبير عن القتال غير ما ذكره به على: حدثه رجل من جيش على قائلاً: «هؤلاء القوم قد أتوك، فلقيت عمارة فقلت له وقال لي. «فقال الزبير— وكان على حد تعبير على فيه: إذا ذكر بالله ذكر—: «ليس عمار فيهم» [لما رووا من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ويح عمار تقتله الفئة الباغية] فقال الرجل «بلى والله إنه فيهم» والزبير يدافعه ويقول: «والله ما جعله الله فيهم.» ثم

(١) الطبري ٣/٥١٤، ٥٢٠، ويسمى الطبري غلامه (سرجس) — هذا ويذكرون أيضاً صارفاً آخر صرف الزبير عن القتال: لقيه ابن عباس (داهية بنى هاشم) يوم الجمل فقال له: «يا بن صفة، هذه عائشة تملك الملك لقربها طلحة: وأنت على ماذا تقاتل قريبك!»؛ فرجع الزبير. فلقبه ابن جرير بالـ «تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٣٦٤» .

أرسل من رجع وأخبره بصدق الرجل . . فيذكر الرواة أن الزبير حينئذ صرخ : « يا جَدْعُ أنفاه ، وانقطع ظهراه ! » ثم أخذهُ أَفْكَلٌ (رعدة شديدة) فجعل السلاح ينفض ، فقال أحد من حضره جون بن قتادة : « شككتني أمي ، هذا الذي كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه . والذي نفسي بيده : ما أخذ هذا ما أرى إلا لشيء سمعه أو رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . » فلما تشاغل الناس جلس الزبير على دابته وانصرف .

فلحق جون بالأحنف بن قيس الذي كان اعتزل الفريقين ، فأخبره بما كان وقد مر الزبير قريباً منهم ، فقال الأحنف : « وما أصنع به : أن جمع بين الغارين (المسكرين) حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف ثم يلحق بيته وقد ترك الناس ؟ » .

وجاء فارسان فأتيا الأحنف فناجياه ساعة ثم انصرفا ، وقال للناس : « ما هذا انجياز ، من يأتينا بخبره ؟ » فقال عمرو بن جرموز لأصحابه « أنا » فاتبعه ، فلما لحقه نظر إليه الزبير وكان شديد الغضب وقال له : « ما وراءك ؟ » قال « إنما أردت أن أسألك . » وقال للزبير غلامه : « ما يهولك من رجل ؟ » وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز : « الصلاة . » فقال الزبير : « الصلاة » فترلا واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه في جُرْبَان (شق) درعه فقتله وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه ، وخبى عن الغلام فدفنه بوادي السباع ، ورجع إلى الأحنف بالخبر ، فدخل معه على عليّ وهو لا يدري أحسن أم أساء ، فلما أخبر علياً دعا بسيف الزبير وقال : « سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله » ثم أنب الأحنف وبشر قاتل الزبير بالنار ، وأرسل بسلبه إلى عائشة .

فكان جماعة يرون أن صاحب الزبير هو الأحنف بن قيس (١) .

(١) انظر الطبري ٣/٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ — وقالت زوجة الزبير

عائكة بنت زيد تربيته وتدكر قاتله عمرو بن جرموز :

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| غدرا ابن جرموز بفارس بهمة | يوم اللقاء وكان غير معرّد |
| يا عمرو لو نبهته لوجدته | لا طائشاً رعى الجنان ولا اليد |
| شلت يمينك ، إن قتلت مسلماً | حلت عليك عقوبة المتعمد |
| إن الزبير لتو بلاء صادق | سمح سجيته كريم المشهد |
| كم غمرة قد خاضها لم يثنه | عنها طرادك يابن فقع القرود |
| فاذهب ، فاظفرت يداك بمنله | فيا مضي ، فيما تروح وتفتدى |

تهذيب تاريخ ابن عساکر ٥/٣٦٦ وشرح شواهد المغني ص ٢٦ — البهية : الفارس الذي لا يدري =

طلحة :

وأما طلحة فقد رووا أنه ندم أشد ندامة على ما كان منه نحو عثمان ، وأنه كان يكثر أن يقول : « اللهم خذ مني لعنان حتى يرضى »^(١) فأصابه سهم غرَب (طائش) في ركبته فكان إذا أمسكوه فتر الدم وإذا تركوه انفجر ، فقال لهم : « أتركوه فإنما هو سهم أرسله الله » . وقال لغلامه : « أردفني وابغني مكاناً لا أعرف فيه فلم أر كالليوم شيخاً أضيع دماً » فركب مولاه وأمسكه وجعل يقول : « لحقنا القوم » حتى انتهى إلى البصرة ، وطلحة يتمثل مثله ومثل الزبير :

فإن تكن الحوادث أقصدتني وأخطأهن سهمي حين أرى
فقد ضيَّعت حين تبعت سهماً سفاهاً ما سفهت وضل حلبي
ندمت ندامة الكسبي لما شريت رضى بنى سهم برغمي
أطعتم بفرقة آل لأى فآلقوا للسباع دمي ولحى^(٢)

فبلغ به خادمه داراً من دور البصرة خربة فأنزله في فيها فمات في تلك الخربة ، ودفن رضى الله عنه في بنى سعد^(٣) .

= من أين يؤتى لشدة بأسه . المرء : الهارب . الطائش : الخفيف . الفقع : الكمأة الرخوة البيضاء ، القردد : المكان الغليظ (ويقال للذليل : أذل من فقع بقرقرة ، لأنه يوطأ بالأرجل ولا يتمتع على من جناه . وعاتكة هذه صحابية مهاجرة مبيعة ، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة : كانت تحت عبد الله بن أبي بكر فقتل عنها ، ثم تزوجها زيد بن الخطاب فقتل عنها ، ثم تزوجها عمر بن الخطاب فقتل عنها ، ثم تزوجها الزبير فقتل عنها ... فكان على بن أبي طالب يقول : « من أراد الشهادة الحاضرة ، فليزوج بعاتكة » — زهر الآداب ٧٤/١ (الطبعة الرحمانية — الطبعة الثانية) .

(١) ويزيد هنا صاحب الإمامة والسياسة ، فيروى أن طلحة قال : « اللهم إن كنا قد داهنا في أمر عثمان وظلمناه ، فخذ له مناحي ترضى » ، فاقضى كلامه حتى ضربه مروان ضربة أتى منها على نفسه ، فخر . وثبتت عائشة وجماها مروان في عصابة من كنانة وقيس وبنى أسد .. الخ ص ٦٧ .

أما المسعودي فيروى أن مروان رماه في أكله ، وأن عبد الملك بن مروان رماه في جبهته — مروج الذهب ٩/٢ .

(٢) الكسبي : هو غامد بن الحارث اتخذ قوساً وخمسة أسهم ، وكن في نجباً : فر قطيع فرمى عيرا (ظيماً) فنفذ فيه السهم وصدم الجبل فأورى ناراً ، فظن أنه قد أخطأ ، فرمى ثانياً وثالثاً .. إلى آخرها وهو يظن أنه أخطأ ، فعمد إلى قوسه فكسرها ثم بات ؛ فلما أصبح نظر فإذا الظباء مطرحة مصرعة وأسهمه بالدم مضرجة ، فندم فقطع لإبهامه وأنشد :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني ، إذن لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني - لعمراً بيك - حين كسرت قوسي

(٣) الطبري ٥١٩/٣ ، ٥٣٤ ، والعقد الفريد ٩٩/٣ .

وإذا ذكرت ما سر بك ص ٨٤ — من أن مروان خرج في أصحاب الجمل دسيسة لينتقم من جميع خصوم عثمان ، وليدبر أمراً آخر خفياً يبسر للأمويين — ويعسوبهم معاوية بدمشق — ملكاً وطيداً بعد أن يخلو وجه الأرض من أهل السابقة من فحول الصحابة الأجلء ، وأنه يعرف مسير طلحة في أمر عثمان ، وأن سعيد بن العاص قال له : « أين تذهب وتأرك على أعجاز الإبل » ؟ وأن مروان في الدهاء والحيلة بالموقف الذي لا يجهل وأنه كان يعنى ما يقول حين أجاب سعيداً بقوله : « بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً » إذا ذكرت ذلك لم تستغرب ما روى المؤرخون من أن هذا السهم الغزب الذي قتل طلحة إنما راسه مروان الذي لما رأى طلحة قال : « لا أنتظر بعد اليوم بثأرى في عثمان » . فأنزعه بالسهم فقتله^(١) ، فكان هو صاحب دمه (مباشرة) كما كان الأحنف قاتل الزبير (غير المباشر) .

أما أنا فعلى يقين من ذلك^(٢) ، بل إني لأذهب إلى أن مروان كان يتربص بخصومه من كلا الفريقين ، وأنه — لا بد — قتل كثيرين منهم غدرًا ، ممن لم يصل إلينا تفصيل مقتلهم .

بقية القتلى :

قتل طلحة والزبير ، وتقدم في عرض الحوادث مقتل محمد بن طلحة وكعب بن سور وعمرو بن يثرب وعبد الرحمن بن عتاب . . . وغيرهم من رؤوس الناس وقضاتهم ومشيختهم ، وقتل حول الجمل سبعون قرشياً وسبعون من بنى عدى : كلهم شيخ قد قرأ القرآن ، سوى الشباب . . حتى قالت عائشة : « ما زلت أرجو النصر حتى خفيت أصوات بنى عدى » ، سوى قتلى ضبة التي كادت تفتى عن آخرها حول الجمل .

لم يكن القتال من نية أحد الفريقين غير السبئيين ، ولكنه لم يكذب ينشب حتى انجلى عن عدد من الضحايا لم يكن ليتوقعه أحد قط ، وكان من خلف الفريقان خلفهما من أهل

(١) المصدران السابقان ، وفي الفائق للزحصرى رواية عن السيدة عائشة : « كان طلحة ينثل (يصب) درعه إذ جاء سهم فوق في نحره فقال : « بسم الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً » — ٣٦٣/٢ .

(٢) أقر مروان نفسه بقتله طلحة — تهذيب تاريخ ابن عساكر ٨٥/٧ .

المدن والبوادي لا يشكون في أن القوم خرجوا إلى الإصلاح لا يبعثون قتالا ؛ فلم ينته اليوم المشؤوم حتى « علم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة : بما ينقل إليهم النور من الأيدي والأقدام ^(١) . ويصف ذلك الحجاج بن علاط وقد قتل أخوه في المعركة بقوله :

فلم أر يوماً كان أكثر ساعياً بكف شمال فارقها يمينها ^(٢)

وأقل الروايات على أن من قتل يوم الجمل عشرة آلاف ، نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب الجمل : من الأزدي ألفان ومن سائر اليمن خمسمائة ، ومن مضر ألفان ، ومن قيس خمسمائة ، ومن تميم خمسمائة ، وألف من بني ضبة ، وخمسمائة من بكر بن وائل ، وغيرهم .

هذا عدا خمسة آلاف ^(٣) من أهل البصرة قتلوا في المعركة الأولى (يوم الجمل الأصغر) فيكون عدة من قتل خمسة عشر ألفاً على أقل تقدير ، وكفى بهذا نكبة فادحة في أمة أعملت سلاحها في نفسها ، وسنت لأخلافها هذه السنة المشؤومة : يشرعون رماحهم في صدور إخوانهم ، هؤلاء يقولون (لا إله إلا الله) وهؤلاء يقولون (لا إله إلا الله) .

وفي مساء ذلك اليوم طاف على ومعه مولاه ، بشمعة : يتصفح وجوه القتلى . . حتى وقف على طلحة بن عبيد الله متعفراً ، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول :

« أعزّز علي ؛ أبا محمد أن أراك متعفراً تحت نجوم السماء و بطون الأودية . إنا لله وإنا إليه راجعون . . شفيت نفسي وقتلت معشري ، إلى الله أشكو عجري وبجري ^(٤) » ،
« . . . لقد كنت أكره أن تكون قریش قتل تحت بطون الكواكب . أدركت وترى من عبد مناف ، وأفلتتني أعيار بني جمح ؛ لقد أتلعوا أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهله فوقصوا دونه ^(٥) » .

(١) الكامل لابن الأثير ١١١/٣ وزاد : أن أهل المدينة علموا بالوقعة قبل أن تقرب الشمس يوم الحرب : من نسر من بجاء حول المدينة ومعه شيء معلق فسقط منه ، فإذا كف فيها خاتم نقشه : عبد الرحمن ابن عتاب !! - ٥١ .

(٢) الطبري ٥٤٨/٣ .

(٣) الطبري ٥٤٣/٣ فأما اليمقوبي فقد أبلغ القتلى في يوم الجمل الأكبر فقط ثلاثين ألفاً ونيقاً

- ٢١٣/٢ .

(٤) العقد الفريد ٩٩/٣ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٨٦/٧ والكامل للبرد (ص ١٢٣

طبعة ليدن) .

(٥) هذه الزيادة عن شرح نهج البلاغة ٤١/٣ .

وجعل يقول : « والله إنى لأرجو أن أكون أنا وعمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ^(١)) . . . وإذا لم نكن نحن فمن هم ؟؟ » ثم أجلس طلحة ومسح الغبار عن وجهه وبكى عليه ^(٢) .

وطاف على مع الناس في القتلى ، فلما رأى كعب بن سور قال : « زعمتم أنما خرج معهم السفهاء وهذا الخبر قد ترون ؟! » وجعل يخاطبه قائلاً : « والله إنك — ما علمت — كنت صليباً في الحق قاضياً بالعدل » . وأتى على عبد الرحمن بن عتاب فقال : « هذا يعسوب القوم الذى كانوا يطيفون به » أى يجتمعون عليه راضين به لصلاتهم . وجعل على كلما مر برجل فيه خير قال : « زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الفوغاء ؛ وهذا العابد المجتهد ؟ » .

ثم صلى على قتلاهم من أهل البصرة وعلى قتلاهم من أهل الكوفة ، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء مكيين ومدنيين ، ودفن الأطراف في قبر عظيم ، وجمع ما كان في العسكر من شىء ، ثم بعث إلى مسجد البصرة قائلاً :

« من عرف شيئاً فليأخذه إلا سلاحاً عليه سمة السلطان فإنه مما بقى ما لم يعرف ، خذوا

(١) سورة الحجرات ١٥ الآية ٤٧ .

(٢) وقع قوم في طلحة عند على فقال : « أما والله إنه لكما قال الشاعر :

| | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| فتى كان يدينه الفنى من صديقه | إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر |
| فتى لا يعد المال ربا ولا ثرى | به جفوةٌ إن نال مالاً ولا كبر |
| فتى كان يعطى السيف في الروع حقه | إذا ثوب الداعي وتشقى به الجزر |
| كأن الثريا علقت في يمينه | وفي خده الشعرى وفي الآخر البدر |
| وهون وجدى أنى سوف أغتدى | على إثره يوماً وإن نفس العمر |

ولما دخل على البصرة استقبل ابنه عمران بن طلحة فرحب به وأدناه وقال له :

« إنى لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال فيهم : (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » ثم جعل يلاطفه ويقول : « : يابن أخى ، كيف فلانة وفلانة (عن أزواج أبيه) » ثم قال : « لم أبيض أرضكم هذه السنين إلا مخافة أن يتهبها الناس » ، « يافلان انطلق معى إلى ابن قرظة : مره فليمطه غلته هذه السنين وليدفع إليه أرضه » .

وكان الحارث الأعور جالساً في ناحية فقال : « الله أعدل من أن تقتلهم ويكونوا لإخواننا في الجنة . » فقال على : « قم إلى أبعده أرض الله وأسحقها ، فمن هو ذا إذن إن لم أكن أنا وطلحة (لإخواناً) في الجنة . » ثم التفت إلى عمران يقول : « : يابن أخى ، إذا كانت لك حاجة فأتنا » — العقد الفريد ١٠٠/٣ وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٨٠/٧ ، ٨٦ ، ٨٧ والكامل للمبرد (ص ١٢٣ طبعة ليدن) والأبيات التى تمثل بها على تنسب للأبيد الرياحى .

ما أجلبوا به عليكم من مال الله عز وجل ؛ لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء ، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفل من السلطان^(١) .

كانت سيرة علي في القتلى سيرة جميلة صالحة عفيفة : ترحم على الجميع من هؤلاء وهؤلاء ، ودفنهم ، وكما مر بقتلهم قال : « اللهم اغفر لنا ولهم » وكان معه عمار ومحمد ابن أبي بكر ، فقال أحدهما لصاحبه متعجباً : « أسمع ؟ » قال : « اسكت لا يزيدك^(٢) » .
وسئل عن قتلى الجمل مرة : « أمشركون أم منافقون ؟ » فقال : « من الشرك فروا ، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ؛ إنما هم إخواننا بغوا علينا » .
وقال أيضاً : « إنما اقتتلنا على البغي ولم تقتتل على التكفير » .
ورى الحارث بن حوط مرة أمام علي بهذا القول : « أظن طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل » ، فقال علي : « يا حارث ، إنه ملبوس عليك ، وإن الحق والباطل لا يعرفان بالناس ، ولكن : اعرف الحق تعرف أهله ، واعرف الباطل تعرف من أتاه^(٣) » .
وهي كلمة — كما ترى — كبيرة حكيمة .

ثم وقف علي في وجه من تحدته نفسه بعدوان على أحد من أصحاب الجمل ، وقفته الحاسمة المشهورة ، فقد أمر أصحابه : ألا يقتلوا مدبراً ولا يذققوا (يجهزوا) على جريح ، ولا يكشفوا سترأ ولا يأخذوا مالا^(٤) . فقال قوم يومئذ : « ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ » فقال : « من صفح عنا فهو منا ونحن منه ، ومن لجج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر ، وهذه السنة في أهل القبلة » .

فيومئذ تكلمت الخوارج وقالوا : « ما ندري ما هذا ؟ » فجههم على بقوله : « هذه عائشة رأس القوم ؛ أتتساهمون عليها ؟ » قالوا : « سبحان الله ! هي أمنا . » قال : « فهي حرام ؟ » قالوا : « نعم . » قال : « فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها^(٥) » .

(١) الطبرى ٥٤٣/٣

(٢) العقد الفريد ١٠٥/٣

(٣) اليعقوبي ٢٤٨/٢

(٤) العقد الفريد ١٠٥/٣

وكذلك كان رأى أصحابه تبعاً لرأيه ، قال عمار في عائشة — وقد مر بك — على ملاء
من الناس في مسجد الكوفة :

« أما والله إنا لنعلم أنها زوجة في الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم : أتتبعوه
أم إياها ؟ » .

رحم الله أم المؤمنين ، فقد كانت المرأة الفذة في التاريخ : تزعمت (معارضة سياسية
عنيفة) وزحزحت خليفة ، وحاولت نصب خليفة ، وزعزعت أركان خليفة ، وقادت
جموعاً ، وخاضت حرباً ، ثم أرادت تجنب القتال فخرج الأمر من يدها إلى أيدي غوغائها ،
شأنها في ذلك شأن علي ، .. وكان ما كان مما ترتعد له فرائص كل مسلم : كلما ذكر فتنة
الجل وما استتبعت من ويلات !!

الفصل الخامس

في آخر أيام عائشة بالبصرة

دخول عائشة البصرة ونجرتها الى الحجاز :

« لما كان من آخر الليل خرج محمد بن أبي بكر بأخته عائشة أم المؤمنين حتى أدخلها البصرة في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفة بنت الحارث من بني عبد الدار^(١) ». وصار يأوى إليها في هذه الدار — وهي أعظم دار في البصرة على ما يقول الطبري — الجريح والخائف وترسل إلى المتخفين . وكان فيمن أجارت وضمت إليها مروان بن الحكم المشير المشؤوم على عثمان ورأس الشر (غير المتوج) في نكبة الجمل . وصارت هذه الدار مثابة الناس وملجأهم ، ومناط احترام الفريقين على السواء .

وصارت السيدة تتفقد جماعتها وتسال عن من كانت تعرف منهم سواء كان معها أم عليها ، وقد غشيها الناس وهي في دار ابن خلف ، « فكلمنا نعي لها منهم واحد قالت : « يرحمه الله . » فقال لها رجل من أصحابها : « كيف ذلك ؟ ! » قالت : « كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلان في الجنة وفلان في الجنة^(٢) ». وقولها هذا ضارع قول علي السابق : « إني لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقي قلبه إلا أدخله الله الجنة » . وهكذا اجتمع رأى الفريقين على حسن الظن بالله وتمنى الخير للجميع .

أقبل وجوه الناس على عائشة مسلمين — وعلى في عسكره بعد — وكان في أول الداخلين عليها : القعقاع بن عمرو ، فسلم عليها ، فقالت : « إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا

(١) أم طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف — الطبري ٥٣٩/٣ .

(٢) الطبري ٥٤٢/٢ . وقد روى عقب ذلك بسنده إلى علي بن أبي طالب : « ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم آية هي أفرح له من قول الله عز وجل : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . فقال صلى الله عليه وسلم : « ما أصاب المسلم في الدنيا من مصيبة في نفسه فيذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، وما أصابه في الدنيا فهو كفارة له وعفو عنه : لا يعتد عليه فيه عقوبة يوم القيامة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فقد عفا عنه ، والله أعظم من أن يعود في عفو » ١ هـ .

بين يدي وارتجزا بكذا ، فهل تعرف كوفيتك منهما ؟ » قال : « نعم ، ذاك الذى قال :
(أعتق أم نعلم ؟) وكذب والله إنك لأبر أم نعلم ولكن لم تطاعى » فقالت : « والله لوددت
أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة » .

وخرج فأتى علياً فأخبره بسؤال عائشة ، فسأل على : « ويحك من الرجلان ؟ » قال :
« ذلك أبو هالة الذى يقول : كما أرى صاحبه علياً » . فقال على : « والله لوددت أنى مت
قبل هذا اليوم بعشرين سنة » . فكان قولها واحداً^(١) .

ومن طريف كره الأقراب بعضهم لبعض وتفرقهم على معسكرين متعادين ما جرى
بين أخى السيدة محمد بن أبى بكر أحد أقطاب جيش على ، وابن أختها عبد الله بن الزبير
من كبار أصحاب الجمل ، وهو فى الوقت نفسه يدل على روح النكته فى السيدة وتمكها بهذا
الكره المميت يقع بين القربيين :

أوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزدر مستخفياً ، وقال له : « انت أم المؤمنين
فأعلمها بكافى ، وإياك أن يطلع على هذا محمد بن أبى بكر . » فأتى عائشة فأخبرها ، فقالت :
« على بمحمد » فقال الرجل : « يأم المؤمنين ، إنه قد نهانى أن يعلم به محمد » فلم تبال السيدة ،
فأرسلت إليه فجاءها فقالت له : « اذهب مع هذا الرجل حتى تبيئنى بان أختك . » فانطلق
معه ، فدخل الأزدي على ابن الزبير وقال له : « جئتك والله بما كرهت ، وأبت أم المؤمنين
إلا ذلك . » فخرج عبد الله ومحمد وهما يتشامان : فذكر محمد عثمان فشمه وشم عبد الله محمداً ؛
حتى انتهى إلى عائشة فى دار عبد الله بن خلف^(٢) ، حيث ضمت السيدة ابن أختها — وكان
جريحاً — فى جملة من ضمت من الجرحى .

لبثت السيدة بالبصرة : بأوى إليها الخائف والمرتب يتسللون إليها فيجدون دارها حرمًا
آمنًا ، ويجدون فى كنفها الرعاية التامة .

وبعد انقضاء ثلاثة أيام على الواقعة ، دخل على بن أبى طالب البصرة يوم الاثنين
فانتهى إلى المسجد فصلى فيه ، ثم نزل فأتاه الناس ، ثم قصد عائشة وقت الرواح يزورها

(١) الطبرى ٥٤٣/٣ .

(٢) الطبرى ٥٤١/٣ .

ويسلم عليها ، فركب بغلته وانتهى إلى دار عبد الله بن خلف ، فوجد النساء تبكي على عبد الله وعثمان ابني خلف^(١) مع عائشة ، وصفية ابنة الحارث تبكي ، فلما رآته صاحت :
« يا على ، يا قاتل الأحبة ومفرق الجمع ، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه »
فلم يرد عليها شيئاً ووسعها حمله وتجاوزه وتقديره الموقف ، وتابع سيره حتى دخل على عائشة
فسلم عليها وقعد عندها ، وشكا فعل صفية فقال :

« جهنتنا صفية ، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم .^(٢) »

ولا يخفى على القارئ أن علياً في شغل عن مثل هذا الاستدراك في صفية ، بما في نفسه
من هوم ؛ ولكن تغافل وعمد إلى التي هي أليق به وبمحتده النبيل .

فلما خرج على أقبلت صفية وأعدت الكلام ، فكف بغلته وقال : « أما لهمتُ
(وأشار إلى الأبواب داخل الدار) أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه ، ثم هذا فأقتل
من فيه ، ثم هذا فأقتل من فيه . » يشير إلى حيث كان الجرحى واللاجئون ، وكان عالماً
بمكانهم فتغافل عنهم ، فسكتت حينئذ صفية .

لقد تجاوز على وكرم ونبيل ، وتكلف تجلداً وحلماً .. وفيما هو خارج ، قال رجل من
الأزد يريد قتل صفية : « والله لا تفلتنا هذه المرأة . » فغضب على وقال : « صه » ، « لا
تهتكُن سترًا ولا تدخلن داراً ، ولا تهيجن امرأة بأذى ... وإن شتمن أعراضكم وسفهن
أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف . ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ؛ وإن
الرجل ليكافىء المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده . ، فلا يبلغني عن أحد عرض
لامرأة فأنكل به شرار الناس .^(٣) »

مضى على فلحق به رجل فقال : « يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب
فتناولوا من هو أمض لك شتيمة من صفية . » قال علي : « ويحك ، لعلها عائشة؟؟ » قال :
نعم ، قام رجلان منهم على باب الدار ، فقال أحدهما :

جُرَيْتِ عَنَا أُمَّنَا عَقُوقًا

(١) قتل عبد الله يوم الجمل مع عائشة ، وأما أخوه عثمان فقتل مع علي ، وهكذا فرق المذهب السياسي
بين الأخوين فأترلهما معسكرين متعادين .

(٢) الكامل لابن الأثير ٣/١١٠ .

(٣) الطبري ٣/٥٤٤ .

وقال الآخر :

يا أمنا توبى فقد خطيت

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب فأقبل بمن كان عليه ، فأحالوا على رجلين فقال :
« اضرب أعناقهما » ثم بدا له فقال : « لأنهنكهما عقوبة » فضربهما مئة مئة وأخرجهما
من ثيابهما » (١)

وظلت السيدة مدة مقامها بالبصرة راضية عن سيرة عليّ ، فقد كانت خطته مع المخالفين
خطة إجمال وكفّ وتغافل في الجملة ؛ وخاصة مع السيدة نفسها ، فقد صانها عن كل أذى
ومكروه ، ورعاها وكَمّ الأفواه عن قولة السوء فيها ، واشتد في ذلك على أصحابه حتى أمسكوا .

لهلك اشتقت إلى روايات ابن أبي الحديد الطريفة ! فقد طال إمساكنا عن أخباره
وإضرابنا عن قصصه ؛ فها نحن أولاء مطلعوك على مشهد بمتع وحوار أمتع :

لما فرغ عليّ من القتال دعا بآجرتين : فحمد الله وأثنى عليه وخطب في أهل البصرة قائلاً:
« يا أنصار المرأة ، وأحباب البهيمة ! ربا فجتتم ، وعُقر فانهزتم ، نزلتم شر بلاد ، أبعدها

عن السماء... الخ »

ثم نادى (٢) ابن عباس فأقبل إليه فقال له :

« انت هذه المرأة فرها أن ترجع إلى بيتها الذي أمرها الله أن تقرّ فيه . » ثم تمثل :

إني زلّلت زلة فاعتذر

سوف أكيس بعدها وأنشمر

وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

(قال ابن عباس) فجتت فاستأذنت عليها فلم تأذن لي ، فدخلت بلا إذن ، فمددت يدي
إلى وسادة في البيت فجلست عليها ، فقالت عائشة : « تالله ما رأيت مثلك يا ابن عباس !
تدخل بيقتنا بلا إذننا ، وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا ؟ » ، « أخطأت السنة مرتين » .

(١) الطبري ٣/٥٤٤ .

(٢) هكذا يريد ابن أبي الحديد : نداء وصراخاً على رؤوس الأشهاد .

فقلت : « نحن علمناكم السنة^(١) والله ما هو بيتك ، وما بيتك إلا الذي خلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم به وأمرك الله أن تقرى فيه فلم تفعل .

إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجع إلى بلدك الذي خرجت منه »

قالت : « رحم الله أمير المؤمنين ، ذاك ابن الخطاب . »

قلت : « وهذا أمير المؤمنين على بن أبي طالب »

قالت : « أبيتُ أبيتُ .. »

قلت : « ما كان إياؤك إلا فواق^(٢) ناقة ، ثم صرت ما تحلين ولا تمرين ، ولا تأمرين

ولا تنهين ، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد :

ما زال إهداء الصغائر بيننا نث الحديث وكثرة الألقاب

حتى نزلت كأن صوتك بينهم في كل نائبة : طنين ذباب »

فبكت حتى علا نسيجها (!!!) ثم قالت :

« نعم أرجع ، فإن أبعض البلدان إلى بلد أتم فيه . »

قالت : « أما والله ما كان هذا جزاءنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أمماً ، وجعلنا أباك

لهم صديقا . »

قالت : « أتمنّى على رسول الله يا بن عباس ؟ »

قلت : « نعم ، فمن عليك بمن لو كان منك بمنزلة ما لمننت به علينا . »

قال ابن عباس : فأتيت علياً فأخبرته بما كان ، فقبل بين عيني وقال : ذرية بعضها من

بعض ، « أنا كنت أعلم بك حيث بهتتك^(٣) » انتهت الرواية .

أما الذي لا يمكن أن يقبله امرؤ ذوروية فما رواه المسعودي (المؤرخ الحزبي) فقد زعم

أن عائشة قالت لعلي بعد خطب طويل كان بينهما : « إني أحب أن أقيم معك فأسير إلى

(١) هكذا في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٢/٢ .

(٢) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت ، لأنها تحلب ثم تترك سوية يرضعها الفصيل لتدر ، ثم

تحلب — مختار الصحاح .

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٢/٢ وانظر العقد الفريد ١٠٣/٣ واليعقوبي ٢١٣/٢ .

واقداً كان هذا الخبر — إن صح — أجدر أن يوجد في الطبري . وأرجح أنه راجع بعده (مات

الطبري سنة ٣١٠ هـ) ولعله علم به وأمهله لسكذبه . ومن أمعن في هذه الأقوال استبعد صدورها عن مثل =

قتال عدوك عند مسيرك ». فقال علي : « بل ارجع إلى البيت الذي تركك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) » .

وهذا خبر غير معقول البتة وهو مخالف منطلق الحوادث : أمن تجهيش الجيوش على علي ، إلى القتال معه ؟ أهكذا انقلاباً فجائياً من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بهذه الخفة والسرعة الخاطفة ؟ ؟ ! ألا قليلاً من العقل والروية أيها المؤرخون العصبليون !

* * *

ونعود — بعد هذه الاستجمامة المسلية — إلى التاريخ الجد :
جهز علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب للمقام ، وأمر لها باثني عشر ألفاً من المال ^(٢) ، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات ، وقال لأخيها : « تجهز يا محمد فبلغها ^(٣) » .

الوداع الجميل

لما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها علي حتى وقف لها وحضر الناس من الفريقين ، فخرجت عليهم فودّعوها وودّعتهم وقالت : « يا بني ، لا يعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدّن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك » .

= ابن عباس ، فليس مما يرضاه ذوق أن تجابه امرأة مهزومة بمثل هذا فكيف بمثل عائشة مكانة وحرمة . والخبر مصنوع بأداة حزبية عصبية طبقية ، وإلا فإن عباس أصح عقيدة وأتقى لله من أن ينسب إلى أسرته ما هو من صنع الله ، وكل مسلم يعلم : أن زواج عائشة كان بوحي من الله ، وأن صدقته أبي بكر كانت هداية من الله وحده ، لا وساما تمنحه أسرة . وكل ما صر بك آنفاً وما سيمر بك عاجلاً من معاملة علي لعائشة ومخالفته ... مبعده عن تصديق هذا الخبر الروائي . لقد كان ابن أبي الحديد (أوصناع بعض أخباره على الأصح) في كثير مما يروى : الصديق الجاهل للامام كرم الله وجهه . والمشهور من نبل علي ودينه وسمو خلقه ... يجعل المنصفين يضرّبون بكثير من هذه الروايات عرض الحائط . وقريب منه في ذلك ابن عباس .

(١) صروج الذهب ٩/٢ .
(٢) بلغ ذلك عبد الله بن جعفر (ابن أخي علي) فاستقل المبلغ ، وأخرج لها مالا عظيماً وقال : « إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو علي » .

(٣) ذكر اليعقوبي أن علياً وجه معها سبعين امرأة من عبد القيس في ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة . وهي رواية غريبة لم أجدتها في مصدر ... إلا عند صاحبنا السعودي ، فقد كان أكثر إغراباً وإطرافاً وإضحاكاً ، قال : « خرجت عائشة من البصرة وقد بعث معها على أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر (كذا) وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرها : ألبسهن العمام =

وبهذا كانت أمّاً للجميع ، سمت على كل ما كان بينهم ، ولم يبق إلا هذه الأمومة البارة الحانية التي وسعت علينا وأنصاره وأعداءه . إني لأقرأ هذه الجملة من خطابها للجماهير المودعة فأتمخيل القلوب تتقطع حسرة وندامة ، والدموع تظفر في العيون ساعة الوداع وقد ملأ صدر كل من المودعين حنو وبر ومجبة لإخوانه عامة ، لقد أعدم نبل السيدة فأصبحوا جميعاً في هذه الساعة متآلفين .

ثم التفتت إلى الجماهير تخبرهم بما تُسكنّ لعلّ من تقدير لم يقلل منه شيئاً ما كان بينهما من جفاء ، فواصلت قولها :

« إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندي على معتبتي لمن الأخيار » .

وقال علي :

« أيها الناس ، صدقتُ والله وبرّت ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك ؛ وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة » (١) .

ورحم الله البختری ، لكانه يعني هذا الوداع حين قال :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها على هذا تم الوداع الجميل ، وختل القلوب مما علق بها ، على أحسن ما ينبغي أن تكون قلوب المسلمين عليه .

وخرجت بموكبها يوم السبت لفررة رجب سنة ست وثلاثين للهجرة ، وشيّعها عليّ رضي الله عنه أميلاً ، وسرّح بنيه معها يوماً (١) .

توجهت السيدة إلى مكة ، وقد فصل من معها كروان وأبي الأسود بن البختری إلى المدينة من الطريق ، وأقامت بمكة إلى الحج ، ثم رجعت إلى المدينة بعد طول غياب .

== وقدهن السيوف وقال لهن « لا نعلمن عائشة : أنكن نسوة كأنكن رجال ، وكن اللاتي يلين خدمتها » وحملها ، فلما أتت المدينة قيل لها : « كيف رأيت مسيرك ؟ » قالت : « كنت بنحير ، والله لقد أعطى عليّ ابن أبي طالب فأكثر ، ولكنه بعث معي رجالاً !! » ففرقها النسوة أمرهن ، فسجدت وقالت : « ما ازددت والله يا بن أبي طالب إلا كرماً ، ووددت أني لم أخرج وإن أصابتنى كيت وكيت ... (من أمور ذكرتها) ، وإنما قيل لي : تخرجين فتصلحين بين الناس ، فكان ما كان ... » — مروج الذهب ١١/٢ ، وهذا الصنيع أليق بمخرج رواية فكاية منه بخليفة غارق في الهموم والشدائد .

(١) الطبري

الباب الرابع

وقفه عند حرب الجمل

الفصل الأول

العوامل القريبة والبعيدة

— ١ —

هذه أول معركة يقف فيها المسلم للمسلم وقفه العدو : يسدد إليه سهامه ويصوب سلاحه يريد إزهاق روحه ، وتيتيم أطفاله وترميل نسائه ، بعد أن جمعها الإسلام وأخى بينهما وحسب إلى كل منهما إيثار أخيه على نفسه . فكانت أشأم سابقة ، هان بعدها أن تسفك الأمة الواحدة بعضها دم بعض ، وأن تجعل بأسها بينها وتقوى بذلك عدوها عليها . ولقد رأيت أن كثيراً من أعلام الصحابة الأجلاء كعبد الله بن عمر وأبي موسى الأشعري وسعد ابن أبي وقاص وغيرهم ... اعتزلوا الفتنة كلها وكانوا صلاباً في هذا الاعتزال ، ما لانت لهم عريكة ولا ضعفت شكيمة . ولعلك لمست في موقفهم شيئاً من الغلو ، أو لعل نفسك حدثتك به ؛ فاعلم الآن أن أولئك الأعلام كانوا على بصيرة من أمرهم لم تستفزهم الحادثات ولم يستخف أحلامهم ما يستخف الرجال ، وأنهم ذكروا ما نسيه غيرهم : لقد ذكروا في ذلك آيات وأحاديث اقشعرت لها أبدانهم ، وخشعت عند ذكرها نفوسهم فاستحضروا الهول المنتظر من الفتنة فأمسكوا .

وحسبك لتستشعر ما استشعروا من الهول هذه الأقوال يرويها أجلاؤهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : يعظم فيها على المسلمين دماءهم وأن يعودوا إلى أمر الجاهلية يستحل بعضهم دم بعض وماله :

١ — روى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال :
« ألا تدرون أي يوم هذا ... أليس بيوم النحر ؟ (قلنا : بلى يا رسول الله) ، قال : أي

بلد هذا أليست بالبلدة (الحرام)؟ (قلنا: بلى يا رسول الله)، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.. ألا هل بلغت؟ (قلنا: نعم) قال:

« اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد الغائب ^(١) » .

٢ — وروى عبد الله بن عمر هذين الحديثين:

« من حمل علينا السلاح فليس منا » ،

« لا ترجعوا بعدي كفاراً: يضرب بعضكم رقاب بعض ^(٢) » .

٣ — وروى أبو هريرة:

« ستكون قتن: القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها

خير من الساعي؛ من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأً أو معاذاً فليعُدْ به ^(٣) » .

٤ — وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. » قيل: « يا رسول الله، هذا

القاتل؛ فما بال المقتول؟ » قال: « كان حريصاً على قتل صاحبه ^(٤) » .

بل إن رسول الله ذكر لهم هذا الوعيد في أقل من القتل فقد روت بريرة عنه قوله:

٥ — « إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها، على محجمة دم يريها

من مسلم ^(٥) » .

وبعض هذا كافٍ في ردع أفسى القلوب. وهو يكشف لك السر فيما مر بك من اجتهاد

(١) صحيح البخارى: كتاب الحج ٢٥ الباب ١٣٢ ص ٤٣٦ و ٤٣٥ من الجزء الأول (طبع ليدن).

(٢) الصفحة السابقة ج ٤ ص ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٨٢ — فكان أبو بكره (وهو الذى روى الحديث الأول وروى عنه

أيضاً الحديث الثالث والرابع) شديد التمسك بوصية الرسول هذه فاعتزل الخلاف كله . وأكثر من ذلك أنه خط نفسه ألا يرد العدوان إن اعتدى عليه أحد :

ذكر الإمام أحمد بعد روايته الحديث الأخير عن ابنه عبد الرحمن أنه لما كان يوم حرق ابن الحضرمي

(حرقه جارية بن قدامة) أشرفوا على أبي بكره .. فقال لزوجه: « لو دخلوا على ما بهشت (مددت يداً)

إليهم بقصة » . مسند أحمد ٥/٣٩ .

(٤) صحيح البخارى ٤/٣١٧ وانظر منهاج السنة ٢/١٨٦ .

(٥) يعنى: بغير حق — والحديث فى الصحيح ذكر ذلك الزركشى فى كتابه (الإجابة لإيراد

ما استدركنه عائمة على الصحابة) ص ٤٣ .

الفريقين في الصلح وفي البعد عن بدء القتال ، وأنهما أخلصا الرغبة في العافية والسلامة ،
لولا مؤامرة الأشرار ولولا أن الله قضى أمراً فكان .

- ٢ -

كانت الخلافة أول ما غيرت القلوب بعضها على بعض . ولئن اشتهر بين الناس أنها
فرقت الأمة منذ حرب الجمل حتى اليوم ، إن البوادر السيئة نجمت قبل ذلك ، ولكن
كانت للدين صولته في النفوس ، وكان الناس حديثي عهد بالنبوة وهداياها ، فكبحهم دينهم
أن يرخوا لأهوائهم أعنتها . وإلا فخلاف المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ، وتلكو بنى هاشم
عن بيعة الصديق ، وإبطاء العباس وتأخر على عن المبايعه ستة أشهر حتى ماتت فاطمة ...
كل هذه تشعر بطموح بعض الأصحاب إلى الخلافة . حتى أن أبا بكر نفسه تمنى في احتضاره
أن لو كان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لمن هذا الأمر من بعده » حتى لا يكون
فيه نزاع^(١) . وكان طموح بعض الأصحاب إلى الأمر حين عهد الصديق إلى عمر ، أشد على
الصديق من سكرات الموت والآمال :

دخل عبد الرحمن بن عوف على أبي بكر في علته التي مات فيها فقال : « أراك بارئاً
يا خليفة رسول الله » فقال أبو بكر (وتأمل ما قال) :

أما إني على ذلك لشديد الوجع ، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد على
من وجعي :

إني وليت أموركم خيركم في نفسي (يريد عمر بن الخطاب) ، فكلكم وريم أنه أن
يكون له الأمر من دونه . والله لتمخذن نضائد الديباج وستور الحرير ، ولتألمن النوم على
الصوف الأذري كما يالم أحدكم النوم على حسك السعدان . والذي نفسي بيده : لأن يُقدّم
أحدكم فتضرب عنقه في غير حد ، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا (وأتم أول ضال
بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالاً) :

يا هادي الطريق حرت ، إنما هو والله الفجر أو البجر . . . »
فقال عبد الرحمن وقد تفر قلبه لتأثر الصديق التأثر العنيف في آخر لحظاته في الدنيا :

« خَفِّضْ عَلَيْكَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا يَهْبِطُكَ إِلَى مَا بَكَ ، فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ صَالِحًا مُصْلِحًا^(١) . . الخ » .

سلك عمر مع قريش — وهم أشبه بالأسرة الحاكمة — سياسة فيها من المضاء والحزم بمقدار ما فيها من نفاذ البصيرة وبعد الغور والغوص على خبايا النفوس ونواياها . لقد أخذهم أخذًا صارمًا « فحجر على أعلامهم من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه ، فبلغه ، فقام فقال :

« ألا إني قد سنت الإسلام سنّ البعير : يبدأ فيكون جَدْعًا ثم ثَنِيًّا ثم رُبَاعِيًّا ثم سَدِيسًا ثم بَازِلًا ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ؟ ألا فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حتى فلا ! إني قائمٌ دون شعب الحرة فأخذ بحلّاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار^(٢) » .
وكذلك فصل رضى الله عنه ، فقد رأى بعين بصيرته أن هؤلاء الطيبين الأخيار من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يؤس منهم الشيطان أن يعبدوه ، وأبوا في نصره الإسلام وتمكينه في الأقطار أحسن البلاء ، وصبروا في سبيل ذلك على شظف العيش وكلّب العدو وحرمان الطيبات صبراً كانوا فيه مضرب الأمثال رجولةً وقوةً وتشميراً . ولن يحيد بهم عن الطريق السوى إلا الغنى والترف ، فكان عمر أحرص على سلامة هؤلاء الأصحاب وعافيتهم ، فحال دون خروجهم إلى الأمصار ومعانبة بهارج الدنيا ومفاتها . ولبث عمر على خطته تلك حتى ملوه وملوا المدينة حيث ألزمهم سكنها لا يخرجون منها إلا بإذن وأجل .

(١) الكامل للبرد ٥/١ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٦٤ هـ) وتاريخ الطبرى ٦١٩/٢ — ورم أئفه : امتلاءً غضباً . الصوف الأذري : نسب إلى أذربيجان . السعدان : نبات شائك . البحر : الفجر والأمر العظيم ، والمعنى — على ما ذكره البرد — إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجماً بك على المكروه . وضرب ذلك مثلاً لغمرات الدنيا وتخييرها أهلها . هيبض العظم : إذا جبر ثم أصابه ما يعنته فأذاه — الكامل ٧/١ .
(٢) الطبرى ٤٢٦/٣ — الجذع : الجمل دخل في السنة الخامسة . والثنى : الذى دخل في السادسة ، والرابعى : الذى دخل في السابعة ، والسديس فى الثامنة . والبازل الذى بزل (خرج) نابه وذلك فى التاسعة . الحجز : الأوساط .

وكان عمر يصارحهم دون غفمة ، ويقول لهم : « إن أخوف ما أخاف عليكم انتشاركم في البلاد^(١) ». ويأتيه الرجل منهم يستأذنه في الغزو « وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين — ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة — فيقول : قد كان لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلِّغك [يكفيك] ، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك^(١) » .

وبذلك جمع رؤوس الناس وزعماءهم في قبضته حيث يشرف منهم على سرهم وعلائنتهم ، ويظأ على أصمختهم فلا تحدث أحداً منهم نفسه بإفلات من قبضته ، وبقوا على شاكلتهم تلك لا يجدون عنها متقدماً ولا متأخراً قد كفوا شر الناس وقتنتهم .

وكانت خطة عمر — على شدتها الظاهرة وقسوتها — تنطوي على رحمة واسعة بالناس وبالمهاجرين معاً ، فإن انتشار هؤلاء الفحول في الأمصار يشترتون الضياع ويقتنون العبيد وتبعهم الجماهير ... أخطر الأمور على هذه الألفة التي ربطت الجزيرة من أطرافها ، وعمر أخوف الناس على تلك الوحدة أن تتصدع ، وهذا الشمل أن تفرقه الزعامات . ولقد اخترق — رحمه الله — حجب الغيب ببصيرته ، وكأن الله ألقى أمام عينه ما سيكون من أصحابه ، فأدرکه لذلك قلق وهم لم يفارقه قط ، وملاً للإشفاق على هذه الأمة قلبه حتى لم يكن ليستطيع إخفاءه :

لما حملوا إليه بالمدينة الأحماس من غنائم (جلولاء) وكانت شيئاً عظيماً قال عمر : « والله لا يُجَنِّي سقف بيت حتى أقسمه » . فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله ابن أرقم يحرسانه في صحن المسجد ، فلما أصبح جاء في الناس ، فكشف عنه جلايبه وهي الأنطاع ، فلما نظر إلى ياقوته وزرجده وجوهره ... بكى ، فقال له عبد الرحمن : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا لموطن شكر » ، فقال عمر : « والله ما ذاك يبكيك ، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم^(٢) » .

لقد كان عمر من أوعى الناس لما يحذرهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت تفرع أذنه وصايا الرسول لأصحابه الأخيار :

(١) الطبري ٤٢٦/٣ .

(٢) الطبري ١٣٧/٣ .

« إنما أخشى عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من بركات الأرض ^(١) » .
« . . . والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما
بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم ^(٢) » .
« . . . إني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا
فيها وتقتلوا قتلكم كما هلك من كان قبلكم ^(٣) » .

ولم تمض على وفاة الرسول ثلاثون سنة حتى وقع ما كان خشيه وحذر منه أصحابه .
وقد أُلهم عمر — رحمه الله — أن الشقاق سيكون بين علي وعثمان وطلحة والزبير ،
والمؤرخون يذكرون أنه قال لهم بعد أن أوصى أن يكون الأمر شورى بينهم : « إني قد
نظرت لكم في أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقاً إلا أن يكون فيكم ، فإن كان شقاق
فهو فيكم ^(٤) » .

ولأمراً أمر أبا طلحة الأنصاري أن يقوم على باب البيت الذي يجتمع فيه أصحاب
الشورى في خمسين من قومه ، حتى إذا اجتمع ثلاثة (فيهم عبد الرحمن بن عوف) على
خليفة ، وخالف ثلاثة ، شدخ أبو طلحة رؤوس الخالفين بالسيف ^(٥) .
نجا عمر من خلاف القرشيين بهذه (الإقامة الإجمالية) التي أخذهم بها ، فحال بينهم
و بين الشرمدة حياته .

فلما مات عمر وولى عثمان ، تفاضى عن أخذهم بما أخذهم به عمر ، ولان جانبه ورقت
حاشيته لهم « فانساحوا في البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس . . . انقطع إليهم
المغمورون من الناس ، وصاروا حاشيتهم وأتباعهم ، وأملوهم وقالوا في أنفسهم : « غداً يؤول
الملك إلى هؤلاء فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانتفاع إليهم ^(٥) » وبذلك وجد

(١) الجامع الصحيح للبخارى ك ٥٦ ب ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٩٢ ، ٢١١ .

(٣) رياض الصالحين ص ٦٠٥ ، ٦٠٦ .

(٤) الطبرى ٣/٢٩٤ وابن عساكر .

(٥) الطبرى ٣/٤٢٦ و ٤٢٧ بتصرف يسير .

الوهى مسارب إلى وحدة الأمة وطفق يوغل فيها حتى كان ما عرفت .
والغريب أن القرشيين هؤلاء بعد طول السكبت ، سرعان ما أوغلوا في البلاد حين
أفرج عنهم عثمان ، وضربوها في الأرض « واتخذ رجال منهم بعد سنة من إمارة عثمان أموالاً
في الأمصار وانقطع إليهم الناس . . . وكان كل قوم يحبون أن يلي الأمر صاحبهم ^(١) »
إن حدث بالخليفة القائم حدث ، وبذلك وجدت أحزاب وشيع سياسية كل حزب له زعيمه
المفضل : يدعوه ويرجو أن يؤول الأمر إليه ، ابتغاء مكافأته لهم في الغد : على ما يحبطون
في حبله اليوم ويروجون دعوته .

- ٤ -

الإمام الطبري نظرات صائبة عميقة يبتها في مطاوي تاريخه الكبير ، قل أن يفطن
إليها لندرتها ولضياعتها في هذا الخضم الزاخر بالروايات والأسانيد . هذه النظرات يكشف
فيها عن سر خفي من حوافز الجماهير ، أو يغوص بك فيها على دخائل النفوس مما لا يهتدى
إليه إلا الفطن اللقن الملهم .

ونظرت التي أعرضها الآن تجعله مؤرخاً محدثاً من هؤلاء المؤرخين المعاصرين الذين
يفسرون التاريخ تفسيراً مادياً ، فقد ألقى إلى القارئ ما يفيد أن أهم العوامل في فتنة الجمل
وتهيئة الأفكار للثورة هو العامل الاقتصادي وإليك البيان :

كان لأهل السابقة من المهاجرين والأنصار والمجاهدين الأولين ممن حضروا فتح فارس
غنائم وافرة جداً : فقد حازوا عنوة كنوز كسرى وهي عزيمة يهول الحاسب إحصاء ذهبها
وفضتها ويقوتها وزبرجدها وديباجها وحريرها . . . ففطمت سهام المجاهد منهم وملك
الأرضين ؛ إلا أنهم فيما بعد ، أقاموا بالحجاز وأموالهم بالعراق تأتيهم غلتها ، وودوا لو وجدوا
سبيلاً إلى أن تكون أموالهم وإياهم . فلما كانت سنة ثلاثين عرض عثمان هذه الأسهم من
الأرضين التي أفاها الله على المجاهدين بالحجاز على البيع ، فابتاعها أغنياء الصحابة كطلحة
والزبير وغيرهم . وفرج الله بذلك عن الناس ، فصار الحجازي يبيع سهامه بالعراق ويشترى
بشمنها عقاراً في بلده ، وأصبح الناس في سعة من أمرهم . فباع طلحة مثلاً « عامة سهامان
خيبر إلى ما كان له سوى ذلك ، واشترى بهذه الأموال من نصيب من شهد القادسية

(١) انظر الحاشية السابقة .

والمدائن من أهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر إلى العراق^(١) » وكان طلحة واسع الغنى فصار له ولأمثاله الأرضون الواسعة في العراق ، وفعل فعله رجال من كل قبيلة فصار أكثر العراق ملكا لعدد من المجاهدين الأولين وكانوا بذلك أشبه (مع الفارق) بأصحاب الإقطاع . وظل أغلب الأهلين أصحاب البلاد السابقين فقراء لا ملك لهم ، ولم يفدهم إسلامهم المتأخر — من هذه الناحية فقط — شيئاً إذ كانت الأرضون قد قسمت على الجنود الفاتحين ، فكان في نفوسهم من ذلك شيء لا يخفى على القارىء ؛ فيصف الطبرى هذه الطبقة الناقصة وحالها بقوله :

« ... إلا أن الذين لا سابقة لهم ولا قدمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقدمة في المجالس والرياسة والحظوة . ثم كانوا يعيبون التفضيل (يريد في العطاء) ويجعلونه جفوة ، وهم في ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه لأنه لا حجة لهم والناس عليهم . فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابي أو محرر ، استحلى كلامهم ، فكانوا في زيادة وكان الناس في نقصان حتى غلب الشر .^(١) »

مرت بك هذه الملاحظة في إحدى الحواشي (ص ٥٢) وأعدتها هنا لخطرها وبعد أثرها في كل ما وقع ، أما شرحها فقد سبقها وهلك لم تنسه ، إنه في تفاصيل الحوادث التي مرت بك وخاصة حين شرح حركة عبد الله بن سبأ . وينبغي ألا يهمل — في تعداد العوامل — نقمة الرعاع وطموحهم ، واستغلال أبطال الشر تلك النقمة وهذا الطموح ؛ فقد كان إسلام كثير منهم مدخولا ، وكان حينئذ إلى نظمهم البائدة ونحلهم القديمة مكبوتاً خفياً ، ثم كان هذا الحرمان الذي يشعرون بمرارته إزاء غنى واسع يرتع في مجبوحته الأبطال الفاتحون .

والطريف أن هذه الملاحظة لم تكن لتخفى على البصراء حينئذ وإن لم ينتفعوا بها ، إلا أن مؤرخينا لم يهتموا بالتنبية إليها اهتمامهم بسرد الحوادث نفسها ، فمرت خافية مستكنة في طنين الحوادث وزحمتها : لا فيها هي ما يلفت النظر العادى ، ولا المؤرخون احتفلوا بها فأبرزوها ، وقد طالعتك أنت نفسك فلم تلتفت إليها في أغلب الظن ، طالعتك في عبارة

(١) الطبرى ٣/٣٣٣ .

تقدمت من كلام الامام على (ص ١٤٥) إذ فطن إلى ما يحفز الرعاع على الثورة فقال مشيراً إلى قتل عثمان :

« . . . ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا : حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها والله بالغ أمره ومصيب ما أراد . . . »

ولعلك لم تنس أيضاً أن السبئيين - وهم جند علي - خالصوا بعد سماع هذا الكلام نجياً يأترون ، وكان في جملة الحلول التي اقترحت في هذه المؤامرة قتل علي نفسه إذ فطن إلى شروهم ، وأنسوا منه عزيمة على ملاقاته الشر بمثله ، ثم أجمع رأيهم على إنشأ القتال لعلهم يستريحون من رؤوس المهاجرين السابقين جميعاً .

الفصل الثاني

في توزيع التبعات

الآن ، وبعد ما تقدم ، نستطيع إرسال القول فيما يخص كلاً من تبعة هذه الحرب المشؤومة ، وقد تقدم كثير من الأحكام في حينه ومناسبته ، ولا بأس في ضم ذلك وإجماله وقد انتهت من تفاصيل الحوادث التي سنشير إليها إشارة ، فنقول :

إن الذي يحمل شر هذه الفتنة مباشرة هم الذين حملوا إثم قتل عثمان والتأليب عليه ، فالسبئيون هم الذين ائتمروا بالجيشين وقد أشرفا على الصلح وأسرعوا فباعتموا الطرفين بإنشأب القتال ، وأعجلوها عن التروى والتثبت ، فعليهم إذن وحدثهم جريمة هذه الألوف الخمسة عشر من الدماء المهرقة ، كما كان عليهم وحدثهم إثم قتل عثمان مباشرة .

فإذا بلغنا من عليهم التبعات الثانوية (غير المباشرة) ممن قصر أو أخطأ في اجتهاده ، أو انصاع إلى طموح نفسه أو غلبته منافسته لأخيه ، وجدنا ترتيب أنصباهم من التبعة في حرب الجمل على ترتيبها في الحملة على الخليفة عثمان رحمه الله : من غش له استئثاراً بالمنافع ، أو تقصير في حقه ، أو خذلان له أو مجاهرة بنقده . فأوفاهم نصيباً منها — فيما أرى — الأمويون ثم طلحة فالزبير فعائشة فعلي :

أما الأمويون فقد كانوا استغلوا قرابة عثمان — على ما عرفت — أسوأ استغلال ، وأبدلوه بما كان يجب له عليهم من المناجحة والعفة : احتكراً للأعمال واستئثاراً بالأموال وإبعاداً لمن كرهوا من أهل الكفريات ، حتى كانت أعمالهم هذه أشد ما أرتت الشر على عثمان . فلما أن قتل انسلوا من أطراف البلاد واجتمعوا بمكة بعددهم وعددهم وما حملوا من أعمالهم من أموال الله : ينفخون في الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرهاً لعلى أو منافسة له ، وأظهروا ذلك كله وأضمرها من ورائه أمراً آخر : قتل طلحة والزبير ورؤوس الناس من سواهم ، وودوا أن يقتل غيرهم عائشة . . . ليخلص لهم الأمر ويرجع في بني أمية وقد خملت الأرض من منافس لهم .

وأكد أجعل الأمويين (ورأسهم في هذه الفتنة مروان) حلقة وسطى تلى السبئيين أصحاب التبعة المباشرة في هذه الدماء .

وأما طلحة ، فكما كان أشد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على عثمان ^(١) ، كان هنا أيضاً أشد الناس على عليّ وأكرههم لخلافته وأوفرهم سعيًا في التأليب عليه ، وأطولهم يداً في تحريض الجماهير على المطالبة بدم عثمان وسوقهم إلى البصرة وقد علم : أن إقامة الحدود من حق الإمام لا حق الفوغاء ، وأن أولياء عثمان — وليس هو منهم — أولى منه بهذه الدعوى ، وأن هذا الطلب لم يكن في وقته المناسب ، وأن ثمرته إضعاف أمر علي لا الثأر الحقيقي لعثمان .

وأما الزبير فأمره قريب من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه في لدد الخصومة والقوة فيها ولعل ابنه عبد الله أوفى منه نصيباً من التبعة .

وأما السيدة عائشة : فنقدها عثمان كان أشد عليه لما لها من الحرمة والإجلال ونفاذ الكلمة ، وقد عرف الأمويون وطلحة والزبير ما يكون لدعواهم من القوة إذا نهضت بها معهم عائشة ، وعرفوا ما تكن من الكره لخلافة علي ، فما زالوا يقتلون لها في الذروة والغارب حتى نهضت لما أنهضوها وحملت من هذه الفتنة نصيبها .

وأنا أقطع أن الأمور لم تكن لتصل إلى العاقبة السيئة التي رأيناها لو غابت عائشة عن فتنة الجمل . لقد كانت السيدة لهذه الفتنة — من حيث لا تريد ^(٢) — روحها ، وكان مقامها فيها أقوى ما حفز الجماهير على التطوع لها وعلى تهاقهم على الاستماتة بين يدي جمل عائشة . لقد كان في طبعها ولوع عظيم بالبطولة وإعجاب بالشجاعة ومقت للجبين ، لذلك لم تكن تنفك عن تحريض الناس وتقوية قلوبهم وكان لهذا التحريض والتقوية أثرها البالغ في الاستماتة بين يديها على ما مر بك ، ولقد أثر عنها قولها : « إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير : كلما خفقت الريح خفقت ؛ فأفٍ للجبيناء » . ×

هذا وقد أكثر لها الناصحون من أخواتها أمهات المؤمنين وأصحاب رسول الله الأجلاء وعقلاء أهل البصرة والكوفة ، فلم تستجب لنصح أحد ونفذ قضاء الله . والله سبحانه

(١) كلمة محمد بن سيرين — انظر العقد الفريد ٨٦/٣ .

(٢) لعلك لم تنس قولها الذي مر بك ص ١٥٩ (الحاشية ٢) « وما برأني خرجت مع هؤلاء » .

أعفى النساء من الدخول فيما هو من شأن الرجال ، فلم يكلفهن سياسة ولا إدارة ولا إثارة جماهير ولا تجييش جيوش ولا تأليباً على الخلفاء ، فإن باشرن شيئاً من هذا كان ذلك هو الفتنة عينها ، وكان المجتمع حينئذ يعالج داء دخيلاً في كيانه ينذر بالشر المستطير . وسترى بعد قليل أن السيدة ذاتها حكمت على نفسها هذا الحكم ورأت أنها أتت أمراً إداً لا يغتفر .

وأما على ، فالحق أنه لا يحمل هنا من التبعة شيئاً ، لقد فر من الشر فراراً : صبر عليه ، وطاوله ، وغاب عن وجهه والشر يلاحقه ، وكان أكره الجميع للفتنة ولإراقة الدماء ؛ لكن المحافظة على وحدة الأمة وواجب القضاء على الفتن — وهما من آكد واجبات الخليفة — أزماء المبادرة إلى المخالفين ، فأرسل الرسل والمفاوضين وبذل من نفسه خير ما يبذل امرؤ بعيد عن الشر هراًب منه ، وقد وجه الفريقين إلى الصلح حتى كاد يتم لولا عنصر الشر في جيشه : السبئيون .

فإن يكن من تبعة تزمه فهي فيما قاله المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار :

« على أن علياً لم يكن القوى على جنده ، المالك لزاماً عسكريه ، الحذر لكل ما يُخاف ، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم . ولقد كان عمر بن الخطاب — وهو بالمدينة — واقفاً على كل صغيرة وكبيرة من أمر جنده بالعراق وفارس وإرمينية والشام ومصر وتخوم الروم : لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشرهم . ولكن علياً كان تاركاً لشأنهم وهو بين ظهرانيهم يجتمعون ويديرون الأمور ويبيتون الشر ويكيدون له وللمسلمين ، حتى لقد كان في ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمه ما ويحتمن دم المؤلبيين السفاكين الكائدين ، وهم بمرأى ومسمع منه وهو لا علم له بما يديرون . ولو كان من الضبط لأمره والحيطه في شؤونه بالمكان الذي يجب أن يكون به ما ساغ للسبئية أن ينشبو القتال^(١) . »

وهذا أشبه بالحق وليس الحق كل الحق ، إذ ما تصح موازنة بين عمر وعلي وقد اختلفت (ظروفهما) الاختلاف كله . فأين عهد الثورات والخلاف والتناحر والفتن والأطماع من عهد الاستقرار والوحدة والزهد والطاعة . على أن الحزم — لو إليه سبيل — كان يقضى على علي أن يبت عيونه على هؤلاء الدساسين ذوى النيات الخطرة ، ولم يكن على مجهلهم ولكن

(١) تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون ص ٤١١ .

الأمر انتشرت عليه كما رأيت . والنصفة تقضى على المؤرخ أن يحيط بكل ما لابس الحادثة من (ظروف) قبل أن يصدر فيها حكماً .

وبذلك تدرك أن حكم الأستاذ النجار الآتى بعيد عن الصواب أيضاً ، قال :
« لم يكن عند على من الأناة وحسن التأتى للأمر ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجامح . ولو أنه أرضى الرجلين (يريد طلحة والزبير) ببعض ما فى يده مما ليس فيه معصية لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثراً فى العاقبة وأرجى للسلامة . وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة أن علياً حين أحس بما فى نفس طلحة والزبير ، استشار ابن عباس فأشار عليه أن يولى طلحة البصرة والزبير الكوفة ، فأبى إشفاقاً منه أن يؤلبا عليه الناس ، والبصرة والكوفة فيهما الرجال والمال . على أنه لو أرضاها فى أول الأمر ، حتى إذا اتسق له صنع ما أراد ، لكان ذلك أحسن فى السياسة وأحقن للدماء (١) » ا هـ .

وعجيب أن يصدر المرحوم الشيخ النجار مثل هذا الحكم والحوادث بين يديه ناطقة بخلافه ، فلئن عذرنا ابن عباس فى خطئه حين أشار بتولية الرجلين : بأنه كان يصدر رأياً فى أمور مغيبية عنه ، إنا لا نجد للشيخ النجار هذا العذر . لقد كان حدس على صادقاً ولقد دلت بصيرته على الخطر فى توليتهما ، إنه لو فعل لألبا عليه العراق بالرجال والأموال ، فكلاهما طامح إلى الخلافة منافس لعلى فيها . وليس يصح فى السياسة إلا ما فعل على من إبقائهما إلى جانبه وزيرين يستعين بهما .

إنى لم أجد فى ما تى على ما أعده خطأ أو تقصيراً (مئة فى المئة كما يقول الرياضيون) إلا غفلته عما يدبر فى جيشه من مؤامرة ، وإلا ضعفه عن قتلة عثمان لما كانوا فى المدينة . نعم ، لقد اعتذر على بغلبتهم على المدينة — وهذا صحيح بعض الصحة — وطلب من طلحة والزبير وغيرها أن يثوروا بهم فان عجزوا فهم غداً أعجز ، فلم يفعلوا ؛ إلا أن الواجب كان يقضى على على — والنفوس قتلها الحزن على عثمان وملأها الغضب على الثائرين — أن يستنهض الناس ويوقع بالقتلة بمن نهض معه مهما قل عددهم ، فإن أنصار القتلة متى رأوا الجدتهاونوا فى نصرتهم لهم وتبرؤوا منهم ، وبذلك يقضى على جرائم الشر .

(١) الصفحة نفسها .

ولست أرى اللين بحال مع قتلة عثمان مهما كان شأنهم وبلغ عددهم : إذ أن في ذلك إضعافاً لهيبة الخلافة وتهاوناً في الحدود وإفساداً للناس . . . وأخرى أن المدينة خالية من الحامية دائماً ، وفيها أقطاب الناس ، وهي مستودع القادة والقضاة والولاة والخلفاء ؛ فإن تركناها هدفاً لكل كتيبة نائرة لم يبق للحكم شأن في النفوس ، واضطرب النظام ولم تبق المدينة عاصمة ، بل بادية .

إن فيما مر بك من تفاصيل الواقعة لُغنية عن إشعارك بفداحة الخطب ، لقد كان هذا السيف مرفوعاً عن هذه الأمة ، فلما أعملته في نفسها بقي مسلطاً على رؤوسها إلى يوم القيامة . وليس شيء أدل على استنطاق الناس ما قامت عنه فتنة الجمل ، من حال أصحاب الجمل أنفسهم : لقد ندم طلحة وأصابته حيرة قاتلة ، وكان يكثر التفكير ويكثر أن يقول : « اللهم خذ مني لعثمان حتى يرضى » . وكان الزبير أكثر ندماً وأسرع إقلاعاً ويقول : « مغلوب مطلوب : يغلبني ابني ويطلبني ذنبي » . حتى لقد هم بترك القتال في أوله لولا تعبير ابنه عبد الله وتعير عائشة ، ثم ترك القتال واعتزل . أما على فقد عرفت حسرته لما رأى القتلى وعظم الخسارة بهم . وأما السيدة عائشة ، فقد قلبت صفحات التائبين والنادمين ، فما رأيت حسرة أشد من حسرتها ولا توبة أصدق ولا أخلص من توبتها ، ولا ندماً أعظم إيلاماً من ندمها ، لقد قتلها الندم قتلاً ؛ فما أكثر ما تمت أن لم تكن خلقت ، وما أكثر ما تمت أن تكون حجراً أو مدرة ، وكانت تكثر أن تقول :

« لأن أكون قعدت في منزلي عن مسيرى إلى البصرة ، أحب إليّ من أن يكون لي عشرة من الولد : كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ^(١) » .
والظاهر أنها كانت تكثر من هذه الحسرة ، فقد روى الدينوري عنها مثل هذا الحديث بزيادة مفيدة : قالت : « وددت لو قعدت في بيتي ولم أخرج في هذا الوجه (تعنى : إلى البصرة) ، لكان أحب إليّ من عشرة أولاد لورزقتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعقله وزهده ^(٢) » .

(١) الطبقات الكبير لابن سعد ١/٥ (طبعة ليدن) .

(٢) الأخبار الطوال ص ١٥٦ (طبعة ليدن) .

ولقد ذكر عندها يوم الجمل مرة « فبكت حتى ظنوا أنها لن تسكت ^(١) وكانت إذا قرأت قوله تعالى : « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ . . . » بكت حتى تبلّ خمارها ^(٢) .

حتى إذا وافاها أجلها وقالوا لها : « تدفينين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . » قالت : « لا ، إني قد أحدثت بعده ، ادفنوني مع أزواج النبي ^(٣) » في البقيع .

ولا يهولنك عظم ما رأيت من ندم وتوبة وبكاء وحيرة عند أصحاب الجمل ، فما مر بك في هذا النزاع من عصبية وتحزب ونعرات في أراجيز الفريقين وما تمثل به كبار الناس من شعر . . . صورة صغيرة مجددة عن أحوالهم في جاهليتهم ، إن هذه الروح التي أضعفها الإسلام وكاد يقضى عليها عادت — هنا في حرب الجمل — إلى الظهور في بعض الناس كأن الله لم يرسل رسولاً ولم ينزل كتاباً ، وكأن الإسلام لم يكن . فإلى جانب هذه الدماء الغزيرة من آلاف المسلمين نجمت روح سيئة تعصف بأقوى الأمم : روح الخلاف والعصبية ورجوع الأمة الواحدة قبائل متناحرة وفرقا شتى ؛ فلذلك كان شعور هؤلاء الأبرار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالتبعة قوياً جداً على رغم ما لمست من إيثارهم جميعاً للعافية .

(١) الطبرى ٥٢٩/٣ .

(٢) الطبقات الكبير ٥٦/٨ والآية هي ٣٢ من سورة الأحزاب ٣٣ .

(٣) الجزء السابق ص ٥٠ .

الباب الخامس

في حياة عائشة السياسية بعد حرب الجمل

نوطة في خطها العامر :

رجعت السيدة بعد هذه الفاجعة مرعزة النفس ، مثقلةً — في رأيها — بالتبعة ، لا تعيب عنها أشباح هذه الألوف من القتلى ، تتمنى أن لم تكن خلقت ، تكثر أن تقول :

« ليتني لم أخلق » ، « يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضى ما على . »

« والله لوددت أني كنت شجرة ، والله لوددت أني كنت مدرة . »

« لوددت أن الله لم يكن خلقني شيئاً قط ^(١) . »

« ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين سنة ^(٢) . »

عظم ندمها ، وانكسرت نفسها ، ونهجت لبقية عمرها منهجاً عزمت على ألا تخرج عنه : انقطعت للعبادة ، وقسمت ليلها ونهارها بين صلاة وصيام واستغفار وصدقات ، ونشر علم وبيان سنة .

ولقد استطاعت أن تمضي عزمها هذا دون نكول ، لكن الناس والحوادث كانا يخرجانها أحياناً قليلة إلى دفاع تلقيه ، أو بيان ترد فيه على من نالوا من أبيها ، أو إشارة تشير بها على ولي الأمر ، أو شفاعة أو توصية ، أو إنكار على وال في أمر من الأمور . وكل ذلك لم يلجها إلى استفزاز جماهير أو إعلان بعيب الولاية ، ومضت الأمور هكذا بسلام حتى لقيت ربها . وسترى أن بعض هذه القضايا كان من الخطر بحيث يستدعي شيئاً من المعارضة ، وبعضها أشد مما نعمت على عثمان أو عليّ ، لكن فاجعة الجمل كانت ماثلةً أبداً أمام ناظرينا بما طفحت به من دماء الآلاف من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان . فكانت السيدة :

(١) الطبقات الكبير لابن سعد ٥٠/٨ .

(٢) الطبري ٥٤١/٣ ، وقد تقدم هذا ص ١٩١ ، وأنه روي هذا القول نفسه عن علي ، وقد ذكرت أمامه وقعة الجمل .

كلما رأته منكرًا ، فغضبت ، فهتت بإنكاره ... رأته هذا المشهد المائل لعينها ، فارتعدت له من فرقتها إلى قدمها ، خففت من الإنكار ولطفت من حدته . وسترى أيضاً أن بعض الأذكياء فطن لهذه الحالة النفسية في السيدة فلوّح لها بيوم الجمل كما رآها تهمّ بإنكار أو تغيير ، وحتى استغل هذا الضعف بعض الظرفاء فركبها بالدعابة والتنكيت .

ونحن هنا معنيون بعرض هذه المواقف السياسية التي وقفتها السيدة بعد حرب الجمل إلى أن توفاه الله موقفاً موقفاً ، مستقلاً بعضها عن بعض ؛ فلا يهولنك ضعف موقفها في أمور لا شك في أنها كانت خرقاً في الدين ، ولا شك أيضاً في أنها لو سبقت (يوم الجمل) لكان من السيدة فيها ثورة عنيفة ربما كان حادث الجمل أمامها ضعيفاً لا يذكر ، لا يهولنك ذلك ، فقد استولى على السيدة إشفاق شديد من كل ما يمكن أن يؤدي إلى إهراق دم ، وحق هذا الإشفاق لمن كان تذكر (الجمل) فقط يهز نفسه هزاً ويملاً قلبه حسرة وكدا :

وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة تركته حين يُجرّ جبل يفرق

~~Handwritten scribble~~

الفصل الاول

في موقفها من خصومها السياسيين

ودعت عائشة علياً على ما رأيت ص ١٩٦ ثم لم تره بعد ذلك أبداً . وكانت خطتها منه حتى ماتت خطة تناس وإضراب عن ذكره ، ما فاهت بحقه بكلمة سوء بعد ذلك أبداً إلا ما مر بك من إنشادها لما نعى إليها هذا البيت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر^(١)

وهذا البيت :

فإن يك ناعياً فلقد نعاها غلام ليس في فيه التراب^(١)

وعرفت أن ذلك — إن صح — كان منها خروجاً على طريقة شرعتها لنفسها إزاءه ، ولما ذُكرت بنبوّه هذا الاستشهاد رجعت وأقرت بالغفلة والنسيان .

لقد كانت تحترمه ولكنها تتضايق منه على رغم هذا البعد الفاصل بينهما ، فهي في المدينة وهو في العراق يغامر في هذا الخضم من الفتن .

ولعل مما زاد في ثقل حياته على نفسها ، انطلاق بعض الألسنة من أنصاره بالحجاز في الدعاية له والثناء عليه ، وفي زعم أنه أحق الناس بخلافة رسول الله ... انطلاقاً كان يجر إلى شيء من اللوم لأبي بكر وعمر إذ حالاً بينه وبين خلافة ابن عمه . واستتبع ذلك — فيما أقدر — عيب بعض أعمالهما ، فكان ذلك يستفز السيدة حمية للحق من جهة ونضالاً عن سيرة أبيها وصاحبه عمر من جهة ، ووضعاً من أثر هذه الدعاية من جهة ثالثة . لقد كانت ترسل الخطبة إثر الخطبة في رثاء أبيها أو الثناء عليه وعلى صاحبه عمر ، في حجرتها جالسة للناس أو واقفة على قبره مؤبنة ؛ إلا أنها كانت في معرض الثناء عليهما ، تنال من غيرها دون أن تسميه ، وتعرض بتخلف من بعدهما عن اللحاق بهما .

وأنا أجعل زمن هذا الخطب التي أثبتتها مصادر كثيرة بعد حرب الجمل على كل حال ، لأنه الزمن الذي كان الناس حولها جميعاً أنصاراً لعلی : بايعوه وأخلصوا له ، ولأنه هو الزمن الذي اقتضت دعايتهم من أجله ذكر أبي بكر وعمر ، واقتضى ذلك من جهتها هذا الدفاع المجيد الحق عنهما ، وذلك التعريض اللين بعلی وغيره فيما أذهب إليه .

ولست أرى في خطب الدفاع السياسي ، أو التعريض بالخصوم مما زخر به تاريخنا الحافل ، أبلغ ولا أسدّ ولا أصدق لهجة وأشد حرارة وأوفى إخلاصاً ، ولا أضبط إحكاماً للرمية من أقوال عائشة هذه .

فأنا أورد لك أكثرها بعد هذه المقدمة ، وقد بلغت من نضالها السياسي إلى فترة الهدوء والحسرة والاعتزال ، لتأملها مستعيناً بما حف بها من أجواء وملابسات :

- ١ -

قالت عند قبره (يوم الحكيم) :

« رحمك الله يا أبت ؛ فلئن أقاموا الدنيا لقد قت بالدين لما وهى شعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه ؛ انقبضت مما أضغوا إليه ، وشمرت فيما ونوا فيه ، واستخفت من دينك ما استوطنوا ، وصغرت منها ما عظموا ورعيت دينك فيما أغفلوا . أطالوا عنان الأمن واقتعدت مطىّ الحذر ، ولم تهضم دينك ، ولم تشنْ غدك ، ففاز عند المساهمة قدحك ، وخف مما استوزروا ظهرك^(١) . »

- ٢ -

وقالت :

« توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لو نزل بالجيلال الراسيات ما نزل بأبى لهاضها : اشربّ النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب ... فوالله ما اختلفوا في نقطة (؟)

(١) عيون الأخبار ٢/٣١٣ ومفتاح الأفكار ، وبلاغات النساء لابن أبي طاهر (سنة ٢٠٤ هـ - ٢٨٠ هـ) ص ١٤ - أضغوا : مالوا . العنان : الرسن (والراد ميلهم إلى الراحة) . القدح : واحد السهام التي يتقارع عليها أيها الفائز . استوزروا : حملوا (من الذنوب) .

إلا طار أبي بظنها وغنائها في الإسلام . . . ومن رأى عمر بن الخطاب عرف أنه خلق غناه للإسلام ، كان والله أحوذياً نسيجاً وحده ، وقد أعد للأموال أقرانها^(١) .

— ٣ —

وقالت في مناسبة مماثلة :

« لما توفي رسول صلى الله عليه وسلم ، اشرب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب قاطبة ، وانحازت الأنصار ، وصار المسلمون كالغيم الشاردة في الليلة الماطرة . . حتى جمعهم الله على أبي بكر ، فلقد نزل والله بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها » .

— ٤ —

بلغ عائشة أن أناساً يتناولون من أبيها ، فأرسلت إلى جماعة منهم ، فلما حضروا قالت : « أبي وما أبيه ، لا تعطوه الأيدي ، ذاك والله طود منيف وظل مديد ، أمجح إذ أكدتيم ، وسبق إذ ونيتم سبق الجواد إذا استوى على الأمد .

فتى قريش ناشئاً ، وكهفها كهلاً : يفك عانيها ؛ ويريش مملقها ، ويرأب صدعها ، ويلم شعنها . . . حتى حليتته قلوبها ، واستشرى في دينه فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائها مسجداً يحى فيه ما أمات المبطلون^(٢) .

وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة ، وقيد الجوامح ، شجى النسيج ، فانصفت له نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهنون به ، وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قسيها ، وفوقت إليه سهاها فامتلوه غرضاً ، فما فلوا له صفاة ولا قصفوا له قناة . ومر على سيسائه^(٣) . . . حتى إذا ضرب الدين بجيرانه ، وأرست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجاً

(١) هاضها : أعجزها وكسرهما . الفناء : النفع والفائدة . الأحوذى : الخفيف الحاذق المشمر للأموال الفاهر لها لا يشذ عليه شيء — لقد وقعت السيدة في وصف عمر على الكلمة التي لا كلمة غيرها في العربية تصدق على عمر . وهذه من جوامع كلها وآيات بلاغتها .

(٢) تعطو : تتناول . أ كدى : خاب (وأصله أن يحفر طالب الماء فيبلغ صخرة فيأس) . الأمد : الغاية . العاني : الأسير . يريش مملقها : يصلح حال فقيرها . رأب الصدع : أصلح الشق . لم شعنها : جمع ما تفرق منها . حليتته : استحلته . استشرى : جد وتمادى . الشكيمة : يراد بها الصلابة .

(٣) وقيد الجوامح : كأنه مكسور الأضلاع من خوف الله . انصفت : اجتمعت . السيساء : عظم الظهر (أى استمر ولم يثنه شيء) .

من كل فرقة : أرسالاً وأشتاتاً ؛ اختار الله لنيبه ما عنده . فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه وشد طُنْبُه ، ونصب حباله ، وأجلب بجمله ورجله ، وألقى بركه واضطرب جبل الدين ، ومرج عهده ، وماج أهله ، وعاد مُبرمه أنكاثاً ، وبُغى الغوائل . . . وظن رجال أن قد أكتبت أطماعهم نُهزها ولات حين الذي يرجون^(١) .

وأنى والصديق بين أظهرهم ؟ ! فقام حاسراً مشمراً قد جمع حاشيتيه ، وضم قَطْرِيَه ، فردّ نشر الدين على غره ، ولمّ شعته بطيّه ، وأقام أوده بثقافه ، فوقد النفاق بوطأته ، وانتاش الدين فعشه . . .

فلما أراح الحق على أهله ، وأقرّ الرؤوس على كواهلها ، وحقن الدماء في أهبها ، وحضرته منيته ، سدّ ثَمَمته بشقيقه في المرحمة ونظيره في السيرة والمعدلة : ذاك ابن الخطاب : لله أم حفلت له ودرّت عليه ، لقد أوحدت^(٢) به ؛ ففتّخ الكفرة ودينّجها ، وشردّ الشرك شذر مذر . وبعج الأرض وبجعها فقامت أكلها ولفظت خبأها ؛ ترأمة ويصدّ عنها ، وتصدّى له ويأبأها ، ثم وزّع فيها فيها وتركها كما صحبها . فأروني ماذا ترتؤون ؟ وأى يومى أبى تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ !
أقول هذا وأستغفر الله لى ولكم^(٣) .

- ٥ -

قيل لعائشة أم المؤمنين : « إن قوماً يشتمون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم » فقالت : « قطع الله عنهم العمل ، فأحب ألا يقطع عنهم الأجر^(٤) » .

وكان منها في شأن عليّ من نفي الوصاية وما إليها بلهجة غير طرية ، ما سبقنا إلى ذكره

(١) الجران : مقدم عنق البعير ، والضرب بالجران يراد به الثبات والاستقرار . أرسالا : جماعات . الرواق : مقدم الحيمة (المراد : حل الفساد) . الطنب : جبال الحباء . أجلب : صاح . الرجل : جمع راجل . البرك : الصدر . صرج : فسد واختلط . المبرم : المقتول طاقين . النكث : ما نقض من الثياب ليغزل ثانية . أكتبت : قارت . نهز : فرص .

(٢) الحاشية والقطر : الجانب (والمراد بضم القطر : التشمير لتدارك الأمر) . غره : طيه (الأول) الأود : العوج . الثقاف : آلة التقويم . وقد كسر . انتاش : استنقذ . أراح : أعاد . إقرار الرؤوس على الكواهل : يراد به إشاعة الأمن . حفلت : جمعت درها لترضعه . أوحدت به : أتت به واحدا لا نظير له . (٣) فتّخ ودينّج : ذلل وقهر . شذر مذر : التفرق في كل وجه . بعج : شق . بجمع : ذلل (والمراد استخراج خيراتها) . ترأمة : تعطف عليه — الفائق للزمخشري ١/٢٦٥ .

(٤) بلاغات النساء ص ١١ .

(ص ٦٦) فلا نعيده هنا ، إلا أنا ننص على أن زمنه بعد حادث الجمل .

ولعل آخر تعبير عن موقفها السلبي من علي بن أبي طالب ، انقباضها عن ولديه الحسن والحسين ، فلقد كانت تحتجب منهما وهما لها من المحارم : إنهما سبّطا زوجها لا تحل لهما ولا يحلان لها ، ومن المعروف بداهة أنه « لا تحل امرأة الرجل لولده ولا لولد ولده ولا لأولاد بناتهم ^(١) » . وهي تعرف ذلك حق المعرفة ، لكنها — على ذلك — حجبتهما ولم تكن تأذن لهما إلا من وراء حجاب ، مبالغة في مبادئهما ، ولقد علّق على هذا الحادث ابن عباس بقوله : « إن دخولهما عليها لحل ^(١) » .

ثم كانت الأمنية الأخيرة للحسن بعد وفاة علي وتنازله لمعاوية عن الخلافة ، أن يدفن عند جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي أمنية حق ما كان ينبغي أن يُحرّمها إذ كان أقرب الأحياء يومئذ من رسول الله ، وهو أمسهم به رحماً بعد بنته وأزواجه . ولكن للأهواء السياسية منجّى لا يخضع لحق ولا منطق :

أوصى الحسن وهو يحضر أخاه الحسين فقال : « قد كنت طلبت من عائشة أن أدفن مع رسول الله فقالت : « نعم » ، فإذا مت فاطلب ذلك إليها ، وما أظن القوم إلا سيمنعونك ... ^(٢) » ، « إذا أنا مت فادفني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أجد أولى بقربه مني ؛ . . . إلا أن تمنع من ذلك فلا تسفك فيه محجمة دم ^(٣) » .

ثم مات الحسن ، فأنى الحسين إلى أم المؤمنين عائشة يسألها دفن أخيه في حجرتها إلى جوار جده فقالت : « نعم وكرامة » ثم أخرج نعشه يراد به قبر رسول الله ، فمانع الحزب الحاكم حزب بني أمية ، وركب مروان ^(٣) بن الحكم وسعيد بن العاص ، وهم الحسين أن يلبس ومن معه السلاح لولا أن رده أبو هريرة ^(٣) وكادت تقع الفتنة . ثم دفن بالبيع إلى جنب أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان ذلك سنة تسع وأربعين للهجرة .

(١) طبقات ابن سعد ٥٠/٨ . (٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٠ .

(٣) تاريخ يعقوبى ٢٦٦/٢ — لكن ابن الشحنة في كتابه (روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر : (هامش مروج الذهب ٢/٢٢٥) ينص على أن عائشة نفسها هي التي منعت ، وليس ذلك بشيء . حتى أن يعقوبى يورد هذه الرواية بصيغة التضعيف مصحوبة بتظرف رواية الأخبار ، فقد ذكر أن عائشة منعت وركبت بغلة شهباء وقالت : « بيتي ولا أذن فيه لأحد » . فأتاها ابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر فقال لها : « يا عمّة ، ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر ، أتريدين أن يقال : يوم البغلة الشهباء ؟ ! » وهذا خبر وضع ليعبر عن تنكيت الرأي العام أكثر من تعبيره عن واقع ، وسيمر بك أن مثل هذه النكتة رويت أيضاً عن غير القاسم في غير هذا الحادث .

الفصل الثاني

في مواقف متفرقة :

في مقتل أخيها محمد بن أبي بكر

أنت لم تنس أن محمد بن أبي بكر كان من أشد المؤلبيين على عثمان ، وأن عائشة استتبعته أيام الحصار معها إلى مكة فأبى ، وأنه دخل على عثمان الدار مع الداخلين ، وأنه لما زجره عثمان انزجر وخرج . ثم كان من أكبر أنصار علي ، وشهد معه الجمل فكان ذا أثر لا ينكر في هزيمة جيش أخته عائشة .

فاعلم الآن أن علياً عزل قيس بن سعد الأنصاري من ولاية مصر ، وكان ضابطاً لها ، واقفاً بالمرصاد لمعاوية بن أبي سفيان وحزبه حتى أهمهم أمره ، ولم يستطيعوا له شراً إلا بأن يأتوه من قبل أميره علي ، فأظهر معاوية أن قيساً من حزبه وأشاع ذلك حتى بلغ علياً من جواسيسه ، فأسرع إلى عزله ، وبذلك خسرت مصر وأكسبها معاوية .

ولى علي محمد بن أبي بكر مصر مكان قيس ، ومحمد حدث قليل التجربة ، لم يستفد من خطة سابقه ، فخالفها فوقع في شرك معاوية ، وتحكم فيه جنده فقتلوه شر قتلة :

كان أهل مصر جميعاً بايعوا علياً إلا قوماً غضبوا لمقتل عثمان فاعتزلوا في (خربتا) ينتظرون ما يؤول إليه أمر الناس . وكان من دهاء قيس وحنكته وبعد نظره ، أن تركهم وسالمهم وعاهدهم وجبى خراجهم . وحاول معاوية بكل كيد أن يوقع حرباً داخلية في مصر فلم يستطع لأن واليها كان بالمرصاد يتدارك الشر قبل استفحاله . فلما كاد له عند علي وعزله ، نصح خلفه محمد بن أبي بكر بمسألة أهل (خربتا) فاستغشه محمد وخالفه ، وناجزهم القتال ، وبلغ الخبر معاوية وكان ساهراً على تسقط أخبار مصر ، لا يفغل عن شاردة ، فجهز عمرو بن العاص بجيش كثيف ، وكتب سرّاً العثمانية من أهل مصر وفيهم أهل (خربتا) بمجئ المدد فلما اجتاز عمرو بن العاص اجتمعت جموعه بمجموع الثائرين وعليهم معاوية بن خديج السكوني ، ولم يستطع محمد بن أبي بكر أن يخرج بأكثر من ألفين ، وانتدب الناس ليخرجوا مع كنانة

ابن بشر فكان معه ألفان أيضاً ، فالتقت الجموع وكان القتال ، ودارت الدائرة على جيش كنانة وقتل ، ثم على جيش محمد فانهزموا حتى بقي محمد وحده ، فدخل خربة في ناحية الطريق .

لما بلغ عائشة أن معاوية قد عقد لعمر بن العاص ، وأمره بالمسير لقتال أخيها محمد بن أبي بكر أمير مصر لعليّ ، أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ليتكلم في أمر محمد ، ففعل فلم يغب عنه شيئاً . ولما كلم عمرو بن العاص ، تفصل هذا من التبعة وقال لعبد الرحمن : « ما جعل لي معاوية من الأمر شيئاً ، وما أنا إلا براء ، وما الأمر إلا لهذا الكنانى (يريد معاوية بن خديج^(١)) » .

دخل عمرو بن العاص الفسطاط عقب القتال ، وخرج معاوية بن خديج في طلب محمد ابن أبي بكر « حتى انتهى إلى علوج في قارعة الطريق فسألهم : (هل من بكم أحد تنكرونه ؟) فقال أحدهم : (لا والله إلا أنى دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس .) فقال ابن خديج : (هو هو ورب الكعبة) فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً ، فأقبلوا به نحو فسطاط مصر ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص وكان في جنده فقال :

(أقتل أخى صبراً ؟؟ ابعث إلى معاوية بن خديج فانه^(٢)) .

وطلب عبد الرحمن إيفاد أخيه محمد إلى معاوية ينظر في أمره ، وهو يعلم أنه إذا أرسل إلى معاوية وسعه حلمه وإحسانه ، فإن لم يصفح عنه كان في شفاعته أخته أم المؤمنين له ما يحمل معاوية على العفو عنه إرضاء لها وتزلفاً .

فبعث^(٢) عمرو بن العاص إلى معاوية بن خديج يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر ، فقال معاوية بن خديج : « أكذاك قتلت كنانة بن بشر ، وأخلى أنا عن محمد بن أبي بكر ؟ هيهات ، « أ كَفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ »^(٣) .
وأراد ابن خديج أن يعاجله خشية أن يخلى معاوية بن أبي سفيان سبيله .

(١) ابن عساكر .

(٢) الطبرى ٧٩/٤ .

(٣) سورة القمر ٤ الآية ٤٣ — والزبير : الكتب . والخطاب لكفار قريش بعد أن قص الله

عليهم ما حل بكفار الأمم من قبلهم لما كذبوا رسلهم .

فقال لهم محمد : « اسقوني من الماء » قال له معاوية بن خديج : « لاسقاه الله إن سقاك قطرة أبداً ، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صامئاً محرماً فتلقاه الله بالرحيق الختموم ، والله لأقتلنك يا بن أبي بكر فيسقيك الله الحميم والغساق . »

قال محمد : « يا بن اليهودية النساجة ، ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت ، إنما ذلك إلى الله عز وجل يسقى أوليائه ويظمى أعداءه : أنت وضرباءك ومن تولاه . أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتني هذا . »

قال له معاوية : « أتدري ما أصنع بك ؟ أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار . » فقال محمد : « إن الله يحرقك وإمامك (يعني معاوية) وهذا (وأشار إلى عمرو بن العاص) بنار تلظى كلما خبت زادها الله سعيراً . »

قال معاوية : « إني إنما أقتلك بعثمان . »

قال له محمد : « وما أنت وعثمان ، إن عثمان عمل بالجور ونبذ حكم القرآن ... فنقمنا ذلك عليه فقتلناه . وحسنت أنت له ذلك ونظراؤك ، فقد برأنا الله من ذنبه ، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه ، و [الله] جاعلك على مثاله . »

فغضب معاوية فقدمه فقتله ، ثم ألقاه في جيفة حمار ، ثم أحرقه بالنار^(١) .

كان ذلك سنة ثمان وثلاثين للهجرة ، وإياك أن تظن أن هذا حكم معاوية بن خديج وحده ، وتخدع بهذا التنصل الذي تنصله عمرو بن العاص ، أو بما سيمر بك من تنصل معاوية يوم دخل حجرة عائشة بالمدينة فأخذته على قتل أخيها . إني أجزم بأن الأمر متفق عليه بين عمرو ومعاوية بن أبي سفيان من أول الأمر ، ولو خلس منهم محمد ودخل الكعبة ملتجئاً ما كان ذلك بمنجيهم عندهم من القتل ؛ إنهم لن يتركوا امراً سعى ذلك السعى في عثمان ، ثم كان منه يوم الجمل ما كان ، ثم كان من أعظم أركان علي ، وأشدهم له حباً وإخلاصاً . لم يكن التنصل من تبعة قتله إلا دهاء من معاوية بن أبي سفيان وصاحبه عمرو .

وصل خبر مقتله هكذا إلى المدينة ، فعظم الحزن عليه : أما أمه أسماء بنت عميس ، فقد

(١) الطبرى ٤ / ٧٩ — ولا تنس أن في ذلك إجابة لدعوة عائشة عليه إذ كانت تقول : « اللهم اقتل مذمماً بسعيه على عثمان » وقد مر بك ذلك في ص ١٠٦ .

قامت لما بلغها الخبر — إلى مسجد بيتها وكظمت غيظها (من شدة حزنها وعظم مصابها) — حتى شخب ثديها دماً^(١).

وأما أخته عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين ، فقد جزعت عليه جزعاً شديداً ، وصارت تقنت في دبر كل صلاة : تدعو على معاوية بن خديج^(٢) وعمرو بن العاص . واشتد حزنها عليه شدة ما استطاعت أن تخفف منها بتغيير أو إنكار أو طلب ثأر (لما عرفت من أثر يوم الجمل في نفسها) ، وحرّمت على نفسها الشواء ، فلم تأكل شواء من ذلك الوقت حتى ماتت^(٣) . ثم ضمت عيال محمد إليها وربّت ابنه القاسم في حجرها فنشأ ألقه أهل المدينة . واحتل هذا الحادث من قلبها مكاناً إلى جانب حادث الجمل ، واحتسبت مصابها عند ربها ، ما تطيق له تنفيساً إلا ما لا بال له — على ما سترى — بين الفينة والفينة : من جمل تُشعر بضعفيتها على معاوية بن أبي سفيان وعهده ، على رغم ما صار بينهما من مجاملة ومداراة .

في مقتل حجر بن عدى

حجر بن عدى سيد من سادات العرب في الكوفة ، نافذ الكلمة ، عظيم الوجاهة ، من أولئك الذين لهم في قومهم مكانة الزعماء يشيرون فتمضى إشارتهم ، ويأمرون فيطاعون . عرف إلى ذلك بالعدالة وحسن السيرة ولزوم الدين ؛ فكان من أخص شيعة علي بن أبي طالب ممن نصره وقاموا بأمره وأحبوه حياً وميتاً ، وأقاموا على مودته والوفاء له والزياد عنه بعد مماته ، تحدى في ذلك سلطة الخلفاء وسطوة الأمراء .

لما قضى علي وتنازل الحسن لمعاوية واجتمعت الأمور له ، ولّى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبه أحد دهاة العرب وحملأهم ، وقبل سفر المغيرة دعاه معاوية (في جمادى سنة ٤١) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) انظر ترجمتها في الإصابة .

(٢) لم يمنع فعل معاوية بن خديج السيدة عائشة حين سمعت خيراً عنه من الثناء عليه مع عظيم جرمه لإيها : فقد كان ابن خديج هذا ممن لهم البلاء الحسن في غزو المغرب ، وروا أن عائشة زارها وفد من جند الغزو فسألتهم : « كيف كان أميركم في غزائكم ؟ » فقالوا : « ما نقمنا عليه شيئاً » وأثنوا عليه . فقالت السيدة : أستغفر الله ، إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم من رفق بأمتي فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه » .

(٣) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان (مخطوط ص ٢٠٩) .

« أما بعد فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا ، وقد قال المتلمس :
لذي الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليعلمها
وقد يجزى عنك الحكيم بغير التعليم ؛ وقد أردت إيضائك بأشياء كثيرة فأنا تاركها
اعتماداً على بصرك بما يرضيتي ويسعد سلطاني وتصلح به رعيتي .

ولست تاركاً إيضائك بخصلة : لا تتحمَّ عن شتم عليّ وذمه ، والترحم على عثمان والاستغفار
له ، والعيب على أصحاب عليّ والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم ، وإطراء شيعة عثمان
رضوان الله عليه والإيداء لهم والاستماع منهم ^(١) . »

وأقام المغيرة في الكوفة والياً عليها لمعاوية سبع سنين وأشهرًا ، فأحسن سياستها وأحكم
إدارتها ، ولم يكن الناس ينقمون عليه إلا شتمه لعلّ تنفيذاً لوصية معاوية ، فإنه ما كان
« يدع ذمّ عليّ والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له
والتزكية لأصحابه ^(١) . »

فكان حجر إذا سمع ذلك لم يسكت عليه لما جعل الله فيه من الشجاعة والوفاء والحمية
والصدع بالحق ، فكلما وقف المغيرة يشتم علياً وأنصاره (وهم جمهور الناس في الكوفة)
ردّ عليه فقال :

« بل إياكم فذمّ الله ولعن . . . » ثم قام فقال :

« إن الله عز وجل يقول : (. . . كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ^(٢)) ؛ وأنا أشهد :
إن من تدمون وتعيرّون لأحق بالفضل ، وإن من تزكّون وتطرون أولى بالذم . . . » فيجيبه
المغيرة : « يا حجر ، لقد رمى بسهمك إذ كنت أنا الوالى عليك ، يا حجر ويحك اتق
السلطان . . . اتق غضبه وسطوته ، فإن غضبة السلطان أحياناً مما يهلك أمثالك كثيراً . . . »
ثم يكف عنه المغيرة ويصفح . . .

واستمر الحال بينهما على هذه الصورة ، يرد حجر على المغيرة مقالته كلما وقف يشتم علياً

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٨٨ .

(٢) سورة النساء ٤ الآية ١٣٤ .

وأنصاره ويزكى عثمان وأشياعه . . . حتى إذا كانت أواخر أيام المغيرة وقف يخطب ويقول على عادته من شتم على والثناء على عثمان :

« اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه واجزه بأحسن عمله ، فإنه عمل بكتابك واتبع سنة نبيك وجمع كلتنا وحقن دماءنا وقتل مظلوماً . اللهم فارحم أنصاره وأوليائه ومحبيه الطالين بدمه . . » ويدعو على قتلته . فقام حجر بن عدى فصرخ بالمغيرة صرخة سمعها كل من كان في المسجد وخارجاً منه وقال :

« إنك لا تدري بمن تولع من هرمك أيها الإنسان ، مرُّ لنا بأرزاقتنا وأعطيأتنا فإنك قد حبستها عنا وليس ذلك لك ، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك ؛ وقد أصبحت مولماً بدم أمير المؤمنين (يريد علياً) وتقريظ الجرمين » .

فقام مع حجر أكثر من ثلثي الناس يقولون : « صدق والله حجر وبرّ ، مرُّ لنا بأرزاقتنا وأعطيأتنا فإننا لا نتنفع بقولك هذا ولا يجدي علينا شيئاً^(١) » . وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه حتى نزل المغيرة .

استأذن على المغيرة بعد هذا الموقف الشديد ، قومه فأذن لهم ، فقالوا : « علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترئ عليك في سلطانك هذه الجرأة ؟ ! إنك تجمع على نفسك بهذا خصلتين : أما أولاهما فتهمين سلطانك ، وأما الأخرى فإن ذلك إذا بلغ معاوية كان أسخط له عليك » .

فكشف لهم المغيرة عن خطته ودهائه وبعد غوره وسعة صدره بقوله لهم : « إني قد قتلته : إنه سيأتى أمير بعدى فيحسبه حجر مثلى ، فيصنع به شيئاً بما ترونه يصنع بي ، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة .

إنه قد اقترب أجلى وضعف عملي ، ولا أحب أن أبتدى أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دماءهم فيسعدوا بذلك وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ؛ ولكنى قابل من محسنهم وعافٍ عن مسيئهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت ، وسيد كروني لو قد جربوا العمال بعدى^(١) » .

(١) تاريخ الطبري ١٨٩/٤ — مات المغيرة وتولى بعده ولاة . . . فكان أحد شيوخ الحمى يذكر هذا الحديث ويقول : « قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم : أحمدهم للبرى ، وأغفرهم للمسىء ، وأقبلهم للعذر » .

ولقد وقع الأمر كما فصله المغيرة حرفاً حرفاً .

ولى الكوفة بعد المغيرة زياد بن أبيه ، فرأى الناس أبطش الناس وأقسامهم وأضيقتهم صدرأ ، بعد أن رأوا أرحم الناس وأوسعهم صدرأ . لقد تتابع من زياد وعامله شتم على والبراءة منه ، فكان موقف حجر من ذلك موقفه الأول ، فهده زياد على ملاء من الناس ... فإنه لواقف يوماً يخطب على منبر الكوفة فأطال وأخر الصلاة حتى قال له حجر : « الصلاة » فضى زياد في خطبته ، ثم قال حجر : « الصلاة » فضى زياد يخطب ، ثم قال حجر : « الصلاة » فضى زياد في خطبته ، فلما خشى حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من الحصى (في وجه زياد) وثار إلى الصلاة وثار الناس معه ، فلما رأى زياد ذلك قطع خطابه ونزل فصلى بالناس .

ضاق زياد ذرعاً بحجر وردوده ومناواته فكتب فيه إلى معاوية وكثر عليه في أمره ، فكتب إليه معاوية أن « شدّه في الحديد ثم احمله إلى^(١) . »

فلما أراد زياد حمله منعه قوم حجر ، واختنق ملتجئاً من محلة إلى محلة .. في خبر طويل وبلاء مستطير ، ثم أسلم نفسه فحمل مع بضعة عشر رجلاً من رؤوس شيعة على إلى معاوية فأمر معاوية نفرأ من أهل الشام أن يعرضوا عليهم البراءة من على واللعن له ، فإن فعلوا وإلا قتلوا . وعان أهل الشام منهم صلاة طويلة حسنة وتبتلاً ودينأ غالبأ ، فلما عرضوا عليهم لعن على رفضوا وقالوا : « بل تتولاه وتبترأ بمن تبرأ منه » فأمر رسول معاوية بحفر قبورهم فحفرت ، وأدريت أكنفهم ، فأقاموا الليل كله يصلون »

فلما أخرج حجر ليقتل استأذن جلاديه أن يصلى ركعتين ، فأذنوا ، فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال : « لولا أن تظنوا بي غير الذى أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا » . ثم قال :

(١) الطبرى ٤ / ١٩٠ - لخصت في هذه الأسطر أخبارأ بسطها الطبرى في أكثر من عشرين صفحة (١٨٧ / ٤ - ٢١٣) تلخيصاً يوائم حاجتنا في هذا البحث .

« اللهم إنا نستعديك على أمتنا ، فإن أهل الكوفة شهدوا^(١) علينا وإن أهل الشام يقتلوننا . أما والله لئن قتلتموني بها إني لأول فارس من المسلمين هلك في وادئها » .
ثم قال لمن حضر من أهله : « لا تطلقوا عني حديداً ولا تغسلوا عني دماً : فإني ألقى معاوية غداً على الجادة » ثم قدم فضربت عنقه .

كان محمد بن سيرين بعد ذلك إذا سئل عن الشهيد : يُغَسَّل ؟ حدثهم حديث حجر .
وفي هذا دلالة على نظرة الرأي العام حينئذ لمقتل حجر ، فقد كانوا يرونه المسلم الصادق الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر ، قضى شهيداً في سبيل الجهر بالحق ، ما خلع طاعة ولا فارق جماعة ، وإنما أنكر على الولاة لضعفهم خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وردد الناس مرثية امرأة من الأنصار له ، وهي هند ابنة زيد بن مخرمة ، فقد كان في هذه المرثية ما يعبر عن شعورهم ويشبع التبايعهم على حجر وسخطهم على معاوية قالت :

ترفع أيها القمر المنير تبصر : هل ترى حُجراً يسير؟
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبار بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد لها محولاً كأن لم يحبها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بن عدي تلقىك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عدياً وشيخاً في دمشق له زثير
يرى قتل الخيار عليه حقاً ، له من شر أمته وزير
ألا ياليت حجراً مات موتاً ولم يُنحَرَ كما نحر البعير
فإن يهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هلك يصير^(٢)

(١) زور زياد محضراً كتب فيه : « إن حجراً خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع معاوية وكفر بالله عز وجل كفره صلحاء » .
وأشهد عليه سبعين من أمثال الكوفيين .

(٢) الطبرى ٢٠٩/٤ - الخورنق والسدير : قصران مشهوران . وأرض محول : قاحلة ، وأرادت بالشيخ معاوية وبالوزير زياداً . وانظر الأغاني ١٦ / ١٠ وفيه مكان تجبرت الجبار : تربعت الجبار وأول البيت الخامس هكذا (أخاف عليك سطوة آل حرب ..) .

وتناقل الناس بعدئذ هذه الجملة وفيها الدليل الناطق على مكانة حجر من قلوب الناس، قالوا: « أول ذلّ دخل الكوفة: موت الحسن وقتل حجر^(١) ». وكان الحسن البصرى إذا عدّ أموراً أربعة من أكبر ما ارتكب معاوية، عد رابعها قتله لحجر، وعقب على ذلك بقوله: « ويل له من حجر وأصحاب حجر^(١) ». ويكرر ذلك.

فذكر ابن سيرين أن معاوية « لما حضرته الوفاة جعل يفرغ بالصوت ويقول: يوى منك يا حجر يوم طويل^(٢) ».

فيما بين ولاية زياد ومقتل حجر، انتشر خبر القبض عليه في الأمصار الإسلامية — ومنها الحجاز — وبلغ عائشة فأهمتها أمره جداً، فأرسلت سفيراً خاصاً إلى معاوية هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ليشفع — على لسانها — لحجر وأصحابه، فقدم عليه عبد الرحمن وقد قتلهم، فأسف أشد الأسف ولم يملك إلا أن يعاتب معاوية أمرّ العتاب، فقال له: « أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟ » فأجاب معاوية: « حين غاب عنى مثلك من حلما قومي، وحمّلتني ابن سمية (زياد) فاحتملت ».

فلما طبّق خبر مقتله المدينة جزعت عائشة عليه أشد الجزع، وعظم غضبها على معاوية، وثارَت ثورتها، ولست أشك في أنها كانت تثير الناس وتجيّش الجيوش وتخرج إلى قتاله لولا الدرس المؤلم الذي كانت لا تنساه: درس (يوم الجمل)، ولا أدل على ذلك من قولها:

« لولا أنا لم نغيّر شيئاً إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه، لغيرنا قتل حجر أما والله إن كان — ما علمت — مسلماً حجاجاً معتمراً^(٣) ».

ولا يفوتك أن كلمة (لغيرنا) لا يقوله إلا من أيقن أن سلطانه يطاول سلطان الذي يغيّر عليه، كانت السيدة معتدة بنفوذها وسلطانها واثقة من أنها — في بعض النواحي —

(١) المصدر السابق ص ٢٠٨ .

(٢) الطبري ٤ / ١٩١ والأغانى (١٠ / ١٦) طبعة السامى .

(٣) تاريخ الطبري ٤ / ٢٠٨ والأغانى ١٠ / ١٦ .

خليفة فوق الخليفة . وإن نفرتها الشديدة من الدماء بعد أن عاينت فظاعتها يوم الجمل هي التي تحول بينها وبين كثير مما يجب ، وكثير مما تريد .
ولقد جمع قولها هذا حسرتين : حسرتها على حجر ، وحسرتها على أنها لا تملك أن تثار له .

وسترى بعد قليل أنها لما اجتمعت بماوية كان مقتل حجر من أول ما قرّعته عليه .
وزعم اليعقوبي أن معاوية لما حج استأذن على عائشة فقالت له : « يامعاوية ، أقتلت حجراً وأصحابه ، فأين عزب حملك عنهم ؟ أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يقتل بمرج عذراء نفر يفضب لهم أهل السماوات ^(١) » .
لم تكن السيدة — مع اعتزالها — ليغيب أثرها عما يهز المجتمع العربي حينذاك من هزاهز .

في قضية هدبة بن الخشرم

هدبة بن الخشرم شاعر من بني عامر ، نخرج قومه حجاجاً فاصطحبهم هو وأخته فاطمة ، ومع قومه شاعر آخر هو زيادة بن زيد أحد بني رقاش ، فتعاقب هدبة وزيادة سوق الإبل ، فحدا زيادة بالإبل فرجز يتغزل بأخت هدبة وهي تسمع ، فأحفظ ذلك هدبة فرجز بأخت زيادة الغائبة ، فلم يشف نفسه . وكان بينهما شر استطار إلى قوميهما ؛ فلما انقضى الحج أصاب هدبة غرة من زيادة فقتله ثم هرب .
قبض والى المدينة — حين فر هدبة — على عم هدبة وأهله فحبسهم ، فلما بلغه ذلك أسلم نفسه إلى السلطان فحبسه وأطلق عمه وأهله .

أهم أهل المدينة شأن هدبة ، فشفع كثير منهم عند عبد الرحمن أخى زيادة في أن يقبل الدية فأبى . وجعل القرشيون بالمدينة يكلمونه في هدبة وأضعفوا له الدية ، وكان في جملة الساعين أ كابر الناس : الحسين بن علي ، وسعيد بن العاص والى المدينة ، وعبد الله بن

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٧٥ ومرج عذراء شرق دمشق ، حيث دفن حجر وأصحابه ، وعذراء قرية هناك سمى المرج بها — هذا ولم يصنع معاوية شيئاً حين اعتذر للسيدة بقوله : « لم يحضرنى رجل رشيد يا أم المؤمنين » .

عمرو ، وعمرو بن عثمان بن عفان ... وهو يابى . وأشفق الوالى من قتل هذبة فرفع أمره إلى معاوية ، وذهب إليه عبد الرحمن نفسه أخو القتيل .
نظر معاوية فى الأمر وهو لا يريد ، فلاح له مخلص جيد ، فسأل عبد الرحمن :
« هل لزيادة ولد ؟ » قال « نعم ، له غلام صغير دون البلوغ ، اسمه المسور ، وأنا عمه وولى دم أبيه » .

فقال معاوية : « إنك لا تؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق ، والمسور أحق بدم أبيه » وأمر بحبس هذبة حتى يبلغ المسور .

مات خلال ذلك عبد الرحمن وانقضت على حبس هذبة ست سنين حين بلغ المسور . وسعى الناس ، والظاهر أن مسعاهم أثمر لدى المسور فمال إلى العفو وأخذ الدية لولا موقف أمه ، فقد قالت له :

« والله لئن لم تقتل هذبة لأنكحته ، فيكون قد قتل أباك ثم نكح أمك ، فتسبك بذلك العرب يد المسند (الدهر) » ، فصرفه ذلك عن مذهبه ، فثار لأبيه من هذبة فقتله .

أما السيدة عائشة ، فالظاهر أنها ذهبت فى أمر هذبة الذى أهم قريشاً وأهل المدينة والبوادى مذهباً آخر : إنه أول عدوان فيه إحياء لأمر الجاهلية ، وهى تريد أن يقضى على الجاهلية وعدوانها قضاءً مبرماً ، وترى السيدة أن ذلك من أهم رسالات الإسلام ، فكانت تحب أن يقتل هذبة بزيادة فيكون ذلك أول قودٍ من نوعه فى الإسلام ، وينزجر كل من لم تنزع من نفسه عادات الجاهلية وحميتها .

استنتجنا ذلك من جوابها لهذبة : فقد أرسل إليها يقول : « استغفرى لى » .

فأجابته السيدة : « إن قتلت استغفرت لك » .

فلما قُتل برت له بوعدها فاستغفرت له (١) .

(١) انظر تفصيل أخبار هذبة فى كتاب الأمل للقالى ٤ (كتاب التنبيه) ص ٨٣ ، ٨٤ والأغاني ١٧٧/٢١ (طبعة الساسى) وقد اعتمدنا المصدر الأول وخاصة فى تقدير السنوات التى لبثها هذبة فى السجن .

جرت الأمور في قضية هدبة على ما يرضى السيدة : من إقامة حدود الله وإحباط الشفاعات حسماً لمادة الجاهلية وعقاييلها في النفوس ، فكانت بموقفها هذا من هدبة وهوى الرأى العام : الساهرة الراعية لحق الشريعة .

متفرقات

وفوق ما تقدم ، كانت تكون بين السيدة والخليفة وعماله مراسلات : يسألونها فتجيبهم أو تشفع فيمضون شفاعتها ، إذ يعدونها واجبة الطاعة ويرعون مقامها . فإذا تقدمت إلى والٍ بأمر ما ، كان هذا الوالى أعظم إنسان سروراً إذ رأته السيدة أهلاً لمكاتبتها أو تكليفه حاجة طُلبت منها .

فإذا كانت النظرة الأولى لهذه الاستفتاءات من الخليفة أو عماله ، توحى إليك بردّ الأمر إلى ماشاع من أن عائشة أعلم الصحابة في شؤون الرسول البيتية وأمور النساء ، فإني أذهب إلى أبعد من ذلك ، أجعل الحافظ الأول في استفتاءهم لها تطيب خاطرها وإشعارها بما يكونون لها من تعظيم وحرمة ، رجاء أن يخف إنكارها عليهم فيما يبلغها عنهم من اعوجاج ؛ وإلا ففي كل مصر من فقهاء الصحابة من يغنى المستفتى عن أن يكتب إلى عائشة في مسألة من المسائل . وإليك بعض هذه المسائل مما لم يمر بك :

- ١ -

كتب إليها معاوية أن : « اكتبى إلى بشىء سمعته من أبى القاسم صلى الله عليه وسلم » . فوجدت السيدة الفرصة المواتية ، فعمدت إلى الأسلوب الذى يقرّع به مثل معاوية فاخترت هذا الحديث الجامع فكتبت إليه :

سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول :

« من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً ^(١) » .

(١) روضة المحبين ص/٤٧ ومسنّد أحمد ٦/ والبيان والتبيين (٢) / ٢٤٢ طبعة السندوبى الثانية .

وقد عرفت جوابها معاوية لما سألها أن تروى له حديثاً عن عثمان رحمه الله^(١) .

— ٢ —

كتب زياد بن أبي سفيان - والى العراق لمعاوية - إلى السيدة يستفتيها في حكم يقرره ابن عباس :

« إن عبد الله بن عباس قال : (من أهدى هدياً حرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر الهدى) وقد بعثت بهدي فاكتم لي بأمرك » .
فأجابته :

« ليس كما قال ابن عباس ، أنا فتلت قلائد هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ثم قلدها رسول الله بيده ، ثم بعث بها مع أبي ، فلم يحرم على رسول الله شيء أحله الله له حتى نحر الهدى^(٢) » .

— ٣ —

كتب معاوية إلى زياد : « انظر رجلاً يصلح لثغر الهند فوله . » فكتب إليه :
« إن قتيلاً رجلين يصلحان لذلك : الأحنف بن قيس ، وسنان بن سلمة الهذلي » فكتب إليه معاوية :

« بأى يومى الأحنف نكافته : أبجدلانه أم المؤمنين ، أم بسعيه علينا فى صفين ؟ فوجه سناناً^(٣) » .

ولا يخفى عليك ما يتبعى معاوية بقوله : (أبجدلانه أم المؤمنين) من الهدف السياسى فإنه إذا بلغ عائشة أن خاذلها حُرْم الولاية لخذلانه لها ، عظم رضاها عن معاوية فأسكتها ذلك عما ترى بعض الإسكات ، ونال معاوية بذلك الزلنى عندها فأمن جانبها .

(١) ص ٢٣ الحاشية ٢ من هذا الكتاب .

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٩٥ — وقال الزهرى : أول من كشف الغمى عن الناس وبين لهم السنة فى ذلك عائشة .

(٣) عيون الأخبار ١/٢٢٧ — وكان من جواب زياد معاوية : « إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره الغزل .

طمح زياد أن يظفر من السيدة عائشة بالاعتراف بنسبته إلى أبي سفيان ، فجعل يكتب إليها عناوين كتبه « إلى عائشة أم المؤمنين من ابنها زياد بن أبي سفيان » رجاء أن يرد في الجواب : « ... إلى زياد بن أبي سفيان » . لكن عائشة لم تفعل ^(١) ، بل اكتفت أن تكتب إليه : « من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد » . حتى حدثت لها عنده هذه الحاجة : كان لعبد الرحمن بن أبي بكر مولى اسمه مرة بن أبي عثمان ؛ فلما مات عبد الرحمن وكانت عائشة شديدة المحبة والإكرام له ، أتتها مرة يسألها أن تكتب له وصية إلى زياد وإلى البصرة إذ عزم مرة على الإقامة بها ، وسألها أن تبدأ في العنوان باسم زياد قبل اسمها . فكتبت عائشة إلى زياد كتاباً توصيه بمرة وجعلت العنوان :

« إلى زياد بن أبي سفيان من عائشة أم المؤمنين »

وحمل مرة الكتاب إلى زياد بالبصرة .

فلما رأى زياد أنها كاتبته وقدمته ونسبته إلى أبي سفيان ، سر بذلك ، وأكرم مرة وألطفه ، وجعل يقول للناس : « هذا كتاب أم المؤمنين إلىّ فيه » ويعرضه عليهم ليقروا عنوانه ويروا فيه نسبته إلى أبي سفيان ... وكان موقعه عنده عظيماً جداً ، فأقطع مرة مئة جريب على نهر الأبله ، وأمر أن يحفر له نهر يسمى باسمه : « نهر مرة ^(٢) » ، ثم كان ابن هذا المولى عثمان بن مرة من أسرياء البصرة بعده .

وليس هذا الخبر يحتاج إلى أن ينبه إلى ما فيه مما يشعر بمكانة السيدة ، لقد كان كتابها

(١) كان لزياد أخ يدعى أبا بكرة ، وكان مقاطعاً لزياد ، فلما استلحق معاوية زيادا بنسبه أنكر ذلك أبو بكرة .

ثم عزم زياد على الحج ، فبلغ ذلك أبا بكرة ، فسعى إلى أحد أبناء زياد فقال له : « يا بني قل لأبيك : إنني سمعت أنك تريد الحج ، ولا بد من قدومك إلى المدينة ، ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأمر حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم (وهي أخته بموجب استلحاق معاوية له) ؛ فإن أذنت لك فأعظم به خزياً مع رسول الله ، وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا » .

فترك زياد الحج . — انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤١٠/٥ وتاريخ الأمم الإسلامية للشيخ الحضري ٤٧٧/١ (الطبعة الأولى — مطبعة المعارف بمصر)

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦٠ (طبعة لندن) ومعجم البلدان لياقوت (مادة نهر مرة) والمعارف لابن قتيبة وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤١١/٥

فقط — في رأى زياد — تشريعاً له ونصراً مدنياً سياسياً ، وحنة يحتج بها على نسه إلى
أبي سفيان ، إذ ماذا يريد وراء شهادة السيدة له بهذا النسب .

في بيعة يزيد بن معاوية

الشورى أساس من أسس الحكم في الإسلام ، فكلما كان حظ الحكم منها أوفى كان
أقرب إلى روح الإسلام . والحاكم الأعلى في العرف الإسلامي أجبر الناس كافة : يسهر على
مصالحهم ويستوفى أجره من بيت مالهم ، وليس يملك من الأمر غير ذلك .
انقضى عهد الراشدين ، وفهم أجلاء الصحابة ورؤوس الناس للحكم هذا الفهم ؛ فلما
اتفق أن وليّ عثمان بعض الأكفياء من أقربائه أعمالاً ، أنكر الناس ذلك وأعظموه ،
وخافوا أن تصير مصالحهم العامة حُكراً لأحد ، أياً كان ، ففشت القتالة في عثمان حتى آلت
الأمر إلى ما عرفت .

أما معاوية : فإن أر بعين عاماً سلخها في حكم الشام إلى جوار إمبراطورية الرومان ،
وفي ديارها السابقة ، قد انحرفت به عن الجادة في أمر الحكم ، فلم يسلك به الطريق
الإسلامي الذي رأينا أساليب مختلفة له في عهد الراشدين ، وإنما سلك به طريقاً (رومانياً)
وأراده أسلوباً ملكياً على أسلوبهم ، وانتوى نية فظفقت يتألف لها الناس ، ويهيئ لها
الأمر . فلما وجد الأحوال مواتية ، أعلنها بيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد .

ولم يفعل ذلك حتى سبر أغوار الأمصار وطباع الناس وكانت قد استلانت واستكانت
بسبب سياسته وسياسة ولاته الحازمين الأشداء مدة عشرين عاماً ، لقد استكانت إلى
الطاعة ، حتى من يجيش حمية من زعماء القوم وأحرارهم رؤس معاوية إباءهم وأنفتهم
بلطفه وعطائه الجرم ، فإن لم يسلسوا له جعلهم جزر السيوف كما رأيت في أمر حجر
وأصحابه . وقد حصد الموت مدة أر بعين سنة أكثر الصحابة ، ورؤوس الناس ممن
يهاهم معاوية .

ومع كل ذلك لم يخلُ إعلان البيعة ليزيد من صدمة للنفوس عامة ، فأكثرها وقف
ثم رضى بالقضاء المحتم ، وبعضها أنكر ورفع عقيرته بالإنكار .
أما السيدة عائشة فقد لظمت بيتها وسكيتها ، وأنا أقطع أنها جاهدت نفسها أعظم الجهاد

بهذه السكينة ، وكتبها أعظم الكبت ، وكظمت غيظا ما كانت لتكظمه ؛ فما كان هذا الأمر بالأمر الحقير ، إنه أعظم ما مرّ بالسيدة من خروج على الإسلام وتنكر لروحه ، ولكنها الدماء ، الدماء دائماً هي الشبح الذي يلوح لعائشة كلما همت بانكار منكر فترعد فرائصها وتستجير بالله من كل خير يؤدي إلى شر .

لكن أعوان معاوية فاتهم اللطف في تأتهم لهذا الخرق العظيم ، ولم يدركوا ما فيه من كسر لحرية ألفتها العرب ، وشورى يتعبدون بها ، ونظم سامية تجرى منهم مجرى الدم من العروق . ظن أعوان معاوية أن البيعة ليزيد أمر من هذه الأمور الكثيرة التي يرد بها البريد فتعلن للناس وتنفذ في يسر وصمت ... مما لا يصدم عقيدة ولا يجافي روحاً ولا يكسر تقاليد أصيلة ولا يذل أنفة قومية .

أرسل معاوية إلى الأمصار أمره بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده ، فوقف عامله على المدينة مروان بن الحكم يعلن هذه البيعة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إنكار الناس لها واحداً ، وكان متكلمهم عبد الرحمن بن أبي بكر أخو السيدة عائشة فقد رد على مروان كلامه فقال :

« كذبت والله يامروان وكذب معاوية معك ، لا يكون ذلك ، لا تحدثوا علينا سنة الروم : كلما مات هرقل قام مكانه هرقل . »

« لقد جئتم بها هرقلية وقوقية^(١) ؛ تبايعون لأبنائكم ؟! »

قال مروان : « سنة أبي بكر وعمر . »

فقال عبد الرحمن : « بل سنة هرقل وقيصر . » ، « ما لأبي بكر لم يستخلفني ؟ وما لعمر لم يستخلف عبد الله ؟ »

واشدد الغضب والحق بمروان فقال :

يا أيها الناس ، إن هذا الذي قال الله فيه : « وَالَّذِي قَالَ لَوْأَلِدِيهِ أَفٍ لَكُمَا أَعْدَانِي

أَنْ أُخْرَجَ .. »^(٢)

(١) الدنانير القوقية : من ضرب قيصر لأنه كان يسمى قوقا — القاموس المحيط .

(٢) سورة الأحقاف ٤٦ الآية ١٧ وتمتها : « وقد خلت القرون من قبلي ، وهما يستغيثان الله وبك آمن إن وعد الله حق ، فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين » .

حينئذ ، فرغ صبر عائشة — وهي تسمع من حجرتها — وقد رأته أن عبث مروان
تطاول إلى القرآن ، ففضبت وقالت :

« أأبنا الصديق يقول هذا ؟؟ » ثم قالت : « استروني » فستروها فجهرت قائلة :

« كذبت والله يا مروان ، ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، إن ذلك رجل
معروف نسبه . . . ولكن (رسول) الله لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت قَضَصَ (قطعة)
من لعنة الله^(١) . » ،

« يا بن الزرقاء ، أعلينا تتأول القرآن ؟ .. لولا أني أرى الناس كأنهم يرتعشون لقلت
قولا يخرج من أقطارها » فقال مروان : « ما يومنا منك بواحد^(٢) . »

لقد كان جهها مروان شديداً عنيفاً حاطماً وما باختيارها جهته ، ولكن أخرجها :
إن الذي بوسعها أن تفعله ، هو حيادها في أمر هذه البيعة غير المشروعة ، وحسبها ذلك قهراً
لنفسها وللواجب عليها . وكذلك كان ، فلم ترد على مروان شيئاً لما أعلن بيعة يزيد ، لكن
مروان امتد أذاه إلى أخيها بغير حق ، ثم كان هناك ما هو أشد حرمة من أخيها وما لا يجوز
لمسلم أن يقر عبثاً فيه ، لقد امتد عبث مروان إلى كتاب الله يدعي أن آية منه نزلت في
عبد الرحمن وهي لم تنزل فيه . . .

لم يكن للسيدة ولا لغيرها أن تسكت على هذا العبث الذي ارتكبه مروان نصرة
لعصبيته السياسية .

امتنع عبد الرحمن بن أبي بكر عن البيعة وامتنع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير
وعبد الله بن عمر ، وامتنع لامتناعهم أهل الحجاز .

كتب مروان بالذي كان إلى معاوية ، فأقبل نحو المدينة ، فلما دنا منها « استقبله أهلها
وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر ، فأقبل

(١) تاريخ ابن عساكر (مخطوط) ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر

(٢) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٤١ وأمال القالي ١٧٥/٣ وانظر الإلتقان

السيوطي ص ٢٩ وتاريخ دمشق لابن عساكر .

على عبد الرحمن بن أبي بكر فسبه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً . »
فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بدنة يترقق دماها — والله —
مُهْرِيْقَةٌ . » ،

فلما دخل ابن الزبير قال معاوية : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، ضب تلعة مدخل رأسه
تحت ذنبه . » ،

فلما دخل عبد الله بن عمر قال معاوية : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » وسبه ، فقال عبد الله
« إني لست بأهل لهذه المقالة . » قال معاوية : « بلى ، ولما هو شر منها ^(١) . »

✧ معاوية في بيت عائشة .

دخل معاوية المدينة وكله خوف من السيدة عائشة أن تشتد عليه فيما ابتدع وما يريد
أن يبتدع في الإسلام ، مما يهون معه كل ما كان الناس نعموا على عثمان . ثم هو يخشى
أن تكون السيدة سنداً وملجأ وقوة لهؤلاء الأربعة أعلام الحجاز من صحابة رسول الله صلى
الله عليه وسلم . ومعاوية من الذين يتأتون للشر قبل وقوعه ، ولا تحملهم قوتهم عليه أن
ينتظروه فيقضوا عليه ، توفيراً لقواهم ورجالهم ، وسياسة لهؤلاء الخصوم عسى أن يصبحوا
في جملة أنصارهم فيزيدوا بهم قوتهم .

أراد معاوية أن يتلطف لما في قلب السيدة عليه ، فقد قتل قائده — بأمره على الأرجح —
أخاها محمد بن أبي بكر شر قتلة وأشدها نكالا ، ولم ينجه من القتل والاحراق شفاعة عائشة
ولا إرسالها فيه رسولاً خاصاً من أشرف بني أمية ؛ وكذلك أرسلت تشفع أيضاً في حجر
ابن عدى وأصحابه فلم تستفد شيئاً . ولا ريب أن في نفس السيدة على معاوية — لذلك —
ما فيها ، ولكنها كظمت غيظها وردت حنقها . ثم كان من مروان مع أخيها عبد الرحمن
في أمر البيعة ما رأيت آنفاً .

ومعاوية يخشى أن يفيض الإناء فيكون له من عائشة يوم مثل يوم الدار أو يوم الجمل ،
والحملة عليه اليوم موالية ناجحة لاقحة : لهذا الخرق الذي أتاه في الإسلام بأخذ البيعة

لابنه يزيد ، مع أن أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأولى الحل والعقد من رجال العلم والدين متوافرون ينظرون ويسمعون ، قد تخطى معاوية مشيختهم وأجلاءهم إلى شاب مستهتر سكير سبيء السيرة رقيق الدين فيما زعموا .

لهذا كله ، عزم معاوية أن يروض أصعب الناس عليه يومئذ وأشدهم وأجدرهم إذا قال (هلم) أن يلبيه الناس ويشوروا تحت لوائه . عزم قبل كل شيء على زيارة السيدة عائشة والتذلل لها وتملقها وموادتها ، فأقبل « ومعه ^(١) خلق كثير من أهل الشام ، حتى أتى عائشة أم المؤمنين ، فاستأذن ، فأذنت له وحده لم يدخل عليها معه أحد ، وكان عندها مولاه ذكوان ، فلما استقر به المجلس ابتدرته عائشة تقول :

« يا معاوية ، أ كنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبى بكر ؟ » كان التقرع عنيفاً مفاجئاً كما ترى ، لكن داهية الأمويين — على ما يظهر — كان يتوقع مثله ، فلم تصدمه المفاجأة فأجاب متملقاً متودداً : « ما كنت لتفعلين ذلك . » قالت : « ولم ؟ » قال : « لأنى فى بيت آمن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . » فطامن ذلك من عنفها .

ثم إن عائشة حمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله وذكرت أباً بكر وعمر ، وحضته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما . . ثم صمت .

وكان على معاوية أن يجيب على خطبتها هذه ، لكنه لم يخطب مخافة ألا يبلغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالاً فى الأمر الذى قدم من أجله وتلطف فى تهوينه وتقريبه ، قال :

« أنتِ والله يا أم المؤمنين العالمة بالله وبرسوله ، دللتنا على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا ، وأنتِ أهل لأن يطاع أمرك ويسمع قولك .

وإن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم . وقد أكد الناس بيعتهم فى أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك وموآثيقهم أفترين أن ينقضوا عهودهم وموآثيقهم ؟ » فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضى أمره فأوصته بهؤلاء المخالفين : أخيها عبد الرحمن وأصحابه فقالت :

« أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم ، فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت » .

ثم قام معاوية ، فلما قام ذكرت عائشة فعلته الشنعاء في حجر وصحبه فقرّعته قائلة :
« يا معاوية ، قتلت حجراً وأصحابه العابدين المجتهدين ؟؟ » .

فقال معاوية مراوفاً « دعى هذا ، كيف أنا في الذي بيني وبينك وفي حوائجك ؟ »
قالت : « صالح » . قال : « فدعينا وإياهم حتى نلتقى ربنا ^(١) » .

هكذا انتهى هذا اللقاء الأول بين الخليفة الداهية العظيم وعائشة أم المؤمنين ، وأصاب الخليفة بعض ما يستحق من التعنيف على لسان السيدة .

ثم خرج معاوية ومعه ذكوان مولى عائشة ، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول :
« تالله ما رأيت كاليوم خطيباً أبلغ من عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٢) » .
ثم مضى .

ولا تظنن وأنت تقرأ كلام معاوية أنفاً أن فيه حجة أو أن السيدة اقتنعت ، فليس مثل السيدة يقنعها أن يقال لها في منكر تنكره : (هذا قضاء من قضاء الله) ، لكن عزيمة سبقت منها في الاعتزال جعلتها تمر بهذه الحجة الواهية متغافلة . ومعاوية يعلم ذلك منها ^(٣) ، وكلا الاثنین يجامل صاحبه ويدافع شره .

ثم كان لقاء آخر بمكة ، زوّر له معاوية جواباً فيه شبه الحجة في قتل حجر وأصحابه .

(١) المصدر السابق — ذكروا أن معاوية كان يتعهد السيدة دائماً بالعطايا الجسام :
قال عروة : بعث معاوية إلى عائشة بمئة ألف درهم ، فوالله ما أمست حتى فرقها ، فقالت لها مولاتها :
« لو اشتريت لنا بدرهم لحماً » فقالت عائشة : « ألا قلت لي ؟ »
وبعث إليها مرة بقلادة بمئة ألف فقسمتها بين أمهات المؤمنين .
وقيل إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار — انظر سير النبلاء للذهبي ٧١ / ٢ و (والإجابة لإيراد ما استدركنه عائشة على الصجابة) ص ٧٢
(٢) الإمامة والسياسة وسير النبلاء ٦٧ / ٢
(٣) ويعلم من نفسه أنها — في البيعة ليزيد — تسمى فيما يخالف الكتاب : ولقد نقل عنه قوله لابنه يزيد في احتضاره :
« إن أعظم ما أخاف الله فيه : ما كنت أصنع لك . » يعني من أمر البيعة له .

اطمأنت نفس معاوية بعد هذا اللقاء ، وأراد أن يشرع في أمر الأربعة الذين أبوا بيعة يزيد ، وأمرهم يشغله وبهمه بعد أن أمن جانب السيدة . فيروى الطبرى أن معاوية أرسل إلى كل من هؤلاء الأربعة وابن عباس على انفراد ، وقال له :

« يا بن أخى ، قد استوثق الناس لهذا الأمر (يعنى بيعة يزيد) غير خمسة نفر أنت تقودهم ، فما إزبك إلى الخلاف ؟ » فتنصل كل منهم من أن يكون متبوعاً في هذا الخلاف وضمن معاوية أن يبايع إذا بايعوا ... إلا ما كان من عبد الرحمن بن أبى بكر :
فإن معاوية أرسل إليه فقال : « يا بن أبى بكر ، بأية يد أو رجل تقدم على معصيتى ؟ » فأجابه ابن أبى بكر جواباً صريحاً غير متعنت فقال :

« أرجو أن يكون ذلك خيراً لى . » قال معاوية : « والله لقد هممت أن أقتلك . » قال عبد الرحمن : « لو فعلت لأتبعك الله به لعنة فى الدنيا وأدخلك به فى الآخرة النار^(١) . »

خرج هؤلاء الرهط إلى مكة معتمرين ، ولما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً ، « فأقبل^(٢) بعضهم على بعض فقالوا : « لعله قد ندم » فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر قال : « مرحباً بك وأهلاً يا بن الفاروق ، هاتوا لأبى عبد الرحمن دابة . » وقال لابن أبى بكر : « مرحباً بابن الصديق ، هاتوا له دابة . » وقال لابن الزبير : « مرحباً بابن حواري رسول الله ، هاتوا له دابة . » وقال للحسين : « مرحباً بابن رسول الله ، هاتوا له دابة ... وجعلت أطفاه (هداياها) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس ، ويحسن إذنبهم وشفاعتهم .

ثم أرسل إليهم ، فقال بعضهم لبعض : « من يكلمه ؟ » فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : « فأنت صاحبنا » قال : « .. على أن تعطونى عهد الله : ألا أقول شيئاً إلا تابعتونى عليه . » فأخذ عهودهم رجلاً رجلاً . . . فدخلوا على معاوية ، فدعاهم إلى بيعة يزيد فسكتوا ، فقال : « أجيبنى » مرتين ، فسكتوا ، فقال لابن الزبير : « هات فأنت صاحبهم . »

(١) تفصيل ذلك فى تاريخ الطبرى ٤/٢٢٦ حوادث سنة ٥٦ هـ

(٢) تمة الحديث هذه للقالى .

قال : « اخترنا خصلة من ثلاث . » قال : « إن في ثلاث لخرجاً . »
قال ابن الزبير : « إما أن تفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يستخلف
أحدًا ، أو تفعل كما فعل أبو بكر : نظر إلى رجل من عرض قريش فولاه ، أو تفعل كما فعل
عمر بن الخطاب : جعلها شورى في ستة من قريش . »
قال معاوية :

« ألا تسمعون ! إني قد عودتكم على نفسى عادة وإني أكره أن أمنعكموها قبل أن
أبين لكم : إن كنت لا أزال أتكلم بالكلام فتعترضون عليّ فيه وتردون عليّ ؛ وإني قائم
بقائل مقالة فإياكم أن تعترضوا حتى أتتني ؛ فإن صدقت فعليّ صدقي ، وإن كذبت فعليّ
كذبي ، والله لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه . »

ثم وكل بكل رجل من القوم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم ، وقام خطيباً فقال :
« إن عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر
قد بايعوا فبايعوا . »

فأنجفل الناس عليه يبايعونه ، حتى إذا فرغ من البيعة ركب نجائبه إلى الشام وتركهم .
فأقبل الناس على الرهط يلومونهم ، فقالوا :
« والله ما بايعنا ، ولكنه فعل بنا وفعل . . . (١) »

الظاهر أنه كان لقاء ثان بين معاوية والسيدة عائشة بمكة ، عرفنا منه أن اللقاء الأول
لم يشف ما بنفسها ، فعادت إلى تأنيب معاوية بالأسلوب نفسه على قتل أخيها وقتل حجر
فيذكر الطبري أنها قالت له لما دخل عليها :

« يا معاوية أأمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟؟ »

فأجاب معاوية نحواً من جوابه الأول : « بيت الأمن دخلت . »

قالت : « يا معاوية ، أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه ؟ » ، « أين كان حملك عن
حجر ؟ »

(١) أمالي القائل ١٧٦/٣ باختصار يسير

فقال : « لست أنا قتلتم ، إنما قتلهم من شهد عليهم . » و « لم يحضرنى رشيد^(١) .
والذى أذهب إليه أن السيدة هنا في مكة لا تريد ظاهر هذا الخطاب ، وإنما تلوح
لمعاوية بقضايا قد تلجأ إلى التشنيع بها عليه إذا هو حاول أن يمس أخاها عبد الرحمن وصحبه
بأذى أو بطش ، ففهم كل منهما عن صاحبه^(٢) .

ترك معاوية هؤلاء الأربعة وشأنهم ، ثم فرغ لتوثيق أمر يزيد يحكمه ويتأني له حتى
رضى عن مسعاه . فلما أحس بالضعف يدب فيه أوصى ابنه يزيد نفسه فقال :
« يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك أعناق العرب ، وجمعت لك
من جمع واحد ... وإني لا أخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر
من قريش : الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر .
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته (كسرتة) العبادة ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك ؛
وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك
فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحماً ماسة وحقاً عظيماً ؛
وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، ليس له همة إلا
النساء واللهم ؛

وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ؛ فإذا أمكنته فرصة
وثب ... فذاك ابن الزبير ؛ فإن هو فعلها بك فتدبرت عليه فقطعه إرباً إرباً^(٣) .
وأنا أجعل تاريخ هذه الوصية قبل سنة سبع وخمسين ، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر
مات سنة ثلاث وخمسين أو ست وخمسين^(٤) فلا يعقل أن يوصى ولده بما يفعل بميت .
وأما الوصية الثانية فقد خلت من ذكر عبد الرحمن إذ كانت بعد مماته ، وزمنها سنة
ستين حين مرض معاوية مرضته التى كان فيها هلاكه : فذكر الطبرى أن معاوية لما

(١) تاريخ الطبرى ١٩١/٤ و ٢٠٨

(٢) كانت قدمة معاوية هذه إلى الحجاز سنة ست وخمسين . (٣) الطبرى ٢٣٨/٤

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط)

حضره الموت (وذلك سنة ستين) وكان يزيد غائباً ، دعا بالضحاك بن قيس الفهرى صاحب شرطته وبمسلم بن عقبة المري ، فأوصى إليهما فقال :
« بلغا يزيد وصيتي : انظر أهل الحجاز فإنهم .. الخ .
... ، وإني لست أخاف من قریش إلا ثلاثة : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ،
وعبد الله بن الزبير :

فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتصماً شيئاً قبلك ،
وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيك الله بمن قتل أباه وخذل
أخاه ؛ وإن له رحماً ماسة وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن أهل العراق تاركيه
حتى يخرجوه ، فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه ؛
وأما ابن الزبير فإنه خبّ ضبّ ، فإذا شخص لك فألبد له إلا أن يلتمس منك صلحاً ،
فإن فعل فأقبل واحقن دماء قومك ما استطعت ^(١) .

لله در معاوية ، كيف غاص على سرائر الناس ففطن إلى ما فى القلوب ، وخبر الناس
وطبائع الأمصار ، حتى كان إذا وصف من ذلك شيئاً كأنه يقرأ من صحيفة أو يصف عن
عيان ، واخترت بصيرته حجب الغيب فتنبأ بما يكون بعده ، فجمع سداد ذلك كله وألقاه
إلى فلاة كبده .

كانت وفاة السيدة عائشة رحمة الله بين هاتين الوصيتين (سنة ثمان وخمسين) .

ذكروا أنها لما احتضرت جزعت ، فقيل لها : « أتجزعين يا أم المؤمنين وأنت زوجة
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين وابنة أبى بكر الصديق ؟ !! »
فقلت :

« إن يوم الجمل معترض فى حلقى ... ليتنى كنت نسياً منسياً ^(٢) » .

(١) الطبرى ٤/٢٣٩

(٢) بلاغات النساء لابن أبى طاهر ص ١٢

الباب السادس

عائشة في الفرق الإسلامية

الفصل الأول

موقف الرأي العام من حياتها

تمهيد

أرادت السيدة لما انحرف الناس عن سنة الرسول وصاحبيّه ، أن تغيّر ما ترى من انحرافٍ بلسانها ، فكان ما رأيت منها أيام عثمان من صدعٍ بالنقد ، وإنكار للمنكر على رؤوس الأشهاد ، واستغل أهل الشعب تغييرها ذلك ، وإنكارها هذا حتى وقعت الفاجعة بالخليفة الشهيد . فرأت أن ما وقع فيه الناس من عدوان على عثمان أشدّ كثيراً مما كانت تنكر وينكرون ، وانتظرت إيقاع القصاص على المعتدين بأسرع وقت ليزدجر الناس عن العدوان . فلم يكن من ذلك شيء ، فثارت ، وهاجها أن يضيع دم صحابي جليل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذى سوابق في الخير معه وهو الآن خليفة أيضاً ، فنهضت مطالبة بدمه ، وخرجت في وجهها إلى البصرة تدعو الناس للقيام معها في هذا الواجب الذي لا يجوز تركه ، وفي إهماله تعطيل لحدود الدين ، وإضاعة لأحكام القرآن الكريم . نهضت ومن معها للإصلاح ، لكن الأمور لم تكن مواتية لما يطلبون ، فأفلت الزمام من أيديهم حتى سيق الجميع إلى حرب لم يكن أحد منهم — حاشا المؤلّين على عثمان — لتخطر له على بال فكانت حرب الجبل .

دُفعت السيدة وأصحابها وعلى وأنصاره إلى هذا الصدام دفماً لا خيار لهم فيه ، فأسفر عن دماء ألوف كثيرة ، وتمنى كل من على وعائشة أن يكون مات قبل يوم الجبل بعشرين سنة . ثم أيقنت السيدة بخطأ اجتهادها فسلخت عمرها نادمة باكية مستغفرة متحسرة ، حتى

واقفها منيتها وحسرتها شديدة جديدة ما تبلى .

وفي بعض هذا الندم والحسرة والبكاء والتوبة ، كفارة لمجتهد عن خطأ لم يتعمده ،
أراده خيراً فأسفر عن شر . لكن كثيراً من الناس أو الرأي العام (بتجاوز) لم يغفر لها
خطأها ذلك . لقد اعترزت السيدة الأمور العامة ، ولكن الأمور لم تعزلها ، ولم تنج عائشة
من قسوة الناس عليها لاني حياتها ولا عند مماتها ولا بعد ذلك حتى يومنا هذا .

إنهم افتنوا في التعبير عن نقتهم في حياتها : هجرأ وتعريضاً وتقريعاً ، ثم كان منهم
من وقف منها موقفاً سلبياً إثر وفاتها ، وتتابع الناس يشرحون أقوالها وأعمالها ناقدين :
منكرين ومبررين ، وأسرف هؤلاء وهؤلاء حتى كثر الأخذ والرد ، وتعددت الآراء ،
ونصبت مجانس المناظرة والحكم ، ثم شاعت هذه الآراء وأصبحت موضوعاً من موضوعات
الجدل وعلم الكلام ، ثم (تبلورت) ودخلت في (العقائد) ، وصار لكل فرقة من فرق
المسلمين رأياً الرسمي في عائشة ، وطفق التطرف يخرج بعض الناس من الاعتذار لها إلى
الاتصاف المطلق والتصويب الكامل ، ويخرج بعضاً آخر من النقد إلى الشتم إلى
التكفير واللعن .

وإذا لم ينته تأثيرها في المجتمع الإسلامي بانتهاء حياتها ، بل أخذ ينمو ويتوسع حتى
بعث للسيدة حياة جديدة في الأجيال الإسلامية حتى اليوم .

ونحن هنا مملون بهذا الأثر ، في أطواره الأربعة : في حياتها وعند وفاتها ولدى
معاصريها ، ثم بعد انقضاء عصرها حتى اليوم ، عارضون لخطوطه البارزة التي تكفي
لعرض صورة كاملة على القارئ عن حياتها السياسية بعد موتها كما عرف عائشة السياسية
في حياتها .

— ١ —

لعلك لم تنس كيف استقبل رؤوس الناس من أهل البصرة قدوم عائشة ، ولا مقالة
زيد بن صوحان والأحنف بن قيس وأضرابهما ، فقد ضربوا جميعاً على وتر واحد عبر عن

استهجان الرأي العام خروجها من بيتها إذ لم يفرض على النساء الجهاد والأسفار في سبيل إنكار منكر .

حتى الذين نصرها أدركوا أن خفتهم لنصرتها خطأ من الخطأ ، فبدرت من بعضهم في القتال أو بعده كلمات تعبر عن هذا الشعور بالخطأ : مرّ بك (ص ١٦٨) أن جريحاً من بني ضبة أنصار عائشة كان يفحص الأرض برجله ويقول هذه الأبيات التي نعيدها عمداً هنا لتعم فيها ثانية ، لما بها من صدق التعبير عن رأى كثير من الأنصار وجميع الخوصوم :

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا فلم نتصرف إلا ونحن رواء
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمّه وشيعتها مندوحةً وغناء
أطعنا بنى تيم بن مرة شقوة وهل تيمُّ الا أعبدُ وإماء

ونحت هذا المنحى أم كعب بن سور قاضى البصرة الذى خرج — كما مر بك — وفي عنقه مصحف يدعو إليه فقتلوه وقتلوا ثلاثة إخوة له خرجوا معه أو أربعة ، نجأت أمهم حتى وقفت عليهم فقالت :

يا عين جودى بدمع سرب على فتية من خيار العرب
وما لهم غير حَين النفوس أى أميرى قريش غلب^(١)

وأظرف من ذلك مارواه المسعودى عن الرجل الأول ، فقد قطع أذن رجل من الكوفيين^(٢) وقال له : إذا صرت إلى أمك فقالت : من فعل هذا بك ؟ فقل : عمير بن الأهلب الضبي مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين^(٣) .

لقد جاد هذا الرجل بنفسه وهو أظرف الناس .

وامتعض من مغامرة عائشة في السياسة كثير من الناس أهل الدين والجد ، وكفوا ألسنتهم عنها ، إلا أنهم هجروها . وقد ذكر لنا منهم الإمام أحمد في مسنده رجالاً اسمه حكيم بن أفلح (عم عائشة من الرضاة) :

(١) الكامل للمبرد ص ٧١٧ طبعة ليدن .
(٢) انظر التفصيل في ص ١٦٩ من هذا الكتاب .
(٣) مروج الذهب ١١/٢ .

أتاه سعد بن هشام يريد الدخول معه على عائشة ليسألها عن وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى حكيم وقال :

« ما أنا بقار بها ، إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين ، فأبت فيهما إلامضياً^(١) »
والظاهر أن بعض أنصار على سلكوا مسلك حكيم هذا في هجرها ، فإن سعد بن هشام نفسه كان أتى ابن عباس يسأله عن وتر رسول الله ، فأحاله ابن عباس على عائشة قائلاً « ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ائت عائشة فاسألها ، ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك^(٢) » .

كان يستطيع ابن عباس — وبه هذه الرغبة إلى المعرفة — أن يسمع الجواب مشافهة من عائشة ، ولا يوسط بينه وبينها هذا الرجل لولا أن موقفه منها ما قدمنا لك .

وقد يفرط بعضهم في القسوة عليها ولا يكتفي بهجرها ، بل يدخل عليها بيتها وهي مكسورة النفس فيه ، ممتلئة حسرة وندامة ، تبكي وتستغفر ؛ فلا يرفه عنها ، بل يقسو ويقرعهما على خروجها ، ويذكرها دماء الآلاف المهراقة ، وهو ما لا تستطيع نفس السيدة أن تحتمل تصويره ، ومن حسن الحظ أن كان هذا القاسى الذى أتى ما ينبو عنه الذوق امرأة — بحمد الله — لا رجلاً :

دخلت أم أفعى العبدية على عائشة فقالت : « يا أم المؤمنين ، ماتقولين فى امرأة قتلت ابناً لها صغيراً ؟ » قالت عائشة : « وجبت لها النار . »

فقالت : « فما تقولين فى امرأة قتلت من أولادها الأكبر عشرين ألفاً فى صعيد واحد ؟ ! » فاضطرت السيدة إزاء هذه الأذية أن تطردها قائلة : « خذوا بيد عدوة الله^(٣) » .

على أن من الحق أن نقرر أن كثيراً من خصومها الألداء احتراموها وانطوا لها على المودة الخالصة وإن أساءتهم . ونستطيع أن نعد فى هؤلاء أكثر الصحابة : علياً نفسه فمن دونه ، فقد عرفت أنه لم يكن يسمح لأحد أن يذكرها بسوء ، وأنه عاقب من وقع فيها

(١) مسند أحمد ٥٣/٦ .

(٢) الصفحة السابقة .

(٣) عيون الأخبار ٢٠٢/١ والعقد الفريد ١٠٨/٣ .

كما مر (ص ١٩٣) وكان يعبر عن احترامه لها إذا ذكرت عنده بقوله: « خلية رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١) » .

حتى عمار، عمار الذي دخل عليها قائلاً « يا أمه » فبرئت منه السيدة وجهته من فورها بقولها: « لست لك بأم » ، فأجابها: « بلى وإن كرهت ^(٢) » ... عمار هذا أتاه يوماً رجل فنال من عائشة عنده ، فلم يكن من عمار إلا أن قال له : اعزب مقبوحاً منبوحاً (منبوذاً) ، أنؤذى حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وزاد : « إنها لزوجته في الجنة ^(٣) » .

أما أسرتها فقد كانت عائشة تتلقى تقدمهم ، وهم — وإن لم يكونوا قساة في تقدمهم — قد بلغوا من ذلك ما لم يبلغه أولئك ، فإنهم كانوا يختارون لها المزاح أسلوباً يزوجون تقدمهم فيه فيسير بين الناس ويروى ويتملح به :

اقتتل يوماً غلمان عبد الله بن عباس وغلمان عائشة ، فأخبرت عائشة بذلك ، فخرجت في هودج لها على بغلة لها ، فلقبها ابن أبي عتيق حفيد أخيها عبد الرحمن فقال لها : « يا أمي ، جعلت فداك ، أين تريدن ؟ » قالت : « بلغني أن غلماني وغلمان ابن عباس اقتتلوا ، فركبت لأصلح بينهم » ؛ فقال : « أعتق ما أملك إن لم ترجعي !! » فقالت : « ما حملك على هذا ؟ »

قال : « ما انقضى يوم الجمل حتى تأتينا بيوم البغلة !! ^(٤) »

ولما مات الحسن وأوصى أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أذنت عائشة فأخرج نعشه يراد به قبر رسول الله ، ركب مروان والأمويون ليمنعوا الدفن عنده وكادت

(١) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٤٣ .

(٢) مسند أحمد ٦/٢٠٥ .

(٣) الإصابة (ترجمة عائشة) والإجابة ص ٤٣ وابن سعد في الطبقات ٤٥/٨ .

(٤) المراح في الزاح ص ٣٨ وانظر جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ٣ — ويشك مؤلف الكتاب الثاني في مقصد راويها وهو المشرق بن القطامي ، فيقول تعليقا على هذا الخبر الذي رواه الجاحظ عن المشرق ما يفيدنا في موضوعنا أن نورهه لك ، قال :

« وهذه حكاية أوردها المشرق لغله ودغله على وجه النادرة لتحفظ ويضحك منها ويتعلق بها من ضعف عمله وقل عزمه ، فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لعرض أم المؤمنين رضي الله عنها » ٥١ .

تكون فتنة ؛ فروى اليعقوبي — ولا أظنه واقعاً إلا إذا كانت السيدة قد خشيت الفتنة وأرادت حسم النزاع — ما عرفت من أنها ركبت بغلة شهباء وقالت : « بيتي ولا آذن فيه لأحد » فأتاها ابن أخيها : القاسم بن محمد بن أبي بكر فقال لها : « يا عمه ، ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر : أتريدين أن يقال : يوم البغلة الشهباء !! »^(١) .

هذا بعض ما عاينته السيدة في حياتها من جفاء بعض الناس وشدة موقفهم منها : لم يرعوا انكسارها ولا ندمها ولا شعورها بالتبعة الذي أثقلها ، وكان حقها عليهم أن يرفؤوا عنها ويسلوها وينسوها حزنها .

— ٢ —

ماتت السيدة ، فغظم الحزن على من شغلت الناس نحواً من خمس سنة : تعلمهم وتهديهم إلى سنة نبهم وتحيي فيهم سيرته ، واجتهدت للمسلمين وكانت ملجأ المهتدين والمتجئين والتعلمين على السواء .

والناس حين مماتها فريقان ، شأنهم في حياتها : منهم المشيع لها بالرحمة والحزن ، ومنهم من منعه موقفها السياسي من المشاركة بالحزن . وأنا أحب أن أشير هنا إلى واحد من أجلاء التابعين وعلمائهم وصلحائهم وهو مسروق ، فقد قال لما بلغه وفاتها :

« لولا بعض الأمر لأقت المناحة على أم المؤمنين^(٢) »

يقول هذا من كان إذا حدث عنها قال : « حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله ، المبرأة من فوق سبع سموات . . . عائشة أم المؤمنين^(٢) . »

فما بالك بمن ليس في علم مسروق ولا دينه من خصومها السياسيين ، أو الحيايين المعتزلين الذين لم يرقهم موقف أحد من الفريقين .

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٦٦ والرواية هكذا لا تصح لأن العروف أن عائشة أذنت ولكن الأمويين منعوا بقوة .

(٢) طبقات ابن سعد ٨/٥٤ .

(٣) طبقات ابن سعد ٨/٤٤ وانظر الإجابة ص ٤٢ .

إلا أن هناك من انتقد موقف هؤلاء من ماتمها نقداً حكيمياً قوياً ظريفاً، حفظه لنا ابن سعد في طبقاته؛ فقد سأل أحد الأَكابر قادمًا قدم عليه:

« كيف كان وجد الناس على عائشة؟ »

قال: « كان فيهم وكان ... » يعني منهم من حزن ومنهم من لم يحزن .
فأجاب بهذا الجواب الحكيم: « أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه ^(١) » .

يريد أن من لم يحزن عليها فليس بمؤمن .

وهكذا ترى انقسام الناس طائفتين في أسرها ، ظهر أجلى ظهور في ماتمها : دليلاً قوياً على أثرها البعيد في حياة المسلمين السياسية .

(١) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٨ .

(٢) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٨ .

(٣) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٨ .

الفصل الثاني

انقسام الرأي العام في أنصارها

لم يقف الأمر عند عائشة ، بل كانت نقمة الناس على أنصارها طلحة والزبير وابنه عبد الله الذين أخرجوها أشد وأعظم ، وقد لقي عبد الله بن الزبير من ذلك عنثاً كبيراً . فكأنى بالناس لما تهادنوا ووضعوا السلاح ، أنهوا معركة السيف ليبدووا معركة اللسان والجدل والبيان ، فعقدت المجالس ودار فيها الجدل وتداول فرسان الكلام من الفريقين تصاولاً أذكر الناس بصيالهم في المعارك .

وسترى أن كلمة الأحزاب اجتمعت على عيب عبد الله بن الزبير وتعييره وأباه على إخراج عائشة من الحجاز .

وقد تلقى ابن الزبير وحده هذا اللوم كله ، فالناس أجلوا عائشة عن مجابتهها باللوم وقد انقضى الأمر ، وقتل طلحة وابنه والزبير في معركة الجمل نفسها ، ولم ينبج من أقطاب الجمل ذوى الأثر البالغ غير عبد الله بن الزبير ، فكان عليه أن يصمد لهجات الحزبين المتنافسين حينئذ بنى هاشم وبنى أمية على السواء :

قال ابن الزبير لابن عباس في كلام كان بينهما :

« ... قاتلت أم المؤمنين وحوارى رسول الله ... الخ »

فكان من جواب ابن عباس ما يصدع صدعاً ، قال :

« . وأما قتالنا أم المؤمنين فبنا سميت أم المؤمنين ، لا بك ولا بأبيك ، [وكنا لها خير بنين فتجاوز الله عنها ^(١)] ، فانطلق أبوك وخالك (يعنى طلحة) إلى حجاب مده الله عليها فهتكاه عنها ، ثم اتخذها فتنة يقاتلان دونها ، وصانا حلالتهما في بيوتهما ؛ فما أنصفا الله ولا محمداً من أنفسهما : أن أبرزوا أزواج نبيه وصانا حلالتهما .. ^(٢) »

(١) العقد الفريد ٢/ ٣٣٠ .

(٢) شرح نهج البلاغة ٣/ ٤٨٩ .

حتى معاوية الداهية الخليم ، كان إذا أتاه أحد من بنى هاشم أو ابن الزبير آثار هذه القضية وفتح باب الجدل والمفاخرة وذكر القديم فأوقع بين الوافدين عليه واستقبلهم بما يكرهون ، ولا يمنع في سبيل ذلك أن كان له في حادث الجمل موقفان متضادان : الواحد مع بنى هاشم والآخر مع ابن الزبير :

وقد عليه ابن عباس داهية الهاشميين فكان من كلامه له :

« ... لا يزال يبلغني عنكم ما لا تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم خذلتهم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل ... »

وكان من جواب ابن عباس :

« ... وأما خذلتنا عثمان فلوزمنا نصره لنصرناه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ^(١) ... »

واستقبل معاوية يوماً في بعض هذه المجالس الحافلة بالأمويين والهاشميين ، عبد الله بن الزبير بهذا الكلام :

« ... وخذتكم أم المؤمنين ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مددتم على نساءكم السجوف (السطور) وأبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف ، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً ، فلم ينجح ذلك أن طحنه أبو الحسين بكله طحن الحصيد بأيدي العبيد ، وأما أنت فأقلت بعد أن خشمتك برائته ونالتك مخالبه . وإيم الله ليقو منك بنو عبد مناف بثقافها أولتصبحن منها صباح أيبك بوادي السباع ^(٢) . »

ويبدو لي أن هذا الكلام مصنوع لا يشبه مذهب معاوية ، حاكي صانعه غضبة الهاشميين في كلامهم . ولست أذهب إلى أنه مصنوع من أجل ما فيه من السجع فحسب ، إذ أن السجع أخف الأدلة هنا ، ولكن هذا الكلام يصح أن يصدر عن هاشمي لا أموي ، فبنو أمية هم روح الحركة الثائرة على عليّ المطالبة بدم عثمان ؛ وهم خدعوا عائشة في الخداعين وقدموا لها الرجال والأموال ، ولولا خروج عائشة ما ضعف أمر علي ولا قعد معاوية مقعده ذلك خليفة ملكا ، والأمويون كانوا أتباع طلحة والزبير ، ومعاوية نفسه كان يحقد على

(١) العقد الفريد ٢/٣٢٧ .

(٢) العقد الفريد ٢/٣٣٣ .

كل من لم ينصر عائشة يوم الجمل ، فبعيد جد بعيد أن يعيب الزبير بخداعه أم المؤمنين وقتاله يوم الجمل . . . فهذا الاتجاه في التأنيب منطق الهاشميين لا الأمويين . بل لقد مر بك أن معاوية حرم الأحنف بن قيس ولاية الهند لسببين أحدهما خذلانه أم المؤمنين . وهذا هو الأشبه أن يكون وهو الموافق منطق الحوادث وفقهها .

وأى كان فهذا الخبر المصنوع دلالاته على ما تكن نفوس بعض الناس لمن خرج بعائشة هذا الخروج .

إن كان معاوية لا يحمل هذه الحملة على الزبير وطلحة لخروجهما بعائشة ، إنه لم يأل جهداً في إثارة من يحملها بحضرته على ابن الزبير ليشقى نفسه منه . ولعل رواية العقد الفريد فيها خطأ النسبة إلى معاوية ، وإلا فلا مانع أن تكون الواقعة وقعت بحضرته ، فقد أورد ابن عبد ربه ما يؤيدها على النحو الذي ذهبنا إليه :

كان أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي يوماً عند معاوية فقال لابن الزبير وكان حاضراً :

« . . . ودعا الزبير إلى أمر كان فيه الرأس امرأة ، فلما تراءت الفئتان والتقى الحيان نكص الزبير ^(١) . . . »

ولا بأس بإطلاعك على تنمة هذا الخبر ، فقد بدأ بدمشق عند معاوية ، وانتهى بالمدينة في الطريق الجاور لحجرة عائشة :

أخبرت عائشة بمقالة أبي سعيد ومقالة ابن الزبير ^(٢) ، فرأى أبو سعيد بفنائها يوماً فنادته : « يا أحول ، يا خبيث ، أنت القائل لابن أختي كذا وكذا ؟؟ » فالتفت أبو سعيد فلم ير شيئاً فقال : « إن الشيطان ليبرك من حيث لا تراه ! » فضحكت عائشة وقالت : « لله ما أخبث لسانك ^(١) . »

على أن معاوية لم يقصر تقريره في أمر الجمل وعتمان على هؤلاء فحسب ، بل امتد إلى الأنصار أنفسهم : لقد ذكروا أن رهطاً من الأنصار دخلوا عليه فقال لهم : « يا معشر الأنصار ، قرئ خيراً لكم منكم لهم ، فإن يكن ذلك لقلبي أحد فقد قتلتهم يوم بدر مثلهم ،

(١) المصدر السابق ٣٣١/٢ .

(٢) انظر تفصيلهما في العقد .

وإن يكن لإمرة فولله ما جعلتم لي إلى صلتكم سييلا : خذتم عثمان يوم الدار وقتلتم أنصاره
يوم الجمل واصلتم بالأمر يوم صفين^(١) . »

وقصد الخوارج ابن الزبير في القضية نفسها إذ كان هو القطب الباقي على قيد الحياة من
أصحاب الجمل . فلما أرسل يزيد بن معاوية — فيما بعد — مسلم بن عقبة وأهل الشام إلى
الحجاز المنتفض عليه ، قصد الحروريون (الخوارج) مكة ليمنعوها من جيش الشام ، فأحبوا
أن يفهموا ما عند ابن الزبير — وكان هو المتغلب على الحجاز — في أبي بكر وعمر والبراءة
من عثمان وعلى وطلحة والزبير . . . الخ فقالوا له من كلام طويل :

« وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا علياً وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر ، ثم نكثنا
بعرض من أعراض الدنيا ، وأخرجنا عائشة تقاثل وقد أمرها الله وصواحها أن يقرن
في بيوتهن . . . »

وكان في رد ابن الزبير عليهم مما تعلق بعائشة قوله :

« . . . ومهما ذكرتموها به (يريد طلحة والزبير) فقد بدأتكم بأمكم عائشة ، فإن أبي
آبٍ أن تكون له أمّاً نبذ اسم الإيمان عنه : قال الله جل ذكره وقوله الحق : النَّبِيُّ أَوْلَى
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ^(٢) . »

وواضح أن ابن الزبير انحرف في جوابه عن الموضوع .

وامتد اللوم إلى غير الأقطاب ، والظاهر أن أكثر القبائل التي خفت لنصرة عائشة
استهدفت لكثير من التأييب فيما بعد ، هذه الأزدي مثلاً وهي من أقوى أنصار عائشة كان
فيها من يعيب على عامة القبيلة تلك النصرة ، فيذكرون في حوادث سنة ٣٨ أن شيان
الأزدي — ولم يكن شهد يوم الجمل — قال لقومه : يا معشر الأزدي ، ما أبقيت عواقب الجمل

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٦٨/٣ وفيه بعد ذلك : فتكلم رجل منهم فقال : « يا أمير المؤمنين ،
أما قولك (إن يكن لقتلي أحد . . .) فإن قتلنا شهيداً وحيثما تائق ، وأما ذكرك الإمرة فإن رسول الله
أمر بالصبر عليها . وأما قولك إنا خذلنا عثمان فإن الأمر في عثمان إلى قتلته ، وأما قولك (إنا قتلنا أنصاره
يوم الجمل) فذلك ما لا نعتذر منه ، وأما قولك (إنا صلبنا بالأمر يوم صفين) فإنا كنا مع رجل لم نأله خيراً .
فإن لنا قرب ملوم لا ذنب له) . ثم قام هو وأصحابه يجر ثوبه مغضباً ؛ فقال معاوية : « ردوهم » فردوا ،
فترضاهم حتى رضوا ثم انصرفوا .

وأقبل معاوية على رهط من قريش فقال : والله ما فرغ من منطقتي حتى ضاق بي مجلسي . »

(٢) الكامل للمبرد (طبعة لندن ص ٦٠٨) والآية السادسة من سورة الأحزاب ٣٣ .

عليكم إلا سوء الذكر ، وقد كنتم أمس على علي فكونوا اليوم له^(١) حتى ابنه
صبرة بن شيان وكان ممن نصر عائشة وحضر يوم الجمل قال بعد ذلك :
« إنا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل^(٢) » .

وتنقضى مئة عام ويذكر يوم الجمل فيتبرأ عتلاء البصريين من مسارعة بعضهم في أمر
عائشة ، فيقول أحدهم أبو بكر الهذلي وقد سأله أبو العباس السفاح عن قوله في قتالهم علياً
يوم الجمل وشقهم عصا المسلمين : « ما تقول يا أبا بكر » فقال :
« معاذ الله أن يجهل أهل البصرة ، إنما كانت شرذمة مناشدت عن سبل المنهج
واستحوذ عليها الشيطان ، وفي كل قوم صالح وطلح . » فتأمل^(٢) .

وبعد ، ففما قدمت بين يديك ما يقفك على ما في نفوس الناس من طبقات مختلفة نحو
خروج عائشة إلى حرب الجمل ، ونحو الذين أخرجوها ونصروها ونحو الذين خذلوها ، وبين
لك ثانية بوضوح ، الأثر الذي أثرته في (عصرها) سلباً وإيجاباً . فهذه هي البذور الأولى
لقضية عائشة في التاريخ : أقيمت في تربة المجتمع الإسلامي فأنبئت ما سأعرضه عليك بعد
قليل من انقسامٍ في أمرها بين فرق المسلمين .

— ٢ —

لا جرم أن تفرق السياسة الأمة فرقا لكل فرقة رأيها ومذهبها ، وحرب الجمل — كما
علمت — وقف جمهور البصريين فيها مع عائشة وجمهور الكوفيين مع علي ، ثم انقضت
بأيامها وتتابعت عليها السنون ، لكنها بقيت مادة لا تنضب في الجدل والفاخرة : كل قبيلة
تفاخر بمواقفها وتؤنب القبائل المعادية على مواقفها . . . فترى فيما بعد ، أن جريراً الشاعر
يعتبر الفرزدق بما فعل عمه الحنات بن يزيد المجاشعي من غدره بالزبير ، وقد زعموا أنه أجاره
لما انصرف من وقعة الجمل ، فكان الحنات سبب قتله :

(١) جمهرة خطب العرب ١/٢٤٧ .

(٢) كتاب البلدان للهمداني ص ١٦٧ .

لو كنت حراً يا بن قين مجاشع شيمت ضيفك فرسخين وميلا^(١)
قتل الزبير وأتم جيرانه غيا لمن غر الزبير طويلا

قال النوايح من قريش : إنما غدر الحتات ولين والأقرع^(١)
وعرفت أن بنى تميم منهم من اعتزل الفريقين يتربص ، ورأس هؤلاء الأحنف بن
قيس ، ومنهم من قاتل مع أصحاب الجمل ، . . ثم كان بعد ذلك تلاوم بين الفريقين على
ما يظهر من هذه الأبيات للحتات بن يزيد المجاشعي نفسه في قتل كعب بن سور الأزدي :

يلوم على القتال بنو تميم وما أنا في الحوادث بألمسيم
خضبت الرمح من قتلى (علي) وزحزحت الفوارس عن (تميم)
مقيماً في الجماعة ليس حولي سوى السمر الشرايحة الصميم
وأم المؤمنين لها عجيح على جمل به عبق العميم
تنادى بالحتات وبابن سور كأننا في الكتيبة من أديم (?)
يجالد في الوغى كعب بن سور كليث الغاب ذى اللبد النسيم
إلى أن حان مصرعه ودارت رؤوس القوم للكرب العظيم
وكان أخي إذا ما ناب أمر وقد يبكي الكريم على الكريم^(٢)

وظفق الأولاد والأحفاد من البصريين والكوفيين يثيرون حديث هذه الحرب ،
ويدكرون مواقفهم مفتخرين ، ومواقف خصومهم معيرين عائبين ، ويحمي الجدل ،
وتنشد الأشعار والأراجيز يتناقلها الناس ، وصارت العصبية والحمية تكسوان التحزب حلاًلاً
مغرية ، وأخذ الشعراء والرجال من هذين المصرين ينشئون قصيدهم ورجزهم متملقين الرأي
العام في مصرهم ، فكان في السياسة بصريون وكوفيون كما في النحو تماماً ... فيقول أعشى
هدان منافحاً عن رأى الكوفيين ومهاجماً البصريين :

(١) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٥٨/٣ وشرح ديوان جرير للصاوي (سنة ١٣٥٤ هـ)
ص ٤٥٤ ، ٤٥٥ — لين : لقب غالب بن صعصعة جد الفرزوق .
(٢) المصدر السابق ٢٦٠/٣ — المليم الفاعل ما يلام عليه ، السمر الشرايحة : الرماح الطوال .
العميم : الكثير . النسيم : ما فيه نقط بيض وسود .

اكسع البصرى إن لا قيته إنما يكسع من قلّ وذللّ
واجعل الكوفى فى الخيل ولا تجعل البصرى إلا فى النفل
وإذا فاخرتمونا فاذا كروا : ما صنعنا بكم (يوم الجمل)
بين شيخ خاضبٍ عُثْنونه وفتىّ أبيضٍ وضاحٍ رِفْلٌ
جاءنا يرفل فى سابغة فذبحناه ضحى ذبح الجمل
وعفونا فنستيم عفونا وكفرتم نعمة الله الأجل^(١)

وتتناقل الألسنة أبيات الأعشى وتمر السنون وتعقد المجالس تتذاكر البصريين والكوفيين وماتى كل . . . حتى إذا كانت أيام ابن الزبير ، أتى الشعبي البصرة فدخل مسجدها فجلس إلى قوم من بنى تميم فيهم الأحنف بن قيس . . . فتذاكروا أهل الكوفة وأهل البصرة ، وفاخروا بينهم إلى أن قال قائل من أهل البصرة : « وهل أهل الكوفة إلا خولنا استنقذناهم من عبدهم » يعنى الخوارج . . . فيحىى الشعبي لبلده الكوفة ويريد أن يدفع البصريين فتسعه ذاكركته بأبيات أعشى همدان التى منها الأبيات الآتية ، فيتمثل بها مجادلاً ، فيضحك الأحنف ويقول : « يا أهل البصرة قد فخر عليكم الشعبي وصدق وانتصف فأحسنوا مجالسته^(٢) . »

وحضر رجل عند الشعبي هذا فقال له : « كلّ أمهات المؤمنين أحب إلا عائشة » فأجاب الشعبي : « أما أنت فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت عائشة أحبهن إلى قلبه^(٣) . »

واستمرت الفرقة السياسية بين البلدين حتى بعد حادث الجمل بعشرات السنين ، (وتبلر) لسكل مصر منهما رأى سياسى واضح فيما كان من أحداث الجمل وفى أبطاله أيضاً حتى قالوا :

(١) نجر الإسلام ص ٢٢٣ (الطبعة الثالثة) والأغانى ١٤٩/٥ (طبعة الساسى) كسعه : ضربه على دبره بصدر قدمه . الرفل : جر الثوب تبختراً وخيلاء . الرفل : التبختر ، أما الرفل (بكسر ففتح فتشديد) فهو الكثير اللحم الطويل الذنب . السابغة : الدرع الطويلة .

(٢) الأغانى ١٤٩/٥ ، ١٥٠ .

(٣) روضة المحبين ص ١٨٧ .

« من نزل الكوفة فلم يقر لهم بفضل ثلاث فليست له بدار ؛ بفضل ماء الفرات ورطب المشان وفضل على عليه السلام .

« ومن نزل البصرة فلم يقر لهم بثلاث فليست له بدار : بفضل عثمان وفضل الحسن البصرى ورطب الأزاد^(١) . »

ثم ذكر الهمداني أنه اجتمع عند أبي العباس (السفاح) أمير المؤمنين عدة من بنى على وعدة من بنى العباس وفيهم بصريون وكوفيون ، منهم أبو بكر الهذلي وكان بصرياً وابن عياش وكان كوفياً ؛ فقال أبو العباس تناظروا . . . الخ فاعترض بعض العلوية وهو الحسن بن زيد فقال :

« يا أبا بكر : أما قاتلتم علياً يوم الجمل ؟ »

فقال : « بلى ، قاتله شرذمة منا وكف الله عز وجل أيدينا وسلاحنا عن قتله نظراً منه لنا ؛ ثم رجع إلى الكوفة فقتلوه وولده وولد ولده وبنى عمه ، وأخرجوا الحسن بن علي بعد بيعتهم له حتى هرب منهم . »

فقال ابن عياش : « بل قصّر الله أيديكم بطول أيدي [أهل] الكوفة وبنصرتهم عليكم . وكيف تعيّرنا بباطل رجل واحد منا يبلغ بباطله ما معجز عنه عامتكم ؟ ولقد حدثني أشياخ من النخع أن أهل الكوفة كانوا يوم الجمل تسعة آلاف رجل مع أمير المؤمنين عليه السلام وكان عليه ثلاثون ألفاً مع طلحة والزبير وعائشة ، فلما التقوا لم يكن أهل البصرة إلا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . »

فقال أبو بكر : « ومتى كان أهل البصرة ثلاثين ألفاً يقاتلون أمير المؤمنين عليه السلام وقد اعتزلهم الأحنف بن قيس في سعد والرباب وقد دخلنا بعد ذلك الكوفة فذبنا بها ستة آلاف رجل من أصحاب نبهم (المختار) كما يذبح الحملان . . . الخ . »

قال ابن عياش : « أتاكم أهل الكوفة يوم الجمل مع علي فقتلوكم ، فأرى أهل الكوفة غالبين ومغلوبين : على الحق ، وأرى أهل البصرة غالبين ومغلوبين على الباطل^(١) . »

فأنت ترى تغفل حادث الجمل وأبطاله عائشة وصحبها في حياة الجماهير في البصرة

(١) كتاب البلدان للهمداني ص ١٦٦ — ١٦٨ .

والكوفة وما صار له من الأثر في العامة حتى ليضارع ما لأبطال القصص كمنتره والوزير
وأضرابهما من الاشتغال بهم والتعصب لهم أو عليهم ، وحتى لتذكر لنا كتب الأدب أسماء
ثلاثة من العامة أو أشباههم أو صلهم استغراقهم في حب أبطالهم إلى شيء من الغفلة أورد لك
خبرهم مثلاً لكثير من الناس غيرهم :

كان بالبصرة ثلاثة إخوة من ولد عتاب بن أسيد :
كان أحدهم يحج عن حمزة (عم النبي صلى الله عليه وسلم) ويقول : استشهد قبل
أن يحج » ! .

وكان الآخر يضحى عن أبي بكر وعمر ويقول : « أخطأ السنة في ترك الأضحية . »
وكان الثالث يفطر عن عائشة أيام التشريق ! ! ويقول : « غلظت في صومها أيام العيد ؛
فمن صام عن أبيه وأمه فأنا أفطر عن أمي عائشة ^(١) » ! !

هذا أثرها في حياة عامة الشعب يبين لك ناحية مغايرة للناحية التي رأيتها آنفاً عن
أثرها في الخاصة .

(١) عيون الأخبار ٢/ ٥٥ .

الفصل الثالث

في تناول الفرق الإسلامية أعمال عائشة

ما انقضت المئة الأولى على الهجرة النبوية حتى كانت بذور التفرقة قد نجمت في الجسم الإسلامي ، وتناول رؤوس الفرق مسائل من مسائل الاعتقاد يبحثون فيها وجوهها المختلفة وينتهون من بحوثهم إلى رأى من الآراء يستقرون عليه .

كان من جملة مسألتهم أعمال الخلفاء الراشدين والحكم على الفريقين المتحاربين يوم الجمل ويوم صفين . ويعتدنا هنا عرضهم لعائشة وأصحاب الجمل بالتصويب أو التخطئة وحكمهم عليهم بالكفر أو الإيمان . ودخول عائشة وأفعالها موضوعاً لبحوثهم (يشرحون) مآتيها ، آخر دليل وأقواه على أثرها في المجتمع الإسلامي وتفكير طوائفه . . . أثراً ماثلاً في حياة المسلمين الفكرية والوجدانية أربعة عشر قرناً ونصف قرن منذ وفاة الرسول حتى يوم الناس هذا .

رأى أهل السنة :

فأما أهل السنة فقد عدلوا جميع الصحابة وتولّوهم واعتقدوا بنجاتهم ، وكان رأيهم في فريقى الجمل المتحاربين رأياً جميلاً ، فقد ذهبوا إلى أنهم جميعاً أرادوا الخير والإصلاح واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد . أما أى الفريقين مصيب وأيهما مخطئ فليس لأهل السنة رأى رسمى حاسم فى ذلك ، بل الحكم متروك لاجتهاد كل مجتهد ؛ فمنهم من رأى أن علياً مصيب ، ومنهم من رأى أن عائشة وصحبها هم المصيبون ، وفريق ثالث وقف ولم يصوّب أحداً منهم ولم يخطئه .

أما الذين ذهبوا إلى أن الحق مع على فقد رأوا أنه هو الإمام الذى بايعه الناس ، وهو الذى يقيم الحدود ويقاضى الناس ، فليس لأحد حق فى أن يثار لمظلوم أو مقتول وعلى الناس إمام عادل لم يجز . ورأوا أيضاً أن على الإمام ردّ الخارجين عليه أياً كانوا : عائشة فمن

دونها . وعلى هذا يكون محققاً في خروجه إلى أصحاب الجمل ، ويكون جنوده جميعاً أعواناً له على هذا الحق .

وأما الذين رأوا أن عائشة وصحبها هم المحقون فإنهم رأوا أن عثمان قتل مظلوماً في الشهر الحرام وأن هذا حدث في الإسلام لا يصح السكوت عليه ، ورأوا أن كثيراً من المؤلّبين عليه والمباشرين لسفك دمه التحقوا به ولم يعجل قصاصهم ، وأن هذا تعطيل للحدود وهو منكر كبير ينبغي تغييره باليد والسيف ، فخرجوا لإقامة هذا الحد والقصاص من قتلة عثمان ، ولو أسرع على بإقامة هذا الحد ما خرجوا عليه ، وقالوا : « من آوى الظالمين فهو إما مشارك لهم وإما ضعيف عن أخذ الحق منهم ، وكلا الأمرين حجة في إسقاط إمامة من فعل ذلك ووجوب حربه ^(١) » . ثم رأوا لزوم تغيير هذا المنكر بالقوة وهم يستطيعونها ، فلا يجزئهم إنكاره بالقلب ولا باللسان ولهم قدرة على التغيير باليد ، فقاموا بهذا الغرض الأساسي في الإسلام وهم خرجوا للإصلاح لا للقتال .

وأما الفريق الثالث فقد رأى أن كلاً من الفريقين يعتمد بحجج غير ضعيفة وأن معه وجهاً من الحق فالأمر ملتبس ، والفريقان حسنا النية مجتهدان في الخير ولهما الماضي الجليل في صحبة رسول الله صلى عليه وسلم وتأييد الدعوة بأموالهم وأنفسهم فليس من السهل أن ينحرفا عمداً عن الجادة ، فوقفوا ولم يقطعوا لأحد بالصواب أو الخطأ . ورأوا أن تغيير المنكر باليد مؤد إلى فتنة كبيرة لا يقاس إليها هذا المنكر الذي يراد تغييره ، فاعتزلوا الفريقين وعلى رأس هؤلاء سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل وعبد الله بن عمر وأبو موسى الأشعري وغيرهم . فاكفوا بإنكار المنكر بالقلب وباللسان أحياناً واجتنبوا خوض الفتن جميعاً .

ثم ارتضى أهل السنة مع الزمن الكف عما شجر بين الصحابة ، لا يعرضون له بتصويب ولا تخطئة ، وكثر بينهم ترديد هذه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ^(٢) » .

« الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً من بعدي ^(٣) » .

(١) الفصل لابن حزم ١٥٣/٤ فما بعد . (٢) تيسير الوصول ٣/٢٦٠ .

(٣) صحيح الترمذي وتنتنه : « . . فن أحبهم فبحي أحبهم ومن أبغضهم فببغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » .

« خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ^(١) » ،
« لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه ^(٢) »
ثم رأوا أن هؤلاء الصحابة جميعاً شهدوا المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم
السابقة في نصرته الدعوة واحتمال الأذى في سبيل الله ، فأقل ما يجب علينا أن نحفظ رسول
الله في أصحابه وأزواجه . فأصحاب هذه المقالة يتولّون الجميع ويظنون بهم خيراً ، ولعل كلمة
الحسن البصرى أو الإمام مالك تعبر عنهم خير تعبير فقد سئل عن هذه الفتن فقال :
« تلك دماء طهر الله منها أسيافنا فلا نلطح بها أسننتنا . »

ومثلها يروى عن عمر بن عبد العزيز فقد قيل له : « ما تقول في علي وعثمان وفي حرب
الجلل وصفين ؟ »

قال : « تلك دماء كف الله يدي عنها ، فأنا أكره أن أعمس لساني فيها ^(٣) »
ثم (تبلور) هذا الرأي مع الزمن ودخل العقيدة الرسمية لأهل السنة ، وصاروا يثبتونه
في المتون التي يُحفظونها طلباً للعلم ، فترى في متن الزبد للشافعية في هذا الموضوع :
وما جرى بين الصحاب نسكتُ عنه ، وأجر الاجتهاد ثبت ^(٤)
ونجد في (متن الشيبانية) للحنفية هذا البيت في الموضوع نفسه :
ونمسك عن حرب الصحابة والذي جرى بينهم كان اجتهاداً مجرداً
وقد صح في الأخبار أن قتلهم وقاتلهم في جنة الله خلداً ^(٥)
وفي متن السنوسية هذا البيت :

وأولّ التشاجر الذي ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد ^(٦)
ولا ينبغي أن ننسى أن هذا الذي انتهى إليه الزمن من رأى ارتضوه ، ليس مما لا يجوز

(١) تيسير الوصول ٢٥٩/٣ ، وانظر صحيح البخارى ك ٥٢ ب ٩ (طبعة ليدن) ومسنّد أحمد ٣٧٨/١ .

(٢) مسنّد أحمد ١١/٣ وتيسير الوصول ٢٥٩/٣ .

(٣) الامتاع والمؤانسة ١٨٣/٣

(٤) الزبد (لأحمد بن رسلان) ص ٨ .

(٥) مجموعة المتون (مطبعة الحلبي سنة ١٣٤٠ هـ) : متن الشيبانية ص ٣٧ .

(٦) المصدر السابق ص ١٤ .

عندهم غيره ، لا فالأمر على الاتساع : فلك أن تعتقد بإصابة علي في حرب الجمل أو خطئه ، كما لك مثل ذلك في أصحاب الجمل . . على شرط واحد هو ألا تظن سوءاً بالخطي ، وألا تخرجك التخطيطة كما أخرجت بعض أهل الفرق : إلى تكفير أو تفسيق أو ذم أو نفي تعديل . وأنت في ذلك إنما تترسم خطي الصحابة أنفسهم ، وأرجو ألا تكون نسيت كلمة على نفسه في مخالفه : « إنما هم إخواننا بقوا علينا » ، وقوله فيهم : « إن قومنا زعموا أن البغي كان منا عليهم ، وزعموا أنه كان منهم علينا . وإنما اقتتلنا على البغي ولم نقتل على التكفير^(١) » .

فإن أنت أخرجك الغلو إلى شيء من ذلك فقد انحرفت عن الجادة وخرجت على الجماعة إذ قدحت بأحد أصحاب رسول الله وهو الشيء الذي لا يغتفرونه لأحد ، ويرون فيه الخطر كل الخطر على دين القادح .

وخير تعبير عن رأيهم فيمن انتقص السيدة خاصة أو أبأها قصيدة اشتهر بعض أبياتها ، نظمت على لسان السيدة عائشة تحتج لنفسها وتذكر خصائصها وتحمل على خصومها وتجادلهم في فضل أبيها . وقد حظينا بها كاملة في مخطوط قديم^(٢) نسبتها لك لما فيها من الدلالة الوافية على موقف أهل السنة أخيراً وحجاجهم في هذا الموضوع . ولكتابنا هذا الفخر بأنه أول كتاب ينشرها كاملة بعد أن عثرنا على أصل لها قديم نادر الوجود :

« ... أنبأنا الشيخ أبو الطاهر عبد المنعم (؟) بن موهب المصري^(٣) الواعظ ، قال : أنشدنا أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي الواعظ لنفسه في مدح أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها ، وأجازه الأفضل أمير الجيوش عليها بمئة دينار مصرية :

(١) مر هذا في ص ١٨٨ ومنها تعرف أن ميل بعض الناس إلى تكفير مخالفهم في حرب الجمل نشأ بعد الموقعة نفسها .

(٢) بعض أبيات هذه القصيدة في كتاب (الحاسن المجتمعة في الخلفاء الأربعة للصفوري) مخطوط في دار الكتب الظاهرية منه نسختان رقمهما : تاريخ ٨٢٨ (ص ٢٩) ، تاريخ ٤٤١ (ص ٦٠) . وقد أظفرنا الحظ بالقصيدة كاملة في مخطوط قديم هو ورقة واحدة عانت فيها الإرضة ، وخطها سقيم لم نستطع حله إلا بصعوبة ووقت طويل . وهو في ملك السادة آل عبيد الأفاضل (أصحاب المكتبة العربية بدمشق) كتبت — على تقدير الأستاذ أحمد عبيد — في المئة الثامنة للهجرة . وقد أعاننا الأستاذ أحمد على حل بعض الكلمات وأباحنا نمر المخطوط فله الشكر على الإعانة والإباحة .

(٣) وقد تكون : (المري) .

ما شأن أم المؤمنين وشاني هدىَ المحب لها وضل الشاني
إني أقول مبيناً عن فضلها و مترجماً عن قولها بلساني :

يا مبغضى لا تات قبر محمد فالييت بيتي والمكان مكاني
إني خصصت على نساء محمد بصفات بر تحتمن معانٍ
وسبقتهم إلى الفضائل كلها فالسبق سبقي والعنان عناني
قبض النبي ومات بين ترائبي^(١) فاليوم يوحى والزمان زمانى
زوجي رسول الله لم أر غيره الله زوجني به وحباني
وأناه جبريل الأمين بصورتي فأحبني المختار حين رأني
أنا بكره العذراء عندي سره وضجيعه في منزلي قران^(٢)
وتكلم الله العظيم بحجتي وبراءتي في محكم القرآن
والله في القرآن قد لعن الذي بعد البراءة بالقبيح رماني
والله فضلي وعظم حرمتي وعلى لسان نبيه براني
والله وبخ من أراد تنقصي إفكاً ، وسبغ نفسه في شاني^(٣)
إني لمحصنة الأزار بريئة ودليل حسن طهارتي إحصاني
والله خصصني بخاتم رسله وأذل أهل الإفك والبهتان
وسمعت وحى الله عند محمد من جبرئيل ونوره يفساني
أوحى إليه وكنت تحت ثيابه فحنا على بثوبه وحباني
من ذا يفاخرني وينكر حجتي ومحمد في حجره رباني
وأخذت عن أبوي دين محمد وهما على الإسلام مصطحبان

(١) مات رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجر عائشة : أسندت رأسه إلى صدرها — الترائب : عظام الصدر .

(٢) القران : أبو بكر وعمر ، دفنا إلى جنب رسول الله في حجرة عائشة ، فكأنهما ضجيعاه .

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة في قصة الإفك : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » — سورة النور ٢٤ الآية ١٦ .

وأبى أقام الدين بعد محمد
والفخر فخرى والخلافة في أبى
وأنا ابنة الصديق صاحب أحمد
نصر النبي بماله وفعاله
ثانيه في الغار الذي سد الكواى
وجفا الغنى حتى تخلل بالعبا
وتهللت بغم^(١) ملائكة السما
وهو الذى لم يخش لومة لأثم
قتل الألى منعوا الزكاة بكفرهم
سبق الصحابة والقراة للفدى
والله ما استبقوا لنيل فضيلة
— إلا وطار أبى إلى عليهما
ويل لعبد خان آل محمد
طوبى لمن والى جماعة صحبه
حب(البترول) و(بعلمها) لم يختلف
أكرم بأربعة أمة شرعنا
بين الصحابة والقراة ألفة
نسجت مودتهم سدى في لُحمة
رحماء بينهم ، صفت أخلاقهم
هم كالأصابع في اليدىن تواصلت
الله ألف بين ود^(٢) قلوبهم
فدخلهم بين الأحبة كلفة

(١) بماله

(٢) بغير

(١) في الأصل (وعلل بغم) هكذا بلا نقط ، فرأينا أقرب شيء ما أثبتناه .

(٢) في الأصل : راد .

حصرت صدور الكافرين بالدي
وإذا أراد الله نصره عبده
جمع الإله المؤمنين على أبي
من حبيي فليجتنب من سبني
وإذا محي قد أظ^(١) بمغضى
إني لطيبة خلقت لطيب
إني لأم المؤمنين فمن أبي
الله حبيني لقلب نبيـــــــــــــــــه
والله يكرم من أراد كرامتي
والله أسأله زيادة فضله
يا من يلوذ بأهل بيت محمد
صلّ أمهات المؤمنين ولا تحد
إني لصداقة المقاتل كريمة

خذها إليك فإنها هي روضة
محفوفة بالروح والرياح
صلى الإله على النبي وآله
فهم تتم أزاهر البستان

رأى الخوارج :

انتهى الخوارج في حرب الجمل إلى رأى حاسم لا جدل فيه عندهم ، وهو أن علياً
مصيب في حربه أصحاب الجمل ، وأصحاب الجمل عائشة وطلحة والزبير ... كلهم مخطئون
بمقاتلتهم علياً خارجون على الدين كافرون^(٢) . وتجمع فرقهم كلها على هذا الحكم ، فأصحاب
الجمل عندهم حلال دمهم ومالهم وأعراضهم .

(١) أظ بالشيء : لزمه .

(٢) انظر : الفصل لابن حزم ١٥٣/٤ والفرق بين الفرق ص ٥٥ والتبصير في الدين للاسفرابني
ص ٢٦ — هذا ويتولى الخوارج علياً منذ ولى الخلافة إلى حادث التحكيم بعد معركة صفين ، ويبررون
أعماله كلها في هذه الفترة . أما منذ قبوله التحكيم فقد كفر ، وهم يتبرؤون من أعماله فيما بعد ذلك .

حتى إنهم احتجوا على عليّ عقب يوم الجمل قائلين :

« ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم ؟ »

فأجاب عليّ : بأنهم إخواننا لا تحل أموالهم .

فقال الخوارج : « ما ندرى ما هذا ؟ »

فقال عليّ : « هذه عائشة رأس القوم : أتتساهمون عليها ؟ »

قالوا : « سبحان الله هي أمنا . »

قال : « فهي حرام ؟ »

قالوا : « نعم . »

قال : « فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها^(١) . »

ولم يقتنع الخوارج بهذه الحجة ، ولا غفروا لعليّ هذا الخطأ بزعمهم ، فقد عاد أصحاب

النُخَيْلَة (طائفة منهم) يحاجون ابن عباس في أخطاء عليّ التي كفر بها عندهم ، فكان من

جملتها كفه عن سبى النساء من أصحاب الجمل . ومن كلامهم له في ذلك :

« إن كان عليّ على حق لم يشكك فيه وحكم مضطراً فما باله حيث ظفر لم يسب ؟ »

فقال ابن عباس : « . . . فأما قولكم في السبأ أفكنتم ساين أمكم عائشة ؟؟ »

فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا :

« أمسك عنا غرب لسانك يا بن عباس فإنه طلق ذلق غواص على موضع الحجة^(٢) . »

رأى المرهبة :

قاعدة المرهبة المشهورة : « لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر^(٣) »

وعلى ذلك لا يكفرون أحداً من المتقاتلين في حرب الجمل ويقولون بنجاتهم جميعاً . وإن

كان بعضهم ذهب إلى أن علياً هو المصيب في حربه^(٤) ، فذلك لا يدعو إلى الحملة على

الخطيء بتكفير . وبذلك سلمت السيدة عائشة وأصحابها من ألسنتهم ونقدتهم .

(١) ص ١٨٨ من هذا الكتاب .

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٧٧ (طبعة ليدن) .

(٣) التبصير في الدين ص ٦٠ .

(٤) الفصل لابن حزم ١٥٣/٤ .

هؤلاء أبعاد الفرق الإسلامية في تحكيم العقل والاعتماد على منطقها ، عرضوا أعمال الصحابة على النقد فحاكموها وقضوا فيها بما أدامهم إليه عقولهم ، لم يغلوا في حرب الجمل غلو الخوارج القائلين : « إن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم علياً وكان يومئذ على الحق ولكنه كفر بعد التحكيم^(١) . » ، ولا وقفوا في أمر الصحابة حياديين الوقفة التي ارتضاها كثير من أهل السنة فيما بعد ، بل أعمالوا عقولهم فذهب جمهورهم إلى أن علياً محق بقتاله أصحاب الجمل^(٢) ، واستدلوا على ذلك بأقوال طلحة والزبير وعائشة (وقد مرت بك) المشعرة بندمهم على الخروج ، وبتوبتهم^(٣) التوبة النصوح المخلصة . لكن هذه التخطئة لا تحمّل فريقاً منهم (الإسكافي وصحبه) على تكفير أو تفسيق ، فهم يتولونهم جميعاً^(٤)

فأشبه هؤلاء جمهور الأمة الذين يقولون : « إن فريق حرب الجمل كانوا مؤمنين مسلمين ولكن الحق كان مع علي رضي الله عنه ، والآخرون كانوا على خطأ اجتهد لا يلزم به الكفر ولا الفسق ، ولا التبرى والعداوة^(٥) »

وهناك فريق من المعتزلة لم يقطع على عائشة وأصحابها طلحة والزبير .. ولا على عليّ وجيشه بخطأ أو صواب لكنهم قطعوا أن إحدى الفرقتين — لا على التعيين — مخطئة ولا يعرفون أيهما هي^(٥) ؟ . من هذا الفريق واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف^(٥) وطوائف غيرهم . إلا أن وقوفهم لا يشبه وقوف من قدمنا لك من الصحابة كسعد ابن أبي وقاص وابن عمر ، ولا وقوف جمهور أهل السنة فيما بعد ، بل رتبوا عليه نتائج افترقوا بها عن أولئك ، فهم يقطعون بفسق إحدى الطائفتين لا على التعيين :

(١) التصير في الدين ص ٤١ .

(٢) الفصل ٤/١٥٣ .

(٣) الانتصار ص ٩٨ — وقد عمم ابن أبي الحديد هذا الرأي كأنه جامع أهل الاعتزال عليه فحكي عن المعتزلة أنهم يقولون : (كل أهل الجمل هالكون إلا من ثبتت توبته مثل عائشة وطلحة والزبير) شرح نهج البلاغة ٣/٢٩٦ وهو تعميم — كما ستري — غير وارد .

(٤) التصير في الدين ص ٤١ .

(٥) الفصل لابن حزم ٤/١٥٣ .

فأما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فرأيا — على ما حكى عنهم صاحب الانتصار —^(١) أن علياً وطلحة والزبير وعائشة أبرار أتقياء مؤمنون ، قد تقدمت لهم سوابق حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرة وجهاد وأعمال جليلة ، ثم وجداهم قد تحاربوا وتجادلوا بالسيوف فقالا : « قد علمنا أنهم ليسوا بمحققين جميعاً ، وجائز أن تكون إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلّة ، ولم يظهر لنا : من الحق منهم من المبطل ؟ فوكلنا أمر القوم إلى عالمه وتوليننا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال ؛ فإذا اجتمعت الطائفتان قلنا : قد علمنا أن إحدا كما عاصية ولا ندري أيكما هي ؟ »

ثم ذهب واصل يفرع على ذلك ويقول : « لو شهد عندي رجلان من هذا العسكر ومن ذلك العسكر لم أقبل . » فقيل له : « لو شهد من هذا العسكر على والحسن والحسين وابن عباس وعمار بن ياسر . . . ومن ذلك العسكر عائشة وطلحة والزبير . . . هل تقبل شهادتهم ؟ » فقال : « لو شهدوا جميعاً على باقة بقل لم أقبل^(٢) . » وبذلك قال أتباعه (الواصلية) وهم من فرق المعتزلة .

ووافق عمرو بن عبيد (رأس فرقة العمريّة من المعتزلة) واصل على مذهبه . لكن رواية ثانية — لم أطمئن إليها — تذهب إلى أنه زاد عليه وغلا ، وأنه كان يقول : « كلا الفريقين من أصحاب حرب الجمل فسقوا وهم خالدون مخلدون في النار^(٣) . » وتبعه على ذلك فرقته (العمريّة) فهؤلاء كسابقيهم لا يقبلون شهادة أحد من فريق حرب الجمل .

رأى الشيعة :

أما وقد بلغنا في هذا الموضوع إلى رأى الشيعة فإننا نرى من الواجب التنبيه إلى أمرين اثنين :

- ١ — ليس كل ما يورده الناس على أنه من آراء الشيعة هو من مذهبهم المعترف به .
- ٢ — ليس كل ما نقرؤه في كتاب لشيعة — في هذا الموضوع خاصة : موضوع

(١) ص ٩٧ .

(٢) التبصير في الدين ص ٤١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢ . وهذا يخالف ما تقدم آتياً من أن عمرو بن عبيد يرى مع واصل والعلاف

أن إحدى الفرقتين لا على التعيين عاصية .

الكلام على الصحابة وما جرى بينهم — هو الرأي الرسمي للشيعة .

بعد هذا التنبيه الذي لا بد منه أستهل الكلام بحكم لتشييع مشهور هو ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة الشرح الكبير المستفيض ، لأن بين يدي الآن كثرة هائلة من الأحاديث التي تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بعضها في تفضيل قوم من أصحابه وبعضها في ذم قوم آخرين منهم ، وأقل نظرة يلقبها منصف بصير على هذه الأحاديث كافية في استبعادها عن الرسول وصحبه والقرن الذي يليه .

قال ابن أبي الحديد العالم المتشيع :

« اعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلفة في صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم . فلما رأت البكرية (يريد بعض السنيين) ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها [أبي بكر] أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث . فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث . ولقد كان الفريقان في غنية عما اكتسباه ، ولقد كان في فضائل عليّ الثابتة الصحيحة وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصيدة لها ^(١) » .

وهو قول طريف ، وأزيد أنا على ذلك فارقاً : أن هناك ميداناً غير ميدان المناقب الذي وصف ابن أبي الحديد اشتراك الفريقين في الوضع فيه ، هناك ميدان آخر صالح فيه بعض المنتسبين إلى الشيعة وجالوا ، وكف أهل السنة عن أن يحوموا حوله بله الدخول فيه . ذلك هو ميدان الطعن في الصحابة : فأهل السنة دانوا الله بإجلال الصحابة جميعاً مصيبيهم ومخطئهم وحامهم مذهبهم أن يطعنوا في أحد منهم ، أما أولئك فقد أباحوا لأنفسهم الطعن في خصومهم طعناً قاتلاً ووضعوا لذلك الأحاديث والأخبار المختلفة ترويحاً لمذهبهم السياسي على نحو ما نرى من حرب الدعاية لعصرنا هذا .

(١) وجدت هذا النقل في كتاب (الإسلام الصحيح) للعلامة النشاشيبي ص ٣١٢ ، ولم يذكر رقم الصفحة التي هي فيه من شرح نهج البلاغة ، غير أنه أشار إلى أن ابن أبي الحديد لم ينتفع بعلمه هذا في كثير مما يورده من أحاديث .

يذهب الشيعة — فيما خص حرب الجمل — إلى أن علياً هو صاحب الحق وأنه هو
المصيب في حربه أصحاب الجمل، وأن الخارجين عليه عائشة وطلحة والزبير ومن معهم مخطئون
لخروجهم على الإمام الحق .

هذا هو ما أجمعوا عليه عامة : معتدلم ومتطرفهم جاهلهم وعالمهم ، وليس فيه — كما
ترى — انحراف عن الاعتدال ، ويستطيع أن يقوله سنى دون أن يحيد عن (سنته)
شعرة واحدة ، وكذلك المعتزلى . وحكى ابن حزم أن هذا مذهب جميع الشيعة وبعض أهل
السنة وبعض المرجئة وجمهور المعتزلة^(١)

وهنا ينتهى تقريرنا المذهب الرسمى الجامع للشيعة الأولين فيما خص أصحاب الجمل وعائشة
خاصة . ونشرع الآن لمعرفة أثر السيدة فى أهل الفرق الشيعية أفرادهم وطوائفهم ، ببيان هذه
الآثار بادئين بأقدمها وأخفها . وسترى أن الآثار هنا عنيفة لا تشبه ما رأيت عند بقية الفرق
لسبب واحد هو أن السياسة والشعوبية عملتا عندهم عملهما النشط البليغ ظاهراً وخفية .

لم تكن الخلافة من هم المعتزلة ولا المرجئة ولا الخوارج ، إذ لم يكن لفرقة من هذه الفرق
أسرة مرشحة للحكم ، وعلى هذا سلمت هذه الفرق من تعرض الحكام المتسلطين لهم إلا إذا
أخرجتهم هى وكادت لهم واثرت عليهم وحملتهم على الحرب حملاً : كالخوارج .

أما الشيعة فهم الحزب السياسى الخطر على الأمويين والعباسيين وحتى ملوك الطوائف
ودولة العثمانيين من بعدهم ، لأن أعظم الأسس فى مذهبهم أن الخلافة حق صريح من حقوق
بنى هاشم فلا تصح إمامة غير هاشمى أياً كان . وهم مكلفون ديناً ببذل كل وسع فى رد
الحق إلى أهله . فلذلك أتم أمرهم بنى أمية وبنى العباس ومن بعدهم ، ونزل بهذه الطائفة
من الولايات ما يعرفه كل مطلع على التاريخ . بل إن تاريخهم سلسلة متصلة من المآسى
والنكبات .

وأمر آخر يعنيننا هنا وهو أن عداوتهم لمن حاربوا علياً عداوة شديدة لم يخفف منها مضى
قرنين أو ثلاثة على تلك الحروب ، لأنهم يرون — وفى رأيهم حق — أنه لولا هذه الحروب

لتوطد الأمر لعلّي وفرغ لإدارة الإمبراطورية الواسعة فلأها عدلاً ورخاء وسعادة وبقيت
الخلافة في ذريته الأطهار ونم الناس بحكمهم .

وخصوا عائشة من حملاتهم وطعناتهم بما لم يخصوا غيرها للسبب المتقدم إذ كانت زعيمة
أصحاب الجمل والمطاعة فيهم . وإذا دقت النظر في الحوادث التي مرت بك ، وجدت
ما وجدوا تماماً من بليغ أثرها في زعزعة ولاية عليّ من قواعدها .

فلولا عائشة ما استقام لطلحة والزبير الخروج ، ولو خرجا ما استجابت لهما الجماهير التي
لم يثرها شيء مثل وجود أم المؤمنين على رأس الجموع ، ولكنني على مؤونتهما على أيسر
سبيل دون افتراق الناس واقتتالهم ، ولوجد من الوقت ما يسعفه في القضاء على كيد معاوية
والأمويين .

فلا تستغرب بعد هذا ما سأعرضه عليك من هذه السلبية العنيفة التي قابل بها الشيعة
فيما بعد — وخاصة عوامهم — عائشة أم المؤمنين ، ولا بأس بتنبهك ثانية إلى أنه إذا
مررت برأى أو قول أو رواية لأحد من غلاة الشيعة فليس لك أن تحمل عليه المذهب
أو أهله كلهم .

أخف ما يلفت نظر المدقق هو أنهم إذا اضطروا إلى رواية عنها أو خبر يتعلق بها في
معرض خير ، طووا ذكراً تورعاً أن يذكروها بجميل : فتجد مثلاً في أمالي المرتضى رواية
ابن عباس : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله ... » وهو حديث صححه السيدة عائشة لابن
عباس^(١) ... فإذا بلغ السيد المرتضى استدراك عائشة عليه ، لم يذكروها وإنما اكتفى بقوله
« وروى عن بعض أزواج الرسول .. الخ^(٢) »

ثم قولها ما لم تقل ونسبوا إليها ما لم تأت فزعموا أنها هي التي أمرت أباه أن يصلي
بالنابس في مرض الرسول ، وأن رسول الله أوصى إلى عليّ واستدعاه فاستدعت أباه بدله^(٣)

(١) انظر في ذلك ص ٨٣ من كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) .

(٢) أمالي المرتضى ١٨/٢ — فإذا عرفت أن عائشة نفسها لم تكن تطيب نفسها بذكر علي بخير
(ص ٦٦ من هذا الكتاب) رأيت في عمل هؤلاء جزء وفاقا .

(٣) شرح نهج البلاغة ١٩١/٣ .

وأنكرت الوصاية ، ونسبوا إليها أنها هي التي أمرت بقتل عثمان بن عفان وأنها كانت تقول « اقتلوا نعتلاً فقد كفر » وقد عرفت بطلان ذلك^(١)

حتى الأمور المتواترة المشهورة المعلومة من الدين بالضرورة والتي سارت مسير الشمس شهرة ، لا يجد بعض الشيعة بأساً في العدول بها إلى غير جهتها إرضاء لأهوائهم العصبية وتعزيراً لمذهبهم السياسي :

لقد كان حادث الإفك المشهور ، ونزلت في براءة السيدة عائشة آيات في سورة النور: « إن الذين جاؤوا بالإفك عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ... الآيات^(٢) » ، وتضافرت على رواية خبر الإفك كتب السير والتواريخ والحديث والأخبار ... وعرف كل مسلم وكل مطلع على التاريخ العربي أن هذه الآيات نزلت في عائشة كما عرف أن محمداً هاجر إلى المدينة مثلاً ؛ ومع ذلك فقد حكى ابن أبي الحديد المتشيع أن الشيعة تقول : « إن البراءة التي في سورة النور هي في السيدة مارية القبطية لا في السيدة عائشة^(٣) . »

ثم ترقوا في الحب والبغض حتى دفعت بعضهم العصبية العمياء إلى أمور مضحكة إن شئت عن شيء فعما يميزون من الغيظ ، وما يأكل صدورهم من الكراهية والحقد حتى أنكروا عقولهم واندفعوا في سخف فاضح .

إنهم تكلفوا غاية التكلف في أن المراد ب(أهل البيت) الواردة في سورة الأحزاب ضمن آيات بدئت ب: « يانساء النبي . . » : علي وفاطمة وذريتهما لا أزواجه صلى الله عليه وسلم ، وبذلك خالفوا الصريح الواضح البديهي لهذه الآيات السكرية :

« يانساء النبي لستنَّ كأحدٍ من النساءِ إن اتقينَّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرضٌ وقلنَّ قولاً معروفاً . وقرنن في بيوتكنَّ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله

(١) انظر ص ٤٤ من هذا الكتاب وانظر توهين ذلك في (منهاج السنة) ١٨٨/٢ .

(٢) سورة النور ٢٤ الآيات ١١ - ٢٦ .

(٣) شرح نهج البلاغة ٣/٢٩٦ .

وَالْحِكْمَةَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا^(١) . »

أوردت لك ما قبل الآية التي فيها (أهل البيت) وما بعدها لترى كيف يغرب بعض الناس في أفهامهم ، لا يردم عن هوامم وحدة سياق ولا تناقض معنى ولا تحطيم نسق .

ثم ارتقوا درجة في التهوين من شأن أمهات المؤمنين جملة ليصلوا من ذلك إلى تهوين أمر عائشة ، فلهجوا برواية حديث فيه :

« أذكركم الله في أهل بيتي . . . » ، لما ورد فيه من سؤال وجواب هذا نهما :

قلنا : « من أهل بيته ؟ نساؤه ؟ » فأجاب راوى الحديث : « لا وإيم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته : أصله وعصَبته^(٢) . »

وقول زيد بن أرقم راوى هذا الحديث — إن صحت نسبته إليه — فيه بُعد ، والله قد رفع شأن المرأة وكرّم^(٣) نساء النبي صلى الله عليه وسلم بصريح القرآن ، فمن المستبعد جداً أن ينفى قول يُنسب إلى صحابي ما صرح به التنزيل وما كانت دلالاته صارخة واضحة^(٤) .

ثم ترقوا من ذلك إلى زعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوّض إلى علي بن أبي طالب أن يطلق من شاء من أزواج النبي بعد وفاته (!!!) ، وأن علياً (مارس) هذا الحق فطلق عائشة من النبي يوم الجمل [بالنيابة عن زوجها المتوفى قبل التخليق المزعوم بخمس وعشرين سنة] ، وحرّمها بذلك شرف كونها من أمهات المؤمنين عقاباً لها ، وقد نقل في

(١) سورة الأحزاب ٣٣ الآيات ٣٢ — ٣٤ — ومن أجل هذه الآيات وما قبلها ذهب الامام ابن حزم إلى أن نساء النبي أفضل الصحابة على الاطلاق ، فعائشة وأخواتها أمهات المؤمنين أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . . . واحتج لذلك بحجج منطقية سديدة تجدها في رسالته المنشورة في آخر كتابنا (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة)

(٢) صحيح مسلم ١٦٤/٧ (الطبعة العامرة بالأستانة)

(٣) انظر الباب الثاني من كتابنا (الإسلام والمرأة) فهو خاص بنساء النبي أمهات المؤمنين

(٤) روى عكرمة عن ابن عباس : « نزلت (إنما يريد الله .. الخ) في نساء النبي خاصة .

وقال عكرمة : « من شاء باهله أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم »

وكان عكرمة هذا ينادى في السوق : « إن قوله تعالى : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم — روح المعاني ٤٣/١ وانظر في تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر تعليقه لمهذه في ص ٢٠٥ من الجزء الرابع

ذلك الأستاذ النشاشيبي في كتابه (الإسلام الصحيح) نقولاً أنا مثبتها لك دون تعليق، قال :

« ولم يجزىء ذو ماربة بمثل هذا الحديث (حديث زيد بن أرقم آنفاً) وغيره ، بل طلقوا بعض نساء النبي (يعنى بعد مماته) عابثين غير مباليين بسخرية الساخرين ، ففي روح المعاني (١) :

رأيت في بعض كتب الشيعة نفي الأمومة عن عائشة . قالوا : لأن النبي فوض إلى علي أن يبقى من يشاء من أزواجه ، ويطلق من يشاء منهم بعد وفاته وكالة عنه . وقد طلق عائشة يوم الجمل ، فخرجت عن الأزواج ولم يبق لها حكمين .

ورأيت في كتاب ألفه سليمان بن عبد الله البحراني في مثالب جمع من الصحابة مانصه : روى الطبرسي في كتاب (الاحتجاج) عن سعيد بن عبد الله أنه سأل القائم المنتظر وهو طفل في حياة أبيه ! فقال له : « يا مولانا وابن مولانا ، روى لنا أن رسول الله جعل طلاق نسائه إلى أمير المؤمنين حتى إنه بعث في يوم الجمل رسولاً إلى عائشة وقال :

(إنك أدخلت الهلاك على الإسلام وأهله بالفش الذي حصل منك ، وأوردت أولادك في موضع الهلاك بالجهالة ، فإذا امتنعت وإلا طلقتك) فأخبرنا يا مولانا عن معنى الطلاق الذي فوض حكمه رسول الله إلى أمير المؤمنين . » فقال :

« إن الله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبي فخصهن بشرف أمهات المؤمنين فقال (النبي) يا أبا الحسن ، إن هذا الشرف باق مادمن على طاعة الله ، فأيتهن عصت بعدى بالخروج عليك فطلقها من الأزواج وأسقطها من شرف أمهات المؤمنين . »

وروى الطبرسي في (الاحتجاج) عن الباقر أنه قال : لما كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنبل قال علي : « ما أراني إلا مطلقها ، فأنشد الله رجلاً سمع رسول الله يقول (يا علي ، أمر نسائي بيدك من بعدى) لما قام فشهد . » فقام ثلاثة عشر رجلاً فشهدوا بذلك الحديث .

ورأيت في بعض الأخبار التي لا تحضرني الآن ما هو صريح في وقوع الطلاق « اه
ما قال البحراني^(١) . » اه

ولست أشك في أن أكثر هذه الروايات لفقها غير أهل البصر من الشيعة ونسبوا لأئمة
مريضين تملقاً للعوام وترويجاً لبضاعتهم عندهم .

ثم جاء منهم من قذفها وافترى عليها وأنكر اختصاصها بأم المؤمنين^(٢) .
وتناولوها بسلاح آخر غير سلاح الروايات الملققة ، فشارك شعراؤهم في النيل منها ومن
طلحة والزبير وسائر جموعها ، وما أكثر ما تجد أمثال قول القائل :

جاءت مع الأشقيين في هودج ترحى إلى البصرة أجنادها
كأنها في فعلها همة تريد أن تأكل أولادها
وقد نظم بعضهم ما زعموا أنه حديث وهو : « يا حميراء ، كأني بك تنبحك كلاب
الحوء تقاتلين علياً وأنت له ظالمة^(٣) » فقال :

إني أدين بجب آل محمد وبني الوصي شهودهم والغيب
وأنا البريء من الزبير وطلحة ومن التي نبحت كلاب الحوء^(٤)
واشتط آخرون في تأويل بعض الآيات والانحراف بها عن مدلولها انحرافاً مضحكاً ،
فإذا تلاوا قول الله تعالى حكاية عن موسى يخاطب قومه :

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً .. » زعموا : أن المراد بالبقرة عائشة^(٥) !

(١) الإسلام الصحيح ص ٨٦ ، ٨٧

(٢) انظر تفصيل ذلك في منهاج السنة ١٨٢/٢ ولم أثبتة مفصلاً لأن عقيدة الشيعة وخاصة الإمامية
اليوم بريئة من هذا القذف — انظر في ذلك جواب المجتهد الشيعي السيد محمد محسن الأمين العاملي لنا عن
عقيدة الشيعة في أهات المؤمنين ، في كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥

(٣) قال الإمام الحافظ المحدث شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأما الحديث : تقاتلين علياً وأنت ظالمة »
فهذا لا يعرف في شيء من كتب العلم المعتمدة ، ولا له إسناد معروف ، وهو بالموضوعات المسكذوبات
أشبهه منه بالأحاديث الصحيحة ، بل هو كذب قطعاً : فإن عائشة لم تقاتل ولم تخرج لقتال وإنما خرجت
بقصد الإصلاح بين المسلمين ... الخ منهاج السنة ١٨٥/٢

وهذا من ابن تيمية فقد داخلني لثن الحديث ، ومن أدلة الوضع عندهم مخالفة الحديث للواقع ، وواقع
التاريخ يؤيد ما ذهب إليه ابن تيمية .

(٤) العقد الفريد ١٠٨/٣

(٥) انظر (مقدمة في أصول التفسير) لابن تيمية ص ٢٢ (دمشق مطبعة الترقى ١٩٣٦) ونقل =

ثم غلا الغلاة منهم في شأنها وشأن طلحة والزبير وأبي بكر وعمر وعثمان ، فجاوزوا الطعن والبراءة إلى اللعن الصريح ، ثم جاء قوم فجعلوا لعن عائشة ومن ذكرنا قرينة يتقربون بها إلى الله ، حتى إنك لترى لعنهم في أدعية مأثورة ونسبوا بعضها إلى علي بن أبي طالب نفسه بينما أقوال علي وأفعاله كلها متضافرة على تعظيم هؤلاء وحبهم والاستغفار لهم ، وقد مر بك قوله في طلحة والزبير وعائشة عقب حرب الجمل . . . وبعض هذا كافٍ في إبطال ما ينسبونه إليه ، وقد أجله الله عن أن يكون لعناً لأصغر الناس فكيف يلعن الأجلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه .

وأى كان ، فقد توارث بعض الشيعة هذا اللعن وتلك الأدعية ، ونسبوها — زوراً — إلى علي ، وتقربوا إلى الله بهذا اللعن ، فإذا فتحت كتبهم (مفتاح الجنان) وهو كتاب أدعية يشبه (دلائل الخيرات) الذي يقبل عليه العوام في مصر والشام ، وجدت في جملة الأدعية دعاء صدروه بهذا الكلام :

(هذا دعاء صنمى قريش من كلام أمير المؤمنين عليه السلام)
ووجدته ينتدى هكذا :

« اللهم صل على محمد وآل محمد ، والعن صنمى قريش وجبتيهما وطاغوتيها وإفكيتيها
وابنتيها ... الخ^(١) »

وكان بعض أهل السنة يقابلون هذا العدوان على صحابة رسول الله خبراً بخبر وشعراً بشعر ، يدافعون هجرات خصومهم دون أن ينالوا من أئمة الشيعة لأنهم أئمتهم أيضاً ، فما أكثر ما تجد من مقالاتهم في إعظام عائشة وطلحة والزبير وأبي بكر وعمر الخ وقد يدفع التحزب بعضهم — كما قال ابن أبي الحديد آناً — أن يقابل اختلاق الروايات باختلاق مثله . ثم ترى الشعراء أيضاً يناخون عن هؤلاء الصحابة ويردون مطاعن الشيعة عنهم ، فتري كثيراً من أمثال القصيدة التي أثبتها لك آناً في السيدة عائشة ، ولا تنس أن

= بعدها من المضحكات شيئاً كثيراً . كقولهم إن المراد بقوله تعالى (فقاتلوا أئمة الكفر .) طلحة والزبير . . . الخ .

(١) مفتاح الجنان ص ١١٤ - وظاهر أنهم يريدون بالصنمين أبا بكر وعمر وابنتيهما عائشة وحفصة وزوجتي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وانظر الكافي للكليني ٣/٣٩١

إجازة الأمير لصاحبها بمئة دينار، لها دلالتها في هذا الباب فكان انتصار الشاعر للشعور العام المعتدى عليه مما يرضى عنه حينئذ .

ثم إن غلو بعض الشيعة غير المعقول حمل فريقاً على كره علي ، وكان ذلك بمثابة (رد الفعل) أو (عكس التأثير) كما يقولون ، وسمى هؤلاء بالناصبية ؛ وجعلوا يتبعون أقوال الشيعة في حملاتهم فيحملون مثلها ، فر بما أتوا أحياناً بالسائغ المعقول (ظاهراً) وربما شابهوا أولئك في بعدهم عن الحق والمنطق . فما يقبل من كلامهم مما يمس موضوعنا ما أورده ابن تيمية في صدد حرب الجمل وحملة الشيعة على طلحة والزبير لأنهما أخرجا عائشة من بيتها ولم يراعوا حرمة الرسول في زوجه :

مما يقوله الناصبي (رداً على حملة الشيعة) في التشنيع على علي :

« . . . إن ذنب من جعل جملها هدف السهام وجعله عرض الإهانة من عسكره ، أعظم من ذنب من أخرجها من بيتها كالمملكة ياتمر بأمرها . . . فبأى وجه يلتقي رسول الله الأول ؟ . . . »^(١)

هذا وربما أدى الخروج على الأدب في الطعن عليهم إلى شيء من العنف فيما بعد : فالطبري يذكر لنا في حوادث سنة (٢٤١) أن صاحب خان عاصم بيقداد واسمه عيسى ابن جعفر شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة جهاراً أمام الناس ، فشكوه إلى القاضي وشهد عليه سبعة عشر رجلاً ، فجاء أمر الخليفة أن يضرب في مجمع الناس حد الشتم ، ثم خمسمائة سوط بعد الحد للأموال العظام التي اجترأ عليها من لعنهم وإكفارهم ورميهم بالكبائر ، « فإن مات ألقى في الماء من غير صلاة ليكون ذلك ناهياً لكل ملحد في الدين خارج من جماعة المسلمين »^(٢) .

ويروي ابن الجوزي حادثاً مشابهاً وقع بعد قرن من الحادث السابق فيقول : « كان في الموضع المعروف ببرائنا مسجد يجتمع فيه قوم ممن ينسب إلى التشيع : يقصدونه للصلاة والجلوس ، فرفع إلى المقتدر بالله أن الرافضة يجتمعون في ذلك المسجد لسب الصحابة والخروج

(١) منهاج السنة ٢/١٩٥

(٢) تاريخ الطبري ٧/٣٧٥

عن الطاعة فأمر بكبسه يوم الجمعة وقت الصلاة ، فكبس وأخذ من وجد فيه فعوقبوا وحبسوا حسباً طويلاً وهدم المسجد حتى سوى بالأرض وعُني رسمه ووصل بالمقبرة التي تليه ومكث خراباً إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة^(١) . «

وعرفت بعض الأمصار حيناً من الزمن بشدة الغلو في التشيع حتى صار يختفي فيها أهل السنة ومن ظهر منهم كتم مذهبه خشية على روحه ، ويصور لنا هذه الشدة خير تصوير طرفة عن أحد الظراف : قالوا إنه كان يمشی في أحد هذه الأمصار حين غلبة الشيعة وكان يكنى أبا بكر ، فإنه لمیشى بين الناس إذ نادته امرأة تعرفه : « يا أبا بكر » فما كان أسرع الرجل إلى أن يقول : « لبيك يا عائشة ! » ولم يكن هذا اسمها فاستغربت تقول : « سبحان الله كأن اسمي عائشة » قال الرجل : « أتريدين أن يقتلوني وحدي إذن !! »

رأى أمر مجزى السبعة اليوم :

وجدت من الأمانة للبحث أن أسأل أحد مجتهدى الشيعة اليوم عن رأيهم الرسمي في السيدة عائشة وعن المصادر المعتمدة عندهم ، فبعثت إلى الشيخ الجليل السيد محمد محسن الأمين العاملى مفتى الشيعة الأكبر في الشام بأسئلة أحدها :

« ما رأى الشيعة في السيدة عائشة خاصة وجميع ما كان منها ؟ ثم ؛ ما رأيكم الخاص بصفتم أحد مجتهدى الشيعة الكبار اليوم ؟^(٢) »

فوردت أجوبته مفصلة في (الثالث من المحرم سنة ١٣٦٣ هـ) وهالك جوابه عن موضوعنا حذف منه الحوادث التي صرت بك قبل ذلك تجنباً للتكرار ، قال :

« وأما الجواب عن السؤال الثانى فهو أن السيدة عائشة أم المؤمنين كانت راوية

(١) المنتظم لابن الجوزي ٣١٧/٦

(٢) وقبل هذا ، سؤال عن عقيدتهم في أمهات المؤمنين عامة نشرت جواب السيد عنه كاملاً في كتابي (الاسلام والمرأة) في حاشية الصفحات ٨٥ — ٨٧ فارجع إليه لملاقته بيحسنا هنا .

للحديث بصيرة بالفقه جريئة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ظهر منها ذلك في عدة مواضع حفظها التاريخ لا يتسع المقام لذكرها : منها قولها له في غزاة فتح مكة : « إنك تزعم أنك رسول الله فما لك لا تعدل (كما في السيرة الحلبية) ، ولما أراها ولده إبراهيم لترى ما بينه وبين ولده من عظيم الشبه قالت : (إنها لا ترى بينهما شهما) ولتكاثر تهمة مارية بما يعرف النبي براءتها منه .

ويرون أنها أخطأت بخروجها على الإمام العادل مظهرة الطلب بدم عثمان وهي كانت أعظم المحرضين عليه^(١) . . . وقد قال النبي لأزواجه : « ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدب ، تخرج فتنبجها كلاب الحووب ، يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة^(٢) » وقد أمرت أن تقر في بيتها بقوله تعالى : (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى^(٣)) .

ويعتذر المعتذرون لها بأنها اجتهدت فأخطأت أو أذنبت فتابت ورحمة الله واسعة . ويصعب علينا الإذعان بأن هذا كان اجتهاداً ، وإذا جردنا أنفسنا عن التقليد ونظرنا نظراً لم يتأثر بشيء وجدناه بعيداً عن الاجتهاد غاية البعد .

[ثم نقل السيد ما تمثلت به عائشة لما بلغها نعى علي بن أبي طالب وقد مر بك (ص ٦٦ ، ٢١٤ وزاد عليه نقلاً من مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني] — :
ثم تمثلت :

ما زال إهداء الصغائر بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن قولك فيهم في كل مجتمع طنين ذباب
وقال بعض علماء الأعصار الأخيرة من الشيعة :

(عائشُ) ما نقول في قتالك سلكت فيه سبل المهالك

(١) نقل السيد هنا حديث ابن أم كلاب عن الطبري وابن الأثير وقد ذكرناه مع ما يرد عليه ص ٥٣

و٦٨ فأبعد .

(٢) انظر في نقد هذا الحديث ص ٨٧ من هذا الكتاب

(٣) سورة الأحزاب ٣٣ الآية ٣٢ .

ويا حميراً سببك محرم لأجل عين ألف عين تكرم^(١)»

اه جواب السيد

فأنت ترى أن هذا المجتهد الشيعي نفي أن تكون السيدة مجتهدة مخطئة كما هو رأى بعض أهل السنة ، ولم ينص على أنها مذنبه ثابتة كما يرى المعتزلة ، أو كافرة كما يرى غلاة الشيعة والخوارج . ولعل كلمته (ويرون أنها أخطأت بخروجها على الإمام العادل) معبرة عن رأيه الاجتهادي الخاص هو ومن على شاكلة من معتدلي الشيعة المتقدمين والمتأخرين وكثير من أهل السنة يقول هذه الكلمة نفسها . وقد ذكر السيد اعتذارين عنها : (اجتهدت وأخطأت) و (أذنبت فتابت) ، ثم نفي الاعتذار الأول وسكت عن الثاني ؛ فهل سكوته أخذ بهذا الثاني كما يتبادر إلى الذهن ؟ لست أدري . وأنا أردت منه حكماً صريحاً فجاء كما ترى !! على أن القول الثاني (أذنبت فتابت) هو رأى السيدة عائشة في نفسها كما عرفت .

أما ابن أبي الحديد — وكتابه شرح نهج البلاغة من المراجع المعتمدة عند الشيعة في رأى السيد محمد محسن الأمين العاملي — فينص على أن « الإمامية كفروا أصحاب الجمل كلهم الرؤساء والأتباع^(٢) » .

هذا ولا تناقض عندهم — ولا عند غيرهم — بين زوجية المرأة للنبي وكفرها كما كان كتب إلى السيد نفسه^(٣) .

والذي نخرج به مما تقدم كله أن الشيعة ذهبوا في السيدة عائشة من ناحية مغامراتها السياسية مذاهب سلبية مختلفة فيها المعتدل وفيها الغالى المتطرف ، وأن للمرء أن يعتقد في أمرها — بعد إثبات الحق والصواب لعلى — ما يشاء دون أن يخرج عن شيعيته ، فالأمر

(١) انتهى ما نقلناه من كلام السيد ، ومن المفيد أن ثبت هنا جوابه لنا عن المراجع المعتمدة عند الشيعة ، قال :

« المراجع المعتمدة عند الشيعة كتب السيد المرتضى وأمثاله [؟] من أعيان الشيعة . وتجردون كثيراً من آرائه وأقواله منقولة في شرح النهج الحديدي المطبوع . ومن المراجع المعتمدة في التفسير جمع البيان للطبرسي المطبوع ومروج الذهب للمسعودي في التاريخ ، وإن كان الاعتماد عليها لا يعني أن جميع ما فيها صواب فلا ينزه عن الخطأ غير كتاب الله العزيز . » اه وأنصف السيد .

(٢) شرح نهج البلاغة ٣/ ٢٩٦ .

(٣) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥ فما بعد .

على الاتساع ، ومتأخروهم صائرون إلى الاعتدال ، وتحكيم العقل بعض التحكيم ، ومجانبة التقليد بعض المجانبة . أما القذف فينكرونه أشد الإنكار لأن عقيدتهم صريحة في أن أزواج الأنبياء يجوز عليهن الكفر ولا يجوز عليهن الخطيئة^(١) .

وقبل أن أختم هذا الفصل ، أرى من الضروري أن أنبه على أمرين مهمين :

الأول — قد اندس في الشيعة كثير من الذين تظاهروا بالإسلام غشاً وكيداً فأفسدوا عقائد المسلمين ، وحملوا إلى الإسلام كثيراً من عقائدهم القديمة ونحلهم الأجنبية : المجوسية أو اليهودية . وكان هدفهم الأول تهديم المجتمع الإسلامي سياسة وأخلاقاً وعقيدة ، وجعلوا غلوهم في التشيع أحبولة لخداع الطيبين من الشيعة وأهل السنة ، فقبلوا عنهم كثيراً من آرائهم الهدامة ، وسرت هذه الآراء ، ودان بها جماعة كثيرون وتسربت إلى مصادر كثيرة بعضها محترم ؛ واحتال هؤلاء الدساسون فجعلوا على آرائهم الصبغة التي تسهل إساعتها في الحلق ، حتى صعب على الناقد من مخلصي الشيعة تمييزها من غيرها واختلط الحابل بالنابل .

هذا أمر واقع لا شك فيه ، وبعض العلماء يعني هؤلاء الدساسين حين يقول (الرافضة)^(٢) فليس الرافضة عندهم هم الشيعة ، ولكن ذلك الفريق الذي دخل الإسلام ليوهنه ويفسد على أهله دينهم ، وعلى الأمة وحدتها وقوتها . وأوضح مثل أورده لك هو عبد الله بن سبأ الذي رأته في مكره وكيده وغشه وخطر الهدف الذي يهدف إليه ، والبطل الأول الذي (طبخ) فاجعة عثمان وحرب الجمل . وأكثر هؤلاء يبتغون الثأر لقوميتهم التي أضاعها الإسلام أو نحلتهم التي أضعف أمرها .

(١) انظر جواب السيد في كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥ فما بعد .

(٢) أول من أطلق هذه الكلمة (الرافضة) على فريق من غلاة الشيعة : الإمام زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رأس (الزيدية) فقد سأله هذا الفريق من شيعة الكوفة فقالوا : « رحمك الله ، ما قولك في أبي بكر وعمر ؟ » قال زيد : « رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحداً من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً » ... فقارقوه ونكثوا بيعته إذ لم يتبرأ من أبي بكر وعمر ، فسماهم (الرافضة) . — تاريخ الطبري ٤٩٨ / ٥ — وكان زيد هذا أعلم آل علي ، ورواياته وفتاويه عمدة (الزيدية) اليوم . قتل في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ .

هذا وقد صار لكلمة الرافضة على الزمن مفهوم آخر كما سترى في كلام ابن تيمية .

وابن تيمية لم يبعد من الصواب حين قال :
« إن الرافضة من أول مقاصدها النيل من الإسلام وحر به ، وإنهم الباب الذي وضعه
أولو الزندقة من الجوس للدخول إلى عقائد المسلمين وتزييفها ^(١) » ثم استشهد بعدة وقائع
أعان فيها الرافضة الكفار على المسلمين في خراسان ومصر والشام والعراق والجزيرة .
ويرى المؤلف نفسه « أن الرافضة وحدها من بين سائر الأهواء بنوا بدعتهم على زندقة
وإلحاد ، وليس كذلك الخوارج ولا غيرهم ^(٢) » .

وهذا نعت لا يصح بحال أن يلصق بالشيعة الذين خبرناهم بالعراق والشام ، وعرفنا
مقالاتهم ورأيت آناً آراء مفتيهم ، إن هذا الغلو منبعه الفرس واليهود ، فإن كانت منه
بقية اليوم في فارس والهند ، ومن اطلع على تأليهم البشر وإغراقهم في المحال أيقن أن هذه
الآراء بعيدة البعد كله عن جوهر الإسلام ، وأنها صنع عقلية متأثرة بماضيا للجوسى
أو اليهودى ، وأنها على كل حال لم تنبت في منبت عربى قط . وصدق الشعبي حين وصف
هؤلاء المتسترين بالتشيع :

« لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة ، ولكن مقتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم ،
قد حرقتهم على بن أبي طالب ونفاهم إلى البلدان ، منهم عبد الله بن سبأ : يهودى من يهود
صنعاء ، نفاه إلى سابات ... الخ ^(٣) » .

هذا تمييز بين الشيعة المسلمين وهؤلاء ، لا بد من التنبيه إليه لمعرفة الحق ووضع الأمور
في نصابها . وقد خبط بينهما وخط ، كثير ممن تصدى للتأريخ قديماً وحديثاً .

الثانى — أما الأمر الثانى فهو نتيجة لما سبق : لقد امتلأت كتب الخلاف بالخلاف بالطم
والرم من الأخبار والأحاديث الموضوعة التى تغذى الخلاف وتوسع شقته ، لفقها الملقون غشاً
وكيداً أو غفلةً ، ومن النادر أن تجد مصدراً خلا منها .

وقد تنبه إلى هذا الخطر أهل البصر السنين والشيعيين ، ورأوا خطة سديدة فى
التغلب عليه أنا ذا كرها لك :

(١) منهاج السنة ١ / ٥ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ١٥ .

(٣) منهاج السنة ١ / ٦ .

الفريقان الشيعة وأهل السنة مجمعون على الاحتجاج بالقرآن الكريم ، ثم يختلفون في الاحتجاج بالروايات والأحاديث : فبعض أهل السنة يروون أحاديث وروايات في باب الفضائل وحروب الصحابة لا يأخذ بها الشيعة ولا يرونها صحيحة ، وبعض الشيعة يحتجون كذلك بروايات وأحاديث يرى أهل السنة أنها مختلقة ؛ وهناك أحاديث يجمع عليها الفريقان .

فإذا اتفقنا على الاحتجاج — في هذا الباب — بالقرآن الكريم وما أجمع الفريقان على صحته من الحديث وأغفلنا ما وراء ذلك : إذ كان لا يدخل في أصول العقائد ولا ثمره عملية له ، زال كل خلاف بين الطرفين ، وقضينا على هذه الفرقة غير المجدية التي طال أمدها . هذا رأى منصف سديد حكيم لا غبار عليه .

والطريف حقاً أن يقول به شيخ الإسلام المحدث الكبير ابن تيمية نفسه خصم الشيعة المشهور في المتقدمين ، والسيد محمد محسن الأمين الجتهيد الشيعي في المعاصرين :
قرر ابن تيمية : « إمكان تركنا الاحتجاج بالرواية إن ترك الشيعة ذلك ^(١) » ، وإليك رأى السيد محمد محسن الأمين من أجوبته التي أرسلها إلى في كراس لطيف أنقله بالحرف :
« ... وأما قولكم (إن في نيتكم أن تكون الدراسة [عن السيدة عائشة] حيادية) فنعم ما تفعلون إذا أمكنكم ذلك فإن مافي الكتب الإسلامية مما يرجع إلى الآراء والديانات قد اختلط فيه الحابل بالنابل والحق بالباطل ، واعتورته العصبية والأهواء . ومضى على المسلمين أحقاب وقرون ، دخلت فيها السياسة في الدين ، واستغلّ الدين لتوطيد الملك ، واختلقت الأحاديث والأقوال حسب رغبة الملوك والأمراء والسلاطين وبعض من يحملون لقب الخلافة ، ... فعل ذلك خوفاً وطمعاً ولإرغام فريق وتأييد فريق كما هو الشأن في كل عصر وزمان ؛ ... [وهنا ضرب السيد مثلا مظالم الشيعة في العهدين الأموي والعباسي]
ثم قال :

ومهما بذل العلماء جهودهم في تنقية الأخبار لم يستطيعوا — وإن تخيلوا ذلك — لأن العصبية المذهبية والعداوات الدينية تأصلت في النفوس ، وتوارثها الخلف عن

(١) المصدر السابق ١/ ٢٦ .

السلف ، ومن أراد تجريد نفسه عنها لم يوفق لكثرة مافي الأمر من الاختلاط إلا ماشاء الله ، ولا يمكننا تنزيه ما عند فريق دون فريق عن ذلك ؛ فما علينا إلا أن ننعم النظر ، ونأخذ بما اتفق عليه الكل وتوافقت عليه الأخبار من الطرفين ، وأيده الكتاب العزيز والسنة الثابتة عند الجميع » اه .

ولهل من هذا المذهب ابن أبي الحديد المتشيع أيضاً حين قال ما ذكرته لك سابقاً :
« اعلم أن أصل الآكاذيب في أحاديث الفضائل كان ... الخ^(١) » .
وهذه الخطة التي توارد عليها ابن تيمية والسيد محمد محسن الأمين ، خطة عملية ظاهرة الصواب . وما غمر عصرنا هذا من روح العلم وحرية التفكير والاعتداد بالكرامة الإنسانية واحترام الفردية ... كفيل بالقضاء على روح التفرقة والتعبد لآراء الرؤساء والعصبية الجاهلية التي قضى عليها الإسلام ولم يعرفها السلف الصالح من أهل السنة والشيعة معاً .

وبعد ، فهذه جناية الحزبية السياسية على وحدة الأمة : أفسدت على الناس كل شيء حتى دينهم ، ففرقتهم فرقا متباذلة فيه ، وملاأت تاريخهم الطويل بالقواجم والمآسى . ورحم الله السيدة عائشة فلم ينتمه انقسام الناس بسببها حتى اليوم .

(١) صر بتامه ص ٢٦٩ فارجع إليه . — هذا ، وأنا موقن أن تطبيق القواعد التي أقرها الأصوليون من علماء الحديث بصرف النظر عما ألحق المتأخرون بها من قيود وتقليد ، كاف بإقصاء كل تلك الأحاديث من كتب الفريقين ؛ إذ أنها قواعد محكمة سديدة ، وهي مقاييس في النقد دقيقة هيئات أن يلحق بها أدق ما وضع نقدة التاريخ لعصرنا . ولكن قومنا يدرسونها تبركا ولا يمارسونها البتة ، وكان الحق أن يطبقوها بحرية واسعة في هذا الباب باب المناقب والملاحم على الأقل .

الخاتمة

عبرة الحوادث

الآن ، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومغامراتها السياسية وآثارها القريبة والبعيدة في حياة المسلمين ، أودعك موصياً أن تجعل بالك أبداً - كما قرأت التاريخ - إلى عبره وتجاربه ، فتأخذ من كل شيء أحسنه ، وتربأ بنفسك وبأمتك أن تغامر في تجربة ثبت ضررها وفسادها ، وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمناه فيها دماء عشرات الألوف . وأنا أريد أن أختم كلامي بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التي تعرض لقارئ هذا الكتاب : نتقداننا مما نحن فيه اليوم من تخبط ، وتدنيران لنا طريقاً طال تعسفنا في المتاهات دون أن نهتدى إليه :

أما الأولى : فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفسها في المنازعات السياسية . إن لها أن تنصح وتبصر القرييين منها بعواقب الأمور ، وليس لها أن تشارك في القلاقل والاضطرابات والفتن . إن بيدها مفاتيح خطرة في التأثير في نفوس الجماهير وفي استغلال حميتهم ونخوتهم ومشاعرهم ، وهذا السلاح غير حميد في العواقب ولا يصح استعماله بحال . وقد أمنت لك أنه لولا موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التغيير كله ، ولسارت سيراً مأموناً مطرد الرقي مباركا ، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية .

وكأن الله الذي جعل النساء لثنيثة الرجال وتربية الأجيال وإدارة البيوت ، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لا تنسى ، كلفتهم كل تلك الدماء المهرقة ، ونجعتهم بالألوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ومن الفحول المذاويد من أبطال الفتح وأعظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس ... ليعلموا : أن لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم بامرأة ، لقام بهذه السيدة الحصيصة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة

والصلاح ... ما لم يؤتته رجال كثيرون مجتمعين ، والتي جمع الله فيها من المآثر العظام ما تفرق في العدد العديد من الفحول .

لقد خلدت حرب الجمل مناراً في تاريخ المسلمين : كلما نزع بهم نزع من تقليد أعمى لغيرهم من الأم ؛ أو مسّ من رجعية ذميمة ، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال ، أو هموا أن يخرجوا بها عما خلق لها وخلق له ... قالوا لأنفسهم : أخفقت هذه التجربة في صدر تاريخنا ؛ فما بنا من حاجة إلى أن نعدها عبثاً ، أو أن نهرق في سبيلها ثانية دماء جديدة ونحرب بيوتاً عامرة ... ومن لنا مع هذا بمثل عائشة .

إن هناك مجالاً واسعاً لنشاط المرأة حين تجد وقتاً فاضلاً عن شؤون التربية وإدارة المنزل ، تستطيع به أن تملأ الأجوأ خيراً ورحمة وإحساناً . هذه وجوه الخير مفتحة الأبواب في وسع المرأة أن تلجها فتمارس أموراً عظاماً وتبذل مجهوداً مشكوراً يعود على أمتها بما لا يقل عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر .

أمامها من ميادين الخير : التمريض وإسعاف الفقيرات من بنات جنسها بالعلاج والدواء والطعام والكساء . وفي مجتمعنا من المحتاجات ما يشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفي بمحاجتهن عشرات المستشفيات .

وأمامها أيضاً كفاح الجهل في بنات جنسها ، فلتنشئ لهن المعاهد ذوات المناهج الصالحة لتنشئة الأمهات على ألا تستعير لها برامج الذكور (ببعض التعديل) فقد ثبت مع الزمن أنا حتى الآن لم نقم التعليم الصالح للبنات^(١) .

وهناك أمام المرأة العناية بتربية اليتيمات وإنشاء المياتم وتعهدهن أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ثم إشاعة الثقافة الصحية بين النساء عامة .

ويجب أن ينشأ فيهن التخصصات في جميع الفروع التي يحتاج إليها النساء والأطفال

(١) ينبغي أن تكون أكثر مواد هذا التعليم جوهراً واسعة تجريبية في كل ما تحتاج إليه الأم في الصحة والدين وشؤون المنزل وتربية البنين وحسن العشرة ... لاخليطاً غير منسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات الكيمياء وقوانين الطبيعة . ولنجعل التاريخ الذي يدرسه مملوءاً بسير الذين ضربوا الثل العليا للبشر في سمو النفس وابتغاء الخير وخدمة الناس ، وفي الفضائل الحية ممن أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير ، وكانوا للانسانية حماة الأبطال المخلصين من رجالنا ونسائنا على السواء . ولنتجنب شحنه لهن بأخبار القلاقل والاضطرابات والفتن والحروب ومثّل الفساد والظلم .

وأن يكون منهن العدد الوافي بالحاجة بحيث يسددن عوز النساء في علاج أمراض العين والأسنان والأمراض الداخلية والجلدية وفي حاجات التوليد .
فإن كان ولا بد من زيادة فإلى المساهمة في كفاح ما يتفشى في المجتمع من امتهان المرأة وإشقتها عن طريق البغاء والقمار والخمور وغيرها من المفاسد التي ضاق بشورها المفكرون في الغرب والشرق .

لدى المرأة إذن كثير من أعمال الإحسان ينتظر من يقوم بها ، وفي ذلك الخدمة المخلصة للأمة وإعمار البيوت وإفاضة الخير والسعادة في المجتمع ...
ونحمد الله على أن في فضليات نساتنا من تحاول سد هذه الثلمة ، إلا أن نسبتهم قليلة جداً بالقياس إلى اللائي تنسكن الجادة متخبطات على غير بصيرة ، فهجرن بيوتهن واكالات أمورهن إلى الخوادم ، وطفقن يمارسن ما لا يعود عليهن وعلى أسرهن وأمتن إلا بالضرر الخالص والإفساد الكبير : من إقامة حفلات ساهرة مججلة ، وغشيان مجتمعات وأندية ، واقتحام أسفار ، وعقد مؤتمرات لا يبلغن فيها أمراً نافعاً ، بل كثيراً ما يرجعن وقد سبقتهن أشأم الحوادث وأسوأ الأخبار ... مما يدع السامع ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا
يقلدن بذلك نساء ضج عقلاء أمهن من أحوالهن^(١) ، ومسقط مقامهن فيها من كثرة

(١) ووددت لو تفرغ طائفة من علماء النفس إلى دراسة نفسية عميقة للسنة الآتي يطالبن بالحقوق السياسية في أوروبا وأمريكا والآتي استغرق (نشاطهن) الاجتماعي كل وقتهن ، فعمل في أعماق نفوسهن هوى سحيقة ومهارات أليمة وعلا وشذوذاً ... وشعوراً صارخاً بنقص مائل لأعينهن كيفما توجهن ، فأثرن تناسيه والهرب منه بذلك (النشاط الاجتماعي) . والطريف أن هؤلاء لم يكثر عددهن إلا في هذه السنين الثلاثين الأواخر ، حين فقدت أوروبا الشعور بدفع الأسرة وتعييمها وروحها ، وخلت البيوت من جوها الجميل الجذاب جو التألف والاجتماع والتحاب والتعاطف ، وأصبحت مائدة البيت قلما يجتمع عليها اثنتان بعد أن تشرذم أفراد الأسرة وتبعثروا في المطاعم والسهرات . فلو كان بناء الأسرة متماسكاً متيناً حبيباً كهمده أول ، ما كان المطالبات بحقوق الانتخاب والنيابة والوزارة والتثيل السياسي وما إلى ذلك . وإذا أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ في روسيا السوفييتية ، حيث يراد إقامة مجتمع لا بناء للأسرة فيه ، فإنه لا يتخيل بحال امرأة عضوة عاملة في أسرة ثم تكون مندفعة في تيارات السياسة وما إليها في وقت معاً .

ووددت أيضاً لو شرع الفنيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا نسبة ربات الأسر اللائي أنعم الله عليهن بالزوج والولد بين الطالبات بحق الانتخاب مثلاً ، ثم أحصوا نسبة الجميلات منهن ، ثم .. ثم .. إلى لأخشى أن تكون الكثرة الكاثرة منهن ممن حرمن الله الجمال والزوج والولد ، فنقمن على المجتمع نظامه =

هذا التبذل والعبث ، وعدن على بنات جنسهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوثن من سمعة المرأة عامة . ليقنا إذ جننا بالتقليد اخترنا من نقلد ، ففي كل أمة من فضليات النساء النافعات ما يحسن الاقتداء به ، ولكننا ننتقى أخط المبتذلات ثم نسبقهن في الابتذال أشواطاً ينجلن هن أنفسهن من السعى إليها .

وأبعد من هذا ، أننا إذا أمعنا في البيت وما يحتاج إليه تديره على خير نسق من علم واسع غزير في الصحة والأخلاق والتربية وعلم النفس ، وسياسة الزوج والأطفال ، وسياسة المورد والمصرف ، ورعاية ذلك كله . . وجدنا أن علم ذلك وإتقانه وحسن إضائه يكاد لا يبقى للمرأة القديرة ذات المواهب الجملة من فراغ أو جهد ، فكيف المتوسطات بله الضعيفات . إن ما يلزم لتصبح الأنثى امرأة (مثقفة) ليتضاءل أمامه — في اعتقادي — كل ثقافة ثانية مهما كانت رفيعة مفيدة .

وعلى المرأة الجادة بعد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن تشارك في شرف الخدمة فيها ، على شرط واحد : هو أن تنهى كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرتها أولاً ، وإثماً يكون التطوع والصدقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد .

هذا ، ولست أقول إن المرأة لا نفع منها في باب السياسة ، أستغفر الله ، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط : هو أن تتحلى بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشئ عليها أولادها ، فما في امرأة فرطت بفضائل دينها من خير قط . والناس على حق حين يهملون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جامحة على الآداب النسوية التي شرعها الله . والدين للمرأة هو كل شيء في نظر زوجها وولدها وأسرتها والناس أجمعين ، فإذا جاهرت بشيء من الخروج عليه فقدت كل احترام في النفوس ، وانتقلت نظرة الناس لها دفعة واحدة من التقديس إلى الزرابة .

إن من لم تكن أمينة لدينها لن ينتظر منها إلا الشر والخيانة لأسرتها ووطنها ، مثلها في ذلك

== وعلى الأخلاق قوانينها ، وعلى السعادة وجودها على الأرض ، وآلين على أنفسهن ألا يضعن الحرب حتى يع العدل وجه الأرض ، وما العدل عندهن إلا هدم الأسر وأنظمة الزواج ، وسلطان الضمير ، ومحو السعادة جملة .

مثل الرجال رق دينهم : فلما مارسوا الشؤون العامة ماثنين الدنيا صخباً بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم ، كان بلاء الأوطان منهم وحدهم إذ كانوا لا يخافون الله ولا يرعون لدين عهداً ولا لضمير حرمة ، فانطلقوا يشحنون الأرض خسفاً وكسفاً ونهباً وسلباً واحتكاراً وغلاء وإهداراً للكرامات والقيم وتضييعاً للأمانات والحقوق . وبذلك ضربوا أسوأ الأمثال وأظهروا وطنهم بشر المظاهر... ومن مات وازعه الديني ونسى يوم الحساب فلن يرده عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب .

وأنا على يقين من أن أمهاتهم مسؤولات — إلى حد بعيد — عن هذا الخزي الذي ارتطموا فيه ، إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشعارهم خوف الله والحساب . لقد حرمنهم النشأة الدينية الفاضلة فلم يعرفوا لنتها ، ولم يتعهدن ذمتهم وأخلاقهم ففقدوا في أنفسهم الكرامة الإنسانية ، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب ، فعم البلاء البلاد والعباد...

إلى هذا الحد تبلغ جريمة المرأة الناشئة على غير دين ، وتعظم المصيبة ، وتستفحل آثار ضرورها في مستقبل الأمة وسلامة المجتمع .

فلها إذن آثار بعيدة في السياسة ، وهي تسدى لوطنها أعظم الفضل أو تبلغ منه أعظم النكابة ، لا بنفسها مباشرة فقط ، ولكن بنفسها وبما تنشئ عليه أبناءها سياسي الغد من فضائل أو رذائل ، وبما تنال ضمير الناشئ ووازعه الديني من عناية أو إهمال .

ذلك ، وقد أعان على تردى المرأة في الخروج على أنوثتها وفطرتها ، فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاماً ولم يحملوا إخلاصاً ولا أمانة ولا نصحاً . دفعهم الرياء المغشوش على أن يعرقوا في مجاملة المرأة المشتطة الطائشة ابتغاء العبث بها وبكرامتها ، فحملوها فوق ما تستطيع من السخط على الطبيعة التي فيها لكل كائن عمل خاص . وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى ما يسعدها من علم وخلق ، وإلى ما يعزها في المجتمع سيدة بيت وصرية أجيال . وكان من حقتها أيضاً على من يزعم نصرتها أن يمسكها عن أن يهوى بها الطيش في مكان سحيق فتفتقد ما لها من حرمة هي ملاك أمرها كله في المجتمع .

ليتنا في غمراتنا اليوم نستشدد بتجارب الماضي ونسير غير متخبطين : نبصر مواطناً أقدامنا وتتقى المراتق ، ونجند كلاً في ميدانه الذي يصلح له . لقد تداعت علينا الأمم ، وطمع فينا حتى (الصهاينة) من شذاذ الآفاق ، وغزينا في أخلاقنا وبلادنا وأموالنا ... وليس في جهودنا فضل ننفقه في رد العابثين عن عبثهم ؛ فليتق الله حملة الأفلام وليصونوا الشاردات عن القطيع ، وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن في أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأتني أولاً ، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا .

وما الانهيار السريع الذي قضى على بعض دول الغرب العظمى في مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة ، ببعيد فينسى . ولنا فيه درس وموعظة وبلغ .

وأما العبرة الثانية : ففيا يثمر الخلاف من الثمرات المرة الأليمة :

لقد كان أمر المسلمين الأولين عجباً من العجب : امتلأت نفوسهم بكل ما حباهم ربهم من خير في الإسلام ، فأحسنوا فهمه وأحسنوا العمل به وأحسنوا الاستجابة لرسوله نساء ورجالاً ، فوطدوا أركانه في الجزيرة العربية ، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه ، واندفع هؤلاء الصحابة الأخيار يريدون إعلاء كلمة الحق وإنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان : من شرور الظلم والجمل وامتهان الإنسان ، فحرّر الله على أيديهم أقطاراً وشعوباً كثيرة ، فأشركوا الناس كافة في سعادتهم وعدلهم وأمنهم . ومن عرف أنهم كانوا قبل عشرين عاماً فقط يأكل بعضهم بعضاً ويعدو قويمهم على ضعيفهم : قبائل متعادية ، وطوائف يغزو بعضها بعضاً ... عرف نعمة الله عليهم وعلى الإنسانية بهذا التوحيد الذي أَلَف بين قلوب ما كانت لتتألف ، وأدرك سر المعجزة التي أتى بها الإسلام في توحيدهم وخلقتهم خلقاً جديداً جعل من سفكة الدماء أنبياء رحمة ورسول هداية للبشر .

لقد أتوا — وكلتهم واحدة — بالعجائب في الحرب والفتح ثم في البناء والتنظيم ، وكان منهم الخير كل الخير لأنفسهم ولغيرهم .

فلما صبت الدنيا خيراتها وكنوزها بين أيديهم ، وتقادم ما كان جديداً من روعة الدين

وعهد الرسول وصاحبيه ، وكان أمر الشورى العلوم ، وكثرت في هذه الإمبراطورية الواسعة المناصب والولايات . . . بدأت نوازع الطموح تتحرك في نفوس هؤلاء الأبرار فيسكبونونها رهبة من الله . لكن عناصر الشر والغش والفساد من أهل النحل البائدة والأمم المغلوبة كانت أيقظ من أن تغفل عنهم وهي الخبيرة بمدخل الشر ومخارجه ، فما زالوا يفتلون لأولئك الطيبين في الذروة والغارب حتى استجاب بعضهم لأهواء نفوسهم من حيث لا يشعرون ، ودب دبيب الخلاف بينهم ، واشتغل بعض ببعض ، ووقفت الفتوح أيام على حتى خيف على المسلمين من فلول الروم .

أرأيت ما يفعل الخلاف في الدولة القوية المتأسكة المتينة الآساس ؟ إنه يُطمع فيها حتى الضعيف المغلوب للمشرف على الدمار ، دع ما أريق في سبيله من دماء غالية بدأت بالخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم أرفدت بدماء عشرات الألوف . وهذا يوم الجمل وهو يوم واحد أسفر عن خمسة عشر ألف قتيل على أقل تقدير في بضع ساعات ، فلا تسل عما بعده من يوم النهروان ويوم صفين وغيرها من تلك الأيام التي أعملنا فيها سلاحنا في أنفسنا فأوقفنا الوهي في دولتنا والفرقة في صفوفنا والعداوة في قلوبنا . . . وكان الله قد غسل هذه القلوب وجمع تلك الصفوف .

ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل ويوم صفين اجتمعت على الخير فسارت إلى عدوها في الشرق والغرب لأكلت الدنيا بقوتها ولأحالت العالم جنة يتحدث بنعيمها وسعادة أهلها الركبان . لكن الله الذي أيد هذه الأمة أول أمرها قضى أن يكون بأسها بينها ، فامتلاً تاريخنا بالحروب الداخلية وتحول عن مجراه السعيد الذي جرى فيه أولاً تلخير الإنسانية عامة ؛ قضاء من قضاء الله لا حيلة فيه .

ولست أدري : ما يكون حال دنيانا الآن ، لو أن العرب لم يفسدها الخلاف والتطاحن ولم تنزل بأسها بينها ؟ . . . ولو ذهب باحث يحصي هذه الدماء المهرقة في سبيل الخلاف منذ قتل عثمان حتى اليوم ، في المشرق والمغرب والأندلس . . . لأفزعته هذه الملايين منها ، ملايين لو بذلت في سبيل الحق لكان تاريخ العالم كله على غير ما نعرف ، ولكننا أهل الحضارة حتى الآن وإلى الأبد لا نعلم بشمسنا أقول .

وقد خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته آثار الخلاف ، فسأل ربه فيما سأل أن يجنبها أضراره ، إذ علم أن هذه القوى الهائلة المترصة التي يعمرها إيمان لم تعرف الأرض له مثيلاً... كفيلاً بفتح الأرض كلها ، لاتقف لها قوة إلا أن تنشق على نفسها ، فرووا عنه أنه قال :

« سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة :

سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة (بالتحط) فأعطانيها ،

وسألت ربي ألا يهلك أمتي بالفرق فأعطانيها ،

وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ممنعياً^(١) . »

ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

انقضت الخلافة والخلاف بخيرهما وشرهما ، ولم يبق منهما إلا هذا التاريخ بين أيدينا مملوءاً بالعبء ، فلنتعظ به ، ولنتجنب أى تفرقة بيننا بكل ما نستطيع ، ولتكن تلك الدماء الزاهية ضياعاً : حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة ، فلا نعيدها فاجعتها جذعة ، ولتهرب من كل خلاف وتفرقة هرب السليم من الأجر ، فإنهما بيدان صغيرين تافهين لا يؤبه لهما ثم يعظمان حتى يلتئما الأخضر واليابس .

وإن أعجب لشيء فلاولئك الذين ما زالوا يجتمعون ويتفرون متجادلين في هؤلاء الصحابة الأخيار : أيهم المؤمن وأيهم الكافر؟ أيهم يحمد وأيهم يذم ! ويتقربون إلى الله بلعن رجال : ما منهم أحد إلا وله السوابق الحسان فى نصرته الإسلام وإعلاء كلمة الله والدفاع عن رسول الله ، وما فيهم إلا من كان فى جهاده وتفانيه فى النصرة قرّة عين الأمة والدين والرسول ، وليس فيهم إلا من بذل ماله ودمه ودم أهله للخير العام ، فخلفوا لنا بفضل إخلاصهم هذه البلاد الواحدة على ترمى أطرافها ، إنها وحدة جامعة عجرت ضربات الدهر وسطوات الدول ثلاثة عشر قرناً عن أن تنال منها ما يقضى عليها ويمحوها ؛ فما زال العراقى إذا هبط أقصى المغرب فى مرا كمش ، لا يحس بغربة عن أهل ولا وطن ، أستغفر الله ،

(١) صحيح مسلم ١٧١/٨ (الأستانة سنة ١٣٣٣ هـ) وانظر مسند أحمد ١/١٧٥ .

بل ما زال الصيني من أقصى الشرق إذا هبط ساحل بحر الظلمات تلقته القلوب بالبشر والترحاب . . . لقد جمعهم الله بمحمد وصحبه على كلمة حق واحدة فلن يفرق أحد ما جمع الله بمحمد وصحبه .

لست بسبيل تعداد المآثر المشهورة لأولئك الأخيار الذين هم موضوع الخلاف كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة . . . فأصغر أعمالهم عند الله يحوكل ما يذكر خصوصهم من أخطاء ، وقد ذهبوا إلى خالقهم الذي أرضوه بأعمالهم ورضى عنهم ، وسجل رضاه هذا في قرآنه الكريم يُتلى ما بقي على الأرض إنسان .

فلنمحصهم جميعاً بحبة واحدة ، ولنستغفر لهم ولأنفسنا ، ولنذكرهم بكل خير جزاء ما خلفوا لنا من وحدة قوية ، ودولة مثالية بنوها يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، جهاداً أرخصوا فيه مهجهم وضحوا بأعز ما يملكون ؛ ولنطرح عن عواتقنا مخلفات عصور الانحطاط والشعوبيات ، ولننقذ بهؤلاء الأخيار أنفسهم حين يعرض بعضهم لذكر بعض ، فقد عاينت حسن رأى كل فريق بإخوانه ، وعلمت أن الله نزع ما في صدورهم من غل ، وأنهم عادوا إخواناً متحابين كما أمرهم الله أن يكونوا .

وإن الله عز وجل لم يتعبد أحداً بشتم أحد من الصحابة ولا لعنه ، بل عظم من شأنهم وغفر لهم ما أخطؤوا قبل أن يخطئوا ، ولولاهم لكان العرب اليوم في وثنية أو مجوسية ؛ فما هذا جزاء من أنقذنا به من الضلال والفرقة ومن خلف لنا ملكاً سعيداً وماضياً مجيداً وتاريخاً حافلاً بكل ما يرفع الرأس ويخلد أحسن الثناء والذكر .

فرقت السياسات قديماً أمر المسلمين وشتت شملهم ، ثم عززها أهل الكيد والدس بغشهم حتى جعلوها تتغلغل في الأديان والعقائد ، وصار الدين الواحد أدياناً والأمة الواحدة أمماً . وما الأمر كله بالذي يستوجب بعض ذلك ، فلنأخذ بالتوسعة والتسامح ، ولكل رأيه في السياسة وفهمه للتاريخ فلا يضيغن أحد ذرعا بفهم أخيه ، ولا نجعلن خلاف الرأى في السياسات والحزبيات ماضياً وحاضراً مفرقاً وحدتنا وصادعاً شملنا ومحمداً نارنا ، ولا نجعلن هذه الأحقاد والعداوات تتوارث إلى يوم الدين .

إن الأمم من حولنا اليوم كالجياح على القصاصع كما أخبر بذلك الرسول الأعظم (١) صلى الله عليه وسلم ، فلن يمجديننا في موقفنا اليوم ذلك الجدل ولا تلك الفرقة ، بخويصة أنفسنا ما يشغلنا عن هذا الباطل ، وفي مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق ... فلنقابلهما صفاً واحداً وأمة واحدة كما بدأنا الله ، ولننبذ عصور الظلام بآثارها جميعاً . إن ربنا واحد ورسولنا واحد ، وكتابتنا واحد ، فلنعد أمة واحدة كما أراد الله لنا ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وتفرقة . إنا محاطون بالأعداء داخلاً وخارجاً ، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا فلا نعينهم على أنفسنا ، ولا نضعن في أيديهم السلاح الذي يقتلنا ويجهلنا لهم طعمة سائغة .

ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا لم يجعل للفرقة إلينا سبيلاً ، ولا جعل بأسنا بيننا ، وليت هذه السابقة التي هونت على المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً لم تكن قط :
فليت الظعينة في بيتها وليتك (عسكراً) لم ترتحل
ثم ليتنا بعد ذلك كله نعتبر بما في الخلاف من ضرر بالغ في كبير أمرنا وضميره ،
فنجنب أنفسنا وبلادنا وذرارينا شروره .

(١) في الحديث المشهور : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القوم إلى قصعهم . . . »
انظره في مسند أبي داود ٤/١٣٣ رقم ٩٩٢ فهو من جوامع الكلم وآيات البلاغة النبوية .

مشاريع

فهارس الكتاب

- ١ - فهرس الأعلام
- ٢ - » الجماعات
- ٣ - » الأماكن
- ٤ - » الأيام
- ٥ - » المصادر
- ٦ - » الموضوعات

تفہیات :

- ١ - قد يتكرر اسم العلم أكثر من مرة في الصفحة الواحدة ، فإذا كان يعنى القارىُّ البحث عن علم فيلقراً الصفحة إلى آخر حواشيها .
- ٢ - قد يرد ذكر العلم غير صريح : مضمراً أو مشاراً إلى صفة مشهورة له ، فجزينا على إثبات رقم الصفحة المشار إليه فيها
- ٣ - أسقط أثناء المراجعة (ال) التعريف ، وفي فهرس الجماعات قد تحذف كلمة (بنى) في بعض الأحيان وكلمة (قبيلة) دائماً ، فتنبه لذلك .
- ٤ - ألحقنا أعلاماً قليلة مشهورة من غير البشر في فهرس الأعلام تيسيراً .
- ٥ - إذا ورد اسم العلم في صفحات متتالية اكتبنا بذكر الأولى والأخيرة مع خط صغير بين رقميهما .

١ - فهرس الأعلام

ابن عساكر ١٧ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٨ ،
٤٩ ، ٥١ ، ٨٣ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ،
٢٢٠ ، ٢٥٥
ابن عياش ٢٥٧
ابن قتيبة ٥ ، ٨١ ، ٢٣٢
ابن قرظة ١٨٧
ابن المحرش ١١٩
ابن مسعود = عبد الله بن مسعود
أبو الأسود بن البخري ١٩٦
أبو الأسود الدؤلي ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦
أبو أيوب الأنصاري ١١٥
أبو بردة ١٦
أبو بكر الصديق ١٥ - ١٨ ، ٢٠ - ٢٤ ،
٢٦ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٧٤ ، ٧٩ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ،
١٤٥ ، ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢١٧ - ٢٣١ ، ٢٣٤ ،
٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٣٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ - ٢٦٥ ، ٢٦٩ ،
٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ،
٢٩١ ، ٢٩٣
أبو بكر الهنلي ٢٥٤ ، ٢٥٧
أبو بكرة ٩٠ ، ١٩٧ ، ١٩٨
أبو بكرة (أخو زياد) ٢٣٢
أبو الجرباء ١١١ ، ١٤٦ ، ١٤٩
أبو جعفر الطبري = الطبري
أبو حيان التوحيدى ١٨ ، ٦٩
أبو داود الطيالسي ١٢
أبو الدرداء ٥٠
أبو ذر ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٩ ، ٥٠
أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب ٢٥٢
أبو سفيان بن حرب ٢٢٧ ، ٢٣٢
أبو سلامة الدالاني ١٤٧
أبو سمان (ورد في شعر) ١٤٥
أبو طلحة الأنصاري ٢٠٢

(أ)

إبراهيم بن النبي ٢٧٩
إبليس ١٥٧
ابن أبي الحديد ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٤ ،
٧٩ ، ٨٦ - ٨٨ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٦٧ ،
١٧٦ ، ١٩٣ - ١٩٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ،
٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢
ابن أبي سرح = عبد الله بن أبي سرح
ابن أبي سعد ٨٢
ابن أبي طاهر = أحمد بن أبي طاهر
ابن أبي عتيق ٢٤٧
ابن الأثير (صاحب التاريخ) ٥ ، ٩٣ ، ١٢١ ،
١٥٢ ، ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ، ٢٧٩
ابن أم كلاب = عبيد بن أبي سلمة
ابن بديل ٥٨
ابن تيمية ٢٦ ، ٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ -
٢٨٤
ابن الجوزي ١٢٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
ابن حزم ٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،
٢٧٣
ابن الحضرمي ١٩٨
ابن الحظلية = القفطاع بن عمرو
ابن خلدون ٥ ، ٥٧ ، ٨١
ابن الزبير = عبد الله بن الزبير
ابن سعد (وانظر: طبقات ابن سعد) ٢١٠ ،
٢٤٧ - ٢٤٩
ابن سلام ٦٥
ابن السوداء = عبد الله بن سبأ
ابن سيرين = محمد بن سيرين
ابن الشحنة ٢١٨
ابن شهاب = الزهري
ابن عباس = عبد الله بن عباس
ابن عبد البر ٨٨
ابن عبد ربه ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ١٧٢ ،
١٧٣ ، ١٨١

الأعور المقرئ ١٤٧
 أعين بن تميم ٥٨
 أعين بن ضبيعة الجاشعي ١٧٩
 الأفضل أمير الجيوش ٢٦٢
 الأقرع (في شعر جرير) ٢٥٥
 ألكسيس كاريل ١١
 أم أفعى العبدية ٢٤٦
 أم حبيبة بنت أبي سفيان ٤٥ ، ٥٩ ، ٢٣٢
 أم سلمة ٣٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ٩٣
 أم الفضل بنت الحارث ٩٢
 أم كثير ١٣
 أم كعب بن سور ٢٤٥
 أندره موروا ١٠

(ب)

الباقر ٢٧٤
 التول = فاطمة بنت محمد
 بجير بن دلجة الضبي ١٧٧
 البحتري ١٩٦
 البخاري ٢٤ ، ٦٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٦١
 بريرة ١٩٨
 البلاذري ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٤ ، ٢٣٢

(ت)

الترمذي ١٣٦ ، ٢٦٠
 تمام بن العباس ٩٣ ، ١١٥

(ث)

(ج)

الجاحظ ١٠٥ ، ٢٤٧
 جارية بن قدامة السعدي ١٠٩ ، ١٩٨
 جبريل ٢٢ ، ٢٦٣
 جرير (الشاعر) ٢٥٤ ، ٢٨٧
 جرير بن شرس ١٤٥
 الجمل (جمل عائشة) ٥٠ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٨

أبو العباس السفاح ٢٥٤ ، ٢٥٧
 أبو عبيدة بن الجراح ٧٦
 أبو عمران موسى الأندلسي ٢٦٢
 أبو الفرج الأصفهاني ٢٨ ، ٢٧٩
 أبو القاسم = محمد رسول الله
 أبو قنادة ٩٣
 أبو قحافة ٣٠
 أبو ليلى بن عمر بن الجراح ٧٦ ، ١٢٩
 أبو موسى الأشعري ١٣٠ — ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٩٧ ، ٢٦٠
 أبو هالة ١٩١
 أبو الهذيل العلاف ٢٦٧
 أبو هريرة ١٥ ، ١٩٨ ، ٢١٨
 الأبيد الرياحي ١٨٧
 أحمد = أحمد بن حنبل
 أحمد بن أبي طاهر ٦٩ ، ٨٢ ، ٢١٥ ، ٢٤٢
 أحمد بن حنبل (واظر: مسند أحمد) ١٢ ، ٢٢ — ٢٤ ، ٦٥ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٣١
 ٢٤٧ — ٢٤٥
 أحمد بن رسلان ٢٦١
 أحمد عبيد ٢٦٢
 الأحنف بن قيس ١٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٢ —
 ١٢٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٣١
 ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ — ١٥٧
 أسامة بن زيد ٣٥ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ١١٥
 إسحق بن خلف البهراني ١٧٠
 الإسفراييني ٢٦٥
 الإسكافي (المعتزلي) ٢٦٧
 أسماء بنت أبي بكر ١٧١
 أسماء بنت عميس ٢٢١ ، ٢٢٢
 الأسود بن أبي البختري ١٧١
 الأسود بن سريع السعدي ١٠٧
 الأشتر ٥٤ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٢ ،
 ١٣٧ — ١٣٩ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ ، ١٧٩
 الأشرف بن حكيم بن جبلة ١٢١
 أعشى همدان ٢٥٥ ، ٢٥٦
 الأعمش ٥٤

حكيم بن جبلة ١١٠، ١١١، ١١٣،
١١٨ — ١٢١، ١٣٠
حكيم بن سلامة ١٤٨
حمزة (بن عبد المطلب) ٢٥٨

(خ)

خالد بن ملجم ١٥٥
خديجة أم المؤمنين ٢٠
الخضري (الشيخ محمد) ٢٣٢
الحنساء ١٣
خولة بنت الأزور ١٣

(د)

الدينوري ٢١٠

(ذ)

ذريح ١١٩، ١٢١
ذكوان (مولى عائشة) ٢٣٧، ٢٣٨
الذهبي ١٦، ٢٠، ٨٨، ٨٩، ١٧٩، ٢٣٨

(ر)

ربيعة العقلى ١٦٧
الرسول ، رسول الله = محمد رسول الله
الرعل ١٢١
رفاعة بن رافع ١٢٨
رفيدة ١٣

(ز)

الزبير (بن العوام) ٣٠، ٣٩، ٤٠، ٤١،
٤٥، ٤٦، ٥٢، ٥٥، ٥٧، ٧٠ —
٧٤، ٧٦، ٧٨، ٨١ — ٨٥، ٩٠،
٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٩، ١٠١ — ١٠٤،
١٠٧ — ١١٣، ١١٥ — ١٢٦، ١٢٩

١٠٩، ١٦٤ — ١٧٠، ١٧٣، ١٧٥،
١٧٨، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٠، ٢٥٥ —

٢٧٩

الجواليقي ١٧١

جون بن قتادة ١٨٣

(ح)

الحارث الأعور ١٨٧
الحارث بن حوط ١٨٨
الحارث بن زهير الأزدي ١٧٥
الحارث بن سويد ١٧٦
الحارث الضبي ١٦٧، ١٧٧
الحاكم ١٦
الحنات بن يزيد المجاشعي ٢٥٤، ٢٥٥
الحجاج بن علاط ١٨٦
الحجاج بن غزيرة الأنصاري ١٢٩
الحجاج بن يوسف الثقفي ٤٢
حجر بن عدي ١٣٧، ٢٢٢ — ٢٢٨، ٢٣٦
٢٣٨، ٢٤٠
الحريشة الضبي ١٢٣
حرقوص بن زهير ١١٩، ١٢١، ١٢٤،
١٤٢، ١٤٨
الحسن البصري ٢٢٧، ٢٥٧، ٢٦١
الحسن بن زيد العلوي ٢٥٧
الحسن بن علي بن أبي طالب ٤٠، ٤١، ٦١،
٧٥، ٩٥ — ٩٧، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦
— ١٣٨، ١٤٨، ١٦٠، ١٧٦، ٢١٨
٢٢٢، ٢٢٧، ٢٤٢، ٢٥٧،
٢٦٨
الحسين بن علي ٤٠، ٤١، ٦١، ١٤٨، ١٦٠،
١٧٦، ٢١٨، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٣٦،
٢٣٩ — ٢٤٢، ٢٦٨
الحصري (صاحب زهر الآداب) ٥٩
حفصة أم المؤمنين ٨٢، ٨٣، ١٢٦، ٢٧٦،
٢٧٧
الحكم بن أبي العاص ٣٥
حكيم بن أفلح ٢٤٥، ٢٤٦

سعد بن معاذ ١٣
سعد بن هشام ٢٤٦
سعيد بن زيد ٢٥ ، ١٨٤
سعيد بن العاص ٢٣ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٥
٢٢٨ ، ٢١٨ ، ١٨٥
سعيد بن عبد الله ٢٧٤
سعيد بن عبيد الطائي ١٢٧ ، ١٢٨
سعيد بن المسيب ٣٧
سلمى بنت مالك الفزارية ٨٩
سليمان بن عبد الله البحراني ٢٧٤ ، ٢٧٥
سنان بن سلامة الهذلي ٢٣١
سهل بن حنيف ٧٤ ، ٩٣ ، ١١٥ ، ١٢١
سودان بن حمران ٤١
سيحان بن صوحان ١٣٦ ، ١٦٣ ، ١٦٦
السيوطي ٢١٨ ، ٢٣٥

(ش)

شأس العبدي ٥٩
شيث بن زبيعي ١٣٥
الشرقي بن القطامي ٢٤٧
شريح بن أوفى ١٥٦ ، ١٥٥
الشعي ١٧ ، ٤٩ ، ٢٥٦ ، ٢٨٢
شمشون ١٧٢
الشیطان ٢١٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦٤
شيمان الأزدي ٢٥٣

(ص)

الصاوي ١٠
صبرة بن شيان ١٠٢ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠
٢٥٤ ، ١٦٥
الصدیق = أبو بكر الصدیق
صعصة بن صوحان ١٦٣ ، ١٦٦
الصفوري ٢٦٢
صفية (بنت عبد المطلب) ١٣
صفية بنت الحارث ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩٢

١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ —
١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ،
١٧٦ ، ١٨١ — ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ — ٢١٠ ، ٢٥٠ ،
— ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ،
٢٧٦ ، ٢٩٣
الزركشي ١٦ ، ٢٠ ، ١٩٨
زفر بن الحارث ١٧٧ ، ١٧٨
الزخشمري ٨١ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١١١ ، ١٢٣ ،
١٨٥
الزهري ١٦ ، ٣٧ ، ٢٣١
زياد بن أبي سفيان ١٧ ، ٢٢٥ — ٢٢٧ ،
٢٣١ — ٢٣٣
زياد بن حنظلة ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٣
زيادة بن زيد ٢٢٨ ، ٢٢٩
زيد بن أرقم ٢٧٣ ، ٢٧٤
زيد بن ثابت ٤٦
زيد بن الخطاب ١٨٤
زيد بن صوحان ١٠٢ ، ١٣٤ — ١٣٦ ،
١٦٣ ، ٢٤٤
زيد بن علي (إمام الزيدية) ٢٨١
الزير ٢٥٨
الزيبلي ١٤
زينب بنت أبي سلمة ٦٦
زينب بنت جحش (أم المؤمنين) ٣٥

(س)

السائب بن مالك الأشعري ١٣٢
السامي (طابع الأغاني) ٢٨
سالم بن ثعلبة ١٥٥ ، ١٥٦
سراقة (في بيت شعر) ١٤٥
سرجس (غلام الزبير) ١٨٢
سعد = سعد بن أبي وقاص
سعد بن أبي وقاص ١٣ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
٤١ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
١٩٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧

(ظ)

ظفر (الجهني) ٩٢

(ع)

عائكة بنت زيد ١٨٣ ، ١٨٤ ،

عامر بن مطر ١٣٠

عبادة بن الصامت ٥٠

العباس بن عبد المطلب ٦٤ ، ٦٥ ، ١٩٩ ،

عبيد ابن أم كلاب = عبيد بن أبي سلمة

عبد خير ١٣٨

عبد الرحمن بن أبي بكر ١١٨ ، ١٩٥ ، ٢٢٠ ،

٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ — ٢٤١ ،

٢٤٧

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ١١٩ ، ١٥٨ ،

١٦٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧

عبد الرحمن بن زيد ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،

عبد الرحمن بن سليمان التيمي ١٨٢

عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ٤٥ ، ٨٥ ، ١١٦ ،

١١٩ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧

عبد الرحمن بن عساكر ٩٠

عبد الرحمن بن عوف ٢٤ ، ٢٥ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ،

٢٠٢

عبد الله بن أبي بكر ١٨٤

عبد الله بن أبي سرح ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٨ ،

عبد الله بن أرقم ٢٠١

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ١٩٥

عبد الله بن حكيم بن حزام ١٦٤

عبد الله بن خلف الخزاعي ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،

١٩٢

عبد الله بن الزبير ١٦ ، ١٩ ، ٤٠ ، ٤٢ —

٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢١ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ —

١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ٢٠٧ ،

٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ — ٢٤٢ ،

٢٥٠ — ٢٥٣ ، ٢٥٦

صهيب بن سنان ١١٥

صوحان ١٦٦

(ض)

الضحاك بن قيس النهري ٢٤١

ضرار بن الأزور ١٢

(ط)

طارق بن شهاب ٩٤

الطبرسي ٢٧٤ ، ٢٨٠

الطبري ٥ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ،

٤١ ، ٤٥ ، ٤٨ — ٥٧ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٦٦ — ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ — ٩٦ ،

٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ —

١١٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٦ — ١١٨ ،

١٢٤ — ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ — ١٥٣ ، ١٥٦ ،

١٥٩ — ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧١ ، ١٧٥ —

١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠ — ١٩٤ ،

١٩٦ ، ١٩٩ — ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ — ٢٤٢ ،

٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨١

طلحة (بن عبيد الله) ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ،

٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢ — ٥٧ ، ٦٨ ، ٧٠ —

٧٨ ، ٨١ — ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠١ — ١٠٤ ، ١٠٧ —

١١٣ ، ١١٥ — ١٢٦ ، ١٢٩ — ١٣١ ،

١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ — ١٥٤ ، ١٥٦ ،

١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٩ ،

١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٤ — ١٨٨ ، ٢٠٢ —

٢٠٤ ، ٢٠٦ — ٢١٠ ، ٢٥٠ — ٢٥٣ ،

٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ،

٢٧١ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٣

طلحة الطلحات ١٨٠ ، ١٩٠

طلحة الأسدي ٨٩

١٣٣ — ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ — ١٤٦ ،
١٥٠ — ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٨ ،
١٦٩ ، ١٧٣ — ١٧٥ ، ١٦١ ، ١٦٨ ،
١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٢ — ٢١٠ ،
٢١٢ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ —
٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٥ ،
٢٩١ ، ٢٩٣

عثمان بن مرة ٢٣٢

عدى بن حاتم ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ،
١٧٠

العرني (صاحب جل عائشة) ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٧ ،
عروة بن الزبير ١٦ ، ١٧ ، ٢٣٨ ،
عسكر (وانظر: جل عائشة) ٨٥ — ٨٧ ،
١٥٩ ، ١٧٣ ، ٢٩٤

الطاء بن يسار ٦٥

عكرمة ٢٧٣

علاء ابن الهيثم ١٥٥ ، ١٦٦

علقمة بن وقاص ١٥١ ، ١٥٢

على بن أبي طالب ٧ ، ١٧ ، ٣٨ — ٤٤ ، ٤١ —
٤٦ ، ٤٨ ، ٤٨ ، ٥٢ — ٥٧ ، ٥٩ — ٨٢ ،
٨٤ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ — ٩٩ ، ١٠٢ —
١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ ،
١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ — ١٣٨ ،
١٤٠ — ١٥٠ ، ١٥٢ — ١٥٦ ، ١٥٨ —
١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ — ٢٠٩ ،
٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٧ — ٢٢٥ ،
٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ —
٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
٢٦٤ — ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٧ — ٢٧٩ ،
٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣

عمار بن ياسر ٣٠ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٦٥ ، ١٠٦ ،

١٣٣ — ١٣٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ،

١٦٧ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٤٧ ، ٢٦٨

عمارة بن شهاب ٧٤

عمر (ابن أم سلمة) ٧٩ ، ١٢٩

عبد الله بن سبأ ٤٧ — ٥٣ ، ٥٧ ، ١٥٥ —
١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

عبد الله بن سلام ٩٤

عبد الله بن عامر ٢٩ ، ٣٥ ، ٥٠ ، ٧٧ —
٧٩ ، ١٠٠

عبد الله بن عباس ١٤ — ١٦ ، ٤٤ ، ٥٥ ،

٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ،

١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ،

١٦٢ ، ١٨٢ ، ١٩٣ — ١٩٥ ، ٢٠٩ ،

٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ،

٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧١ ،

٢٧٣

عبد الله بن عمر ١٥ ، ٨٢ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،

٢٣٤ — ٢٣٦ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ — ٢٦٠ ،

٢٦٧

عبد الله بن عمرو بن العاص ٢٢٨

عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعري

عبد الله بن مسعود ٢٩ ، ٣٨ ، ٣٩

عبد الملك بن مروان ١٨٤

عبد المنعم بن موهب المصري ٢٦٢

عبد الوهاب التجار ٧٤ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١١٣ ،

١٨١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

عبيد بن أبي سامة ٥٣ ، ٦٨ ، ٢٧٩

عبيد بن كعب ١٢٦

عبيد الله بن زياد ١٥٢ ، ١٦٠

عبيد الله بن عباس ٧٤

عتاب بن أسيد ٢٥٨

العتابي ٨٢

عتبة بن ربيعة ١٥٩

عثمان بن حنيف ٧٤ ، ١٠٣ ، ١٠٥ — ١١٤ ،

١١٦ — ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،

١٣٠

عثمان بن خلف ١٩٢

عثمان بن عفان ٧ ، ١٧ ، ٢٠ — ٤٨ ، ٤٦ ،

٥٣ ، ٥٠ — ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ — ٧٥ ،

٧٧ ، ٧٩ — ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٥ — ٩٨ ،

١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ — ١١٠ ، ١١٣ ،

١١٧ — ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

فاطمة بنت محمد رسول الله ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ —
٢٦٤ ، ٢١٨ ، ١٩٩ ، ٦٦
الفرزدق ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٨٧
الفضل بن العباس ٦٦

(ق)

القائم المنتظر ٢٧٤
القاسم بن محمد بن أبي بكر ٢٢١٨ ، ٢٢٢٢ ، ٢٤٨
القالبي ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩
قتيرة السكوني ٤١
قثم بن العباس ٧٦ ، ٩٣
قرظلة بن كعب الأنصاري ١٣٣
القعقاع بن عمرو ١٣٦ ، ١٤١ — ١٤٣ ،
١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٩ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣
قنبر (مولى علي) ٤٠
قيس بن سعد ٢١٩
قيس بن العقدية ١٠٧
قيصر ٢٣٤

(ك)

كسرى ٢٠٣
الكسعي ١٨٤
كعب بن حدير المنقري ١٧١
كعب بن سؤر ١٠١ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٦٩ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٤٥ ،
٢٥٥

كلثوم بن يحيى ٤١
كلثوم بن عمرو = العتاني
كليب الجرمي ١٤٣ ، ١٤٤
كيل بن زياد ٤٢
كنانة بن بشر ٢٢٠ ، ٢٢١
الكونتس أوف أكسفورد ١٠
الكونتس دي بورت ١٠

عمر بن الخطاب ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ — ٢٧ ، ٢٩ ،
٣٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ، ٦٥ ، ٧٤ ، ٨٣ ، ٩٧ ،
٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٢٩ ،
١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ،
١٨٤ ، ١٩٤ ، ١٩٩ — ٢٠٢ ، ٢٠٨ ،
٢١٤ — ٢١٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،
٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ،
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٢٩٣

عمر بن عبد العزيز ٢٦١
عمران بن حصين ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٥٠ ،
عمران بن طلحة ١٨٧
عمرو بن جرموز ١٨٢ ، ١٨٣
عمرو بن دلجة الضبي ١٧٧
عمرو بن ضرار الضبي ١٦٧
عمرو بن العاص ٣٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٢١٩ ،
٢٢٠ — ٢٢٢

عمرو بن عبيد ٢٦٧ ، ٢٦٨
عمرو بن عثمان بن عفان ٢٢٩
عمرو بن يثرب ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٥
عمير بن أبي الحارث ١٦٨
عمير بن الأهلبي الضبي ١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٤٥
عمير بن ضابئة ٤١ ، ٤٢
عمير بن عبد الله التميمي ١٠٠
عمير بن مرثد ١٢٥
عنبرة ٢٥٨

عوف بن قطن ١٧٥ ، ١٧٦
عيسى (عليه السلام) ٤٨
عيسى بن جعفر ٢٧٧

(غ)

الغافقي ٤١
غالب بن صعصعة ٢٥٥
غامد بن الحارث ١٨٤

(ف)

فاطمة بنت الحشرم ٢٢٨

محمد بن حزم الأنصاري ٤٠
محمد ابن الحنفية ٧٦ ، ١٢٩ ، ١٤٨ ، ١٦٠ —
١٦٤

محمد بن سيرين ٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
محمد بن طلحة ٤٠ ، ٤١ ، ٨٥ ، ١١٠ ، ١١٦
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٧٩ ،
٢٥٠ ، ١٨٥

محمد بن طلحة الشافعي ٩٩
محمد بن مسلمة ١٠٩
محمد محسن الأمين العاملي ٢٧٥ ، ٢٧٨ — ٢٨٠
٢٨٤ ، ٢٨٣

المختار (بن عبيد الثقفي) ٢٥٧
مخزومي ؟ ٣٢
مذموم = محمد بن أبي بكر

مرة بن أبي عثمان ٢٣٢
المرتضى ٢٧١ ، ٢٨٠
مرشد بن قيس ١٢٥

مروان بن الحكم ٣٥ ، ٣٨ — ٤١ ، ٤٥ ،
٤٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٧ ، ٨٢ — ٨٥ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ١٩٦ ، ٢٠٧ ،
٢١٨ ، ٢٣٤ — ٢٤٧ ، ٣٣٦

مسروق ٥٤ ، ١٣٣ ، ٢٤٨
المسعودي ٨٧ ، ٨٨ ، ١٣٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ ،
١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٤٥ ، ٢٨٠

مسلم (أحد جنود علي) ١٦٠
مسلم (صاحب الصحيح) ٢٤
مسلم بن عبد الله العجلي ١٦٣

مسلم بن عقبة المري ٢٤٢ ، ٢٥٣
المسور بن زيادة ٢٢٩
معاذ بن عبيد الله ٨٥

معاوية (بن أبي سفيان) ١٧ ، ٢٣ ، ٤٩ ،
٥٠ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ،
٨٣ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٨ ،
١٣٨ ، ٢١٨ — ٢٤٢ ، ٢٥١ — ٢٥٣ ،
٢٧١

معاوية بن خديج السكوني ٢١٩ ، ٢٢٢ — ٥٨
المغيرة ابن شبيمة ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٤ ، ٨٤ ،
٢٢٢ — ٢٢٥

٢٢٥ — ٢٢٢

(ل)

ليد ١٧

ليث = غالب بن صعصعة

(م)

مارية القبطية ٢٧٢ ، ٢٧٩

مالك (الإمام) ٢٦١

مالك بن الحارث = الأشتر

المبرد (صاحب الكامل) ٥٧ ، ٥٩ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،

٢٠٠ ، ٣٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦

مجاهش بن مسعود ١١٧

محمد رسول الله ١ ، ٦ ، ١٢ — ٣١ ، ٣٤ —

٣٧ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٦١ — ٦٦ ،

٦٩ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٩ — ٨١ ، ٨٦ ،

٨٩ — ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ،

١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ١١٧ ،

١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٤ — ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ،

١٤٤ — ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ،

١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩٠ ، ١٩٤ —

٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ —

٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ —

٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،

٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ،

٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ — ٢٦٥ ، ٢٦٩ ،

٢٧١ — ٢٧٤ ، ٢٧٦ — ٢٩٤

محمد بن أبي بكر ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٨ — ٤١ ،

٤٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،

١٤٤ ، ١٦٠ ، ١٧٨ — ١٨٠ ، ١٨٨ ،

١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ —

٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠

محمد بن أبي حذيفة ٢٦

محمد بن جعفر ١٣١

هشام بن عامر ١٠٦
هشام بن عبد الملك ٢٨١
هلال بن وكيع ١٤٩
هام بن الحارث النخعي ١٣
الهمذاني (صاحب كتاب البلدان) ٢٥٧ ، ٢٥٤
هند ابنة زيد بن مخزومة ٢٢٦
هند بن عمرو ١٣٧
هند بن عمرو المرادي ١٦٦

(و)

واصل بن عطاء ٢٦٧ ، ٢٦٨
الواقدي ١٨١
الوليد بن عقبة ٢٧ ، ٢٨ ، ١٠٥

(ي)

ياقوت الحموي ٨٩ ، ١٠٧ ، ٢٣٢
يحيى حميد الدين (إمام اليمن) ٢٠
يزيد بن عبدالله بن مرثد ١٢٥
يزيد بن قيس ١٦٤
يزيد بن معاوية ٢٣٣ - ٢٣٥ ، ٢٣٧ -
٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣
اليقوي ٨١ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٤
١٩٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ، ٢٤٨
يعلى بن أمية ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٦ ،
١٥١

المقتدر بالله ٢٧٧
المقطع العاصري ١٣٧
مكحول (غلام الزبير) ١٨٢
المنجاب بن راشد ١٤٩
المنذر بن الجارود ١٠١
منية (أم يعلى بن أمية) ٧٤
موسى (عليه السلام) ٢٧٥
موسى بن طلحة ١٢٢
الميداني ١٧١

(ن)

ناثلة بنت الفرافصة ٤٠ ، ٤١ ، ٧٥
النبي = محمد رسول الله
نجدة بن عاصم الحروري ١٤
نسبية (الأنصارية) ١٣
النشاشيبي ٢٦٩ ، ٢٧٤
نشث ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٨ ، ٨٠ ، ١٦٨ ،
١٧٤ ، ٢٧٢
النعمان بن بشير ٢٣

(هـ)

هاشم بن عتبة ١٣٢ ، ١٦٣
هدبة بن الحشرم ٢٢٨ ، ٢٢٩
هرقل ٢٣٤

٢ - فهرس الجماعات

١٢٢، ٩٠، ٨٩، ٨٣، ٨٢، ٧١
٢٥٠، ٢٣٨، ٢١١، ٢٠٧، ١٦٩
٢٦٥ - ٢٦٣، ٢٦١، ٢٥٦، ٢٥٣
٢٧١ - ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٧٩

الأمويون = بنو أمية

الأنبياء ١، ١٩، ٤٨، ٦٥، ١٤٠
الأنصار ٣٠، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤١، ٥٢
١٩٩، ١٥٧، ١٢٩، ١٢١، ٩٢، ٩٠
٢٠٣، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٦، ٢٢٧
٢٥٢، ٢٨٥

أهل البصرة = البصريون

أهل البيت (وانظر: آل محمد) ٢٧٢، ٢٧٣
٢٧٥، ٢٨١

أهل الحجاز (وانظر: الحجاز) ٢٤٢

أهل الذمة ٥٠

أهل السنة ٢٥٩ - ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٦٩
٢٧٠، ٢٧٦ - ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢
٢٨٤

أهل الشام ١٢٤، ١٢٦، ٢٢٥، ٢٢٦
٢٣٧، ٢٥٣

أهل الشراع = المشركون

أهل الشورى: ٧٠، ٨٣، ١٠٢، ١٠٣
١٥٤، ٢٠٢

أهل العراق (وانظر: العراق) ١١٣، ٢٤١
٢٤٢

أهل الكتاب ٥١

أهل الكوفة = الكوفيون

أهل المدينة ٣١، ٣٢، ٣٤، ٤٥، ٥١، ٦٨
٦٨، ٦٩، ٧٨، ٩٢، ٩٣، ٩٥
١٠٤، ١١٤ - ١١٦، ١٢٤، ١٨٦
١٨٧: ٢٠٤، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٢٩

أهل مصر ٣٨، ٧١

أهل مكة ٩٢، ١٨٧، ٢٠١

أوس ١٦٥

(أ)

آل أبي قحافة ٣٠

آل الحكم ٣٦

آل لأى ١٨٤

آل محمد (وانظر أهل البيت) ٦٥، ٢٦٤
٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٥، ٢٧٦

الأنمة ١٣٧

أبناء السوادوات ١٥٧

الأزد ١٢٥، ١٤٩، ١٥٢، ١٦٢، ١٦٥
١٦٩، ١٧٤ - ١٧٦، ١٨٦، ١٩١
١٩٢، ٢٥٣

أزواج الرسول = أمهات المؤمنين

أسد * ١٢٧، ١٨٤، ١٩٤

أسرة عائشة ٢٤٧

الأصحاب، أصحاب رسول الله = الصحابة

أصحاب الجمل ٨٢، ٩٠، ٩٢، ١٠٠، ١١١
١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢١
١٢٦ - ١٢٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥
١٤٨، ١٤٩، ١٥١، ١٦١، ١٦٤
١٦٦ - ١٦٨، ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠
١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩١، ٢١٠
٢١١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٠
٢٦٢ - ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١
٢٨٠

أصحاب السير ١٥٧

أصحاب الشورى = أهل الشورى

أصحاب النخيلة (من الخوارج) ٢٦٦

الأعراب ٣٤، ٧٣، ٧٧

الإمامية ٢٧٥، ٢٨٠

أمهات المؤمنين ١٦، ١٨ - ٢٢، ٢٤، ٢٥
٢٧، ٣٠، ٤٥، ٥٩، ٦١، ٦٥، ٦٦

(*) انظر التنبيه الثالث في ص ٢٩٦ .

بنو العيص ٣٦
بنو غفار ٣٨
بنو غم ١٥٣
بنو كعب ١٤٥
بنو ليث ٦٨
بنو مخزوم ٣٨
بنو ناجية ١٦٥
بنو هاشم ٤٠، ٤٠٥، ٦٤، ٦٥، ١٥٧، ١٨٢،
٢٧٠، ٢٥٢ - ٢٥٠، ١٩٩

(ت)

التابعون ٢٤٨، ١
تميم ١٧، ١٣٤، ١٤٣، ١٨٦، ٢٥٥، ٢٥٦

(ث)

ثقيف ٨٤

(ج)

جرات العرب ١٦٥
الجلدون = أصحاب الجمل
الجند (يا فريقية) ٣٦
جهينة ٩٢، ١١٠

(ح)

الحواريون (واظنر: الخورج) ٢٥٣
الحنفية ٢٦١

(خ)

خزاعة ١٤٥
الحلفاء الراشدون ١٤، ١٧، ١٨، ٥٢، ٢٣٣،
٢٦٤، ٢٥٩
الخوارج ١٨٨، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٥ - ٢٦٧،
٢٨٢، ٢٨٠، ٢٧٠

(د)

دهاة العرب ٨٤، ٢٢٢

(ب)

ناهلة ١٠٤
بجيلة ١٣
البصريون ٣٣، ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣،
١١٣، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢١،
١٢٤، ١٢٦، ١٤٠ - ١٤٥، ١٤٨،
١٥٨، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٩، ١٨٦،
١٨٧، ١٩٣، ٢٠٧، ٢٤٤، ٢٥٤ -
٢٥٧

بكر بن وائل ٩٧، ١١٩، ١٢٢، ١٢٧،
١٤٣، ١٤٥، ١٦٥، ١٨٦،
البكرية (من أهل السنة) ٢٦٩
بنو أبي العاص ٣٦

بنو أمية ٣٢، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٥٧،
٦٧، ٧٠ - ٧٢، ٧٧، ٧٨، ٨٢،
٨٤، ٩٢، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٨٥،
٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٦، ٢٣٧،
٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٠ - ٢٥٢، ٢٧٠،
٢٧١

بنو تميم ٣٩، ٩٨، ١٦٩، ٢٤٥،
بنو جحج ١٨٦
بنو الحارث بن كعب ١٦٥
بنو حرب ٣٦، ٢٢٦،
بنو رقاش ٢٢٨
بنو زهرة ٣٨
بنو سعد ١٠٩، ١٢١، ١٢٢، ١٤٨، ١٤٩،
١٨٤، ٢٥٧

بنو سهم ١٨٤
بنو شيبان ١٣٠
بنو العاص ٣٦
بنو عامر ١٦٥، ١٧٧، ٢٢٨،
بنو العباس ٢٥٧، ٢٧٠،
بنو عبد الدار ١٩٠
بنو عبد المطلب ١٥٣، ١٨١،

بنو عبد مناف ٨٤، ١٨٦، ٢٥١،
بنو عثمان بن مالك بن عمرو بن تميم ١١١
بنو علي (بن أبي طالب) ٢٥٧

٢٤٦ ، ٢٥٩ — ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ،
٢٦٩ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ — ٢٧٧ ، ٢٨٣ ،
٢٨٥ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣

الصهيونيون ٢٩٠

(ض)

ضبة ١٤٩ ، ١٦٢ ، ١٦٥ — ١٦٨ ، ١٧٥ ،
— ١٧٧ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٢٤٥

(ط)

طي ١٢٧ ، ١٣٧

(ع)

عبد القيس ١١٧ — ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
١٤١ ، ١٦٣ ، ١٩٥

عبس ٧٤

عبيد (إخوان) ٣٤ ، ٢٦٢

العجم = الفرس

عدى ١٥٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ١٨٥ ،
٢٢٦

العرب ١٢ — ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
٨٤ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢٢ ،

١٢٧ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ،

١٥٤ ، ١٥٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ،

٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٣

عربنة ٨٦

العشرة المبشرون بالجنة ٢٧ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ،
١٠٢ ، ١٨٤

علماء النفس ٢٨٧

عمرو (قبيلة) ١٤٩

العمرية (من المعتزلة) ٢٦٨

(غ)

غسان ١٦٥

دول الاستعمار ٩٦

دولة العثمانيين ٢٧٠

(ر)

الرافضة ٤٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

الرياب ١٢٥ ، ١٤٩ ، ٢٥٧

ربيعة ١١٨ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ،
١٦١ ، ١٦٣

الرواة ١٩ ، ٨٥ ، ١٥٣ ، ١٨٢ ، ١٨٣

الروم ٤٨ ، ٥٠ ، ٢٠٨ ، ٢٣٤ ، ٢٩١

الرومان ٢٣٣

(ز)

الزط ١١٦ ، ١٢٥

زيد (قبيلة) ١٤٩

الزيدية ٢٨١

(س)

السبثيون ٣٢ ، ٧٢ ، ٧٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،
١٦٢ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ — ٢٠٨

السياججة ١١٦ ، ١٢٥

(ش)

الشافعية ٢٦١

شيب ١٦٥

الشيعة ٢٦٨ — ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٤

(ص)

الصبيان ١٣ ، ١٤

الصحابة ١ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ،
٢٤ ، ٢٦ — ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ —

٤١ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١١٥ ،

١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤١ ،

١٤٦ ، ١٥٩ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ —

٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٧ ،

٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٣ ،

المحدثون ٨٨، ٦ — ٢٨٤، ٩٠

المدنيون = أهل المدينة

مذبح ١٧٤

مراد ٦٦

المرتدون ١٢٧

المرجئة ٢٧٠، ٢٦٦

المرسلون ١٤٠، ١

المشركون ١٣، ٦٩، ١٢٣

مضر ٧٥، ١٠١، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٨٦، ١٨٠، ١٧٠، ١٦٣، ١٥٨

المعتزلة ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٨٠

للملائكة ٢٣، ٢٦٤

المحدثون ٣٦

ملوك الطوائف ٢٧٠

المنافقون ٢٣، ٦٢، ١٣٩، ١٨٨

للمهاجرون ١٣، ٣٠، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٥٢

١٥٧، ١١٧، ٩٢، ٩٠، ٨٤، ٥٢

١٧٣، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣

٢٠٥، ٢١٢، ٢٣٧، ٢٨٥

مهرة ١٧٩

(ن)

الناصبة ٢٧٧

النخع ١٣، ٤٢، ٢٥٧

النساء ٩ — ١٦، ١٩، ٢٣، ٢٥، ٢٨

٦٣، ٨٠، ٨١، ٩٨، ٢٤٤

(هـ)

هذيل ٣٨

همدان ١٦٤، ١٧٤، ١٩٥، ٢٥٥، ٢٥٦

هنب ١٦٥

(و)

الواصية (من المعتزلة) ٢٦٨

الوضاعون ٨٩

(ي)

اليهودا ٤، ٦٢، ١٠٩، ١٢٣، ١٥٧، ٢٨٢

(ف)

الفرس ١٣، ٩٧، ١٤١، ٢٨٢

فرنسا ١٠

الفقهاء ١٤، ١٦٦، ٢٨٥

(ق)

قتلة عثمان ١٣١، ١٣٤، ١٤٢، ١٥٣، ١٥٥

١٦٢، ١٨٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٤٣

٢٥٣، ٢٦٠

القراء (من الصحابة) ٢٩، ٣٥، ٢٨٥

القرامطة ٤٩

قريش ١٥، ٢٦، ٣٥، ٤٢، ٥١، ٧٢

٧٤، ٧٩، ١٠٣، ١٠٨، ١١١، ١٣٥

١٥٣، ١٥٧، ١٦١، ١٦٤، ١٦٩

١٧٦، ١٨٥ — ١٨٧، ٢٠٠، ٢٠٢

٢٠٣، ٢١٦، ٢٢٠، ٢٢٨ — ٢٤٢

٢٤٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٧٦

قرظية ١٠٩

القصارون ١٧٠

قيس (قبيلة) ٧٥، ١٢٥، ١٨٤، ١٨٦

(ك)

كفار قريش ١٥٧

كنانة ١٨٤

الكوفيون ٣٣، ٧١، ٩٤، ١٣٠ — ١٣٢

١٣٤، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٥

١٤٧، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٤

١٨٧، ٢٠٧، ٢٢٦، ٢٤٥، ٢٥٤ —

٢٥٧

(م)

المؤرخون ٣، ٦، ٤٦، ٨١، ٨٨، ١٨٥

١٩٥، ٢٠٢ — ٢٠٤

مجاشع ٢٥٥

المجوس ٢٨٢

٣ - فهرس الأماكن

البيت (الحرام) ٢٤، ٦٢، ٦٨، ٨٣، ١٠٥،

٢٢١

بيت المال ٣٠، ٧٠

(ت)

تبوك ٧٤

تهامة ٨٣

(ج)

الجزر البريطانية ١٠

الجزيرة (العربية) ٢٠١، ٢٨٢، ٢٩٠

الجلحاء ١٤٩

جولاء ١٣٥، ٢٠١

الجنة ٤٦، ٧٦، ٨٨، ٩٠، ١٠٢، ١٢٢،

١٣٦، ١٤٧، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٠،

١٩٨، ٢٤٧، ٢٦١

(ح)

الحجاز ١٥، ٤٨، ٤٩، ٧٢، ٧٧، ٩١،

١٣٨، ١٥٤، ١٦٩، ١٧٩، ١٩٠،

٢٠٣، ٢١٤، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٣٦،

٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٣

الحجر ٦٨

حجرة عائشة ١٧٣، ٢٢١، ٢٣٥، ٢٦٣

الحرة (حرة المدينة) ٢٠٠

الحسينية (مطبعة) ٣٣

الحفير ١٠٤

حلوان (بالعراق) ٧٤

الحووب ٨٠، ٨٥ - ٩٠، ٩٧، ٢٧٥، ٢٧٩

(خ)

خان عاصم ٢٧٧

خراسان ٢٨٢

(أ)

الأبواء ١٢٣

أحد ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦١

أذربيجان ٢٠٠

أرمينية ٢٠٨

الأستانة ٢٧٣، ٢٩٢

أفريقية ١٧٣

أمريكا ١١، ٢٨٧

الأندلس ٢٩١

إنكلترا ٥٠

أوروبا ١١، ٢٨٧

أوطاس ٨٤، ٩٠

(ب)

بحر الظلمات ٢٩٣

البحر المتوسط ٤٨

البحرين ٧٩

بدر ٢٩، ٣٩، ٤١، ١٥٩، ٢٥٢

برائا ٢٧٧

البصرة ١٧، ٣٥، ٤٣، ٤٨، ٥٠، ٥٧،

٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٨٠ - ٨٦،

٩٠ - ٩٢، ٩٤، ١٠٠، ١٠٣ - ١٠٧،

١١١ - ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٩،

١٢١ - ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩،

١٣٠، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠ - ١٤٢،

١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٩ - ١٦١،

١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٩،

١٨٠، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠،

١٩١، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٩،

٢١٠، ٢٣٢، ٢٤٣ - ٢٤٥، ٢٥٢،

٢٥٦ - ٢٥٨، ٢٧٥

بغداد ٢٧٧

البقيع ٢١١، ٢١٨

البلد الحرام = مكة

(ش)

شارع داوتنج ١٠
الشام ٤٨ — ٧٤، ٧١، ٥٠ — ٧٨، ٧٦
٤٢٢٥، ٢٠٨، ١٣٨، ١٢٤، ٩٤، ٩٢
٢٧٦، ٢٥٣، ٢٤٠، ٢٣٧، ٢٢٦
٢٨٢، ٢٧٨

(ص)

صفين ٨٤، ١٢٨، ١٦٩، ٢٣١، ٢٥٣
٢٩١، ٢٦١، ٢٥٩
الصلصل ٥٥
صنعا ٧٤، ٢٨٢

(ض)

الضمار ٩١

(ط)

الطائف ٣٥، ٨٤

(ع)

العراق ٢٨، ٧٢، ٧٤، ٧٨، ٨٣، ٨٠٩
٢٠٤٦، ٢٠٣، ١٥٤، ١١٤، ١١٣
٢٤٧، ٢٣١، ٢١٤، ٢٠٩، ٢٠٨
٢٨٢، ٢٤٢

(غ)

الغار (في حديث الهجرة) ٢٦٤

(ف)

فارس (وانظر الفرس) ٥٠٠، ٢٠٣، ٢٠٨
٢٨٢
فدك ٦٥
الفرات ١٣٥، ٢٥٧
الفرديوس ٨٩

خربنا ٢١٩
خندق (البصرة) ١٥٩
الخورنق ٢٢٦
خيبر ٦٥، ٨٤، ٢٠٣

(د)

الدار (دار عثمان بن عفان) ٢٢، ٢٤، ٤٠
٢٥٣، ٢٣٦، ٢١٩، ٤٢
دار الرزق (بالبصرة) ١١١، ١١٨، ١١٩
دار الكتب الظاهرية (بدمشق) ٢٠، ٢٣، ٣٣
٢٦٢، ٩٠، ٣٤
دار الندوة ١٥٧
دار الهجرة = المدينة
الدباغين (محلة بالبصرة) ١٠٩
دجلة ٤٦
دمشق ٢٠، ٤٨، ٥١، ٧٥، ٢٢٦، ٢٢٨
٢٧٥، ٢٦٢، ٢٥٢، ٢٣٥

(ذ)

ذات عرق ٨٣، ٩٠، ٩٤
ذوقار ٩٧، ١٢٦، ١٢٩ — ١٤٠، ١٣٢
١٥٥، ١٤٣

(ر)

الربذة ٩٤، ٩٥، ٩٧، ١٢٧ — ١٢٩، ١٣١
روسيا ٤، ٢٨٧
روما ٣

(ز)

الزاوية ١١١، ١٤٨
الزاوية (بالبصرة) ١٤٨، ١٥٢

(س)

ساباط (المدائن) ٤٩، ٢٨٢
السدير ٢٢٦
سرف ٦٨

٢٢٧-٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦

٢٥١، ٢٥٢، ٢٧٣

مراكش ٢٩٢

الربيد ١٠٧، ١٠٨، ١١٢

صراج عنراء ٢٢٨

المسجد = البيت الحرام

مسجد البصرة ١٠٦، ١٠٩، ١١٦، ١١٧

١٨٧، ١٩١

مسجد الحدان ١٥٢

مسجد الرسول (مسجد المدينة) ١٣، ٢٨

٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٨، ٧٠، ١٠٤

٢٠١، ٢٢٤

مسجد الكوفة ١٣٣، ١٣٤، ١٣٨، ١٣٩

١٨٩، ٢٢٥

المشرق ٢٩١، ٢٩٣

مصر ٢٦، ٢٧، ٣٠، ٣٣، ٣٨، ٣٩

٤٣، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٨، ٧٠، ٧٤

٢٠٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٢، ٢٧٦

٢٨٢

المطبعة الأزهرية (مصر) ٢٧، ٤١

مطبعة الاستقامة (مصر) ١٣، ٣٣، ٣٦، ٢٠٠

مطبعة الترقى (دمشق) ٢٧٥

مطبعة الحلبي (مصر) ٢٦٧

المطبعة الخيرية (مصر) ٦٥

المطبعة الرحمانية (مصر) ٥٩، ١٦٥، ١٨٤

المطبعة السلفية (مصر) ١٨١

المطبعة العاصرية (بالأستانة) ٢٧٣

مطبعة المعارف (مصر) ٢٣٢

مطبعة النيل (مصر) ٨٢

المغرب ٢٦، ٢٧٢، ٢٩١، ٢٩٢

مقبرة بني حصن (بالبصرة) ١١١

مقبرة بني مازن (بالبصرة) ١١١

مكة ٣٤، ٣٥، ٤٤، ٥٥، ٥٩، ٦٧

٦٩، ٧١، ٧٤، ٧٧، ٧٩، ٨٣

٨٥، ٩٢، ٩٣، ١٠٤، ١٤٩، ١٥٣

١٥٤، ١٨٦، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠١

٢٥٣، ٢١٦، ٢١٩، ٢٣٨، ٢٤١

٢٠٦، ٢٧٩

الفرضة (بالبصرة) ١٥٢

فسطاط (مصر) ٢٢٠

فليج ٩١، ١٠٤

(ق)

القادسية ١٣، ١٠٢، ٢٠٣

قبر رسول الله (واظن حجرة عائشة) ٢٤٧، ٢٦٣

قديد ٦٤

قصر عبيد الله بن زياد ١٥٢، ١٦٠

(ك)

الكعبة = البيت الحرام

الكوفة ٢٧، ٢٨، ٤٢، ٤٣، ٤٦، ٤٨

٥١، ٧١، ٧٣، ٧٤، ٧٨، ٩٤، ٩٥

٩٧، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٩، ١٣١

١٣٣، ١٣٨، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٥

١٤٧، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٥

١٧٤، ١٧٥، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٧

٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٧

٢٥٦، ٢٥٨، ٢٨١

(ل)

لندن ٣

لیدن ٣٣، ٥٩، ٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٨

١٧٠، ١٨٧، ١٩٨، ٢٤٥، ٢٥٣

٢٦٦، ٢٦١

(م)

المدينة ١٥، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٢، ٣٥

٣٨، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٥١، ٥٢

٥٥، ٦٣، ٦٧، ٧٠، ٧٥، ٧٧

٨٢، ٨٣، ٨٥، ٩٢، ٩٥، ٩٧

٩٨، ١٠٤، ١٠٧، ١١٠، ١١٥

١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨

١٣٢، ١٣٥، ١٥٤، ١٨٦، ١٩٥

١٩٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٨

٢١٠، ٢١٤، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٢

التهروان ٢٩١

(هـ)

الهند ٢٨٢، ٢٥٢، ٢٣١

(و)

وادي السباع ٢٥١، ١٨٣، ١٦١، ١٤٩

واسط ٩٧، ٩١

(ي)

الجماعة ١٢٤، ٩١

اليمين ١٦٣، ١٤٨، ١٠١، ٧٨، ٧٤، ٣٤

١٨٦، ١٦٤

المكتبة العربية (بدمشق) ٢٦٢

المكتبة الهاشمية (بدمشق) ٢٠

المنبر (بمسجد المدينة) ٢٣٤، ٧١

منبر دمشق ٧٥

المنكدر ٩١

مقي ٣٤

(ن)

النار ٢٦٨، ٢٣٩، ٢٠٠، ١٨٣، ٤٦

نجد ٩١، ٨٣

النخيلة ٢٦٦

نهر الأبله ٢٣٢

نهر مرة ٢٣٣، ٢٣٢

٤ - فهرس الأيام

— ٢٦٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦١ ، ٢٥٩ ، ٢٥٧

، ٢٧٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٧٠ ، ٢٦٧

٢٩١ ، ٢٨٥ ، ٢٨١

يوم الجمل الأصغر ١١٢ ، ١٨٦ ، ١٩٩

يوم الحكيم ٢١٥

يوم السقيفة ١٩٩

يوم الفتح ٣٥ ، ٢٧٩

يوم القادسية ١٣ ، ١٠٢ ، ٢٠٣

يوم قرظة ١٠٩

يوم النحيب ٨٢ ، ٨٣

يوم النهروان ٢٩١

(ب)

بيعة الرضوان ٢٩

(ي)

يوم الجمل ٤١ ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٥

، ٦٦ ، ٦٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ١١٢

١٢٧ — ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨

، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦

— ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠

٥ - فهرس المصادر

(ب)

البداية والتاريخ = تاريخ يعقوبى (١)
بلاغات النساء ٦٩، ٨٢، ١٠٥، ١٢٣، ٢١٥،
٢٢٤، ٢١٧
البيان والتبيين ١٠٥، ٢٣٠

(ت)

تاريخ ابن عساكر = تاريخ دمشق
تاريخ الإسلام : الخلفاء الراشدون (للتجار) ٧٤،
٢٠٨، ١٨١، ١١٣، ٩٦
تاريخ الأمم الإسلامية (للخضرى) ٢٣٢
تاريخ الخلفاء (للسيوطى) ٢١٨
تاريخ دمشق لابن عساكر (وانظر : تهذيب تاريخ
دمشق لابن عساكر) ١٧، ٢٣، ٣٤، ٤٩،
٢٤١، ٢٣٥
تاريخ الطبرى (١) = الطبرى (فى فهرس الأعلام)
تاريخ يعقوبى (١) (وانظر : يعقوبى فى فهرس
الأعلام) ٢٧، ٢٩، ٣٠، ٨١، ١٠٣،
٢٤٨، ٢٢٨، ٢١٨
التبصير فى الدين ٢٦٥ - ٢٦٨
التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان ٣٤، ٥٨،
٢٢٢
تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ١٧، ٤٢،
٤٩، ٥١، ٨٣، ١٠٩، ١٥١، ١٥٤،
١٧٣، ١٨٢ - ١٨٧، ٢٠٢، ٢٣٢،
٢٧٣، ٢٥٥
تيسير الوصول ١٤، ١٣٦، ٢٦٠، ٢٦١

(أ)

ابن حزم الأندلسى ورسالته فى المفاضلة بين الصحابة
١٣٦، ٢٧٣
الإتقان ٢٣٥
الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ١٦،
٢٠، ٢٤، ٦٦، ١٩٨، ٢٣١، ٢٣٥،
٢٣٨، ٢٤٧، ٢٣٨، ٢٧١
الاحتجاج ٢٧٤
الأخبار الطوال ٢١٠
أخبار النساء ١٢٣
الأربعين فى مناقب أمهات المؤمنين ٩٠
أساس البلاغة ١١١
الاستيعاب ٨٨
أسد الغابة ٣٥
الإسلام الصحيح ٢٦٩، ٢٧٤، ٢٧٥،
الإسلام والمرأة ٥٠، ٧٠، ١٢، ١٣، ١٨، ١٩،
٢٥، ٢٤٩، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٨،
٢٨٠، ٢٨٠
أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ١٠٧
الإصابة ٣٥، ٧٤، ٢٢٢، ٢٤٧
الأغاني ٢٨، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٥٦
الأمالى (للقالى) ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠
أملى المرتضى ٢٧١
الإمامة والسياسة ٦٨، ٨٢ - ٨٤، ٩٩،
١٠١، ١٠٦، ١٠٩، ١٥٤، ١٨١،
١٨٤، ٢٠٩، ٢٣٧، ٢٣٨
الإمتاع والمؤانسة ١٧، ١٨، ٦٩، ٢٥٣، ٢٦١
الأموال (لابن سلام) ٦٥
الانتصار ٢٦٧، ٢٦٨
أنساب الأشراف ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٩، ٣٠،
٤٤، ٤٥، ٥٤، ٥٨
أنوار العلوية والأبرار المرتضوية ٩٩، ١٨١

(١) الأصل أن تذكر الأرقام هنا لولا أن
شهرة الكتاب غلبت بالاسم الثانى كما جرى فى تاريخ
الطبرى وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابن عساكر .. الخ

٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٠٢ ،
١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ،
٢٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
٢٨٠

صحيح البخارى = الجامع الصحيح
صحيح الترمذى ٢٦٠
صحيح مسلم ٢٧٣ ، ٢٩٢

(ط)

الطبقات (الكبير) لابن سعد ٣٥ ، ٦٦ ،
٧٤ ، ٢١٠ — ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٤٧ —
٢٤٩

(ع)

العقد الفريد ٢٧ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٥٤ ،
٥٦ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٨١ ، ١٠٢ ،
١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،
١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٦ — ١٨٨ ، ١٩٤ ،
٢٠٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ — ٢٥٢ ، ٢٧٥ ،
عيون الأخبار ١٥٩ ، ٢١٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ،
٢٥٨

(ف)

الفائق للمخضرى ٨١ ، ٨٨ ، ١٢٣ ، ١٨٥ ،
فتوح البلدان (للبلاذرى) ٢٣٢
فجر الإسلام ٢٥٦
الفرق بين الفرق ٢٦٥
الفصل (لابن حزم) ٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ — ٢٦٧ ،
٢٧٠

في السجلات ١٠
في المفاضلة بين الصحابة (وانظر: ابن حزم ...) ٢٠

(ق)

القاموس المحيط ٨٨ ، ١١٠ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٣٤ ،

(ج)

الجامع الصحيح للبخارى (وانظر: البخارى) ١٩٨ ،
٢٠٢ ، ٢٦١

جمع الجواهر في الملح والنوادر ٢٤٧
جمهرة رسائل العرب ٩٩ ، ١٠٢ ،
جمهرة خطب العرب ٢٥٤

(د)

دلائل الخيرات ٢٧٦

(ر)

روح المعاني ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
روضة المحبين ٢٣٠ ، ٢٥٦ ،
روضة الناظر في أخبار الأوائل والأواخر ٢١٨
رياض الصاغين ٢٠٢
الرياض النضرة ٢٥

(ز)

الزبد ٢٦١
زهر الآداب ٥٩ ، ١٦٥ ، ١٨٤

(س)

السط الثمين ٦٢ ، ١٣٦ ،
سير النبلاء ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٦٢ ،
٢٣٨ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ١٨٨ ، ٦٣
السيرة الحلبية ٢٧٩

(ش)

شرح أدب الكاتب للجوالىقى ١٧١
شرح ديوان جرير ٢٥٥
شرح شواهد الغنى ١٨٣
شرح الزيلعى على متن الكنز ١٤
شرح نهج البلاغة ٤٣ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

| | |
|---------------------------------------|---|
| مجلة الرسالة ١٠ | ٤٣٥ ، ٢٩ ، ٢٢ ، ١٥ ، ٥ |
| مجلة (المختار من ريدر زدايجست) ١١ | ٤٨ ، ٦٢ ، ٨٠ ، ١٠٨ ، ١٢٣ - ١٢٥ |
| مجمع الأمثال ١٧١ | ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ |
| مجمع البيان ٢٨٠ | ١٨٥ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٣ ، ٢٦٣ |
| مجموعة المتون ٢٦١ | ٢٧٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ |
| المحاسن المجمع في الحلفاء الأربعة ٢٦٢ | |
| المراح في الزواج ٢٤٧ | (ك) |
| صروح الذهب ٨٧ ، ١٣٣ ، ١٨١ ، ١٨٤ | الكافي للكوفي ٢٧٦ |
| ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٨ ، ٢٤٥ ، ٢٨٠ | الكامل (لابن الأثير) ١٥٢ ، ١٢١ ، ٩٣ ، ٥ |
| المستدرک (للحاكم) ١٦ | ١٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٢ |
| مسند أبي داود ١٢ ، ٢٩٤ | الكامل (للمبرد) ١٦٣ ، ١٦٢ ، ٥٩ ، ٥٧ |
| مسند أحمد ١٢ ، ١٥ ، ٢٢ - ٢٤ ، ٦٥ | ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٠ |
| ٨٨ ، ١٧٢ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ، ٢٣٠ | ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦ |
| ٢٤٥ - ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٩٢ | كتاب البلدان (للهذلي) ٢٥٧ ، ٢٥٤ |
| مطالب السؤل في مناقب آل الرسول ٩٩ | كتاب التنبيه ٢٢٩ |
| المعارف (لابن قتيبة) ٢٣٢ | كتاب الله = القرآن الكريم |
| معجم البلدان ٨٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١٠٧ | الكثر ١٤ |
| ٢٣٢ | (م) |
| مفتاح الأفكار ٢١٥ | مأساة فرنسا ١٠ |
| مفتاح الجنان ٢٧٦ | متن السنوسية ٢٦١ |
| مقاتل الطالبيين ٢٧٩ | متن الشيبانية ٢٦١ |
| مقدمة في أصول التفسير ٢٧٥ | |
| المنتظم ٢٧٨ | |

فهرس الموضوعات

- ٣ - بين يدي الكتابة
تحرير
٩ - المرأة والسياسة
١٥ - مطور في التعريف بعائشة

الباب الأول

— في عهد عثمان

٢١ - تحرير عمل السيدة في عهد عثمان — بروزها بفتة في ميدان السياسة ٢٢ هي وعثمان : إجلاها عثمان قبل خلافته — ماروت في حب النبي لعثمان ، حياء النبي منه ، الرسول يناجيه ويوصيه ، إحسان عثمان إلى بيوت النبي ، سفارته لأزواج النبي إلى أبي بكر ، حجه بهن في عهد عمر .

٢٦ - الفصل الأول : كيف رادت العمراقات بين السيرة وعثمانه
رعايته أخوا عائشة في خلافته من أجلها — ٢٧ نقضه عطاءها — تأييدها وفد مصر — تأييدها وفد الكوفة وغضبها على عثمان — عنف عائشة وغضب عثمان — ٢٩ غضبها لابن مسعود — ٣٠ غضبها لعمار ، اشتداد الغضب بعثمان — أثرها في تحشيش الصدور عليه .

٣٢ - الفصل الثاني : اهتمام عثمانه وتتابع الموارث
غاية الناقلين — ٣٣ دفاع عثمان — ٣٧ تتابع الحوادث حتى مقتل عثمان — رواية سعيد بن المسيب .

٤٣ - الفصل الثالث : في أبطال الفتنة الحقيقية ونصيب عائشة فيها
مبالغة الأخباريين في وصف معارضتها لعثمان — ٤٥ استنجد عثمان بعائشة لما حوصر — بينها وبين مروان — ذواليد الطولى في فاجعة عثمان ، ابن سبأ البطل الخفي الخيف : دسائسه في ميادين مختلفة — بته الفساد في الأقطار — ٥١ لإحكامه المؤامرة .

٥٣ - الفصل الرابع : في دفع اتهامات فهاطئة
١ - اتهامها بتلقيبه وتكفيره والأمر بقتله ٢ - اتهامها بكتابة الكتب إلى الأمصار ٣ - اتهامها بتمهيد الأمر لطلحة — أفكوهة مؤرخ حزبي — ٥٦ كلمة لإنصاف .

الباب الثاني

مواقفها في عهد علي حتى يوم الجمل

- ٦٠ - كيف استقبل علي خلافته
٦١ - الفصل الأول : في طبيعة عهد تقيتها الماضية
ما كان بين علي وعائشة — ١ - استيائها من التزامه جانب ضرائرها — ٢ - موقفه

منها في حادث الإفك ٣ — غيرتها منه على الرسول ٤ — استياؤها من موقفه في بيعة أبيها
٥ — تضايقها منه .

٦٧ — الفصل الثاني : موقفها مع بيعة علي والحالة العامة

شدة وقع المبايعه عليها — ٦٨ دخولها مكة وإعلانها المعارضة — ٧٠ موقف طلحة — إحباط
على مسعى طلحة أيام عثمان — ٧١ موقف الزبير — موقف بني أمية — ٧٢ مواقف الناس
من بيعة علي — أمر الثأر — ٧٣ الحالة في الأمصار — عزل ولاة عثمان — ٧٤ خلاف معاوية —
تجهز على لفرزه .

٧٧ — الفصل الثالث : عائشة في طريقها إلى البصرة

الانتثار على الخروج إلى البصرة — بعض الإسفار عن أعراض بني أمية — ٧٩ نصح أم سلمة
لعائشة — ٨٢ يوم النجيب — الجماهير في طريقها إلى البصرة — ٨٤ ثأركم على أنجاز
الإبل — اعتقال ثقيف — فطنة عائشة لكيد مروان — ٨٥ الجمل والحووب — ٨٧
تقدرواية — الاقتراب من البصرة .

٩٢ — الفصل الرابع : لحاقه علي بأصحاب الجمل

خطة علي مع الخالفين -- وقع خروج أصحاب الجمل — ٩٣ انصراف علي عن معاوية إلى أصحاب
الجمل — خروجه من المدينة إلى الريدة — ٩٥ دفاعه عن خطته — ٩٦ مناقشة مؤرخ — قصده
ذقار — بينه وبين ابنه الحسن أيضاً — ٩٨ مراسلته عائشة .

١٠٠ — الفصل الخامس : في مساعي الجمليين السياسية ثم مفارقتهم

عائشة قرب البصرة — أ — مراسلات ومفاوضات — ١٠٣ مكائد الأمويين
(ب) السفارات والوفود .

١٠٦ استعداد أمير البصرة لعلي — ١٠٧ احتلال عائشة المريد — انقسام أهل البصرة — خطاب
عائشة — ١٠٩ لوم الناس عائشة وطلحة والزبير — ١١٠ اقتتال الفريقين : يوم الجمل الأصفر
— الهدنة — ١١٢ وثيقة الصلح — مناقشة مؤرخ .

١١٥ — الفصل السادس : في استقباله الجمليين على البصرة

سفارة كعب بن سور إلى المدينة — كتاب علي إلى عامله بالبصرة — ١١٦ رجوع كعب واعتذار
العامل عن إنفاذ الشروط — استيلاء الجمليين قهراً على البصرة — اعتراض الناس على طلحة
والزبير — ١١٨ مناوشة حاسمة — الإيقاع بقتلة عثمان — ١١٢ دعاية عائشة — ١٢٣
احتجاج الأحنف عليها — ١٢٤ كتابها إلى أهل الكوفة — ١٢٦ كتابها إلى حفصة في المدينة .

الباب الثالث

يوم الجمل الأكبر

١٢٦ — الفصل الأول : علي في طريقه إلى الكوفة : سفارات ومراسلات

انضمام الناس إليه — وصوله إلى البصرة — نحو ذي قار — ١٣١ سفارات علي ومراسلاته —
كتابه إلى أهل الكوفة — السفارة الأولى — الثانية — الثالثة — معارضة أبي موسى الأشعري
عامله على الكوفة — السفارة الرابعة ونجاحها — تثبيت أبي موسى واختلاف الرأي — خطاب
أبي موسى الأخير — استجابة الناس هذه المرة — ١٣٨ تنحية أبي موسى قسراً .

١٤٠ — الفصل الثاني : سفارات علي إلى أصحاب الجمل وأهل البصرة

٩٩ خطابه الكوفيين النافرين — ١٤١ سفارة القعقاع إلى أصحاب الجمل — ١٤٣ اختلاف الوفود بين البصريين والكوفيين — تقارب الآراء — ١٤٥ الإشراف على الصلح — تهدئة الزعماء للمتحمسين — ١٤٨ نزول علي البصرة — اعتزال الأحنف بأمر علي — القبائل بين النهوض والاعتزال — ١٥٢ اجتماع الأقطاب — عدول الزبير — سفارة ابن عباس إلى الزبير — ١٥٥ المؤامرة .

١٥٩ — الفصل الثالث : الرئيسية والمهركة الكبرى

الرئيسية — المعركة : الدعوة إلى كتاب الله — ١٦٠ بدء القتال — غياب الزبير وطلحة من أوله — ١٦٢ عرض المصحف ثانية بأمر عائشة — قتل حامل المصحف : كعب بن سور — تدارك الضعف في جيش علي — ١٦٤ كثرة القتلى وتواصي الفريقين باجتناب المقاتل — تفاني المتقاتلين — ١٦٦ استماتة شيخ جليل — ١٦٧ الأراجيز في الحرب .
١٦٩ شدة القتال — أبطال الزمام — ١٧٠ مقتل محمد بن طلحة — ١٧١ الأشثرو ابن الزبير — اقتلوني ومالكاً — استماتات — ١٧٧ عقر الجمل — انتهاء القتال وتأمين الناس — ١٧٨ عائشة وأخوها محمد — عائشة وعمار — ١٨٠ علي وعائشة — حسرة علي .

١٨٠ — الفصل الرابع : القتلى

الزبير — ١٨٤ طلحة — ١٨٥ بقية القتلى — ١٨٦ عدة القتلى — بكاء علي طلحة ١٨٧ سيرة علي في القتلى . دفاعه عن خصومه .

١٩٠ — الفصل الخامس : آخر أيام عائشة في البصرة

في دار عبد الله بن خلف — تقاطر الناس عليها — سلام القعقاع عليها — ١٩١ ابن الزبير ومحمد بن أبي بكر — دار السيدة ملجأ الخائفين والمرتبين — زيارة علي لها — ١٩٢ الإساءة إليه — وصيته بالتجاوز عن إساءة النساء ١٩٣ لقاء روائي جاف — تجهيز علي عائشة — ١٩٥ الوداع الجميل .

الباب الرابع

وقفه عند حرب الجمل

١٩٧ — الفصل الأول : العوامل القريبة والبعيدة

(١) تخوفهم الفتنة — (٢) طموح الرؤوس ١٩٩ — (٣) سياسة عمر في الضغط على قريش وخشيته ووفرة الغني عليهم ٢٠٠ — (٤) العامل الاقتصادي في الفتن ٢٠٣ .

٢٠٦ — الفصل الثاني : في توزيع التبعات

التبعة الكبرى يحملها السبئيون — ذوو التبعات الثانوية المباشرة : الأمويون — ٢٠٧ ذوو التبعات الثانوية غير المباشرة : طلحة — الزبير وابنه — عائشة — علي — ٢٠٨ مناقشة حكم الشيخ النجار علي علي — ٢١٠ ندم علي وأصحاب الجمل .

الباب الخامس

في حياة عائشة السياسية بعد حرب الجمل

٢١٢ توطئة في خطتها العامة — العزلة .

٢١٤ — الفصل الأول : في موقفها من خصومها السياسيين

موقفها من علي — التعريض به في ثنائها على أبيها وعمر — خطبتها يوم الحكمين على علي أبيها — قولها في أبيها وعمر — قولها في أبيها أيضاً ٢١٦ دفاعها المشهور عن أبيها — تفریط ابن الخطاب — ٢١٨ موقفها من ولدي علي : الحسن والحسين .

٢١٩ — الفصل الثاني : في مواقف منفردة

في مقتل أخيها محمد بن أبي بكر — حزنها عليه وقنوتها على قاتليه — ٢٢٢ في مقتل حجر ابن عدى — شفاعتها له — ٢٢٨ في قضية هدبة بن الحشم ٢٣٠ متفرقات : مراسلة معاوية لها — جوابها زياداً — بين معاوية وزبيد في شأن خاذلها — ٢٣٢ جنون زياد بكتاب عائشة إليه ونسبها له إلى أبي سفيان — ٢٣٣ في بيعة يزيد بن معاوية : كتبت عائشة نفسها في أمر البيعة — ٢٣٤ أخو عائشة يعارض — بين أخيها مروان بن الحكم ٢٣٥ تبرع عائشة مروان — معارضة أهل المدينة للبيعة . مجيء معاوية وتغنيقه المعارضين — ٢٣٦ معاوية في بيت عائشة تغنيفها له على قتله أخاها محمداً — تلطف معاوية وعلقه عائشة — ٢٣٨ تقريرها لإياه على قتله حجراً — ثناؤه على بلاعتها — ٢٣٩ لقاءه الأربعة المعارضين ، استقباله المعارضين بمكة أيضاً . تخييرهم معاوية في ثلاث — تهديده لهم — ٢٤٠ لقاء ثمان بين معاوية وعائشة — دهاء عائشة — ٢٤١ وصيتا معاوية ليزيد في شأن الأربعة المعارضين — وفاة السيدة بين الوصيتين .

الباب السادس

عائشة في الفرق الإسلامية

٢٤٣ — الفصل الأول : موقف الرأي العام منها في حياتها

تمهيد — ٢٤٤ استهجان رؤوس البصرة خروجها — ٢٤٥ هجر بعض الناس لها — ٢٤٦ خذوا بيد عدوة الله — نبل بعض خصومها — ٢٤٧ التنكيت عليها : يوم الجمل ويوم البغلة — ٢٤٨ موقفهم من ماتمها .

٢٥٠ — الفصل الثاني : انقسام الرأي العام في أنصارها

بين ابن الزبير وابن عباس — ٢٥١ حملة معاوية من أجلها — مناقشة رواية — تعبيرهم من أخرجها — غضب عائشة لابن الزبير — ٢٥٣ جدال الخوارج ابن الزبير من أجل عائشة — جوابه لهم — ٢٥٤ نقد الناس القبائل التي نصرت عائشة — ٢٥٥ نقاض البصريين والكوفيين بسبب يوم الجمل — مواقف بعض العامة .

٢ — الفصل الثالث : في تازل الفرق الاسنومية أعمال عائشة

- ٢٥٩ رأى أهل السنة — ٢٦٢ قصيدة الواعظ الأندلسي — ٢٦٥ رأى الخوارج —
٢٦٦ رأى المرجئة — ٢٦٧ رأى المعتزلة ٢٦٨ رأى الشيعة — اختلاق الأحاديث —
٢٧٠ رأى الجامع للشيعة — تاريخ آراء الشيعة قديماً وحديثاً — النظرة السياسية —
٢٧١ حملتهم على عائشة — لا يذكرونها بخير — الافتراء عليها — تكلف بعضهم في تجريدها
من بعض مزاياها المتواترة — ٢٧٢ من أهل البيت ؟ ٢٧٣ زعمهم تفويض الرسول إلى علي
تطبيق نسائه من بعده !! — علي يطلق عائشة من زوجها المتوفى قبل ٢٦ سنة — ٢٧٥
هجوم لها — تأويلات مضحكة بحقها — ٢٧٦ تقرب بعضهم إلى الله بلعنها — ٢٧٧ رد
الفعل — الإيقاع بشأنها .
٢٧٨ رأى أحد مجتهدى الشيعة اليوم .
٢٨١ أذعبياء التشيع — الرفضة — إهمال المختلقات ، خطة موحدة .

الخاتمة

عبرة الحوادث

- ١ — المرأة واختصاصها ٢٨٥ .
٢ — أثر الخلاف في تفويض الأمم ٢٩٠ .

-
- ٢٩٥ فهرس الكتاب .
٢٩٧ فهرس الأعلام .
٣٠٦ فهرس الجماعات .
٣١٠ فهرس الأماكن .
٣١٤ فهرس الأيام .
٣١٥ فهرس المصادر .
٣١٨ فهرس الموضوعات .

تصحیحات (۱)

| صواب | خطأ | س | ص |
|-----------|----------|----|---------------------|
| كان | كان | ۱۰ | ۴ |
| وتدع | تدع | ۶ | ۶ |
| فتصحح | فتصحح | ۱۹ | |
| ذو | ذی | ۱۲ | ۱۱ |
| حتى إذا | إذا | ۲۲ | ۶۴ |
| وتجدده | وتجددها | ۱۵ | ۸۸ |
| بالبصرة | البصرة | ۶ | ۱۰۷ |
| ما | وما | ۸ | ۱۵۸ |
| ليدن | أوروبا | | { ۱۶۲ ۱۶۳ ۱۶۸ |
| قال | قالت | ۱۳ | ۱۹۴ |
| وج | ج | ۱۸ | ۱۹۸ |
| نتنفع | نتنفع | ۱۱ | ۲۲۴ |
| زعمنا | زعموا | ۶ | ۲۶۲ |
| من السنين | السنين | ۲۱ | ۲۸۲ |
| أنفها | أنفسها | ۱۰ | ۲۸۵ |
| لايكاد | يكاد لا | ۷ | ۲۸۸ |
| على دينها | لدينها | ۲۲ | ۲۸۸ |
| نعينهم | نعينهم | ۶ | ۲۹۴ |
| عطاء | الطاء | ۱۷ | ۳۰۲ |
| بن شعبة | ابن شعبة | ۳۷ | ۳۰۴ |

(۱) نشير الى أهم ما رأينا من أخطاء الطبع وإن كان لا يخفى أكثره على القارى العادى .

آثار المؤلف المطبوعة

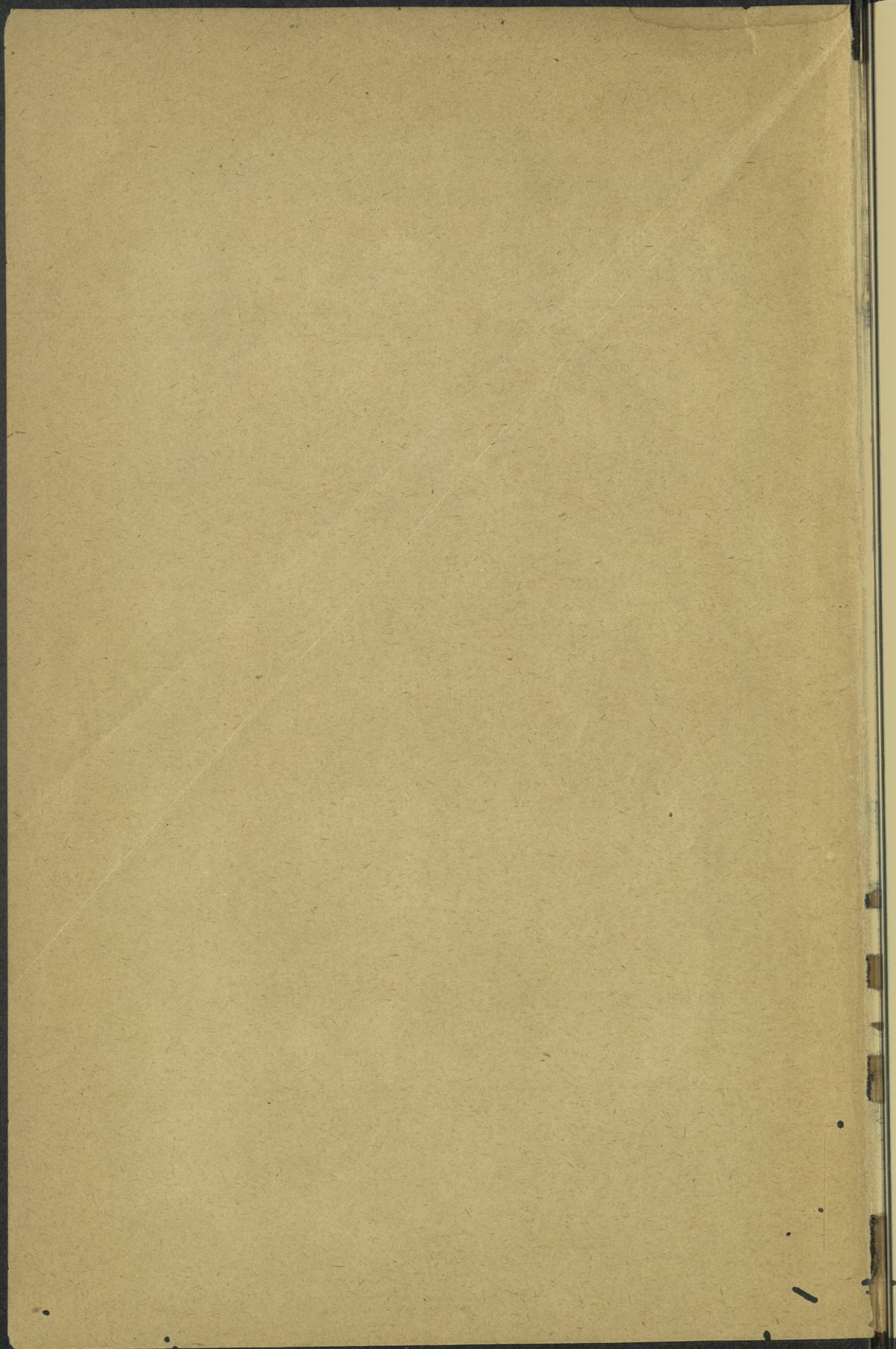
(أ) تأليفاً :

- ١ - أسواق العرب في الجاهلية والإسلام .
- ٢ - ابن حزم الأندلسي .
- ٣ - الإسلام والمرأة .

(ب) نشرًا وتحقيقاً :

- ٤ - الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة : للزركشي .
- ٥ - في المفاضلة بين الصحابة : لابن حزم [نشرت في آخر كتاب ابن حزم الأندلسي] .
- ٦ - سير النبلاء : للذهبي [جزء أول في ترجمة ابن حزم] .
- ٧ - » » » [جزء ثان في ترجمة السيدة عائشة] .

تطلب : من المكتبة الهاشمية بدمشق
ومن المكتبة العربية بدمشق لأصحابها (عبيد إخوان)



297.64:A299aA:c.1

الافغانى، سعيد

عائشة والسياسة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011716

American University of Beirut



B

A299aA

General Library

